

قصة الحضارة

ول وَايرنيل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة
محمد بدراف

المجلد الأول من المجلد الثاني

٦



تونس



بيروت

مقدمة المؤلف

إن الغرض الذى أبتغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أجبل الفكر فى أصل الحضارة اليونانية ونشأتها وترعرعها واضمحلالها من أقدم العهود التى تدل عليها آثار كريت وطروادة إلى أن فتحت رومة تلك البلاد ، وأن أدون ما أهدى إليه من بحوث فى هذا الميدان . وإلى لشديد الرغبة فى أن أرى هذه الحضارة المعقدة وأن أحس بها ، على ألا يكون إحساسى بها وروايتها مقصورين على البحث فى نهضتها وسقوطها بحثاً نظرياً مجرداً ، بل أريد به بحثاً يتغلغل فيما تشتمل عليه من عناصر حية كثيرة التباين ، متعددة الأنواع ، منها طريقة أهلها فى انتزاع الرزق من الأرض ، وفى تنظيم التجارة والصناعة ، وما قاموا به من تجارب فى الحكم الملكى المطلق ، والأرستقراطى والديمقراطى والدكتاتورى ، ومن ثورات على حكامهم ونظمهم ، ومنها عاداتهم وأخلاقهم وطقوسهم الدينية ومعتقداتهم ، وتربية أبنائهم وشئون أسرهم وتنظيم علاقاتهم الجنسية ، وبيوتهم ومعابدهم وأسواقهم ومسارحهم وميادين ألعابهم ، وأشعارهم ومسرحياتهم وتصويرهم ونحتهم وعمارتهم ومسيقاهم ، وعلومهم ومخترعاتهم وخرافاتهم وفلسفاتهم . أريد أن أرى هذه العناصر وأن أحس بها لا فى عزلتها النظرية العلمية ، بل فى تفاعلها الحى وأثر كل عنصر منها فى سائر العناصر ، وأن أبحثها من حيث هى حركة عامة شاملة يقوم بها كائن حى ثقافى عظيم ، له مائة عضو ومائة ألف ألف خلية ، ولكن له جسماً واحداً وروحاً واحداً .

ولم هذا العناء كله ؟ لأننا لا نكاد نجد شيئاً فى ثقافتنا الدنيوية - اللهم إلا آلاتنا - لسنا مدينين به لليونان ، فالألفاظ الإنجليزية الدالة على المدارس والملاعب ، والحساب والهندسة ، والتاريخ ، والبلاغة ، وعلوم الطبيعة

والأحياء والتشريع والصحة والأقرباذين ، وفن التجميل والشعر والموسيقى ،
والمآسى والمسالى ، والفلسفة ، والدين ، واللاأدرية ، والتشكك ، والرواقية ،
والأبيقورية ، وعلم الأخلاق ، والسياسة ، والمثالية ، وحب الإنسانية ،
والكلية ، والاستبداد ، والبلوتوقراطية والديمقراطية ، كل هذه ألفاظ
يونانية لصور من الثقافة لم نأشئها نحن لإنشاء بل لأنها قد نضجت
وترعرعت - خيراً كان ذلك أو شراً - بفضل نشاط اليونان العظيم .
والمشاكل التى تقض مضاجعنا فى هذه الأيام - كتقطيع الغابات واستئصال
أشجارها وما ينشأ عن ذلك من تعرية الأرض وإزالة تربتها ، وتحرير
المرأة ، وتحديد عدد أفراد الأسرة ، والحفاظة على القديم المستعز ، وإجراء
التجارب على الحديد فى الأخلاق والموسيقى ونظم الحكم ، وفساد السياسة
والاعوجاج الخلقى ، والنزاع بين الدين والعلم ، وضعف المعنوية التى تستمدّها
الأخلاق من خوارق الطبيعة ، وحروب الطبقات والأمم والغارات ،
وثورات الفقراء على الأغنياء الأقوياء من الناحية الاقتصادية ، وثورات
الأغنياء على الفقراء الأقوياء من الناحية السياسية . والنزاع بين الديمقراطية
والدكتاتورية ، وبين الفردية والشيوعية ، وبين الشرق والغرب ، كل هذه
الأمر قد اضطربت بها حياة بلاد اليونان الباهرة المتألقة ، وكأنها قد
اضطربت بها لتعلم منها نحن ونفيد منها فى حياتنا . وقصارى القول أنه
ليس فى الحضارة اليونانية شيء لا ينير لنا سبل حياتنا .

وسنحاول فى هذا الكتاب أن ندرس حياة بلاد اليونان من حيث تفاعل
عناصرها الثقافية ومن حيث هى مسرحية كبرى ذات فصول خمسة
تبدأ بنهضتها وتختتم بسقوطها . سنبدأ بكريت وخضارتها التى أنيط عنها
اللاثام من وقت قريب لأن من كريت ، كما يبدو لنا ، ومن بلاد آسية
جاءت ثقافة ميسينى Mycenae وتيرنز Tiryns التى نشأت فيها قبل الأزمنة
التاريخية ، فحولت على مهسل المهاجرين الآخيين Achaeans والغزاة

اللدوريين Dorans إلى متحضرين ، وسنخصص بعض الوقت للدراسة عالم المحاربين والهيّين ، والقراصنة والمغنين ، الذى انتقل إلينا فى أشعار هومر القوية الجارفة ، وسنرغب نشأة اسبارطة وأثينة فى عهد ليكورج Lycurgus وصولون Solon وتنتج انتشار الاستعمار اليونانى فى جميع جزائر بحر إيجه ، وشواطئ آسية الغربية ، والبحر الأسود ، وأفريقية وإيطاليا وصقلية ، وفرنسا وأسبانيا ، وسرى الديمقراطية تدافع عن حياتها فى مراثون Marathon ، ثم تبث فيها نشوة الظفر قوة على قوتها ، فتظم نفسها فى عهد بركليز Pericles ، وتزدهر وتثمر أغنى حضارة عرفها التاريخ وسنطيل النظر مسرورين مغتبطين إلى العقل البشرى وهو يتحرر من الخرافات والأوهام ، فينشئ علوماً جديدة ، وينزل الطب على حكم العقل ، وينزل بالتاريخ من خوارق الطبيعة ومن الأجرام السماوية إلى العالم الأرضى ، ويبلغ الغاية التى لم يصل إليها عقل شعب آخر من قبل فى الشعر ، والتثيل ، والفلسفة ، والخطابة والتاريخ ، والفن ، وسوف نسجل فى هذا الكتاب ونحن آسفون محزونون ، ما اختتم به العصر الذهبى فى الحروب البلوبونيزية من خاتمة قضت فيها المدن اليونانية بعضها على بعض . وسنشهد ذلك المجهود الجبار المنطوى على البسالة والشهامة والذى بدلت أثينة المضطربة المحتلة النظام لتستعيد قوتها بعد هزيمتها ، وسراها عظيمة حتى فى اضمحلالها تنجب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبليرز Apelles وبركستيلز Praxiteles ، وفيليب ودمستين وديجيجن ، والإسكندر ، وسرى فى أعقاب قواد الإسكندر الحضارة اليونانية ، أعظم وأقوى من أن نحتويها شبه الجزيرة ، فتخترق حدودها الضيقة وتفيض من جديد على آسية ، وأفريقية ، وإيطاليا ، وتعلم الشرق المستغرق فى تصوفه وباطنيته جلال الجسم والعقل ، وتعيد مجد مصر فى إسكندرية البطالمة ، وتغنى رودس بالتجارة والفن وتهض بالهتسة على يد إقليدس فى الإسكندرية وأرخيديس فى سرقوسة ، وتضع على أيدى زينون وأيقور أبى الفلسفات فى التاريخ ،

وتنحت تماثيل أفروديتي Aphrodite في ميلوس Melos واللاؤكوون Laocoön وانتصار سمثريس Samothracac ومذبح برجاموم Pergamum ، ونحاول عبثاً أن تعيد تنظيم سياستها وتبث فيها روح الشرف والوحدة والسلم ، ثم تهوى إلى أعماق الفوضى بسبب الحروب الداخلية وحروب الطبقات ، وتنضب مواردها ، ويقل عامرها ، وتفقد روحها المعنوية ؛ وتستسلم للأتوقراطية والحمول ونصوف الشرق ، وتكاد في آخر الأمر أن ترحب بالرومان الفاتحين ، فتورث بلاد اليونان الميتة على أيديهم أوربا علومها ، وفلسفاتها ، وآدابها وفنونها فتكون هي الأساس الثقافي الحي لعالمنا الحديث .

الكتاب الأول

تمهيد

في حضارة بحر إيجه

من ٣٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.

أهم الحوادث في الكتاب الأول

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ المذكورة هنا تقريبية ، وتاريخ الأفراد هي تواريخ السنين التي بلغ فيها نضجهم العقل ، وقد افترضنا أن هذه السنين هي التي تكون بعد أربعين عاماً من مولدهم ، أما تواريخ مولدهم ووفاتهم فنسذكرها إن استطعنا في فهرس الأعلام . وتواريخ الحكام هي تواريخ حكمهم ، وإذا وضنا علامة الاستفهام أمام اسم واحد منهم فعنى هذا أن التاريخ لا تذكره إلا الرواية اليونانية وحدها .

ق ٢٠ .

- ٩٠٠٠ - العصر الحجري الحديث في كريت .
- ٣٤٠٠ - ٣٠٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .
- ٣٤٠٠ - ٢١٠٠ العصر الحجري الحديث في تساليا .
- ٣٤٠٠ - ١٢٠٠ العصر البرنزي في كريت .
- ٣٠٠٠ - ٢٦٠٠ الطور الثاني من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .
- ٣٠٠٠ - استخراج النحاس من قبرص .
- ٢٨٧٠ - أول استقرار معروف في طرودة .
- ٢٦٠٠ - ٢٣٥٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .
- ٢٣٥٠ - ٢١٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى .
- ٢٢٠٠ - ١٢٠٠ العصر البرنزي في قبرص .
- ٢١٠٠ - ١٩٥٠ الطور الثاني من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى .
- المجموعة الأولى من القصور الكريتية .
- ٢١٠٠ - ١٦٠٠ العصر النحاسي - الحجري في تساليا .
- ١٩٥٠ - ١٦٠٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى ،
- ١٩٠٠ - تدمير المجموعة الأولى من القصور الكريتية .
- ١٦٠٠ - ١٥٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المتأخرة .
- (الميسينية) ، المجموعة الثانية من القصور الكريتية .
- ١٦٠٠ - ١٢٠٠ عصر البرنز في تساليا .
- ١٥٨٢ - تأسيس أثينة على يد سكريس .
- ١٥٠٠ - ١٤٠٠ الطور الثاني من الحضارة المينوية الهيلادية الميسينية والسيكلادية المتأخرة .
- ١٤٥٠ - ١٤٠٠ تدمير المجموعة الثانية من القصور الكريتية .
- ١٤٣٣ - دوكليد والطفان .

- ١٤٠٠ - ١٢٠٠ الطور الثالث من الحضارة المنيية الهيلادية (الميسينية) السيكلادية .
 المتأخرة ، قصور تيرنز وميسينية .
 - ١٣١٣ تأسيس طيبة على يد كادموس .
 - ١٣٠٠ - ١١٠٠ عصر سيطرة الآخيين على اليونان .
 - ١٢٨٣ عهد يلويس إلى إليس .
 ١٢٦١ - ١٢٠٩ هرقل
 - ١٢٣٠ ثيوس في أثينة ، وأه ديب في طيبة ، ومينوس وديدولوس في نوسس .
 - ١٢٥٠ - ١١٨٣ « المدينة السادسة » في طروادة ؛ عصر أبطال هوهر .
 - ١٢٢٥ رحلة أجمن ن .
 - ١٢١٣ حرب السبعة على طيبة .
 - ١٢٠٠ ارتقاء أجمن ن المرش .
 - ١٢٩٢ - ١١٨٣ حصار طروادة .
 - ١١٧٦ ارتقاء أورستيز .
 - ١١٠٤ غزو الدوريين لبلاد اليونان .

الباب الاول

كريت

الفصل الأول

البحر المتوسط

إذا ما دخلنا أبجل البحار كلها وتركنا من خلفنا المحيط الأطلنطى ومضيق جبل طارق ، انتقلنا من فورنا إلى حلبة التاريخ اليونانى . ويقول أفلاطون عن بنى وطنه الذين استقروا فى هذا الميدان : « لقد نزلنا فى شواطئ هذا البحر كما نزل الضفادع حول بركة الماء »^(١) . على هذه الشواطئ الثانية ، أنشأ اليونان قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ، مستعمرات مزعزعة غير وطيدة الأساس يحيط بها البرابرة من جميع الجهات : فى همرسكوبيوم Hemeroscopium وأمپورياس Ampurias فى أسبانيا ، ومرسيليا وتيس فى فرنسا ، وفى كل مكان تقريباً بإيطاليا وصقلية . وأنشأ المستعمرون اليونان مدناً زاهرة فى قورينى Cyrene بشمال أفريقية وفى نقراطس بدال النيل ، وبعثت مغامراتهم النشطة الحركة والحياة فى جزائر بحر إيجه وشواطئ آسية الصغرى فى ذلك الوقت البعيد ، كما تبخهما فيها هذه الأيام ، وشادوا مدناً كبيرة وصغيرة لتكون محاط لتجارتهن الواسعة على شواطئ اللردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود ، ولم تكن أرض اليونان الأصيلة إلا جزءاً صغيراً من العالم اليونانى القديم .

ترى لماذا نشأت مجموعة الحضارات الثانية على شواطئ البحر المتوسط كما نشأت المجموعة الأولى قبل ذلك على ضفاف الأنهار فى مصر وأرض الجزيرة

والهند ، وكما ازدهرت الثالثة بعدها على شواطئ المحيط الأطلنطى ، وكما
يحتمل أن تنشأ الرابعة على شواطئ المحيط الهادى ؟ هل كان السبب فى نشأتها
هو اعتدال مناخ البلاد المطلة على هذا البحر ؟ لقد كانت الأمطار السنوية
تروى الأرض وتخصبها فى الزمن القديم كما تروىها وتخصبها فى هذه الأيام (٢) ،
وكان البرد المعتدل يبعث فى أهل البلاد النشاط ؛ وكان فى وسع الأهلىن
يعيشوا فى الهواء الطلق طوال العام تقريباً ، تدفهم الشمس ولكنها لاتوهن
أجسامهم . ومع هذا فإن سطح الأرض حول هذا البحر وفى جزائره لا يبلغ
من الخصب فى مكان ما مبلغ أرض الأودية الغرينية فى أحواض الكنج
أو السند أو دجلة أو الفرات أو النيل . وقد يبدأ جفاف الصيف مبكراً عن
عادته ، أو قد يطول أكثر مما يستحب ، وتحد فى كل مكان فيه الأرض
الحديثة لا تبعد إلا قليلاً من القشرة الغرينية المتربة الرقيقة . وتقع إلى شمال
هذه الأراضي التاريخية بلاد معتدلة المناخ وإلى جنوبها أرض مدارية ؛ وكلها
أخصب منها تربة . ولما أضنى الجهد الفلاحين سكان شواطئ البحر المتوسط
وجزائره ، ووجدوا أن التربة لا تجود عليهم بما يعوض عنهم جهودهم ،
أخلوا يتخلون عن فلاحها شيئاً فشيئاً ؛ ويستبدلون بذلك زراعة الزيتون
والكرم . وكانت تلك البلاد تتعرض من حين إلى حين إلى أخطار الزلازل ،
فتنشق الأرض تحت أقدام السكان على طول بعض العيوب الأرضية التى
تعد بالمئين ، فترهبهم وتدفعهم إلى نوبات من التقي والإيمان . ولم يكن المناخ
هو الذى جاء بالحضارة إلى بلاد اليونان ، وأكبر الظن أن المناخ لم يكن سبب
قيام الحضارة فى قطر من الأقطار .

أما السبب الذى جذب الناس إلى بحر إيجه فهو جزائره . فلقد كانت هذه
الجزائرجيلة ؛ ولا ريب فى أن الملاح المتعب كان ينشرح صدره حين يرى
اختلاف ألوان التلال المظلمة التى تقوم كاهياكل فوق مياه البحر وتنعكس
عليها . وقلمما يجد الإنسان ، هذه الأيام مناظر أجمل من منظر هذه التلال

أو أكثر منها إثارة لحاسة الجمال . وإذا ما طاف الإنسان ببحر إيجه أدرك لساعته لم أحب سكان هذه الشواطئ والجزائر بلادهم حبهم للحياة أو أكثر منها ، ولم كانوا يرون كما يرى سقراط أن النني أشد ألماً من الموت . يضاف إلى هذا أن الملاح الذى كان بطوف بتلك البحار فى الزمن القديم كان يجد فى الجزائر مثورة كالآلى فى جميع الجهات ، وكان يراها متقاربة فلا تكاد سفينة تبعد عن الأرض أكثر من أربعين ميلا ، سواء أكان مسافراً من الغرب إلى الشرق أم من الشمال إلى الجنوب . وإذا كانت هذه الجزائر البارزة فوق سطح الماء هى قلل سلاسل جبلية قديمة ، متصلة بعضها ببعض ، كسلاسل الجبال فى بلاد اليونان القارية ، طنى عليها البحر على توالى الأيام (٣) ، فإن عين الملاح المرتقب كانت تقع على النوم على قلة من هذه القلل المحيية كأنها تحييه وترحب بمقدمه ، وكانت أشبه بمنارات تهتدى بها السفن فى وقت لم تكن تهتدى فيها بالبوصلة البحرية . وفوق هذا كله فإن حركات الريح والماء كانت تعين الملاح على الوصول إلى هدفه . فقد كان تيار مائى قوى أوسط يسير من البحر الأسود إلى بحر إيجه ، وكانت تيارات أخرى مضادة له تسير نحو الشمال عمادية شواطئ البحر ، وكانت الرياح الشمالية الشرقية نهب بانتظام فى فصل الصيف فتساعد السفن التى خرجت من موانئها لتأتى بالحلب والسمك والفراء من البحر اليكسينى Euxine (*) على العودة إلى موانئها فى

(٣) كان اليونان يسمون البحر المتوسط Ho Pontos أى الممر أو الطريق ، وكانوا يسمون البحر الأسود تسمية يراعون فيها التجميل فى اللفظ Pontos Euxinos البحر المحب للأضياف - وربما كان سبب هذه التسمية أنه يقابل السفن المقبلة من الجنوب بريح و تيارات معاكسة لها . وكافت الأنهار الواسعة التى تصب مائها فيه ، والفيضاب الكثير الذى يقلل من سرعة البحر بجمالان مستوى الماء فى البحر الأسود أعلى من مستواه فى البحر المتوسط ؛ ومن أجل هذا كان تيار مائى قوى يتدفق خلال مضيق البسفور (مخاضة الثور) الضيق ومضيق الد ذليل إلى بحر إيجه ، وكانوا يسمون بحر مرمر البروپنتيس Propontis أى ما قبل البحر .

الشمال . وكان الضباب نادراً في البحر المتوسط ، كما أن أشعة الشمس التي لا تكاد تحتجب عنه ينشأ منها بالليل وبالنهار نسيم البر والبحر ، حتى ليستطيع الإنسان من بدء الربيع إلى آخر الخريف أن يستعين في أى ثغر من ثغوره - إلا القليل النادر منها - بنسيم الصباح في خروجه منه وبنسيم المساء في عودته إليه .

في هذه البحار الصالحة للتجوال نَمى الفينيقيون الكسابون واليونان القواذب فن الملاحة وعلمها ، فبثوا فيها سفناً معظمها أكبر وأسرع من جميع السفن التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط قبلهم ولكنها كانت أبسر منها حركة ، وأضحت الطرق البحرية بين أوروبا وأفريقية من جهة وآسية من جهة أخرى مارة بقبرص وصيدا وصور أو ببحر إيجه والبحر الأسود ، وأضحت على الرغم من قراصنة البحر وما يهددها من أخطار ، أقل نفقة من الطرق البرية الطويلة الشاقة المعرضة للأخطار والتي كان ينقل عليها في الأيام الحالية الكثيرة من تجارة مصر والشرق الأدنى . وبذلك انجذبت التجارة وجهات جديدة ، وضاعفت عدد السكان الجديد ، وأوجدت ثروات جديدة ، فاضمحل شأن مصر ، وأعقب ذلك اضمحلال شأن أرض الجزيرة وفارس ، وأقامت فينيقية إمبراطورية من المدائن على ساحل أفريقية وفي صقلية وأسبانيا ، وازدهرت بلاد اليونان ازدهار الوردة المرتوبة .

الفصل الثانى

كشف كريت الثانى

« وفى وسط البحر القاتم كلون النيبذ أرض تسمى كريت ، وهى أرض جميلة غنية يحيط بها الماء ، وفيها خلق كثيرون يخطئهم العد ، كما أن بها تسعين مدينة^(٤) . لما أنشد هومر هذه الأبيات ، ولعل ذلك كان فى القرن التاسع قبل الميلاد^(٥) ، كانت بلاد اليونان قد نسيت أو كادت تنسى ، وإن لم ينس الشاعر ، أن الجزيرة التى بدت له عظيمة حتى فى ذلك الوقت ، كانت فى وقت من الأوقات أعظم مما هى وقتئذ ثروة ، وأنها كانت تسيطر بأسطولها القوى على معظم نواحي بحر إيجه وعلى جزء من أرض اليونان الأصيلة ، وأنها قد أنشأت قبل حصار طروادة بألف عام حضارة من أعظم الحضارات الفنية فى تاريخ العالم . ولعل هذه الحضارة الإيجية التى كانت قديمة بالنسبة له بقدر ما هو نفسه قديم بالنسبة لنا ، هى التى عادت إلى ذاكرة هومر وهو يتحدث عن عصر ذهبي كان الناس فيه أكثر حضارة وأرق حاشية منهم فى أيامه المضطربة .

ولقد كان كشف هذه الحضارة المفقودة مرة ثانية عملا من أجل الأعمال فى تاريخ علم الآثار الحديث . فهى ذى جزيرة تبلغ مساحتها قدر مساحة أكبر جزائر السكلديز عشرين مرة ، جوها جميل ، تنتج حقولها غلات مختلفة ، وتلاها كانت فى وقت من الأوقات كثيرة الأشجار ، وموقعها من أصلح المواقع للتجارة والحرب ، فهى فى منتصف الطريق بين فينيقية وإيطاليا ، وبين مصر وبلاد اليونان . ولقد أشار أرسطاطاليس إلى هذا

(٤) كل تنواريخ الواردة فى هذا المجلد قبل الميلاد إلا إذا نص على غير ذلك أو كانت واضحة الدلالة على أنها بعد الميلاد .

الموقع الحسن وذكر أنه « هو الذى مكن مينوس Minos من إقامة إمبراطورية لها فى بحر إيجه »^(٥) . ولكن قصة مينوس ، التى يسلم بصحتها كل الكتاب الأكلمين ، وقد رفضها الكتاب المحدثون وعدوها خرافة من الخرافات . وقد كان من عادة المؤرخين قبل أيامنا هذه بسبب عاملاً لا أكثر أن يقولوا كما قال جروت Grote إن تاريخ الحضارة فى بحر إيجه يبدأ بغزو الدورين أو بعصر الألعاب الأولمبية ؛ ثم حدث فى عام ١٨٧٨ م أن عثر تاجر كرىنى يسمى مينوس كلكيرينوس Minos Kalikairinos - وهو اسم من ألبق الأسماء للكشف الذى وفق إليه - عثر هذا التاجر على آثار قديمة فى سفح أحد التلال القائمة فى جنوب قندية^(*) . وزار شليمان Schliemann العظيم هذا الموقع فى عام ١٨٨٦ ، بعد أن لم يحض على كشفه عن ميسينى Mycenae وطروادة إلا زمن قليل ، وأعلن عن اعتقاده بأن تحت ثراه آثار مدينة كنوسس القديمة ، وأخذ يفاوض مالك الأرض فى أن يسمح له ببدء أعمال الحفر على الفور ، ولكن المالك أخذ يساوم ويماحك وحاول أن يمكر به ، وكان شليمان تاجراً قبل أن يكون عالم آثار ، فتركه مغضباً ، وأضاع بذلك فرصة ذهبية لو اغتنمها لأضاف هو حضارة جديدة إلى حضارات التاريخ ، ومات بعد عام واحد من ذلك الوقت .

وفى عام ١٨٩٣ ابتاع دكتور آرثر ليفنز Arthur Evans عالم الآثار البريطانى من امرأة فى أثينة عدداً من الحجارة البيضاء كانت تمام ، وقد أدهشه ما كان مخفوراً عليها من كتابة أثرية لم يكن فى وسع عالم من العلماء أن يقرأها . وما زال يتقصى مصدر هذه الحجارة حتى عرف أنها من كريت ، فحصل على إذن بالسفر إليها ، وأخذ يطوف فى أنحاء الجزيرة ويجمع منها ما يعتقد أنه نماذج للكتابة الكريتية القديمة . وفى عام ١٨٩٥ ابتاع جزءاً من الموقع الذى كان شليمان والمدرسة الفرنسية يعتقدان أنه موقع كنوسس وبعد أن قضى

(٥) العاصمة الجديدة للجزيرة واسمها الرسمى الحديث هرقلوم Heracleum

تسعة أسابيع من ربيع ذلك العام يحفر فيه مستخدماً في ذلك خمسين رجلاً أماط اللثام عن أعظم ما أسفرت عنه البحوث التاريخية الحديثة من كنوز ، نقصد بذلك قصر مينوس . وليس فيما كشف من الصروح القديمة صرح يعادل هذا الصرح المعقد في اتساعه ، وأكبر الظن أنه هو قصر التيه الذي لا نهاية له ، والذي اشتهر فيما يروى من القصص اليونانية القديمة عن مينوس ، وديدلس Deadalus ، وثيسوس Theseus ، وأدرياني Adriane والمينوتور Minotaur . وكأنما شاءت الأقدار أن تؤيد ما أوحى به قريحة إيفنز إليه ، فعثر في هذه الخرافات وفي غيرها على آلاف من الأختام والأواح الصلصال ، عليها رموز تشبه الرموز التي جاء إلى كريت بتعقبها ، وكانت النيران التي دمرت قصور كنوسس قد حفظت هذه الألواح ، ولا يزال ما عليها من الكتابة التصويرية ومن الحروف الهجائية غامضاً يخفى قصة بحر إيجة القديمة(*) .

ولما ذاع نبأ هذا الكشف هرع العلماء إلى كريت من كثير من الأقطار . وبينما كان إيفنز يعمل في كنوسس كشف جماعة من الإيطاليين ذوى الجلد والعزيمة — هلبير Halbherr ، وبرنيير Pernier ، وسقثيوني Savignoni وبريني Paribeni — في حاجيا تريادا Hagia Triada (الثلاث المقدس) — تابوتاً عليه صور من الحياة الكريتية واضحة الدلالة ، كما كشفوا في فستس Phaestus عن قصر لا يفوقه في سعته إلا قصر ملوك كنوسس . وفي هذه الأثناء كان اثنان من الأمريكيين هما سيجر Seager ومستر هوس Hawes يقومان بأعمال الكشف في حفائر فاسلكي Vasiliki ، ومكلوس Mochlos ، وجورنيا Gournia ، وكان البريطانيون — هوجارث Hogarth ، وبوسنكوت Bosaquet ، ودوكنز Dawkins ، وميرز

(*) وظل إيفنز يعمل بجهد ومهارة في كنوسس سنين طويلاً ، ومع لقب فارس Knight مكاناً له على جهوده ، وأتم في عام ١٩٣٦ تقريره الرائع المسمى « قصر مينوس » في أربعة مجلدات .

Myres يتقنون في بليكسترو Palaikastro وبيسيكرو Psychro وزكرو Zakro . واهتم أهل كريت أنفسهم بأعمال الحفر والتنقيب في ديارهم ، فأخذ زنثوديديز Xanthoudidis وهزidakس Hatzidakس يحفران في مواقع المساكن والمغارات والمقابر القديمة في أركلوكورى Arkalochori وتيليسس Tyliissus ، وكومازا Koumasa ، وشيمزى Chamaizi ، وانضوت نصف الأمم الأوربية تحت لواء العلم في الوقت الذى كان فيه ساستها يستعدون للحرب

ترى كيف تصنف هذه المادة الكثيرة — هذه القصور ، والرسوم ، والتماثيل والأختام ، والمزهريات والمعادن ، والألواح ، والنقوش ؟ — وإلى أى عصر من العصور الغابرة تضم ؟ وقد أرخ ليفنز ما كشف من الآثار حسب عمق الطبقات الأرضية التى وجدت فيها ، وما طرأ على أنماط الخرف من تطور تدريجى ، وما بين الآثار التى كشفت في كريت وما كشف في غيرها من البلاد من تشابه في الشكل أو في الغرض الذى صنعت من أجله ، والموازنة بين الطبقات التى كشفت فيها والطبقات التى يعرف تاريخها على وجه التقريب في غير كريت . وما من شك في أن هذه الطريقة لا تسلم من الخطأ ، ولكن البحوث التى أجريت فيما بعد ، وما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة ، تؤيدها تأييداً يزايد على مر الأيام . وظل ليفنز يواصل أعمال الحفر تحت كنوس حتى قابلته على بعد ثلاث وأربعين قدماً من سطح الأرض الصخور الصماء ، وكان النصف الأسفل من الأرض التى حفرها تشغله بقايا عليها طابع العصر الحجري الحديث — من أشكال بدائية لفخار مصنوع باليد ، على برسوم مكونة من خطوط بسيطة ، ومن لواب مغازل تستخدم في الغزل والنسيج ، ومن إلهات ذوات أعجاز ضخمة من الحجر الصابونى أو الصلصال ، وأسلحة وحجارة مصقولة ، ولم يكن من تلك البقايا أدوات من النحاس أو البرنز . وصنف ليفنز الفخار ووازنه بما وجد منه في مصر القديمة وبلاد النهرين ، وعلى أساس هذا التصنيف

قسم ثقافة كريت فيما بعد العصر الحجري الحديث وفي عصر ما قبل التاريخ ثلاثة عصور : العصر المينوي المبكر . والمينوي الأوسط ، والمينوي المتأخر . ثم قسم كل عصر من هذه العصور إلى ثلاثة أطوار .

ويمثل أول ظهور النحاس - أى أبعد الطبقات التى ظهر فيها عن سطح الأرض - قيام حضارة جديدة قياماً بطيئاً من مرحلة العصر الحجري الحديث . وقبل أن يحل العصر المينوي المبكر كان الكريتيون قد عرفوا كيف يخلطون النحاس بالقصدير ، وبدأ بذلك عصر البرنز ، وفي الطور الأول من العصر المينوي الأوسط تظهر أقدم القصور : فيقيم أمراء كنوسس ، وفستوس ، وماليا Mallia لأنفسهم مساكن مترفة كثيرة الحجرات ، ومخازن واسعة ، وحوائيت متخصصة ، ومذابح وهاكل ، ومجارى تهر المتكبر الغربى المتعجرف ، وتجعله يغض الطرف منها استحياء . ونرى الفخار ذا ألوان كثيرة براقة ، والجدران تزينها مقرنصات ساحرة جميلة ، ونرى نوعاً من الكتابة الحرفية قد تطور من الكتابة التصويرية التى كانت في العصر السابق .

وفي نهاية الطور الثانى من العصر المينوي الأوسط حلت بالبلاد كارثة عجيبة تركت ما يدل عليها في الطبقات الأرضية . فقد تهدم قصر كنوسس كأن الأرض قد انشقت فحطمته ، أو لعل ذلك كان على أثر غارة قامت

(*) لما كان من المستطاع تحديد تاريخ أقدم الطبقات المحتوية على أدوات نحاسية في كنوسس بعام ٣٤٠٠ ق. م. أى منذ ٥٣٠٠ سنة من وقتنا هذا ، وذلك بمقابلتها بآثار الحضارات المجاورة لها ؛ وإذ كانت الطبقات المحتوية على أدوات من العصر الحجري الحديث في كنوسس تشغل نحو خمسين في المائة من سمك مجموع عمق الأرض من سطحها إلى الطبقات الصخرية ، فقد قدر ليفنز أن العصر الحجري الحديث في كريت بقى ٤٥٠٠ عام على الأقل قبل معرفة لمادن ، أ من عام ٨٠٠٠ إلى ٣٤٠٠ ق. م. تقريباً . ولا حاجة إلى القول بأن تقدير الزمن بناء على عمق الطبقات الأرضية تقدير يختلف فيه العلماء كل لا اختلاف ، لأن معدل الرسوب قد يختلف في العصور المختلفة . وقد أدخل ليفنز في حسابه بطء هذا المعدل بعد أن ترك موقع كنوسس ، ولم يعد موضعاً لمدينة عامرة في القرن الرابع قبل الميلاد . ولم توجد في كريت أدوات من العصر الحجري القديم .

بها فستوس التى ظل قصرها باقيا بعد ذلك فترة من الزمان . ثم أصاب فستوس ومكلوس ، وجورنيا ويليكترو ، ومدناً أخرى كثيرة فى الجزيرة ، ما أصاب كنوسس من تخريب ، فترى الفخار قد غطاه الرماد ، والجرار الكبيرة فى المخازن ملأى بالأنقاض . أما الطور الثالث من العصر المينوى الأوسط فطور ركود نسبي ، وقد يكون هو الطور الذى اضطربت فيه أحوال البلاد الواقعة فى جنوب البحر المتوسط على أثر فتح المكسوس مصر ، ودام اضطرابها زمناً طويلاً (*) .

وفى العصر المينوى المتأخر يبدأ كل شيء من جديد ، فتتجدد آمال الإنسانية التى تصبر على كل بلوى ، وتسرى فيها روح الشجاعة ، وتبدأ الحياة مرة أخرى ، فتقوم قصور جديدة أجمل من القصور السابقة فى كنوسس ، وفستوس ، وتليسوس ، وحاجيا تريادا ، وجورنيا ، فتعمها الفخامة ، وتكثر المباني ذوات الأطباق الخمسة ، والنقوش البديعة ، وتوحى المباني الفخمة بأن أحوال البلاد قد بلغت من الثراء ما لم تعرفه بلاد اليونان حتى عصر بركليز .

هنالك ترى دور التمثيل قد شيدت فى أفنية القصور ، وترى النساء والرجال يجالندون الوحوش لتسلية الرجال والسيدات ؛ وهؤلاء لا تزال وجوههم الأرستقراطية اليقظة الهادئة حية فى المظلمات البراقة الباقية على الجدران الجديدة . وتتضاعف حاجات الأهلين ، وترق أذواقهم ، وتردهر الآداب ، وتنشأ مئات من الصناعات ، فيستطيع الفقراء أن يستمتعوا بالرخاء وهم يعملون ليمدوا الأغنياء بأسباب الراحة والنعيم . وترى أبهاء الملوك تدوى فيها أصوات الكتبة وهم يحصون السلع التى يوزعونها أو يتسلمونها ، وأصوات الفنانين وهم ينحتون التماثيل ، أو يرسمون الصور ، أو يصنعون

(*) إذ ارد القارىء أن يعرف كم من زمن دام كل طور من هذه الأطوار فليرجع إلى ثبت الحوادث المسلسلة فى أول هذا الباب .

الفخار ، أو ينقشون النقوش ؛ وأصوات كبار الموظفين يعقلون
المؤتمرات ، ويستمعون إلى القضايا المستأنفة أحكامها إليهم ، أو يعيشون
بالأوراق مبصومة بأختامهم الجميلة الدقيقة الصنع ؛ بينما ترى الأمراء ذوى
النخيل والأميرات المحليات بالجوهر ، المغريات ، العاريات
النحور ، يجتمعون فى وليمة ملكية يقدم لهم فيها الطعام على موائد تتلأأ
عليها صحاف البرنز والذهب . لقد كان القرنان السادس عشر والخامس عشر
قبل الميلاد هما العهد الذى بلغت فيه الحضارة الإيجية ذروة مجدها وهما
عصر كريت الذهبى القديم .

الفصل الثالث

حضارة تستعاد من بقاياها

إذا شئنا أن نستعيد هذه الحضارة المدفونة مما بقي من آثارها - أى أن نفعل بآثار كريت المتفرقة ما فعله كوفيه Cuvier بالعظام البشرية المشتتة - وجب علينا أن نذكر أننا نقدم بهذا العمل على مغامرة تاريخية لا تؤمن مغبتها ، وللخيال فيها شأن كبير ، لأنه هو المصدر الذى نستمد منه الصلات الحية التى تسد الثغرات وتربط المادة العلمية الضئيلة المشتتة التى يحركها المؤرخون حركة اصطناعية ، بعد أن ماتت من زمن طويل . وسيظل ما تنطوى عليه جزيرة كريت من معلومات مجهولاً خافياً على العالم حتى يقيض للأسرار المحبوة فى ألواحها عالم مثل شميليون .

١ - الرجال والنساء

بين الكريتين ، كما تصورهم فنانونهم ، وبين البلطة المزدوجة التى تظهر كثيراً فى رموزهم الدينية شبه غريب . فالرجال منهم والنساء لهم أجسام تدق من أعلاها ومن أسفلها حتى تنتهى فى الوسط بدائرة شديدة الضيق كطراز هذه الأيام ، ولكنه مبالغ فيه . وكلهم تقريباً قصار القامة نحاف ، لدن ، رشيقو الحركة ، ذوو أناقة رياضية . وهم بيض البشرة وقت مولدهم ؛ فأما نساؤهم اللأنى يلازم من الظل فلهن وجوه بيض ، جرى عرفهم بأن تمثل فى صورهن ضاربة إلى الصفرة ؛ وأما الرجال الذين يسعون فى مناكب الأرض طلباً للرزق ، فقد لوحث الشمس وجوههم فاحمرت ، ولذلك كان اليونان يسمونهم كما كانوا يسمون الفينيقيين الفوينيقيين أى الأرجوانى اللون ، ورووسهم أقرب إلى الطول منها إلى العرض ، ومعارفهم حادة دقيقة ، وشعورهم وعيونهم سوداء

براقة كشعور الإيطاليين وعيونهم في وقتنا الحاضر . ولا جدال في أن هؤلاء الكريكين فرع من جنس « البحر المتوسط(*) » ، والرجال منهم والنساء يرسلون شعرهم ، بعضه معقوص فوق رؤوسهم وأعناقهم ، وبعضه في حلقات فوق جباههم ، وبعضه الآخر في غدائر تنوس على أكتافهم أو صدورهم . ويضيف النساء إلى ذلك أشرطة في غدائرهن ، أما الرجال فكانوا يصطحبون معهم حتى في قبورهم طائفة من شفرات الخلاقة ليحتفظوا بوجوههم حلقة نظيفة حتى في القبور^(١٠) .

وليس ملابسهم بأقل غرابة من أجسامهم ، فقد كان الرجال يضعون على رؤوسهم - إذا وضعوا شيئاً عليها لأنهم كانوا في أغلب الأحيان يتركونها عارية - عمام أو قبعات عراضاً ، وكان النساء يلبسن قبعات فخمة من طراز القبعات التي كانت منتشرة في بداية القرن العشرين . وكانوا في العادة حفاة الأقدام ، عدا أفراد الطبقات العليا ، فقد كانوا أحياناً ينتعلون أحذية بيضاء من الجلد ، كانت عند النساء مزركشة جميلة في أطرافها ، مزينة سيورها بالخرز . ولم يكن الرجال في العادة يلبسون شيئاً على أجسامهم فوق وسطهم ، أما في أوساطهم فكانوا يلبسون تنورات قصيرة ، أو مناطق تكون أحياناً متفخخة من الأمام تأدياً واحتشاماً . وقد تكون « التنورة » مفتوحة من الجانبين عند العمال ، أما عند العظماء وفي الحفلات فكانت تطول حتى تصل إلى الأرض عند الرجال والنساء على السواء . وكان الرجال يلبسون السراويل أحياناً ، وكانوا في الشتاء يلبسون رداء خارجياً طويلاً يتخذ من الصوف أو الجلد . وكانت الملابس تربط ربطاً محكما في وسط

(*) يتسم علماء تاريخ الإنسان الطبيعي الأوروبيين بمد العصر الجبري الحديث الأقسام الثلاثة الآتية التي كانت لها على الترتيب الكثرة الغالبة في شمال أوروبا ، وسطها وجنوبها ، وهي : (١) « الجنس النوردي » أي الشمالي وأفراده طال الرووس ، طوال لقامة ، بيض البشرة شقر الشعر ملح العيوز . (٢) « الجنس الألبى » وأفراده عراض الرووس ، متوسطو القامة ، عيونهم عسلية وبشرتهم ضاربة إلى السمرة . (٣) « جنس البحر المتوسط » وأزاده طوال الـ ووس قصار القامة سمر البشرة . وجدير بنا أن نعرف أنه لا يوجد من هذه الأجناس جنس خالص نق .

الجسم ، لأن الرجال والنساء جميعاً كانوا يحرصون على أن يكونوا — أو أن يبدووا — رفيعي الوسط كأن أجسامهم تتركب من مثلثين^(١١). وأرادت النساء في العصور المتأخرة أن ينافسن الرجال في ضيق أوساطهن فعمدن إلى المشدات القوية تجمع تنوراتهن حول أعجازهن ، وترفع أئداءهن العارية إلى ضوء الشمس . وكان من عادات الكريتيات الظريقة أن تبقى صدورهن عارية ، أو تكشفها قمصان شفافة^(١٢) ، ولم يكن أحد يتحرج من هذا أو يرى فيه غضاضة . وكان المحول يربط تحت الصدر ، ثم يفتح فتحة دائرية غير دقيقة ، ثم يعود فينطبق انطباقاً جيلاً حول العنق أشبه بالطوق الميديشي لطرز . وكانت الأكمام قصيرة منتفخة في بعض الأحيان ؛ وكانت التنورات تزدان بالثنايا والألوان الزاهية ، وتتسع كثيراً عند العجز ، وتقوى في أغلب الظن بأعواد من المعدن أو بأطواق أفقية الوضع . وإنا لنرى في ترتيب ملابس الكريتيات وأشكالها تناسقاً في الألوان ، وجمالاً في الأشكال ، ورقة في الذوق ، ثم عن حضارة غنية راقية ازدهرت فيها الفنون وارتقت أساليب الحياة . ولم يتأثر اليونان بالكريتيين في هذه المسائل ولم تغلب أزيائهم على غيرها من الأزياء إلا في العواصم الحديثة ؛ بل إن علماء الآثار أنفسهم يطلقون اسم « الباريسية » على صورة المرأة الكريتيّة ذات الصدر المرتفع البراق ، والعنق الجميل ، والقمم المغرى ، والأنف البارز ، والجمال القوي المثير . إن هذه المرأة لتجلس أمامنا اليوم في غير حياء مصورة في طنف منقوش ، يطل فيه جماعة من العطاء على منظر لن يسمح لنا الزمان برويته ما حينئذ^(١٣) .

وواضح في هذه الرسوم أن رجال كريت كانوا يحملون لنسائها ما يخلعنه على الحياة من لطف ومغامرات ، لأنهم لا يبخلون عليهن بما يحتجن من مال يزدن به جملهن وفتنتهن . فقد كشف في الآثار عن حلى كثيرة مختلفة الأنواع ، من دبابيس للشعر نحاسية وذهبية ، ودبابيس ومشابك منقوشة عليها بالذهب حيوانات أو أزهار ، أو رؤوس من البلور أو المرمر ، وأقراط

مزرکشة بخيوط من الذهب تختلط بالشعر ، وعصائب أو حلل من المعادن النفيسة تربطه ، وأقراط أو قلادات مدلاة من الآذان ، ومشابك وخرز وعقود على الصدر ، وأساور في الأذرع ، وخواتم في الأصابع من فضة ، وعقيق ، وجزع ، وجشت ، وذهب . وكان الرجال يتحلون أيضاً ببعض هذه الحلل ، فإذا كانوا فقراء لبسوا عقوداً وأساور من حجارة عادية ، وإذا أمكنهم موارد هم أزينوا بخواتم كبيرة نقش عليها صور الحرب أو الصيد . ونرى الساق في الصورة الذائعة الصيت يلبس في عضده الأيسر لإسورة عريضة من معدن نفيس ، وفي معصمه لإسورة مطعمة بالعقيق . ونرى الرجل في الحياة الكريئية أيا كان موضعه يعرض أنبل عواطفه وأشد ما يفتخر به من هذه العواطف وهي حرصه على التجميل .

وتكاد النساء أن يكن صاحبات السلطان الأعلى في الحياة الكريئية . ذلك أن المرأة المنيوية لم تكن ترضى بحياة العزلة التي كانت تسود بلاد الشرق ، ولم تكن تطبق الحجاب أو البقاء في الدور ، وليس ثمة دليل على أنه كان للنساء أجنحة خاصة في المنازل . لقد كانت المرأة تشتغل في البيت بلاريب كما تفعل بعض النساء حتى في وقتنا هذا ، تنسج الأقمشة وتصفّر السلال ، وتطحن الحب وتخبز العيش ، ولكنها كانت فوق ذلك تعمل مع الرجل في الحقل وتصنع معه الفخار ، وتختلط بالرجال في الأسواق ، وكان النساء يجلسن في المقاعد الأمامية في دور التمثيل وفي حلبات الألعاب ، وينتقلن في المجتمعات الكريئية وعليهن سياء العظمة والملل من التعظيم والتمجيد . ولما أن صاغت الأمة أربابها كان هؤلاء الأرباب في أكثر الأحيان أشبه بالنساء منهم بالرجال . وإن العلماء المبجلين المشغفين على غير علم منهم — شغفاً لا غضاضة عليهم فيه — بصورة الأم المنقوشة على صفحات قلوبهم لبطاطئون رؤوسهم لإجلالاً أمام آثار المرأة في هذه الحضارة ، ويقفون مذهولين أمام سلطانها العظيم^(١٢) .

٢ - المجتمع

وسوف نفترض أن كريت في عهدها القديم كانت تقسمها جبالها أقساماً تسكنها عشائر قليلة العدد متحاسدة متباغضة ، تقيم في قرى منفصلة مستقلة ، يحكمها زعمائوها ، وتتقاتل كما يتقاتل سائر الناس بفطرتهم . ثم يظهر من بين هؤلاء الزعماء زعيم قدير يضم عدداً من هذه العشائر تحت سلطانه ، ويؤلف منها مملكة ، ويشيد قصره الحصين في كنوسس أو فتوس أو تليوس أو غيرها من المدن ، ثم تصبح الحروب أقل عدداً وأكثر اتساعاً وأشد تفتيلاً . ثم تنضم المدن كلها وتحارب دفاعاً عن الجزيرة بأجمعها وتنتصر كنوسس ، وتنتشى المدينة المنتصرة أسطولا بحرياً تسيطر به على بحر إيجة ، وتقضى على القراصنة ، وتفرض الخراج على غيرها من الجزائر ، وتناصر الفنون كما فعل بركليز فيما بعد^(١٩) . وهكذا تقوم الحضارة في إثار القراصنة ، والحق أن من الصعب قيام حضارة من غير سرقة كما أن من الصعب أن تبقى بغير عبيد(*) .

ويستند سلطان الملك ، كما يستند من الآثار ، على القوة والبطش ، وعلى الدين والقانون . وهو يغوى الآلهة ويستخدمها لمعونته ليجعل طاعة الناس إياه أسير عليهم وأقل كلفة ، ويلقن كهنته الناس أنه من نسل فلكانوس Volchanos ، وأنه تلقى من هذا الإله القوانين التي يصدرها ، وإذا ما كان الملك قديراً أو سخيّاً فإن هؤلاء الكهنة يخلعون عليه من جديد السلطة الإلهية ، ويتخذ الملك البلطة المزدوجة وزهرة الزئبق رمزاً لسلطانه كما فعلت رومة وفرنسا فيما بعد . وهو يستخدم في تصريف شئون الدولة (كما تشير بذلك أكاداس الألواح) طائفة من الوزراء وموظفي الدواوين والكتبة .

(٥) يقول توكيديد ، الحذر الدقيق ، إن أول شخص معروف تزعم الرواية التاريخية أنه بنى أسطولا هـ مينس وسيطر به على البحر المعروف باسم البحر الهيليني وحكم جزائر سكليس ... وقد بذل غاية جهده ليقضى على القرصنة في ذلك البحر ، وكانت هذه خطوة لا بد منها لضمان الخراج الذي يستخدمه في مصالحه .

وهو يجبي الضرائب عيناً ، ويحتزن في جرار ضخمة موارده من حب وزيت وخر ، ومن هذه الموارد يؤدي رواتب رجاله عيناً . وهو يقضى وهو جالس على عرشه في القصر من مجلسه في بيته الملكي الصغير فيما يرفع إليه من القضايا التي مرت بمحاكمه . وقد بلغ من شهرته في أحكامه أنه يصبح في الدار الآخرة بعد موته قاضى الموتى الذين لا مفر من عرض قضاياهم عليه^(٢١) ، كما يؤكد لنا هومر . ونحن نسميه في كتابنا مينوس ولكننا لا نعرف حقيقة اسمه . ولعل هذا لقب لا اسم شبيه بلفظ فرعون أوقيصر يطلق على عدد كبير من الملوك .

وتدل هذه الحضارة في ذروة مجدها على أنها حضارة مدن لا حضارة ريف . ونجدنا الإلياذة عن «مدائن» كريت «التسعين» ، ويعجب اليونان الذين يفتحونها من كثرة سكانها . بل إن الدارس ليقف اليوم مرئعاً أمام شوارعها المخططة المرصوفة ذات المحارى ، وأمام أزقتها المتقاطعة ، وحوانيتها التي يخططها الحصر ، وميادينها المتجمعة حول مركز من مراكز التجارة أو الحكم ، حيث نرى الرجال محتشدين يتحدثون وهم ساكنون وادعون . وليست كنوس وحدها هي المدينة العظيمة ذات القصور الواسعة التي تغرى الخيال على أن يبالغ في عظمة المدينة التي كانت بلا ريب أكبر مصدر لثروة هذه القصور ، وأول ما يستفيد من ثروتها . ويقابل كنوس على شاطئ الجزيرة الجنوبي مدينة فستوس ، ومن مينائها « تحمل قوة الريح والأمواج إلى أرض مصر السفن ذات المقدمات القائمة ، كما يقول هومر »^(٢٢) . وفي هذه المدينة تتجمع تجارة كريت المينوية الزاهية إلى الجنوب ، مضافاً إليها السلع التي يأتي بها تجار الشمال الذين ينقلون بضائعهم إليها بطريق البر ليتجنبوا أخطار الطريق البحري الطويل . وتصبح فستوس بعدئذ لكريت كما كانت بيريوس لليونان ، تحب التجارة أكثر من حبها الفن ، ومع هذا فإن قصر أميرها صرح فخم ، يرقى إليه بطائفة من الدرج يبلغ اتساعها

خمساً وأربعين قدماً ؛ ولا تقل أبهاؤه وأفئنته عن مثيلاتها في كنوسس ؛ ففناؤه الأوسط مربع مرصوف يبلغ اتساعه عشرة آلاف قدم مربعة ، وحجرة الاستقبال فيه تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف ، أى أكبر من الردهة العظيمة ، ردهة البلطة المزدوجة ، في العاصمة الشمالية .

وعلى بعد ميلين من فستوس في اتجاه الشمال الغربى منها تقع حاجياتريادا ؛ وإلى بيتها الملكي الصغير (كما يسميه علماء الآثار) يلجأ أمير فستوس ليتقى حر الصيف . وكان طرف الجزيرة الشرقى في الأيام المينوية غنياً بالبلدان الصغيرة : سواء أكانت ثغوراً مثل زكرو ومكلوس ، أو قرى مثل پريسوس preasus وبسيرا pseira ، أو أحياء لسكنى العظماء مثل بليكسترو ، أو مراكز صناعية مثل جورنيا . والشارع الرئيسى في بليكسترو حسن الرصف كثير المحارى ، تقوم على جانبيه بيوت رحبة ؛ منها بيت يحتوى على ثلاث وعشرين حجرة في الطابق الذى بقى منه حتى الآن . ولجورنيا أن تفخر بما كان فيها من شوارع واسعة مرصوفة بالجلبس وبيوت مشيدة بالحجارة من غير ملاط ، وحانوت حداد لا يزال كبيره باقياً إلى الآن ، وحانوت نجار وجد فيه صندوق يحتوى على عدد ، ومصانع تعج بصناع المعادن ؛ وصناع الأحذية والمزهريات ، وتكرير الزيت ، والنسيج ، وإن العمال الذين يكشفون عن تلك الآثار في هذه الأيام ويجمعون ما فيها من مناصد ذات ثلاث قوائم ، وجرار ، وفخار ، وأفران ، ومصاييح ، ومدى ، و « هاونات » ، وأدوات للصقل . وخطاطيف ، ودبابيس ، وخناجر ، وسيوف ، نقول إن العمال الذين يكشفون الآن عن تلك الآثار ويجمعونها لتعريضهم الدهشة من كثرة ما كانت تخرجه مصانعها من أدوات مختلفة الأنواع . ويطلقون عليها اسم « مدينة الآلات »^(٣٣) . وإذا قيست شوارع المدينة إلى شوارعنا في هذه الأيام بدت لنا ضيقة ، فهى لا تزيد على أزقة من طراز أزقة المدن الشرقية الواقعة قرب المدارين ، والى تخشى حر الشمس اللافتح ، أما بيوتها المستطيلة الشكل المشيدة من الخشب أو الآجر أو الحجر ، فلا ترتفع في الغالب

إلى أكثر من طابق واحد . غير أن ما وجد في كنوسس من النقوش الباقية من العصر المينوى الأوسط يصور بيوتاً من طابقين أو ثلاثة ، بل ومن خمسة أحياناً ، في أعلاها حجرة مفردة أو برج صغير في بعض المواضع ، وفي الأطباق العليا من هذه البيوت المصورة نوافذ ذات ألواح حراء مصنوعة من مادة لم تعرف بعد . ولحجرات الطابق الأسفل أبواب ذات مصراعين يدوران على قوائم لعلها من خشب السرو توصل إلى فناء ظليل . ويصعد بدرجة إلى الأطباق العليا وإلى سطح المنزل حيث ينام الكريتيون في الليالي الشديدة الحرارة . أما إذا قضوا الليل في داخل البيوت فإنهم يضيئون بيوتهم بمصابيح زيتية تصنع من الصلصال أو حجر الصابون ، أو الجبس أو الرخام ، أو البرنز حسب ثروة أصحابها^(٢٤) .

ولسنا نعلم عن ألعاب الكريتى إلا شيئاً واحداً أو شيئاً لا أهمية لها ، فإذا كان داخل الدار فإنه يجب لعبة شبيهة بلعبة الشطرنج ، فقد خلف لنا في خرائب قصر كنوسس لوحة لعب فخمة ذات إطار من العاج وعليها مربعات من الفضة والذهب ، واثنين وسبعين قطعة من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة . فإذا كان الكريتى في الحقول فإنه يعتمد إلى الصيد بجرأة وحماسة ومعه ققط نصف برية ، وكلاب صيد أصيلة ضامرة . وإذا كان من سكان الحواضر شجع الملاكين ، ونراه يصور على مزهرياته وفي نقوشه البارزة أنواعاً مختلفة من المباريات ، يتلاكم فيها ذوو الأوزان الخفيفة بأيديهم العارية وأقدامهم ، وذو الأوزان المتوسطة يتلاكمون بقوة ، وعلى رؤوسهم خوذ مزدانة بالريش ، وذو الأوزان الثقيلة يدلون بخوذهم وأقنعة خدودهم وقفازاتهم الطويلة المبطنة ، ويواصلون الملاكمة حتى يسقط أحدهم على الأرض من فرط الإعياء ، ويقف الثاني فوقه يتباهى بما أحرزه من نصر^(٢٥) .

ولكن أكثر ما يثير حماسة الكريتى أن يشق طريقه بين الجموع التي تملأ المدرج في يوم من أيام الأعياد ليرى الرجال والنساء يواجهون الموت أمام

هجمات الثيران الهائجة . وكثيراً ما يصور مراحل هذا الصراع الوحشي الشديد ، يصور الصائد الجريء يقتنص الثور بأن يقفز فوق عنقه وينزل ساقيه على جانبيه وهو يشرب الماء من إحدى البرك ؛ ويصور المروض المحترف وهو يلوى رأس الثور حتى يتعلم شيئاً من الخضوع لحيل المدرب البغيضة ؛ ثم المجتلد الماهر النحيل الجسم الخفيف الحركة وهو يلتقي بالثور في الحلبة ، ويمسك بقرنيه ، ويقفز في الهواء ، وينقلب فوق ظهر الحيوان ، ثم ينزل برجليه على الأرض بين ذراعي فتاة تضفي على المنظر من جمالها وزشافتها^(٢٦) . ولقد أصبح هذا الصراع حتى في كريت المينوية من الألعاب القديمة التي طال بها العهد ؛ فقد عثر في كيدوشيا على أسطوانة من الصلصال يعزى تاريخها إلى عام ٢٤٠٠ ق . م ، وتمثل صراع ثور لا يقل في شدته أو خطورته عما هو مصور في المظلمات السالفة الذكر^(٢٧) . وإذا ما قلبنا الفكر في هذه اللعبة الدالة على شجاعة الإنسان وتعطشه لسفك الدماء ، والتي لا تزال منتشرة في هذه الأيام ، وعرفنا أنها قديمة قدم الحضارة نفسها ، وإذا ما فعلنا ذلك أدركت عقولنا المولعة بتبسيط الأمور والاستهانة بها — وإن كان هذا الإدراك لا يدوم إلا لحظات — ما في الطبيعة البشرية من تناقض وتعقيد .

٣ — الدين

ربما كان الكريتي وحشياً قاسياً ، ولكنه كان بلا شك متديناً يتركب من مزيج بشري كامل من الفيتشية والخرافة من جهة والمثالية وتعظيم الأرباب من جهة أخرى ؛ فهو يعبد الجبال والمغارات ، والعدد ٣ ، والأشجار ، والأعمدة ، والشمس والقمر ، والمعز والأفاعي ، والإمام والثيران ، وقلما يسلم شيء من عبادته . والهواء في اعتقاده مملوء بالأرواح الطيب منها والخبيث ، وتنقل منه إلى بلاد اليونان طائفة شفاقة من جن الحراج منها الذكور ومنها الإناث .

وهو لا يعبد عضو التذكير عبادة ؛ ولكنه يعظم فى رهبة وخشوع ما فى الثور والأفعى من قوة حيوية منتجة^(٢٨) . وإذ كان معدل الوفيات بين الكريتيين كبيراً فإنه يعظم الإخصاب ، وحين يسمو به تفكيره إلى إيجاد إله بشرى يصور لنفسه إلهته أمأ ذات ثدين وجسم فارع الطول ، وأفاع تلتف حول ذراعيها وتديها ، وتتلوى فى شعرها أو تتدلى فى أنفه وكبرياء من رأسها . وهو يرى فى هذه الإلهة الأم الحقيقة الأساسية من حقائق الطبيعة ، وهى أن الموت عدو الإنسان الألد تغلبه قدرة الأم الخفية العجيبة على التناسل والتكاثر ، وهو لذلك يؤله هذه القدرة . فالإلهة الأم تمثل له مصدر الحياة بأجمعها فى النبات والحيوان والإنسان . وإذا ما أحاط صورتها بالحيوان والنبات فما ذلك إلا أن الحيوان والنبات يوجدان من خصوبتها الخلاقة ، وهما لذلك يرمان لها ولما ينبعث منها . وهى تظهر فى بعض الأحيان تضم بين ذراعيها طفلاً قدسياً هو فلكانوس ولدته فى مغارة جبلية^(٢٩) ، وإذا ما تأملنا هذه الصورة القديمة رأينا من خلالها لإيزيس وحورس ، وإشتار وتموز ، وسبييل وأتيس ، وأفرديتى وأدنيس ، وأحسنا بوحدة ثقافات ما قبل التاريخ ؛ واتصال الآراء والرموز الدينية فى عالم البحر المتوسط بعضها ببعض .

وزيوس الكريتيين ، وهو الاسم الذى يطلقه اليونان على فلكانوس ، أقل منزلة من أمه فى حب الكريتيين ، ولكنه يزداد أهمية على مر الأيام . ففيه يتمثل المطر المخصب ، والرطوبة التى يرى هذا الدين كما يرى طاليس أنها أساس كل شئ . وهو يموت ثم يشاهد الناس ضريحه جيلاً بعد جيل على جبل يوكتاس Juktas ، ولا تزال صفحة وجهه الفخمة الجلية تظهر للسائح القوى الخيال ؛ ثم يقوم من قبره ليكون رمزاً للنبات المجدد للحياة ، ويحتفل القيسيون ببعثه المجيد بالرقص والضرب بالدروع^(٣٠) ، وهو بوصفه إلهاً للخصب يتصور أحياناً كأنه حل فى جسم الثور المقدس ؛ وهو بهذه الصفة

يضاجع بأسفيا زوجة مينوس فى الخرافات الكريتية فتلد له ثور مينوس المهول أو المينوتور .

ويعبد الكريتى لاسترضاء هذه الآلهة إلى طقوس لا حصر لها من الصلوات والتضحيات ، والرموز ، والاحتفالات ، يقيمها فى العادة كاهنات من النساء ، و يقيمها فى بعض الأحيان موظفون من رجال الدولة . وهو يطرد الشياطين ويتقى أذاها بحرق البخور ، ويستثير الإله الغافل بالنفخ فى صدفة بحر زدوجة ، وبالقيثارة أو الناي ، وينشد الأناشيد الجماعية تعبداً وخشوعاً . ويعمل على إنماء البساتين والحقول بإرواء أشجارها ونباتها بمراسم دينية ، وترى كاهنات البلاد وهن عاريات هائجات يهززن الأشجار التى نضجت ثمارها لتسقط حملها ، أو نساءها يسرن فى مواكب يحملن الفاكهة والأزهار يقدمنها للآلهة التى يحملنها فى هودج ويومثن بها إليها . والظاهر أن الكريتى لم يبن له معبداً ولكنه كان يقيم مذبح القربان فى بهو القصر أو فى الأليك أو المغارات المقدسة أو على قلل الجبال . وهو يزين هذه الأماكن المقدسة بأن يضع فيها مناضد يصب عليها السوائل قرباناً للأرباب ، وأصناماً مختلفة الأشكال و « قرونًا قدسية » لعلها ترمز إلى الثور المقدس . والرموز المقدسة عند الكريتى لا حصر لها ، ويلوح أنه يعبد هذه الرموز كما يعبد الآلهة التى تدل عليها . ومن هذه الرموز الدرع ولعله كان يراه رمزاً للآلهة فى صورتها الحربية ، ثم الصايب — فى صورته اليونانية والرومانية — يحفره على جبهة ثور أو على فخذ إلهة أو ينقشه على خواتم ، أو يقيمه من الرخام فى قصر الملك . وأهم هذه الرموز كلها البلطة المزدوجة بوصفها آلة التضحية ، وقد أضحت لها قوة سحرية عظيمة اكتسبتها من فضيلة الدم الذى تسفكه ، أو سلاحاً مقدساً يهديه الإله فلا يخطئ قط ، أو رمزاً لزبوس الذى يرسل الرعد ويشق السماء بصواعقه (٣١) .

وهو إلى هذا كله يعنى بعض العناية بموته ، ويعبدهم عبادة لا تسمو إلى عبادة الآلهة السالفة الذكر . فهو يدفنهم فى توايت من الصلصال أو فى جرار ضخمة ، لأنهم إذا لم يدفنوا على هذا النحو قد يعودون إلى الحياة الدنيا . وهو يعمل على أن يظلوا راضين قانعين تحت الأرض بأن يضع معهم قلراً غير كثير من الطعام ، وأدوات الزينة ، ودى صغيرة من الصلصال فى صورة نساء يقمن على خدمتهم أو يواسينهم إلى أبد الدهر . وهو يعمد أحياناً إلى الخداع مدفوعاً برغبته فى الاقتصاد الذى يطيقه تشككه البدائى ، فيستبدل بالطعام الحقيقى حيوانات من الصلصال يضعها فى القبر إلى جانب موته . وإذا دفن ملكاً أو نبيلاً أو تاجراً ثرياً وضع مع جثته بعض الصحف الثمينة أو الحلى التى كانت ملكاً لصاحب هذه الجثة ، وبضع أدوات الشطرنج مع اللاعب الماهر ، ومجموعة من الآلات الموسيقية مع الموسيقى ، وقارباً مع من كان مولعاً بركوب البحار . ألا ما أكثر ما يدل عليه هذا العمل من عطف على الأموات ! وهو يأتى إلى القبر فى مواسم معينة ليقدم للموتى قرباناً من الطعام يحفظ عليهم حياتهم ، وهو يرجو أن يستقبل ردمشس Rhademanthus الإله العادل ابن زيوس فلكانوس الروح الذى تطهر ليهبه السعادة والسلام للذين لا بقاء لها على ظهر هذه الأرض .

٤ - الثقافة

أصعب ما يواجهنا فى حضارة الكريتيين هو لغتهم . فالكريتى حين يستخدم الحروف الهجائية اليونانية بعد غزو الدوريين بلاده ، إنما يستخلمها ليدون بها كلاماً يختلف كل الاختلاف عن الكلام الدونانى المعروف وأقرب منه شهاً بلغات الشرق الأدنى المصرية والقبرصية والحبشية والأناضولية . وقد اقتصر فى أقدم العصور على الرموز التصويرية ، ثم بدأ حوالى ١٨٠٠ ق . م

يختصر هذه الرموز إلى نحو تسعين علامة مقطعية ، وبعد مائتي عام من ذلك الوقت استنبط نوعاً آخر من الكتابة تشبه علاماته الحروف الهجائية الفينيقية : ولعل الفينيقيين قد جمعوا منه ومن المصريين والساميين تلك الحروف التي نشروها فيما بعد في جميع البلاد المطلة على البحر المتوسط ، والتي أصبحت الأداة الفعالة في الحضارة الغربية . والكريتي العاى نفسه ينطق بما توحى به إليه شاعريته ، وينقش أشعاره على جدران حاجيا تريادا ، مثله فى ذلك مثل الأخصاء من ساسة تلك الأيام . وإنا لنجد فى قستوس نوعاً من الكتابة باقياً من أزمنة ما قبل التاريخ . فقد كشف فى تلك المدينة قرص كبير من الطور الثالث من أطوار الحضارة المينية الوسطى ، طبعت على صلصاله وهو لين رموز تصويرية لأصنام لكل رمز منها خاتم ؛ ولكن الذى يزيد من حيرتنا فى أمر هذه الرموز أنها ليست كريتيّة بل أجنبية ، وربما كان هذا القرص قد نقل إلى كريت من أحد البلاد الشرقية (٣٢) .

وربما كشفت الألواح الطينية ، التى كان الكريتي يكتب عليها ، فى يوم من الأيام ما كان عنده من العلوم . أما الآن فكل ما نستطيع أن نقوله إنه كان على علم بشيء من الفلك لأنه اشتهر بأنه ملاح ماهر ؛ وتقول الرواية إن الدورين الذين استوطنوا كريت فيما بعد قد أخذوا التقويم عن المينويين . ويعترف المصريون بأنهم مدينون للكريتيين ببعض الوصفات الطبية ، وقد أخذ عنهم اليونان بعض الأعشاب العطرية والطبية كالنعناع (mintha) ، والشيوخ الرومى (aspithon) ، وعقاراً آخر مفيداً كل الفائدة يقال إنه يشفى البدانة من غير حاجة إلى الاقتصاد فى الطعام (٣٣) كما تدل على ذلك أسماء هذه الأعشاب وهذا العقار . ولكن من واجبنا ألا نضع الحدس والتخمين فى مكان التاريخ الصحيح .

وفى وسعنا أن نتأمل خرائب دور التمثيل الكريتيّة وإن كانت آدابهم

لا تزال كتاباً مغلقاً محتفظاً بجميع أسرارهِ . فقد بنى الكريتيون في فستوس حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م عشرة صفوف من المقاعد الحجرية تمتد نحو ثمانين قدماً بجوار جدار يطل على فناء ترفرف عليه أعلام ، كما أقاموا في كنوسس ثمانية عشر صفّاً من المقاعد الحجرية أيضاً طولها ثلاث وثلاثون قدماً . وهذه الدور التى تتسع لعدد من النظارة يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة من أقدم ما تعرفه دور التمثيل — فهى أقدم من ملهى ديونيسيوس بألف وخمسمائة عام . ولسنا نعرف ماذا كان يحدث على مسارح هذه الدور ، فالمظلمات تصور النظارة يشاهدون منظرأ ما ، ولكننا لا نعرف ماهية هذا المظر الذى يشاهدونه ، وأكبر الظن أنه خليط من الموسيقى والرقص . وقد احتفظت لنا صورة وجدت في كنوسس بطائفة من سيدات الطبقة الراقية ، ومن حولهن جماعة من الرجال المعجبين بهن يشاهدون رقصاً تقوم به بعض الفتيات المرحات ، ذوات « الثقب » فى أيكّة من شجر الزيتون ، وتمثل صورة أخرى راقصة تنوس غداثرها وتمد ذراعها ، وهناك صور تمثل رقصات ريفية شعبية ؛ أو رقصات الكهنة والكاهنات والمتعبدین القوية أمام صنم أو شجرة مقدسة

ويصف هومر المرقص الذى أنشأه ديدالوس يوماً من الأيام في كنوسس العريضة لأدريادنى ذات الشعر الجميل ، وفيه يرقص ثلاثة شبان وثلاث عذارى فانتات مغريات يناسكون بالأيدي . . . على صوت القيثارة وتقاسيم شاعر من رجال الدين «^{١٢٤}» . وترى القيثارة ذات السبعة الأوتار : التى يعزوا اليونان اختراعها إلى عبقرية تريندر. Terpander ، مصدرة على تابوت في حاجيا تريادا قبل أن يولد تريندر بألف عام . وهناك أيضاً الناي والمزمار ذو الأنبوبتين والثمانية الحروق والأربع عشرة نغمة بالصورة التى نجدها عند اليونان الأقدمين . ونرى على إحدى الحلى نقشاً يمثل امرأة تنفخ في بوق مصنوع من صدقة ضخمة كما نرى على زهرية جلالجل تضبط الوقت لأقدام أم الراقصات .

(٤ - ج ١ - مجلد ٢)

وروح النضارة والمرح والخفة التي تبعث البهجة في رقص الكريتي ولعبه هي نفسها التي تبعث الحياة في أعماله الفنية . ولم يخلف لنا الكريتي من مبانيه شيئاً من الأعمال ذات الأبهة والفخامة ، أو ذات الطراز الراقى العظيم ؛ بل نراه يفعل ما يفعله الياباني في عصر السموراي ؛ فيجد اللذة والبهجة فيما تمتاز به الفنون الصغيرة من دقة ، وفي تزيين الأدوات التي يستخدمها في حياته اليومية ، وفي إحكام صنع الأشياء الصغيرة والوصول بها إلى درجة الكمال . وهو يقبل ما يعمليه عليه العرف في الشكل وفي الموضوع شأن كل الحضارات الأرستقراطية ، ويتحاشى البدع المفرطة في الجدة ، ويتعلم الحرية داخل قيود الذوق والمحافظة على القديم . وقد برع الكريتي في صناعة الفخار ، وفي قطع الجواهر ، وفي حفر مواضع القصص في الخواتم ، وفي النقوش البارزة حيث تتاح له الفرصة لإظهار ما طبع عليه من مهارة ودقة . وهو لا يجد صعوبة في صياغة الذهب والفضة ، وتركيب الأحجار الكريمة ، وصنع أنواع كثيرة من المجوهرات . وهو يحفر على الأختام التي يصنعها ليوقع بها الوثائق الرسمية والبطاقات التجارية والصكوك المالية ، يحفر على هذه الأختام كثيراً من مظاهر الحياة العادية مفصلة دقيقة ، وكثيراً من مناظر كريبت الطبيعية ، تكفي وحدها لأن نتصور منها ما كانت عليه الحضارة الكريتية . وهو يصنع من البرنز طاسات ، وأباريق ، وخنجر وسيوفاً مزدانة بصور النبات والحيوان ومرصعة بالذهب والفضة والعاج والحجارة النادرة . وقد خلف لنا في جورنيا Gournia ، رغم عبث اللصوص مدى ثلاثة آلاف عام ؛ كأساً من الفضة مصقولة صقلاً فنياً جميلاً ، كما خلف في أماكن متفرقة من الجزيرة ، قروناً للشراب تبرز من رؤوس الآدميين أو الحيوان يكاد الإنسان حتى في هذه الأيام يحس فيها أنفاس الحياة .

ولم يتروك شكلاً من أشكال الفخار إلا صنعه وبرز في هذه الأشكال كلها تقريباً ، فقد صنع المزهربات ، والصحاف ، والفناجين ، وأقداح الشراب ،

والمصاييح والجرار والحيوانات والآلهة . وقد كان في بادئ الأمر ، في العهد المينوى الأول ، يقنع بتشكيل هذه الآنية بيده ، حسب الأنماط التي ورثها عن العصر الحجري الحديث . وكان يطلبها بطبقة زجاجية سمراء أو سوداء ويترك النار تلونها بما تشاء من الظلال . ثم عرف في العهد المينوى الأوسط استخدام عجلة الفخرائى ليلبغ بها الذروة فى المهارة ، وهو يتطلبها فى العهد بطبقة زجاجية تماثل فى تناسقها ورقتها طلاء الخزف ، وينشر عليها فى غير نظام الألوان السوداء والسمراء ، والبيضاء ، والحمراء ، والبرتقالية ، والصفراء ، والقرمزىة ، والحمراء القانية ، ويمزجها فيخرج منها ظلالاً جديدة ؛ وهو يرقق الصلصال ترقيقاً وصل إلى حد الكمال فى الآنية الجميلة الزاهية الألوان الرقيقة الجدران التى وجدت فى كهف كمارس Kamares على جبل أيدا Ida ، والتى لا يزيد سمك جدرانها على ملليمتر واحد ، وقد أفرغ على هذه الآنية كل ما وهب من خصب الخيال : وبلغت صناعة الفخار فى كريت ذروة مجدها بين عامى ٢١٠٠ ، ١٩٥٠ ق . م وترى الصانع يوقع باسمه على ما يصنع ، ويحرص أهل بلاد البحر المتوسط على اقتناء مصنوعاته ، وفى العهد المينوى المتأخر يطبق أصول الفن إلى أقصى حد على صناعة الفخار الرقيق ، فيصنع من عجينة الفخار ألواحاً ومزهريات زرقاء فيروزجية وآلهات متعددة الألوان ، ونقوشاً لحيوانات بحرية تكاد أن تكون هى والحيوانات الحقيقية سواء . وهل هناك أدل على هذا من أن ليفنز رأى سرطاناً بحرياً من الميناء فظنه سرطاناً متحجراً (٣٥) . وفى ذلك العهد ترى الفنان يشق الطبيعة ويسره أن يمثل على آنيته أنشط الحيوانات حركة ، وأزهى الأسماك لوناً ، وأرق الأزهار أوراقاً ، وأجمل النباتات شكلاً . وهو يخرج روائع الفن الخالدة فى الطور الأول من أطوار العصر المينوى المتأخر أمثال مزهرية الملاكين ومزهريه الحصادين ؛ فى الأولى يصور القسوة بجميع أشكالها ومواقفها فى ألعاب الملائكة ، ويضيف إليها صوراً من حياة مصارعى الثيران ، وفى

الثانية يتتبع بمنتهى الدقة والإخلاص موكباً لعله موكب الفلاحين يمشون يغنون في عيد ، ثم تضعف تقاليد القحار الكريتي ويضمحل فنه ، وينسى الصناع تحفظهم وذوقهم ، فتغطي الزخارف المزهريات من أولها إلى آخرها في غير نظام ، ويعجز الصناع عن التفكير البطيء والتنفيذ في صبر وأناة ، ويحل الإهمال والترخي اللذان ينتحلان اسم الحرية محل الدقة والصقل اللذين عهدناهما في عصر كمارس . وليس من حقنا أن نلوم الكريتين على هذا الاضمحلال فهو الموت الذي لا مفر منه والذي لا بد أن يلاقيه الفن إذا بلغ سن الشيخوخة وخارت قواه ، فيستغرق في سبات مدى ألف عام ، ثم يولد من جديد ، ويبلغ منتهى الكمال في المزهريات الأنكية .

وفن النحت من الفنون الصغرى في كريت ، وقلما يرقى إلى أكثر من صنع التماثيل الصغيرة إلا في النقوش المنخفضة وفي قصة ديدلوس . وكثير من هذه التماثيل الصغرى فجأة لا تخرج عن نمط واحد جرى به العرف وثبت عليه ؛ ويبدو أنها كانت تصنع من غير مثال تحتذيه . ومن هذه تماثيل من العاج يمثل لاعباً رياضياً ساعة أن يقفز في الهواء ؛ ومنها رأس جميل ضاع جسمه في أثناء انتقاله إلينا خلال القرون الطوال . وخير هذه التماثيل يفوق في دقة التشريح وفي وضوح الحركات كل ما عرفناه من تماثيل اليونان قبل أيام ميرون Myron . وأغربها كلها إلهة الأفاعى المحفوظة في متحف بُسطن - وهي تماثيل قوى من العاج والذهب نصصها أنثى ونصفها أفعى ؛ وفي هذا يعالج المثال آخر الأمر الجسم الآدمي بشيء من سعة الإدراك والنجاح . ولكنه حين يريد أن يمثل الضخامة يعتمد في الغالب إلى تمثيل الحيوانات ويقتصر على النقوش البارزة الملونة ، كما نرى ذلك في رأس الثور المحفوظ في متحف هركيولانيوم ؛ وفي هذا الأثر المدهش نرى العينين الوحشيتين ، والمنخارين الناخرين ، والفم اللاهث ، واللسان

المرتجف ، وكل هذه قد بلغت من القوة درجة لن تفوقها بلاد اليونان نفسها في أى عهد من عهودها .

وأكثر ما يستلفت النظر في كريت القديمة هو تصويرها . ذلك أن النحت معتل لا يؤبه له ، وما عثر عليه من الفخار قليل معظمه قطع متفرقة ، وعمارتها كلها أطلال دارسة ؛ ولكن أجمل الفنون كلها ، وهو الذى يقع فريسة سهلة لعمادى الزمان الذى لا يرحم ، قد أبقي لنا روائع نستطيع أن ندرسها وتستثير إعجابنا من عصر بلغ من القدم حداً سقط من ذاكرة اليونان الأقدمين ، وهم الذين لم يبق من تصويرهم على حدائث عهده بالقياس إلى تصوير الكريتيين صورة واحدة أصيلة . وقد أبقت الزلازل والحروب التى دكت القصور في كريت على مظلم في جدار هنا وآخر في جدار هناك . وإذا ما جلنا في هذه القصور المخربة ، ونخطينا أربعين قرناً من الزمان ، والتقينا بالرجال الذين زينوا حجرات الملوك المينويين رأيناهم في عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد يضعون على الجدران طبقة من الجير النقي ، ويهدبهم تفكيرهم إلى التصوير على السطح المبلل ، فيحركون الفرشاة حركات سريعة ينفذ بها اللون إلى الطلاء قبل أن يجف سطحه . وقد استطاعوا بحذقهم أن ينقلوا إلى أبهاء القصور المظلمة جمال الحقول المكشوفة الوضاء ، فيستنبتون الحصن زنبقاً ، وسوسنا ، ونرجسا ، وبردقوشا . وما من أحد شاهد هذه المناظر ثم قال مع القائلين إن روسو قد أزاح الستار عن الطبيعة . ونرى في متحف هركيولانيوم جامع الزعفران حريصاً على قطف زهره كما صورته مصوره في العصر المينوى الأوسط ؛ ونرى وسطه رفيعاً إلى حد ينفر منه الذوق ، كما يبدو جسمه طويلاً لا يتناسب مع ساقه ، ولكننا نرى رأسه متنقن التصوير خالياً من العيوب ، ونرى الألوان هادئة والأزهار نضرة كما كانت منذ أربعة آلاف عام . وفي حاجيا تريادا يزين الرسام تابوتا برسوم لخلائق غريبة نكاد نقول إنها نوبية منهمكة في طقوس دينية ؛ وخير من هذا كله ما زين به أحد الجدران من أشجار متماوجة يدس بينها — وإن

لم يخفها عن العين بل تركها واضحة جلية — قطة متحفزة ، تستعد للهجوم دون أن يراها أحد على طائر ملط بنفسه ينشئ ريشه في الشمس . ويصل الرسام الكريتي في العصر المينوي المتأخر إلى ذروة مجده ، فكل جدار يغريه وكل ثرى يستدعيه ، وهو لا ينقش مساكن الملوك وحدها ، بل ينقش بيوت النبلاء وأثرياء البلاد ، ويزينها بما لا يقل عن زينة بيوت ممجي . على أن نجاحه هذا وكثرة ما ينال عليه من الطلبات لا يلثان حتى يفسدا عليه أمره ، وسرعان ما يؤدي حرصه على أن ينتهى مما بين يديه إلى قصوره عن الارتقاء إلى ما يقرب من الكمال فيما يصنع ، فيفضل الكم على الكيف ، ويكرر رسوم الأزهار حتى يمل الناظر إليها من التكرار ، ويصور الرجال بصور لا وجود لها في الحياة الواقعية ، ويقنع برسم الخطوط الخارجية ، وينحط بفنه إلى المستوى الذى يلزم فيه أن هذا الفن قد جاوز مجده الأعلى وأنه قد آن أوان موته . ولكن من حقه علينا أن نقول إن التصوير لم يمثل الطبيعة بمثل النضارة التى مثلها بها التصوير الكريتي ، مع جواز استثناء مصر القديمة وحدها من هذا التعميم .

وتتضافر الفنون كلها على بناء القصور الكريتيّة ، فالقوة السياسية ، والسيادة التجارية ، والثراء ، والترف ، وما تجمع في البلاد من رقة وسمو في الذوق ، كل هذا يحتم على المهندس ، والبانى ، والصانع ، والمثال ، وصانع الفخار والمعادن ، والتجار ، والمصور ، يحتم على هؤلاء كلهم أن يجمعوا ما وهبهم الله من حذق ليشيدوا به طائفة من حجرات ملكية ، ومكاتب إدارية ، وملاه ، وحلبات ألعاب لتكون محور الحياة الكريتيّة ومشاهد رقيها وعظمتها . يبنون في القرن الحادى والعشرين ثم يهدم بنيانهم في القرن العشرين ، فإذا جاء في القرن السابع عشر لا يكتفون فيه ببناء قصر مينوس بل يشيدون كثيراً غيره من الصروح الفخمة في كنوسس وفي نحو خمسين مدينة أخرى في الجزيرة المثريّة الرخية . ولقد كان عصر الحضارة الكريتيّة من أزهى العصور في تاريخ العارة .

وجدير بنا أن نذكر أن الذين شادوا قصر كنوس كانت تنقصهم وفرة مواد البناء والرجال ؛ فالمعادن قليلة في كريت والرخاء لا وجود له فيها على الإطلاق ، ومن أجل هذا تراهم يبنون بحجر الجير والجبس ، ويستخدمون الخشب في إنشاء الأروقة المقامة على العمدة والسقف وجميع الأعمدة التي فوق الطابق الأرضي . وهم يقطعون الكتل الحجرية قطعاً محدداً دقيقاً يستطيعون به أن يضعوها في أماكنها من غير ملاط . وهذه الأدوات شادوا حول فناء أوسط سعته عشرون ألف قدم مربعة ثلاثة أطباق من البناء أو أربعة يرق إليها بدرجات حجرية واسعة ، وتحتوى على ما لا حصر له من الحجرات مراكز للحراسة ، وحوانيت ، ومعاصر للخمر ، ومخازن ، ومكاتب لتصرف شئون الدولة ، ومساكن للخدم ، وحجرات للانتظار ، وأخرى للاستقبال ، ومخادع ، ومعبد ، وجب ، وحجرة عرش ، « وهو للبلطة المزدوجة » ، وبالقرب من هذه كلها دار للتمثيل ، وقصر صغير ذو حديقة ، ومقبرة . وفي الطابق الأسفل من القصر أقاموا عمداً مربعة ضخمة من الحجارة ، وأما في الأطباق العليا فقد أقاموها من خشب السرو . والغريب في هذه العمدة أنها رفيعة من أسافلها ثم تتدرج في السمك إلى أعاليها ، لتحمل السقف على تيجان ملساء مستديرة أو لتلقى بظلالها على جانبيها . وفي داخل هذا القصر وضع بناؤه مقعداً حجرياً ، مستنداً في مكان أمين إلى جدار جميل النقش ، وهذا المقعد الحجري منحوت نحواً بسيطاً ولكنه يشهد بمهارة من نحته وحذقه ؛ ويسمى الحمارون المستكشفون هذا المقعد الحجري عرش مينوس ، وفي وسع كل سائح جوال أن يجلس عليه في تواضع واحتشام ويتصور نفسه برهة من الزمان مسيطراً على هذا المقعد الذي يزيد على بضعة أشبار . وأكبر الظن أن هذا القصر الفسيح هو قصر التيه الشهير (لابرنت) أو هيكل البلطة المزدوجة (لبريس Labryth) الذي يعزوه الأقدمون إلى

ديدولوس والذي خلغ اسمه فيما بعد على كل شيء كثير التعاريج سواء كان(*) حجرات أو ألقاظاً أو آذاناً(٣٧) .

وكان الذين شادوا مدينة كنوسس قد أرادوا أن يدخلوا السرور على النفعيين أهل هذه الأيام الذين يهتمون بأنايب المياه أكثر من اهتمامهم بالشعر ، فجهزوا القصر بنظام لصرف مائه وفضلاته أرقى من كل نظام مماثل له في التاريخ القديم . فقد كانوا يجمعون في قنوات حجرية الماء الذي سيل على سفوح التلال أو ينزل من السماء ويسيرونه في أسطوانات مجوفة إلى حمامات(**) ومراحيض ، ثم يتقاون الفضلات في أنابيب من الصلصال المحروق مصنوعة على أحسن طراز - كل قسم منها طول قطره ست بوصات ، وطوله ثلاثون بوصة ، مزود بشرك لحجز الرواسب ، وممتد بطرف رفيع يدخل به في القسم الذي يليه ، ويرتبط به ربطاً محكماً يرباط من الأسمنت(٣٨) . وربما كان فيها جهاز يمد القصر الملكي بالماء الساخن(٣٩) (+)

وقد زين الفنانون في كنوسس داخل القصر على سعته بأرق وسائل البريق . فجملوا بعض الحجرات بالزهريات والتماثيل الصغيرة ، وبعضها الآخر بالصور الملونة أو النقوش البارزة ، وبعضها بالقوارير الحجرية أو الآنية

(٥) ليس قد لنا حجرات إلا افتراضاً محضاً بطبيعة الحال . وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن ما استخرج من نقوش القصر قد نقل كله إلى متحف هركيه لانيوم أو غيره من المتاحف ، وأن كثيراً مما بقي منه في موضعه قد رُم قزماً مجرداً من الذوق .
(٥٥) لم يعد المؤرخون الآن متفقين على أن الفجوات المربعة التي عثروا عليها في أرض بعض الحجرات كانت حمامات ، وحجبتهم في هذا أنها لا منفذ لها وأنها مصنوعة من الجبس وه ما يذيبه الماء شيئاً شيئاً(٣٧) .

(+) عثر مو **Mosse** على أنابيب للصرف شبيهة بهذه في البيت الحلى المقام في حاجياتريادا ، وقد وصفها بقوله : « لقد أدعشتي أن أرى في يوم من الأيام سقط فيه المطر مد ارا أن كل وسائل صرف المياه تعمل عملها بمنتهى الدقة والإتقان ، ولقد رأيت المياه في البالعات التي يستطيع الرجل أن يسير فيها واقفاً على قدميه . ولقي لأشك في أن نظاماً آخر للصرف غير هذا النظام قد بقي يؤدي عمله بعد أربعة آلاف عام من إنشائه »(٤٠) .

الضخمة ، وبعضها بتحف من العاج أو الخرف أو البرنز ، وأقاموا حول أحد الجدران طناً من حجر الجير عليه ألواح ذات ثلاثة حوز متساوية الأبعاد ، وأنصاف ورود ، ونقشوا حول جدار آخر عدداً من اللوالب على سطح طلي يمثل الرخام ؛ وحول جدار ثالث نقشوا صراعاً بين رجل وثور ، تجلت فيه جميع دقائق الصراع بغاية الوضوح ، ونشر المصور المينوي في جميع الأبناء والحجرات كل ما احتواه فنه المبهج من أمجاد ، فصور لنا في إحدى حجرات الاستقبال سيدات في ثياب زرقاء فاجأهن وهن يثرثرن ، وأبرز معارفهن ، وأذرعهن الجميلة ، وصدورهن ، وأندامهن الدفينة ؛ وصور على جدار غيره حقولاً من الأزورد والنيلوفر وغصون الزيتون ، وعلى جدار آخر سيدات في دار التمثيل ، ودلافين تسبح من غير حركة في ما البحر . وخير من هذه الرسوم الصورة الرائعة الذائعة الصيت ، صورة الساقى المنتصب القامة ، والقوى البنية ، يحمل دهاناً ثميناً في وعاء أزرق رفيع ، وقد جمّلت وجهه تربيته ويد الفنان ، وتدلّى شعره في غديرة سمكة على كتفيه الأسمرين وتلاّلت الحلّى في أذنيه ، وحول عنقه وفراعيه ومنطقته ، وزين ثوبه الغالى بصور جميلة لبعض الأزهار . وما من شك في أن هذا الساقى ليس من الرقيق ، بل هو شاب من أبناء الأشراف يفخر بما نال من شرف خدمة الملك . وجملة القول أن ليس في مقدور حضارة ما أن تتطلب أو تخلق مثل هذا الترف وهذه الزينة إلا إذا كان قد طال عهدا بالنظام ، والثراء ، والفراغ ، وسلامة الذوق .

الفصل الرابع

سقوط كنوسس

إذا ما رجعنا إلى ما قبل هذه الحضارة الباهرة نبحت عن أصلها ، وجدنا أنفسنا نتقلب بين آسية ومصر . فالكريتيون يبدون من جهة شديدي الصلة بالشعوب الهنديرية التي تسكن آسية الصغرى ؛ ففى هذه البلاد كما فى كريت تستخدم ألواح الصلصال للكتابة ، وكان فيها الشاقل وحدة الموازين . وفى كاريا من أعمالها كان يعبد زيوس لبرنديوس Zeus Labrandeus أى زيوس ذو البلطة المزدوجة Labrys ، وفيها كان الناس يعبدون الأعمدة والثور والجمامة ، وفى فريجيا كانت سييل العظيمة الشبيهة كل الشبه بالأم الإلهة فى كريت حتى لقد أطلق اليونان على هذه الأم اسم ريا سييل Rhea Cybele وعدوا الاثنتين إلهة واحدة (١٠) .

ومع هذا كله فإن الشواهد الدالة على أثر مصر فى كريت كثيرة فى كل عصر من عصور تاريخها . وقد بلغ تشابه الثقافتين فى أول عهديهما حداً جعل بعض العلماء يظنون أن موجة من الهجرة قد حدثت من مصر إلى كريت أيام الاضطراب الذى وقع فى عهد مينا (١١) . فالآنية الحجرية التى كشفت فى مكولوس والأسلحة النحاسية الباقية من الطور الأول من العصر المينوى القديم ، تشبه ما وجد من نوعها فى مقابر الأسر المصرية الأولى شهاً يثير العجب ، والبلطة المزدوجة تظهر على شكل تميمة فى مصر بل يظهر فيها كذلك « كاهن البلطة المزدوجة » . والموازين والمكايل الكريتية مصرية فى شكلها إن كانت أسيوية فى قيمتها ؛ والأساليب المستخدمة فى النقش على الحجارة

الكريمة ، وفى فن الخزف والتصوير تتشابه فى البلدين تشابهاً جعل اسينجلر يعتقد أن الحضارة الكريتية ليست إلا فرعاً من الحضارة المصرية^(٤٣) .

ولكننا لن نتهج نهج اسينجلر لأننا لا يجوز لنا أن نتغاضى عن فردية الأجزاء فى كلتا الحضارتين ، فالصفة الكريتية واضحة فى حضارتها كل الوضوح مميزة أشد التميز ، ولسنا نجد فى العالم القديم شيئاً آخر امتاز بالركة فى دقائق الفن وبالرشاقة المركزة فى الحياة والفن . ولنسلم جدلاً بأن الثقافة الكريتية أسيوية فى نشأتها العنصرية ، مصرية فى كثير من فنونها ، غير أنها فى جوهرها وفى كليتها تبقى حضارة فذة ، وربما كانت تنتمى إلى خليط معقد من الحضارات شأن جميع البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط ، حيث ورثت كل أمة فناً وعقائد وأساليب متماثلة متقاربة نشأت من ثقافة تنتمى إلى العصر الحجري الحديث كانت واسعة الانتشار فى تلك البلاد وقامت عليها حضارتها .

ومن هذه الحضارة المشتركة أخذت كريت فى شبابها وأمدتها بقسط بعد نضجها . وبفضل حكمها ساد النظام فى الجزائر المجاورة لها ودخل تجارها فى كل ثغر من ثغورها ، ثم استقرت مصنوعات وفنونها فى جزائر سكلديس وعمت قبرص ، ووصلت إلى كاريا وفلسطين^(٤٤) ، ثم سارت شمالاً إلى آسية الصغرى والجزائر المجاورة لها حتى بلغت طروادة ، واجتازت فى ناحية الغرب إيطاليا وصقلية إلى أسبانيا^(٤٥) ، وعمت بلاد اليونان حتى تساليا ، وبقيت فى تراث اليونان عن طريق مسيسينى وتيرنز ، وبذلك كانت كريت فى تاريخ الحضارة الحلقة الأولى فى سلسلة الحضارة الأوربية .

ولسنا نعرف أى طرق الاضمحلال الكثيرة هى الطريق التى سلكتها كريت اضمحلالها ، أو لعلها سلكت هذه الطرق الكثيرة كلها ، فقد اختفى ما كانت تشتهر به من غابات السرو والأرز ، وأضحى ثلثا الجزيرة اليوم صخوراً

حجرية صماء لا تستطيع الاحتفاظ بمياه الأمطار الشتوية^(٥) . ولعل أهلها هي أيضاً قد أسرفوا في تحديد النسل كما تسرف سائر الحضارات في عصور اضمحلالها، وتركوا الإكثار للعجزة والضعفاء . ولعل ازدياد الثروة والترف وما أعقبه من انهماك في الملذات الجسمية قد أضعف ما في السكان من حيوية ، وأضعف إرادتهم في أن يعيشوا ويدافعوا عن أنفسهم ، ذلك أن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية . ولعل انهيار مصر بعد موت إخناتون قد أحدث اضطراباً في التجارة التي كانت قائمة بين مصر وكريت ، وقلل من ثراء الملوك المينويين ؛ وغير خاف أن كريت ليس فيها موارد داخلية واسعة ، وأن رخاءها إنما يعتمد على التجارة وعلى الأسواق الخارجية لتصريف مصنوعات ، ولذلك أصبحت كإنجلترا في الوقت الحاضر تعتمد اعتماداً شديداً الخطورة على سيطرتها البحرية . وربما كانت الحروب الخارجية قد قضت على الكثيرين من شبانها الأقوياء ، وتركزت الجزيرة منقسمة مفككة لا تستطيع صد الغزاة الأجانب . وربما كانت الزلازل قد دكت قصورها ، أو أن أهلها قد انتقموا لأنفسهم في ثورة عنيفة مما قاسوه من ظلم واستبداد قروناً طوالا .

ذلك ما لا نعلمه علم اليقين ، وأما الذي لا شك فيه فهو أن قصر فستوس قد دمر مرة أخرى في عام ١٤٥٠ ، وأن قصر حاجيا تريادا قد التهمته النيران ، وأن بيوت الأثرياء في توليسوس قد اختفت من الوجود . ويلوح أن كنوس كانت في الخمسين سنة التي تلت ذلك العهد تستمتع بأعظم ما وصلت إليه من ثراء ، ومن سلطان لا ينازعها فيه منازع في جميع أنحاء بحر إيجه . وفي عام ١٤٥٠ التهمت النيران قصر كنوس نفسه ، فقد عثر لإيفنز في كل مكان فيه على شواهد دالة على اندلاع اللهب الذي لم يقو الأهليون على حصره — من كتل خشبية وأعمدة محترقة ، وأسرار مسودة ، وألواح طينية قد جمدها حرارة النار حتى استعصت على أنياب الزمان ، ولقد كان الدمار شاملا ، وكان اختفاء المعادن حتى من الحجرات التي غطتها الأنقاض وحمتها من النيران كاملا ،

مما جعل كثيرين من العلماء يظنون أن هذا الدمار(*) من فعل الغزاة لا من فعل الزلازل(٤٦). ومهما يكن سبب هذه الكارثة فإن الجزيرة قد أخذت بها على غرة ، ذلك أن بأما كن الفنانين وحوانيت الصناعات شواهد كثيرة على أن أصحابها كانوا منهمكين في أعمالهم حين حل الموت بهم ؛ وفي هذا الوقت عينه دكت قواعد جورنيا ، وبسيرا ، وزكرو ، وبليكسترو .

وليس لنا أن نظن أن الحضارة الكريتية قد انمحت في يوم وليلة ، فقد أعيد بناء القصور ، ولكنها بنيت متواضعة ، وظلت لمتنجات كزيت الفنية الغلبة على الفن الإيجي جيلاً أو جيلين من الزمان . وفي منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد نجد آخر الأمر شخصية كريتية بارزة — هي شخصية الملك مينوس التي تقص الرواية اليونانية عنها كثيراً من القصص المربعة . من ذلك قولها إن عرائس الملك قد ضايقتهن كثرة الأقاعي والعقارب في نطفته ، ولكن زوجته بسفائيه Pasiphae تخلصت منها بطريقة خفية عجيبة(٤٧) ، وأفلحت في أن تلد له كثيراً من الأبناء ، منهم فيدرا Phaedra (زوجة تسبوس وحييه هبوليتوس) وأريدى Ariadne ذات الشعر الأشقر . ولما أغضب مينوس بوسيدن Poseidon سلط هذا الإله على بسفائية هياما جنونياً بثور مقدس ، وأشفق عليها ديدلوس ، وبفضل صلته حملت في ميناتور الرهيب ؛ وسجن مينوس ذلك الحيوان في التيه الذي شاده ديدلوس إطاعة لأمره ، ولكنه كان يسترضيه بالضحايا البشرية من حين إلى حين(٤٨) . ولعل أطرف من هذه القصة قصة ديدلوس الخرافية رغم خاتمها المخزية ، لأنها تفتح ملحمة من أعظم الملاحم وأشدّها افتخاراً في التاريخ . فقد مثلته

(*) إذا سمحت لك أريخ التي يحدها رجال لا آثار بتأخير هذا الحريق الكبير . إلى ١٢٥٠ أو نحوها ، أصبح من السهل تفسير هذه الكارثة بأنها من حوادث فتح الآخيين لجزائر بحر إيجه ، ذلك الفتح الذي كان مقدمة لحصار طروادة .

الأقاصيص اليونانية في قصة أمير أثيني حسد ابن أخيه لمهارته ، فقتله في ساعة من ساعات غضبه ، ونفى القاتل نفيّاً أبدياً من بلاد اليونان عقاباً له على قتله . فلبجاً ديدلوس الطريد إلى قصر مينوس ، وأدهش الملك بمهارته في اختراع الآلات وغيرها مما لا عهد له به فقربه وجعله كبير ننانيه ومهندسيه . وكان ديدلوس مثالا حاذقاً ، وقد استخدمت الأقاصيص اسمه فجعلته رمزاً على انتقال فن النحت من الأنسكال الخامدة الميتة ، إلى صور الأناس الأحياء . ويحدثنا القصاصون بأن التماثيل التي صنعها كانت شديدة اشبه بالأحياء ، حتى لقد كانت تقف على أقدامها وتمشي إذا لم تشد إلى قواعدها^(١٩) . ولكن مينوس غضب على ديدلوس حين علم بما كان له من يد في عشق باسيفائية ، فحبسه هو وابنه إيكاروس Icarus في تبة اللابرنث ، فما كان من ديدلوس إلا أن صنع له ولابنه إيكاروس أجنحة استطاعا بها أن يقفزا من فوق الجدران ويطيرا فوق البحر المتوسط ، غير أن إيكاروس لم يأبه بنصيحة أبيه فاقرب من الشمس أكثر مما ينبغي ، وأذابت أشعتها الحارة ما على جناحيه من الشمع فغرق في البحر ، وتلك خاتمة تزدان بها القصة وتكسبها مغزى أخلاقياً . وأصبح فؤاد ديدلوس فارغاً بعد موت ولده ، فنزل في صقلية ، وبعث في هذه الجزيرة حضارة عظيمة بعد أن نقل إليها ثقافة كريت الصناعية(*) والفنية^(٥٠) .

وأشد من هذه القصة إثارة للشجن قصة ثيسوس وأدريدني . وخلصتها أن مينوس بعد أن انتصر في حرب على أثينة الناشئة الفتية ، فرض على هذه

(*) يعزو بوسنياس Pausanias أول من وضع أدلة السباح ، إلى ديدلوس كثيراً من التماثيل معظمها من الخشب ، كما يعزه إليه نقشاً على الرخام يمثل أدريدني وهي ترقص ، ويقول إنها كلها كانت موجودة في القرن الثاني بعد الميلاد^(٥١) . ولم يشك اليونان يوماً من الأيام في أن ديدلوس شخص حقيقى ؛ وإن تجارب شاميان لتجعة تشكك حتى في تشككنا . وليس أسهل على العلماء في جيل من الأجيال من أن يرفضوا الروايات القديمة ، ثم يأتي من بعدهم جيل آخر فيؤيدها أقوى تأييد .

المدينة أن ترسل إليه كل تسع سنين جزية من سبع بنات وسبعة شبان ،
يلتهمها الميناتور ، فلما حل الموعد الثالث للوفاء بهذه الجزية المذلة عمل ثسيوس
الوسيم على أن يكون هو من بين السبعة الشبان ، ورضى أبوه الملك لإيجيوس
بذلك على كره منه شديد ؛ وكان ثسيوس قد صمم على قتل الميناتور والقضاء
بذلك على هذه التضحية المتكررة . وأشفقت أدريدنى على الأمير الأثيني ،
وأحبه ، فأعطته سيفاً مسحوراً وعلمته حيلة بسيطة هي أن يفك خيطاً
مطويّاً على ذراعه حين يدخل التبة . وقتل ثسيوس الميناتور وسار متبعاً
الخيط حتى جاء أدريدنى وأخذها معه حين هرب من كريت . فلما وصلا
إلى جزيرة نكسوس Naxos تزوجها وفاء بوعده ، ولكنه غدر بها فأقلع
هو ورفاقه ، من الجزيرة في أثناء نومها (٥٢) .

وبعد أدريدنى ومينوس تختفي كريت من التاريخ وتظل مخفية حتى يأتي
ليكورج Lycurgus إلى الجزيرة ، ولعل ذلك كان في القرن السابع قبل
الميلاد . وثمة شواهد على أن الآخيين قد وصلوا إليها في أثناء غارتهم
الطويلة على بلاد اليونان في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ؛ ولقد
استوطنتها الغزاة الدوريون في أواخر الألف السنة الثانية قبل الميلاد .

ويقول كثيرون من الكريتيين وبعض اليونان إن ليكورج وجد فيها أمثلة
يجتذّبها في قوانينه ، كما وجد صولون أمثلة لقوانينه هو أيضاً وإن لم تبلغ
من الكثرة مبلغ ما وجده ليكورج . وكانت الطبقات الحاكمة في كريت
بعد أن سيطر الدوريون على الجزيرة ، تحيا حياة البساطة والتقشف في
الظاهر إن لم تكن في الواقع ، شأنها في ذلك شأن أسبارطة . وكان الشبان
يربون تربية عسكرية ، وكان الكبار من الرجال يأكلون مجتمعين في أبهاء
كبرى معدة لهذا الغرض (*) .

(٥) يمد الأثينيون هذا كله تاريخاً ، وقد ظلوا عدة قرون يحتفظون بالسفينة التي ساف
فيها ثسيوس من كريت ويرمونها كلما أصيبت بأذى ، ويتخذونها سفينة مقدسة يرسلون فيها
الرسل في كل عام للاحتفال بعيد أبولو في ديلوس . (٥ - ١ - ٢)

وكانت البلاد يحكمها مجلس من شيوخ المدينة ويصرف أمورها عشرة مؤمرون Kosmci يشبهون الإفورين Ephor في أسبارطة والأركونين Arckons في أثينة^(٥٤). وليس من السهل علينا أن نحكم هل أخذت أسبارطة ذلك النظام عن كريت أو أخذته كريت عن أسبارطة ؛ وربما كان النظام في المدينتين نتيجة محتومة لظروف متشابهة — هي الحياة المزرعة التي كانت تحياها طبقة عسكرية أرستقراطية من غير أهل البلاد بين أهلها الأقنان المعادين لها . ويلوح أن قوانين جورتيانا Gortyana المستنبذة نسياً ، والتي وجدت على جبلان تلك المدينة الكريئية ، قد وضعت في بداية القرن الخامس ؛ وليس ببعيد أن تكون هذه القوانين ، في صورة لها أقدم منها ، قد أثرت في المشترعين اليونان . وكان ثاليتاس Thaletas الكريتي يعلم الموسيقى في أسبارطة في القرن السادس قبل الميلاد ، كما كان ديبونس Dipoenus وسكليس Scyllis المثلان الكريتيان يعلنان فنانى أرجوس Argos وشيسيون Sicyon . وملاك القول أن الحضارة القديمة كانت تفرغ مشتملاتها بعشرات العشرات من القنوات في الحضارة الجديدة .

الباب الثاني

قبل أجمعنون

الفصل الأول

شليمان

في عام ١٨٢٢ ولد في ألمانيا صبي قدر له أن يكتب بمعه صفحة من أروع صفحات علم الآثار في القرن التاسع عشر . وكان والده مولعاً بالتاريخ القديم ، فنشأه على حب قصص هومر عن حصار طروادة ، ونجوال أديسيوس ، ولشد ما كان يحزنني أن أسمع منه أن طروادة قد دمرت عن آخرها تدميراً تاماً ، وأنها محيت من الوجود دون أن تخلف وراءها أثراً يدل عليها ^(١) . ولما بلغ هنريخ شليمان الثامنة من عمره وفكر في الأمر تفكيراً أوفى من تفكيره الأول أعلن أنه سيبه حياته للكشف عن المدينة المفقودة ، وفي العاشرة من عمره عرض على أبيه قصة لاتينية عن حرب طروادة . وفي عام ١٨٣٦ غادر المدرسة بعد أن حصل فيها علماً أرقى مما تطيقه موارده ، واشتغل صبيّاً عند بدال ، وفي عام ١٨٤١ خرج من همبرج خادماً على ظهر سفينة تجارية مسافرة إلى أمريكا الجنوبية ، وبعد اثني عشر يوماً من مغادرة السفينة الميناء غرقت ، وظل بحارتها تسع ساعات في قارب صغير تتقاذفهم الأمواج حتى ألقت بهم على سواحل هولندا . واشتغل هنريخ كاتباً ، وكان يكسب من عمله مائة وخمسين ريالاً أمريكياً في العام ، ينفق نصفها في شراء الكتب ويعيش على نصفها الآخر وعلى أحلامه ،

وأثمر ذكاؤه وجده ثمرتهما الطبيعية ؛ فلما أن بلغ الخامسة والعشرين كان تاجراً له مصالح مالية في ثلاث قارات ، ولما بلغ السادسة والثلاثين أحس بأنه قد حصل من المال كفايته فاعتزل التجارة ووهب وقته كله لعلم الآثار . « لقد كنت وأنا في غمرة الأعمال التجارية دائم التفكير في طروادة أو فيما قطعت له لوالدي من عهد علي أن أكشف عن آثارها(*) » (٢) .

وقد اعتاد في أثناء اشتغاله بالتجارة أن يتعلم لغة كل بلد يتجر معه ، وأن يكتب بهذه اللغة ما يتصل بأعماله في مفكرته اليومية (٣) . وهذه الطريقة تعلم اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والهولندية ، والأسبانية ، والبرتغالية ، والإيطالية ، والروسية ، والسويدية ، والهولندية ، والعربية . ثم ذهب إلى بلاد اليونان ودرس فيها لغة الكلام الحية ، وسرعان ما أصبح في مقدوره أن يقرأ اليونانية القديمة والحديثة بنفس السهولة التي يقرأ بها الألمانية . فلما تم له ذلك أعلن : « إنني لا أستطيع أن أعيش بعد الآن في غير أرض اليونان القديمة » (٤) . ولما أبت زوجته الروسية أن تغادر روسيا أعلن في الصحف رغبته في الزواج بيونانية ، ووصف بغاية الدقة كل ما يتطلبه في هذه الزوجة ، ثم اختار في السابعة والأربعين من عمره عروساً في التاسعة عشرة من بين الصور الشمسية التي أرسلت إليه . ولم يكد

(٥) وقد كتب شليمان يقول : « ولكنني أستطيع تعلم المردات اليونانية بسرعة حصلت على ترجمة يونانية حديثة ، إبول وفرجيبي وقرأتها من أولها إلى آخرها ، وقابلت كل كلمة بأختها في الأصل الفرنسي . فلما فرغت من هذا العمل عرفت على الأقل نصف ما يحتويه الكتاب من المفردات اليونانية ، وبعد أن كررت هذه العملية نفسها مرة أخرى عرفت كلها ، أو كدت ، من غير أن أصبح دقيقة واحدة في البحث عن هذه المفردات في معاجم اللغة ... أما الله اليوناني فلم أنعلم منه إلا علامات الإعراب والأفعال ، ولم أصبح وقتي الثمين في تعلم لغة لاني رأيت أن التلاميذ بعد أن يلاقوا المذهب ثمانين سنين أو أكثر منها يكسبون في تعلم قواعد النحو اليوناني ، يخرجون من المدرسة وليس منهم من يستطيع أن يكتب خطاباً باللغة اليونانية القديمة دون أن يرتكب فيه مائة من الأغلط . ولهذا أيقنت أن الطريقة التي يتبعها المدرسون في تعليم تلك اللغة خاطئة من أولها إلى آخرها .. أما أنا فقد تعلمت اللغة اليونانية القديمة كما لو كنت أنعلم لغة من اللغات الحية »

يرى صاحبة الصورة حتى تزوجها من فوره ، وتزوجها بطريقة الشراء القديمة دون أن يعنى بمعرفة حقيقة أمرها ، وطلب إليه أبواها ثمناً يتناسب مع ما يعرفان من ثرائه . ولما ولدت له زوجته طفلين ، لم يرض أن يعمدهما إلا إلا مكرهاً ، ولكنه كان في أثناء الاحتفال يضع نسخة من الإلياذة فوق رأسيهما ويقرأ منها مائة بيت بصوت عال . وسمى هؤلاء الأبناء أندروملاك ، وأجمنون . وسمى خادميته تلامون Telamon ، وبلوبس Pelops ، وأطلق على بيته في أثينة اسم بلروفون Bellerophon^(٧) . لقد كان شليان شيخاً افتنن بهومر إلى حد الجنون .

وفي عام ١٨٧٠ ذهب إلى الأرض المحيطة بطروادة - وهي الطرف الشمالى الغربى من آسية الصغرى - وأصر رغم آراء جميع العلماء في ذلك الوقت على أن طروادة بريام مدفونة تحت التل المسمى حصار لك . واستطاع بعد مفاوضات دامت عاماً كاملاً أن يحصل من الحكومة العثمانية على إذن بالحفر في هذا الموقع ، واستأجر ثمانين عاملاً وبدأ العمل . وكانت زوجته ، التي تحبه لما يتصف به من شذوذ ونزوات ، تشتبك معه في كدحه في الأرض من مطلع الشمس إلى مغيبها . وظلت العواصف الثلجية تهب من الشمال طوال الشتاء وتقذف الثرى في وجهيهما ، وكانت الرياح تندفع بقوة من ثغرات كوخيهما الضعيف فلا يستطيعان أن يحتفظا فيه بمصباح مضى أثناء الليل . « ولم يكن لدينا ما يدفئنا إلا نحسنا لعملنا العظيم ألا وهو كشف طروادة »^(٨) .

ومر عام كامل دون أن تثمر جهودهما ثمرة ما . ثم أخذت فأس أحد العمال تكشف ضربة في إثر ضربة عن وعاء نحاسى كبير ، ولما فتح هذا الوعاء تكشف عن كنز مدهش ثمين مكون من تسعة آلاف تحفة مختلفة من الفضة والذهب . وكان شليان ماكرأ فأخفى الكنز في لفاعة زوجته ، وصرف المال على غير انتظار منهم لكى يستريحوا ، وأمرع إلى كوخه ، وأغلق

عليه الباب ، وبسط الكنز الثمين أمامه على المنضدة ، ووصل ما بين كل قطعة منه وبين فقرة في شعر هومر ، وحلى رأس زوجته بجمهرة قديمة وأرسل إلى أصدقائه في أوربا يبلغهم أنه كشف عن « كنز پريام »^(٩) ؛ لكن أحداً منهم لم يصدقه ، واتهمه بعض النقاد بأنه وضع بنفسه الأشياء التي كشفها في المكان الذي استخرجها منه ، ورفع الباب العلى في الوقت نفسه قضية عليه يتهمه بالاستيلاء على الذهب من أرض تركية . لكن بعض العلماء أمثال فرشاو Virchow ، ودوريفلد Dörpfeld وبرنوف Burnouf هرعوا إلى موضع الحفر ، وحققوا أقوال شليمان ، ووصلوا العمل معه حتى كشفوا عن طروادة مدفونة بعد طروادة ؛ ولم تبق المشكلة القائمة بعدئذ هل كانت هناك طروادة أو لم تكن ، بل أصبحت محصورة في أى الطروادات التسع التي كشفت هي التي تطلق عليها الإلياذة اسم إليوس .

وفي عام ١٨٧٦ اعترف شليمان أن يحقق ملحمة هومر من ناحية أخرى — وهي أن يثبت أن أجمنون كان هو أيضاً شخصاً حقيقياً . واسترشد في عمله بوصف بوسنياس القديم لبلاد اليونان(*) ، فاحتفر أربعاً وثلاثين فجوة في ميسيني الواقعة في شرق ألبوهرنيز . وقطع عليه الموظفون الأتراك عمله بأن طالبوه بنصف الكنوز التي كشفها في طروادة ؛ ولم يشأ هو أن يترك « كنز پريام » في تركيا محتفياً عن الأنظار ، فأرسله سراً إلى متحف اللولة في برلين ، وأدى للباب العالى خمسة أمثال ما طلبه من تعويض ، وواصل أعمال الحفر في ميسيني . وكان النجاح في هذه المرة أيضاً حليفه ، ولما أن أبصر عماله يحملون إليه هياكل بشرية ، وفخاراً ، وأقنعة ذهبية ، أبرق إلى ملك اليونان يقول إنه كشف قبرى أتريوس وأجمنون^(١٠) . وفي عام ١٨٨٤ انتقل إلى تيرينز Tiryns واسترشد في عمله هناك

(٥) لقد طاف بوسنياس ببلاد اليونان في عام ١٦٠ م ووصفها في كتابه المسمى Periegesis أى الرحلة .

أيضاً بيوسنياس ، وكشف عن القصر العظيم وعن الأسوار الضخمة التي وصفها هومر (١١) .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إنه قلما خدم أحد علم الآثار كما خدمه شليمان . لقد كان هذا الرجل متصفا بعبوب فضائله ، ذلك أن حماسه كانت تدفعه إلى العجلة والتهور في عمله ، فأدى ذلك به إلى إتلاف كثير من الأشياء التي عثر عليها أو خلطها بعضها ببعض لكي يحقق بسرعة الهدف الذي كان يعمل لتحقيقه . يضاف إلى هذا أن الملحمين اللتين كانتا تهديانه في عمله قد أضلته فحسب أنه كشف عن كنز بريام في طروادة ، وعن قبر أجمنون في ميسيني . وارتاب العلماء في أنحاء العالم في تقاريره وظلت متاحف إنجلترا ، وروسيا ، وفرنسا زمناً طويلاً لا تصدق أن ما كشفه آثار قديمة بحق . وكان في هذه الأثناء يعزى نفسه بما ناله من مكانة عظمى في عينه هو ، ويواصل الحفر بشاعة حتى أقعده المرض . وتحير في آخر أيامه هل يصلح إلى إله المسيحيين أو إلى زيوس إله اليونان الأقدمين ؛ وكتب إلى ابنه يقول : « إلى أجمنون شليمان أحب الأبناء أرسل تحياتي ، وإلى ليسرني أنك ستدرس أفلو طرخس ، وأنت فرغت من زونوفون وإلى لأدعو أبانا زيوس وبلاس أثينة أن يجزياك من الصحة والسعادة ما يعادل جهودك مائة مرة » (١٢) . وتوفي عام ١٨٩٠ بعد أن أنهكه الكدح في الحر والبرد ، وقاسى ما قاسى من عداوة العلماء ، ومن حمى أحلامه التي لم تفارقه في يوم من الأيام .

لقد كشف شليمان - كما كشف كولبس - عن عالم أشد غرابة من العالم الذي كان يبحث عنه ، فلقد كانت هذه الجواهر أقدم بمئات السنين من بريام وهكيا Hecuba : ولم تكن تلك القبور قبور أثريدا ، بل كانت أطلال حضارة إيجية قامت في أرض اليونان الأصلية ، قديمة قدم العصر المينوي في كريت ، ولقد حقق شليمان ، دون أن يعرف ، بيت هوراس

الذائع الصيت « لقد عاش قبل أجمعون كثيرون من الرجال اليواصل » (*) .
وكلما توسع دوريفلد ، وملر Muller وتسونتاس Tsountas واستاتاكس
Stamatakis ، وولدشتين Waldstein ، وويس Wace في أعمال الحفر في
أرض البلوبونيز ، وواصل غيرهم الحفر في أتكاف وفي جزائر عوبيه Euboea
وبوئيا Boeotia ، وفوسيس Phocis وفي تساليا ، تكشف أرض
اليونان عن بقايا ثقافة قامت فيها في أزمنة ما قبل التاريخ . وفي هذه الثقافة
ارتقى الناس أيضاً من الهمجية إلى الحضارة بانتقالهم من حياة الصيد البدوية
إلى حياة الاستقرار والأعمال الزراعية ، وباستبدال النحاس والبرنز
بالحجارة ، وبما يسرته لهم الكتابة والتجارة من وسائل التقدم . إن الحضارة
على الدوام أقدم مما نتصور ، وتحت كل شبر من الأرض نطوئه بأقدامنا عظام
رجال ونساء عملوا وأحبوا كما نعمل نحن ونحب ، وكتبوا الأغاني وصنعوا
الجميل من الأشياء ؛ ولكن أسماءهم وحيواتهم نفسها قد ضاعت على مر
الزمان الذي لا يحفل قط بالرجال والنساء .

(*) وكاد دوريفلد وفرشاو يقرئانه في أوامر أيامه بأنه لم يكشف عن بقايا أجمعون
بل كشف عن جبل من الناس أقدم منه كثيراً . وبعد أن أظهر شليمان الشيء الكثير من الألم
المبرح تقبل قولها قبولاً حسناً وصاح قائلاً : « ماذا نقول لان ؟ إذن فليس هذا جسم أجمعون »
ولست هذه حلية ؟ فليكن ، ولنسمه إذن شلنز Schulz ، وظلوا من ذلك الحين يتحدثون
باسم « شلنز » (١٣) .

الفصل الثاني

قصور الملوك

على تل منخفض طويل ، على بعد خمسة أميال شرق أرجوس ، وعلى بعد ميل واحد في شمال البحر ، كان يقوم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد قصر تيريز الحصين . ويستطيع الإنسان أن يصل إلى خرائب هذا القصر بعد رحلة ممتعة من أرجوس أو نوبليا Nsuplicia ، ويشهد هذه الخرائب التي تكاد تضع معالمها بين حقول القمح والذرة الهادئة الساكنة . فإذا صعد السائح قليلاً فوق درجات حجرية باقية من أزمنة ما قبل التاريخ ، وقف أمام الجدران الضخمة السيكلوبية التي بنيت كما تقول الرواية اليونانية للأمير الأرجوسي بروقوس Proetus قبل حرب طروادة بمائتي عام (*) . ولقد كانت المدينة حتى في ذلك الزمن البعيد قديمة العهد ، فقد شاهدها كما تقول الرواية القديمة الماثورة البطل تيريز بن أرجس Argus ذو المائة عين ، والعالم لا يزال في طفولته (١٤) . وتضيف القصة إلى ذلك أن پروتيوس أهدى القصر إلى پرسوس الذي حكم تيريز مع الملكة أندرمدا Andromeda الحمراء .

وكان ارتفاع الأسوار التي تحمي المدينة بين عشرين وخمسين قدماً ، وقد بلغ من سمكها أن كانت تحتوى في بعض المواضع على معارض واسعة ذات قباب وعقود فيها قطع حجرية ضخمة مركبة بعضها فوق بعض في وضع أفقي ،

(*) كان اليونانيون يصفون الصروح بأنها سيكلوبية إذا كانت حسب ما يتصوره خيالم المولع بالأساطير لا يستطيع بناءها إلا المردة الجبابرة أمثال سيكلوس (أى صاحب العين المستديرة) الأعور الذي كان يكسح بكبر هبستوس Hephoeustus في براكين البحر المتوسط . ثم أصبح هذا الاسم يطلق في هندسة البناء على الأحجار التي تشاد بلا ملاط واثق تنحت نحتاً غير متقن . ويملاها بينها بالحصى المخلوط بالطين . وتضيف الرواية إلى هذا أن دورا س قد جاء بالبنائين المشهورين المسمين سيكلوس من لسيا Lycia .

ولا تزال بعض هذه الحجارة في أماكنها حتى الآن ، والكثير منها يبلغ طوله ست أقدام وعرضه ثلاثاً وسمكه مثلها ، أما أصغرها فيقول بوسنياس « إنه يصعب على اثنين من البغال أن يحركاها من أماكنها »^(١٥) . وكان في داخل الأسوار ، وراء مدخل شيد على نمط كثير من مداخل الحصون فناء واسع مرصوف ، حوله طائفة من الأعمدة ، ومن حول هذه الأعمدة عدد كبير من الحجرات شبيهة بحجرات كنوسس ، تجتمع حولها وفخم تبلغ سعته ألفاً وثلاثمائة قدم مربعة ، أرضه مرصوفة بالأسمنت المطلى وسقفه مقام على أربعة عمد بينها موقد . وهنا وجد مبدأ جرت عليه العائير اليونانية يختلف عما كان متبعاً في كريت . وهو فصل الجناح الذي تقيم فيه النساء عن حجرات الرجال . فقد كانت حجرة الملك وحجرة الملكة متجاورتين ولكنهما — على قدر ما نستطيع أن نستدل عليه من آثارهما — منفصلتان إحداهما عن الأخرى كل الانفصال ولا صلة بينهما من داخلهما . ولم يعثر شليمان من هذا القصر الحصين إلا على أساس الطابق الأرضي ، وقواعد الأعمدة ، وأجزاء من الجدران . وفي أسفل التل وجدت بقايا البيوت المقامة من الحجارة أو الآجر ، والقناطر ، وقطع من الفخار القديم . وفي هذا الموضع كانت مدينة تيرينز في عهد ما قبل التاريخ تتقارب بيوتها لتحتمي نفسها تحت أسوار القصر . ذلك أنه لا مفر لنا من أن نتصور بلاد اليونان في عصر البرنز تحيا حياة غير آمنة حول هذه القلاع الإقطاعية وفي داخلها .

وعلى بعد عشرة أميال في شمال هذه المدينة شاد بربسيوس (إذا أردنا أن نصدق قول بوسنياس)^(١٦) مدينة ميسيني — أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ . وهنا أيضاً نشأت حول قلعة منيعة مدينة من عدة قرى ، تضم عدداً من السكان النشيطين زراع ، وتجار ، وصناع ، ورقيق ، كانوا سعداء لأنهم ليس لهم تاريخ . وبعد ستائة عام من ذلك الوقت وصف هومر ميسيني بأنها « مدينة حسنة البناء واسعة الطرقات ، موفورة الذهب »^(١٧) . ولقد أبقى الزمان

على أجزاء من هذه الجدران الضخمة رغم ما مر بها. من مئات الأجيال التي تكفى لتخريب أقوى الصروح ؛ وإن ما بقى منها ليشهد برخص الأيدي العاملة وعدم اطمئنان الملوك على أنفسهم فى تلك الأيام . وفى ركن من أركان السور يوجد باب الأسد الشهير ، وهناك فوق أسكفة ضخمة نحت على حجر مثلث الشكل أسدان كبيران أبلاهما الزمان وحطم رأسيهما ، وأبقى على جسميهما ليحرسا وهما صامتان ذلك المجد المتيد الزائل . وعلى الرابية القريبة من هذا الباب ترى أطلال القصر . وفى وسعنا أن نفعل هنا ما فعلناه فى تيريز فنتبين فيها حجرة العرش ، وحجرات المخازن ، وحجرة النوم ، وحجرات الاستقبال . وهنا كانت فى غابر الأيام أرضيات منقوشة ، ومداخل ذات عمد ، وجدران ذات مظلمات ، وسلام فخمة .

وقد كشف عمال شليان ، بالقرب من باب الأسد فى بقعة ضيقة تحيط بها دائرة من القطع الحجرية المسطحة ، عن تسعة عشر هيكلًا عظيمًا ، وعن عاديات قيمة ثينة لا يسع من يراها إلا أن يغفر لهذا الهاوى العظيم ظنه أن هذه الحفر هى الحجرات التى دفن فيها أبناء أريوس . كيف لا وقد وصف بوسنياس القبور الملكية بأنها « فى أطلال ميسيني ؟ » (١٨) لقد كان من بين هذه الهياكل العظمية جماجم رجال عليها تيجان من الذهب ، وعلى عظام وجوهها أقنعة ذهبية ؛ وكان من بينها هياكل سيدات لهن تيجان من الذهب كن يلبسها على رؤوسهن التى لم يبق لها وجود . ومن بين ما وجد فى هذه المقابر آنية عليها رسوم جميلة ، وجفان من البرنز ، وكأس من فضة ، ورؤوس من الكهرمان والجمست ، وأدوات من المرمر والعاج والخزف ، وخناجر وسيوف مزخرفة ، ولوحة للعب شبيهة بالتي وجدت فى كنومس ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من الأدوات مصنوعة من الذهب الخالص - أختام وخواتم ، ودبابيس ، ومشابك ، وأقداح ، وخرز وأساور ، ودروع ، وآنية للزينة ، وأبواب مزركشة بصفائح رفيعة من الذهب (١٩) وليس ثمة شك فى أن هذه الجواهر جواهر ملوك . وأن هذه العظام عظام ملوك .

وقد كشف شليمان وغيره من العلماء فى سفح التل المقابل للسفح الذى شيد عليه هذا الحصن ، تسعة قبور تختلف كل الاختلاف عن « القبور البثرية » . فإذا ما خرج الإنسان عن الطريق النازل من القلعة دخل عن يمينه دهليزاً على جانبيه جدران من الحجارة الكبيرة الجيدة القطع . وفى آخر الدهليز مدخل بسيط كان يزدان فيما مضى بعمودين أسطوانيين رفيعين من الرخام الأخضر محفوظين فى المتحف البريطانى الآن ، ومن فوق العمودين أسكفة بسيطة من حجرين طول أحدهما ثلاثون قدماً ووزنه ١١٣ طناً . فإذا اجتاز السائح هذا المدخل ألقى نفسه تحت قبة ارتفاعها خمسون قدماً وقطرها خمسون ، وجدرانها من الحجارة المنشورة ، مقواة بصفائح من البرنز نقش عليها الورد ، وتركب كل طبقة من الحجارة على ما تحتها حتى تسد أعلى الطبقات قمة القبة . وقد اعتقد شليمان أن هذا الصرح العجيب هو قبر أحمنون ، ولم يتردد فى أن يصف قبة أخرى أصغر من هذه وجدت إلى جوارها وكشفتها زوجته بأنها قبر كليثمنسترا Clytaemnestra . وكانت كل القبور التى وجدت فى ميسنى والتى تشبه خلية النحل فى كثرتها خالية ، لأن اللصوص سبقوا علماء الآثار إليها بعدة قرون .

وهذه الآثار الدارسة شواهد باقية على حضارة كانت قديمة فى أيام بركليز قدم شليمان إلينا نحن . ويرجع المؤرخون المحدثون تاريخ المقابر البثرية إلى عام ٦٠٠٠ ق . م (أى قبل التاريخ الذى يحددونه لأحمنون بأربعائة عام) ، أما المقابر التى فى الجهة الأخرى من التل فيرجع تاريخها فى زعمهم إلى حوالى عام ١٤٥٠ ، ولكن تأريخ ما قبل التاريخ عملية بعيدة كل البعد عن الدقة . ولسنا نعرف كيف بدأت هذه الحضارة ، كما لا نعرف من هم أولئك الأقوام الذين شادوا مدائن فى موضعى ميسنى وتيريز ، بل وفى مواضع اسبارطة ، وأمكلى Amyclae وإيجينا Aegina ، واليوزيس Eleusis ، وقبرونيا Chaeronia ، وأرثومينوس Orthomenos ودلفى . وأكبر الظن أن هؤلاء الأقوام كانوا كثيرهم من الأمم قد أصبحوا خليطاً من

سلالات مختلفة ، ورثوا ثقافات متعددة ؛ فلقد كانت بلاد اليونان مختلطة
دماء أهلها قبل غزو الدورين (١١٠٠ ق . م) اختلاط دماء سكان إنجلترا
قبل فتح النورمان . ومبلغ ما نستطع أن نهتدى إليه بظننا أن الميسينيين كانوا
يمتون بصلة القرابة العنصرية للفريجيين والكاريين سكان آسية الصغرى ،
وللمينويين سكان كريت (٢٠) . وللأسدين اللذين وجدا في ميسيني وجهان
شبهان بآساد أرض النهرين ، ولعل هذه الفكرة القديمة قد انتقلت إلى هذه
البلاد عن طريق آشور وفريجيا (٢٠) .

وتسمى الرواية التاريخية الميسينيين باسم « پلاسجى » Pelasgi (وربما
كان معناه أهل البحر — پلاجوس Pelagos) ، وكانوا يصورونهم كأنهم
أتون من تراقية وتساليا إلى أنكا والبلوونيز في زمن يبلغ من القدم حداً جعل
اليونان يطلقون عليهم اسم السكان الأصليين ، أوتوكتنوى Autochthonoi
وقد صدق هيرودوت هذه القصة وقال إن الآلهة الأولمبية من أصل پلاسجى
ولكنه « لا يستطيع أن يقول وهو واثق ماذا كانت لغة الپلاسجى » (٢١)
ولسنا نحن أكثر منه علماً بها .

وما من شك في أن أولئك الأوتوكتنوين قد قدموا في عصر متأخر إلى
أرض كانت تزرع من أيام العصر الحجري الحديث ؛ ذلك أنه لا يوجد في
بلد من بلاد العالم سكان أصليون . وقد غلبهم على الزمان أقوام آخرون ،
وشاهد ذلك أننا نجد في العصور المتأخرة من تاريخ الميسينيين حوالى عام
١٦٠٠ ق . م دلائل كثيرة على غزوة تجارية ثقافية ، إن لم تكن سياسية
عسكرية ، لأرض البلوونيز ، من حاصلات كريت أو من مهاجرها (٢٢) .
وحجبتنا في هذا القول أن قصور تيرينز وميسيني قد خططت وزينت على
غرار القصور المينوية إذا استثنينا أقسام النساء في الأولى وهى التى لا نظير لها

فى الثانية . يضاف إلى هذا أن الآنية والأنماط الفنية الكريتية وصلت إلى
لإيجينا وكلسيس Chalcis وطيبة ، وأن سيدات ميسينى وإلهاتها
قد قلدن الطراز الكرىى الساحر فى الملبس والزينة ، وأن الفن الذى
كشفت عنه فى القبور البثرية المتأخرة مينوى بلارىب (٢٢) . وجلى أن
اتصال المينسينين بمحضارة أرقى من حضارتهم كان له ففهم أثر حافظ قوى ،
وأنه هو الذى رفع ميسينى إلى أرقى ما وصلت إليه حضارتها .

الفصل الثالث

الحضارة الميسينية

إن ما لدينا من آثار هذه الحضارة أقل من أن يمكننا من أن نصورها في صورة واضحة وضحوض الحضارات التي تنكشف عنها خربات كريت أو أشعار هومر . ولكننا نستطيع أن نقول عنها إن الحياة في أرض اليونان القارية كانت أقرب إلى مرحلة الصيد من الحياة في كريت ، وإن ما نجده بين بقايا الآثار الميسينية من عظام الطباء ، والخنازير البرية ، والمعز ، والضأن ، والأرانب ، والثيران ، والخنازير - بل عظام السمك والأصداف البحرية - ليدل على أن شهوة الطعام بين أولئك القوم قد وصلت إلى المرحلة التي يصفها لنا هومر ، والتي لا تلائم خصر الكريتين النحيل ، وتكشف الآثار في أماكن متفرقة عما بين أساليب الحياة « القديمة » و« الحديثة » من تشابه عجيب ، فقد نجد سهماً من الحجر الزجاجي إلى جانب مثقب برنزي أجوف كان يستعمل في عمل ثقوب في الحجارة للأوتاد^(٢٤) .

أما الصناعة فلم تكن متقدمة تقدمها في كريت ، فلما نجد في أرض اليونان القارية مراكز صناعية مثل جورنيا . كذلك كان نمو التجارة بطيئاً ، لأن البحار كانت عرضة لغارات القراصنة ، ومنهم الميسينيون أنفسهم . وكان ملوك ميسيني وتيرينز يستخدمون فنانين كريتين ليحفروا على الأواني والخواتم ، ما كانوا يقومون به من أعمال القرصنة التي يفخرون بها^(٢٥) . وكانوا يبنون مدنهم في داخل البلاد ليدفعوا عن أنفسهم شر غبرهم من القراصنة ، بعيدة عن البحر بعداً يمكنهم من أن يتقوا الغارات المفاجئة ،

وقريبة منه قريباً يمكنهم من الإسراع إلى سفنهم ، وكان موقع مدينتي
تيرينز ، وميسيني - إلى الطريق الممتد من خليج أرجولي إلى برزخ كورنث
يمكنهما من فرض إتاوات باهظة على التجار ومن القيام بغارات قرصنة
عليهم من حين إلى حين . ولما رأت ميسيني أن كريت قد أثرت من اشتغالها
بالتجارة المشروعة ، أدركت أن القرصنة ، كالأثرية البحرية ، وليدتها
المتحضره ؛ قد تخنق التجارة خنقاً وتذمر الفاقة في أوسع نطاق ؛ ولذلك
أصلحت أمرها وقبلت أن تتطور القرصنة فتصير تجارة . وما وافي عام
١٤٠٠ حتى بلغ أسطولها التجاري من القوة درجة استطاع بها أن يتنازع
كريت سلطانها البحري ؛ فرفضت أن تنقل بضائع ميسيني الداهية إلى
إفريقية عن طريق الجزيرة وأرسلتها إلى مصر مباشرة ؛ وقد يكون هذا
العمل سبباً أو نتيجة لحرب انتهت بتدمير القلاع الكريتية .

ولم تكن الثروة التي أفادتها البلاد من هذه التجارة مصحوبة بثقافة
تناسب معها ، ونستطيع أن نثبتها فيما بقي من الآثار . ونعزو الروايات
اليونانية إلى البلاسجيين فضل تعلم الحروف الهجائية من التجار الفينيقيين ،
وقد وجدت في تيرينز وطية جرار عليها رموز لم تحل بعد ، ولكن لم تكشف
قط ألواح من الصلصال ، أو نقوش ، أو وثائق ؛ وأكبر الظن أن ميسيني
حين أرادت أن يتعلم أهلها الكتابة استخدمت فيها مواد سريعة العطب ، كما
فعل الكريتيون في المرحلة الأخيرة من تاريخهم ، ولذلك لم يبق شيء من
هذه المواد . ونهج الميسينيون في الفن نهج الكريتيين ، وقلدوهم فيه بأمانة
جعلت علماء الآثار يظنون أنهم كانوا يأتون بكبار الفنانين من كريت ،
ولكن يرد على هذا بأنه بعد أن اضمحل الفن الكريتي ازدهر فن
التصوير أيما ازدهار في أرض اليونان ، فترى النقوش التي تزدان بها
أطراف الجدران وحليها ترقى إلى المرتبة الأولى في الفن وتبقى إلى عصر
ازدهار الحضارة اليونانية ؛ وكذلك يدل ما بقي من المظلمات على .

إحساس قوى بالحياة والنشاط . وترى « النساء اللاتي في المقاصير » من كبريات السيدات اللاتي تزدان بأمثالهن دور التمثيل في هذه الأيام : وقد صففن شعرهن وارتدين من الملابس ما يتفق مع أحسن طراز في الوقت الحاضر ؛ وهن أقرب إلى الحياة الحقة من « السيدات الراكبات في العربى » اللاتي خرجن للتنزه . في الحقول آخر النهار وتكلفن الجحود في ركبتن . وخبر من سيدات المقاصير منظر « صيد الخنازير البرية » وهو نقش من نقوش تيرنر . إن الخنزير والأزهار قد تحكم في تصويرهما العرف إلى حد لا يصدق العقل ، واللون القرنفل الغير المعقول قد شوهته بقع أرجوانية وسوداء وزرقاء تنمق مع النمط المألوف وقتئذ ، والنصف الخلفى من الخنزير المندفع في جريه يلقى تدريجاً حتى يشبه عذراء عالية الحذاءين تسقط من عريشة في قصرها . ولكن المطاردة رغم هذا مطاردة حقيقية ، والخنزير قد أعياه الطراد حتى وصل إلى درجة اليأس ، والكلاب تقفز بأقصى سرعتها في الهواء ، والرجل ، وهو أقوى الوحوش المفترسة عاطفة وأشدّها قسوة ، واقف متأهب يرعبه القاتل الفئاك^(٢٦) . ومن حق الإنسان أن يستدل من هذه النماذج على ما كان يستمتع به الميسينيون من حياة نشطة ومن أجسام قوية ، وما كان لنسائهم من جمال وما كان في قصورهم من زينة واضحة جميلة .

وأرق فنون ميسينى كلها ما كان منها على المعادن ، ففيها بلغت بلاد اليونان ما بلغته كريت ، وبلغ من جرأتها في هذه الناحية أن اتبعت فيها أشكالها الخاصة وزينتها . وإذا لم يكن شليان قد عثر بحق على عظام أبحمنون ، فقد عثر على ما يعادل وزنها فضة وذهباً . عثر على حلى كثيرة الأنواع ؛ وبكميات تدل على الإسراف الشديد ، وعلى أضرار ذات رؤوس خليقة بأن تكون في ملابس الملوك ، وحجارة كريمة حفرت عليها مناظر صيد أو حرب أو قرصنة ؛ ورأس بقرة من الفضة البراقة لها قرنان وجهه من النضة نقشت عليها ورود ، يتوقع الناظر إليها في أية لحظة من اللحظات أن تخور خواراً

عزنا ؛ قد يفسره شليان ، وهو الذى لا يعدم وسيلة لتفسير كل ما يراه ، بأنه اسم ميسينى (٢٧) : وأجل ما وجد فى تيرينز وميسينى من آثار معدنية خنجران من البرنز مرصعان بمزيج من الذهب والفضة ، ومصفحان بالذهب المجلول المصقول ، وعليهما نقوش تمثل قطعاً برية تطارد بطاً ، وأسداً تطارد فهاداً أو تحارب أناسى (٢٨) . وأغرب من هذه كلها الأقمعة الذهبية التى كانت على ما يظهر تغطى بها وجوه الموتى من الملوك . ويشبه أحد هذه الأقمعة وجه قطة ، وقد دفعت شليان شهامته إلى أن يعزو هذا القناع لأجمنون لا لكليتمنسترا .

ولكن أروع روائع الفن الميسينى بلاجدال لم يعثر عليها فى تيرينز ولا فى ميسينى ، بل عثر عليها فى قبر فى قفيو Vaphio بالقرب من أسبارطة حيث كان أحد صغار الأمراء ينافس ملوك الشمال فى التفاخر والعظمة . وقد عثر فى ذلك المكان ، بين كنز آخر من الحلى ، على قدين من الذهب المطروق بسيطين فى شكلهما ولكنهما بدل فى صنعهما كل ما يستطيع الفنان المحب لفنه العظيم أن يبذله فيه من الصبر والإتقان . وتشبه صناعة هذين القدين أحسن الصناعة المينوية ، وقد أغرى ذلك بعض العلماء على أن يعزوهما إلى فنان كريتى عظيم بلغ من المنزلة فى كريت ما بلغه تشلىنى عند الإيطاليين ، ولكننا يحزننا أن تحرم الثقافة الميسينية أحسن ما خلفت من آثار . نعم إن موضوع النقوش التى على القدين - وهو اقتناص ثور وترويضه - يسدو من الموضوعات التى اختصت بها كريت ، ولكن كثرة هذا المنظر وأمثاله محفورة على الحوائم والأختام الميسينية ، أو مصورة على جدران القصور ، تشهد بأن مصارعة الثيران . كانت منتشرة فى أرض اليونان انتشارها فى الجزيرة . وقد نقش على أحد القدين منظر الثور وقد صيد فى شبكة من الجبال السميكة ، وفتح فاه ومنخرية وهو لا يكاد يستطيع التنفس من شدة

«الغضب وفرط التعب ، وكلما حاول التخلص من الشر كضاقته عليه حلقاته ؛ وعلى الجانب الآخر ثور ثان يقفز قفزة الرعب والهلع ، وثالث يهاجم غلاماً من الرعاة أمسكه بشجاعة نادرة من قرنيه . وعلى القدح الثاني يساق الثور المصيد ؛ فإذا أُر دنا القدح رأيناه قد رضى بقيود الحضارة ، وانهمك على حد قول إيفنز في « حديث غرامى » مع بقرة^(٣١) . وقد مضت قرون كثيرة بعد ذلك العهد قبل أن يظهر مثل هذا الصنع البديع في بلاد اليونان .

ويوجد الميسيني نفسه ، كما توجد معظم مخلفات فنه ، في قبوره ، ذلك أنه كان يطوى موتاه ويدفنهم في جرار غير مريحة ، وقلما كان يحرق جثثهم كما كان يفعل بها في عصر الأبطال .

ويستبدل من مخلفاته على أنه كان يؤمن بحياة من نوع ما في الدار الآخرة ، لأن أدوات ذات قيمة ونفع قد وجدت في قبوره . وفيما عدا هذا فإن الدين الميسيني ، على قدر ما تكشف لنا من مقدماته ، قوى الدلالة على أنه نشأ من الدين الكريتي أو كان قوى الصلة به ، ففيه — كما في كريت — نجد البطلة المزدوجة ، والعمود المقدس ، والإمامة الإلهية ، وعبادة أم إلهة ممثلة في إله غلام لعله ولدها ؛ وهنا أيضاً نجد أرباباً صغاراً في صور أفاع . وقد بقيت الأم الإلهة في بلاد اليونان خلال كل ما حدث في دينها من تطور وتغيير ، فقد جاءت بعد ريا Rhea الكريتية ديمتر Demeter أم اليونان الحزينة ، وبعد ديمتر جاءت العذراء أم الإله . وإذا ما وقف الإنسان اليوم على أطلال ميسيني رأى في القرية الصغيرة القائمة أسفلها كنيسة مسيحية متواضعة ، لقد ولى عصر الآبهة والفخامة ولم تبق إلا البساطة والسلوى .

وازدهرت ميسيني بعد سقوط كنوسس كما لم تزدهر من قبل ، واستخدمت الثروة الطائلة المتزايدة التي كانت « لأسرة القبور البثرية » في تشييد القصور

الفخمة على تلال ميسيني وتيرينز ، واتخذ الفن الميسيني لنفسه طابعاً خاصاً ،
وامتوى على أسواق بحر إيجه ، ووصلت تجارة أمراء البلاد شرقاً إلى قبرص
وسورية ، وجنوباً إلى مصر مارة بجزائر سكلديس ، وغرباً إلى أسبانيا
ماردة بإيطاليا ، وشمالاً إلى نهر الدانوب مخترقة بووتيا ونساليا ، ولم يقف في
سبيلها إلا طروادة . وكما أن رومة قد استحوذت على حضارة اليونان
ونشرت في أنحاء العالم ، كذلك فعلت ميسيني فاستحوذت على ثقافة كريت
المختصرة ونشرت الطور الميسيني من أطوار تلك الحضارة في عالم البحر
المتوسط كله

الفصل الرابع

طروادة

بين كريت وأرض اليونان ٢٢٠ جزيرة منشورة في بحر إيجه في دائرة حول ديلوس ، ومن أجل ذلك سميت السكلديس : ومعظم هذه الجزائر صخرى قحل ، وهي بقايا قمم جبال كانت تمتد في أرض غرق بعضها تحت ماء البحر ، ولكن بعضها كان غنياً بالرخام أو المعادن إلى حد جعل أهلها يعملون في استخراجهما ؛ وأنشأوا فيه حضارة على مر القرون القديمة قبل أن يطل علينا التاريخ اليوناني . وقد قامت المدرسة البريطانية في أثينة عام ١٨٩٦ بأعمال الحفر في أرض ميلوس Melos عند فيلاكوبي Phylakopi وعثرت على أدوات وأسلحة وفخار مشابهة شهاً يثير الدهشة لآثار العصور التي مرت بها الحضارة المينوية عسراً عسراً ؛ واستطاع الباحثون بفضل البحوث التي أجريت في عصرها من الجزائر أن يرسموا صورة جزائر السكلديس في عصر ما قبل التاريخ تتفق في زمنها وصفاتها مع الصورة المستعادة التي رسمها المنقبون لكريت ، وكانت جزائر السكلديس ضيقة الرقعة لا تزيد مساحة أرضها كلها على ألف ميل مربع ، فكانت من هذه الناحية شبيهة ببلاد اليونان عاجزة عن الاجتماع في قوة سياسية موحدة ؛ ولم يكد يحل القرن السابع قبل الميلاد حتى خضعت هذه الجزائر الصغيرة في حكمها وفنوها ، بل خضع بعضها في لغته وكتابه ، لسيطرة الكريتيين ؛ ولما أن حل الطور الأخير من أطوار الحضارة الكريتيية (١٤٠٠ - ١٢٠٠) انقطع ما تستورده تلك الجزائر من كريت ، وولت وجهها شطر ميسيني تستورد منها فخارها وأساليها

وإذا اتجهنا نحو الشرق إلى جزائر أسبوراديس Sporades (أي المتفرقة) ألفينا في جزيرة رودس ثقافة أخرى في عصر ما قبل التاريخ من نوع الثقافات

الإيجية البسيطة ، أما في قبرص فإن رواسب النحاس الغنية التي اشتق منها اسم الجزيرة قد أفادت عليها قدرأ من الثراء دام حتى عصر البرنز (٣٤٠٠ - ١٢٠٠) ، ولكن مصنوعاتها(*) ظلت مع ذلك خشنة غير مهذبة لا تمتاز في شيء إلى ما قبل السيطرة الكريتية . وكان أهلها الذين يغلب عليهم العنصر الآسيوى يستخدمون كتابة مقطعية شديدة الصلة بالكتابة المينية ، ويعبدون إلهات تنحدر من إشتار السامية ، وهى التى قدر لها أن تصبح أفروديتى إلهة اليونان^(٣٢) . ثم تمت صناعة المعادن في الجزيرة نمواً سريعاً بعد عام ١٦٠٠ ؛ وأخذت المناجم التى تمتلكها الحكومة الملكية تصدر النحاس إلى مصر ، وكريت ، وبلاد اليونان ؛ وكان المصنع المقام في إنكومى Enkomi يصنع الخناجر الذائعة الصيت ، وكان الفخرايون يبيعون آنيهم المستديرة في جميع البلاد الممتدة من مصر إلى طروادة . وفي القرن الأخشاب من الغابات ، وأخذ سرو قبرص ينافس أرز لبنان . وفي القرن الثالث عشر أنشأ المستعمرون الميسينيون المستعمرات التى أضحت فيما بعد مدناً يونانية وهى پاثوس Pathos مدينة أفروديتى المقدسة ، وسيتيوم Citium ، مسقط رأس الفيلسوف زينون ، وسلاميس القبرصية التى حط فيها صولون رحاله في أثناء تجواله ليُحل القانون محل القوضى .

وعبرت التجارة الميسينية كما عبر النفوذ الميسيني البحر من قبرص إلى سوريا وكاريا ، ومنهما انتقلا عن طريق الشواطئ والجزائر الآسيوية حتى وصلا إلى طروادة . وهناك كشف شليمان ودوريفلد على تل تفصله عن البحر ثلاثة أميال عن تسع مدن كل واحد فوق الأخرى كأنما كان لطرودة تسع حيوات .

١ - فكان في الطبقة الدنيا بقايا قرية من العصر الحجري الحديث يصل تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق - م ، وقد وجدت فيها جدران من الحجارة غير

(*) ثابر على جمعها القائد دى سنولا di Cesnola ، ، هى الآن محذوطة في المتحف القنى بنيويورك .

المنحوتة بينها طبقات من الطين ، كما وجدت قواقع حلزونية ، وقطع من العاج المشغول ، وأدوات من الحجر الزجاجي ، وقطع من الفخار المصقول باليد .

٢ - ووجدت فوق هذه الآثار أنقاض المدينة الثانية التي اعتقد شليمان أنها طروادة هومر . وكانت أسوارها المحيطة بها مقامة من حجارة ضخمة كأسوار تيريز وميسني ، وكان في أماكن متفرقة منها حصون وفي أركانها أبواب ضخمة مزدوجة لا يزال اثنان منها باقين حتى الآن . وهناك أيضاً بيوت باقية تعلو نحو أربع أقدام ، وقد بنيت من الآجر والخشب فوق أساس من الحجارة . ويستدل مما عثر عليه فيها من فخار مطلي بطلاء أحمر ، مصنوع على العجلة ولكنه خشن فج ، على أن هذه المدينة كانت قائمة في الفترة المحصورة بين ٢٤٠٠ ، ١٩٠٠ على وجه التقريب . وقد حل البرنز فيها محل الحجر في صنع الأدوات والأسلحة ، وكثرت فيها الحلى ، ولكن التماثيل الصغيرة قبيحة المنظر بدائية الصنع . ويتضح من مخلفات هذه المدينة الثانية على أن النار قد دمرتها ، فأثار النار كثيرة فيها كثرة اقتنع معها شليمان بأن هذا كان من عمل يوناني أبحمنون .

(٣ - ٥) ووجدت من فوق « المدينة المحروقة » بقايا ثلاث دساكر متتالية صغيرة وفقيرة ، لا قيمة لها من الناحية الأثرية .

٦ - وقامت حوالي ١٦٠٠ ق . م مدينة أخرى على هذا التل التاريخي . وقد دفعت السرعة والحماسة شليمان إلى أن يخلط عاديات هذه الطبقة بعاديات الطبقة الثانية ، وأن يصف المدينة السادسة بأنها « مستقر ليدى » (٣٣) لا خطر له ، ولكن دوريفلد واصل الحفر بعد موت شليمان مستعيناً إلى وقت ما بمال شليمان نفسه (٣٤) حتى كشف عن مدينة أكبر كثيراً من المدينة الثانية مزدانة بالمباني الكبيرة مقامة من حجارة مسواة ، يحيط بها سور يرتفع فوق الأرض ثلاثين قدماً بقيت له ثلاثة من أبوابه . ووجدت في أنقاض

المدينة مزهريات ذات لون واحد أدق صنعا من المزهريات التي وصفناها من قبل ، كما وجدت فيها آنية كآنية أوركمنوس Orchomenos المينة Minyan ، وقطع من الفخار شبيهة بما وجد في ميسيني إلى حد اعتقد معه دوريفلد أنها مستوردة من هذه المدينة الثانية وأنها لذلك معاصرة لأسرة القبور البثرية (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق . م) . ويرى معظم العلماء أن هذه المدينة السادسة هي طروادة هومر مستندين إلى هذه الآثار وإلى عوامل أخرى أقل منها ثباتاً واستقراراً^(*)(٣٥) . ويخضون بها « كنز بريام » الذي ظن شليمان أنه عثر عليه في المدينة الثانية ، والملكون من ستة أساور ، وطاسين ، وتاجين ، وعصابتين للرأس ، وستين قرطاً و ٨٧٠٠ قطعة أخرى كلها من الذهب^(٣٦) . ويؤكد لنا المؤرخون أن المدينة الثانية قد دمرتها النار أيضاً حوالي عام ١٢٠٠ ق . م ، ويحدد المؤرخون اليونان حصار طروادة بالفترة واقعة بين : ١١٩٤ ، ١١٨٤ ق . م^(**) .

وبعد ، فن هم الطرواديون ؟ تذكر إحدى البرديات المصرية اسم اللردنيويين Dardenui بين أحلاف الحثيين في واقعة قادش (١٢٨٧) ، ويحتمل أن يكون هؤلاء هم أسلاف اللردنيويين Dardenoi وهم في لغة هومر الطرواديون أنفسهم^(٣٧) . والراجح أن هؤلاء الأقوام ينتمون إلى أصل

(*) يعتقد الدكتور كارل بليجن Dr. Carl Blegen مدير أعمال الحفر التي تقع بها بقعة جامعة سنستاف في طروادة (١٩٣١ وما بعدها) على أن مدينة طروادة السادسة قد دمرت حوالي عام ١٣٠٠ ويرجح أن ذلك كله كان بفعل زلزال ، كما يعتقد أن المدينة السابعة قامت فوق أنقاض هذه المدينة . وهو يسمي هذه المدينة السابعة طروادة بريام . أما دوريفلد فيسمي هذه المدينة طروادة رقم ٦ ، انظر مجاهد بصحيفة الدراسات اليونانية *Journal of Hellenic Studies* العدد السادس والخمسين ص ١٥٦ .

(**) كانت طروادة السابعة مستقراً صغيراً غير محصن قامت في ذلك المكان حتى أنشأ (أ) الإسكندر الأكبر في عام ٣٣٤ طروادة الثامنة تخليداً لذكرى هومر . (٩) وشاد الرومان في بداية التاريخ المسيحي اليوم أو طروادة الحديثة *Novum Illium* التي بقيت إلى القرن الخامس بعد الميلاد .

بلقاني ، وأنهم عبروا مضيق الهلسينت في القرن السادس عشر مع أبناء عمومتهم
الفريجيين واستقروا في وادي نهر اسكندر Scamander الأدني (٢٨) .
أما هيرودوت فيوحد بين الطرواديين والتبكرين Teucrians وهؤلاء في
رأى اسطرابون أقوام من كريت استقروا في الصقع الذي بنيت فيه طروادة
فيما بعد(*) ، ولعل استقارهم في ذلك المكان كان بعد سقوط كنوسس (٤٠) .
ولقد كان لكريت وطروادة جميعاً جبل مقدس يسمى جبل أيدا « جبل
أيدا ذا الفوارات الكثيرة » الذي يذكره هومر وتينيس Tnnyson . ولقد
تعرض هذا الإقليم في أوقات مختلفة إلى مؤثرات سياسية وجنسية من
أرض الحبشين الواقعة خلفه . وتدل أعمال الحفر في جملتها على وجود
حضارة بعضها مينوى ، وبعضها ميسيني ، وبعضها أسوي ، وبعضها
دانوبي Danubian .

ويصف هومر الطرواديين بأنهم كانوا يتكلمون لغة اليونان ويعبدون
آلهتهم ، ولكن اليونان المتأخرين عن عصر هومر كانوا يقولون إن طروادة
مدينة أسبوية ، وإن حصارها الذائع الصيت هو أول الأحداث المعروفة
في النزاع القائم بين الساميين والآريين ، وبين الشرق والغرب (٤١) .

وأهم من مظهر أهلها وجنسهم موقع المدينة المنيع قرب مدخل الهلسينت
والأراضي الغنية المحيطة بالبحر الأسود . لقد كان هذا المر الضيق في التاريخ
كله ميدان القتال بين الإمبراطوريات ، وكان حصار طروادة هو معركة غليولى

(*) ترجع الرواية اليونانية اسم طروادة إلى البطل الإيوني تروس Tros والدليل
Ilos والدلومدون Leomedon والدبريام (٢٩) . وهذا منشأ الأسماء المختلفة التي تطلق على
المدينة : ترواس Troas لإيوس Ilios إلى يون Ilion اليوم Ilium . والبطل الإيوني أو الإيوني
شخص خرافي في أغلب الظن ، تمزج إليه جماعة سياسية أو اجتماعية أصلها واسمها . فالدردانيون
مثلاً يعتقدون أو يدعون أنهم من دردانوس بن زيوس ، ويعزو الدوريون أصلهم إلى دورس
Dorus والأيليون إلى أيون وهلم جرا .

الحديثة نشبت في عام ١١٩٤ ق . م . وكان السهل القائمة عليه بمثل درجة لا بأس به من الخصب ، وكانت الأرض المجاورة له من الشرق غنية بالمعادن الثمينة ؛ ولكن هذه الثروة وحدها لا يمكن أن تكون سبب ثراء طروادة أو هجمات اليونان عليها . إن أهم من هذا في رأينا أن موقع المدينة كان يمكنها من فرض المكوس على السفن المارة بالهلسنت ، وكانت هي في الوقت عينه بعيدة عن البحر بعداً يجعلها في مأمن من الهجمات البحرية^(٤٣) . وربما كان هذا السبب لا وجه هلن Helen الجميل هو الذي جردت من أجله ألف سفينة للهجوم على اليوم . وثمة رأى آخر يفسر ثراء طروادة - وربما كان أرجح من الرأى الأول - وهو أن التيارات المائية والرياح الجنوبية في مضيق الهلسنت قد جعلت التجار يفرغون بضائعهم في طروادة ويتقنونها برأى داخل البلاد ، وأن طروادة قد حصلت من المكوس التي تتقاضاها نظير قيامها بهذا العمل على ما تجمع لها من قوة^(٤٤) . ومهما يكن سبب هذا الثراء فإن تجارة المدينة نمت نمواً سريعاً كما يستدل على ذلك من اختلاف المصادر التي تنتمي إليها آثارها . فقد كان يأتي إليها من الجزء الجنوبي من بحر إيجه النحاس ، وزيت الزيتون ، والخمر ، والفخار ، ومن بلاد الدانوب وتراقية : الفخار ، والكهرمان ، والحلج ، والسيوف ؛ ومن بلاد الصين النائية أشياء نادرة كحجر الشب^(٤٥) . وكانت طروادة تستورد من داخل البلاد المحيطة بها خشباً ، وفضة ، وذهباً ، وحرابية ، وتصلها إلى الخارج .

وكان أهل طروادة « مروضو الخيول » المقيمون في زهو وخيلاء داخل أسوارهم ، يسيطرون على ما حولهم من البلاد ويفرضون المكوس على تجارتها البرية والبحرية .

والصورة التي تطالعنا في الإلياذة عن بريام وبنته هي صورة العظيمة والعطف الأبوى التي تطالعنا في أسفار التوراة . فالملك كثير الزوجات ، ولم يكن منشأ هذه الكثرة حب النعمة بل كان منشؤها ما يشعر به من تبعة تفرض

عليه أن يستمر في إنجاب الأبناء وزيادة عددهم . أما أبناء الملك فيقتصرون على زوجة واحدة ، وكلهم حسنو الأخلاق مستقيمون — إذا استثنينا بطبيعة الحال باريس المرح الذي كان بعيداً عن حسن الخلق بعد ألقبيادس . وإن هكتور Hector ، وهلنوس Helenus ، وترويلوس Troilus لأجدر بالحب من أجمنون المتقلب ، وأديسيوس Odysseus الغدار ، وأخيل المشاكس ، وأن드로ماك Andromache وبلكسينا Polyxena لا تقلان سحراً وفتنة عن هيلين وإفجيزيا Iphigenia ؛ وهكيا أحسن قليلاً من كليتمنسترا . والطرواديون في جملتهم كما يصورهم أعداؤهم يبدون في نظرنا أقل خداعاً ، وأكثر وفاء ، وأحسن تهدياً ، من اليونان الذين غلبوهم على أمرهم . ولقد أحس الفاتحون أنفسهم بهذا التفوق في أواخر أيامهم ؛ ولم يبخل هومر على أهل طروادة بكلمة طيبة ؛ ولم يترك سافو Sappho ولا يورپديز شكاً في الناحية التي يريان أنها خديعة بعطفهما وإعجابهما .

ولقد كان من دواعي الأسف أن يعترض هذا الشعب طريق بلاد اليونان المتوسعة التي جاءت ، رغم عيوبها الكثيرة ، إلى هذا الإقليم وإلى غيره من أقاليم البحر المتوسط في آخر الأمر بحضارة أرقى من كل الحضارات التي عرفها من قبل .

الباب الثالث

عصر الأبطال

الفصل الأول

الآخيون

عثر المتقنون في بوغاز كوي Boghaz Keui على ألواح حثية قليلة يرجع عهدها إلى حوالي عام ١٣٢٣ ق . م تصف الأهجاا Ahhijava بأنهم شعب لا يقل في قوته عن الحثيين أنفسهم . وورد في سجل مصرى يرجع إلى حوالي عام ١٢٢١ ق . م أن الأكبواشا Akaiwasha انضموا إلى غيرهم من « شعوب البحر » في غارة لوبية على مصر ، ويصفهم بأنهم عصابات رحل « يقاتلون ليشبعوا بطونهم ... »^(١) .

والآخيون كما يصفهم هومر في شعره شعب يتكلم اللغة اليونانية يسكن جنوبى تساليا^(٢) ، وإذا كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية فإن هومر يطلق اسمه على جميع اليونان الذين حاربوا طروادة . ويصف المؤرخون والشعراء اليونان، الذين عاشوا في أيام مجد البلاد الأدبى ، الآخيين ، كما يصفون البلاجيين ، بأنهم أهل البلاد الأصليون ، وأنهم كانوا يعيشون فيها من أقدم الأزمنة التى تعيها الذاكرة ، واقترضوا من غير ما تردد أن الثقافة الآخية التى يصفها هومر كانت هى التى سميناها فى هذا الكتاب بالثقافة الميسينية ثقافة واحدة . وأخذ شلبان بهذا رأى ، وظل العلماء يأخذون به فترة قصيرة من الزمان .

ثم حدث في عام ١٩٠١ أن جاء رجل لإنجليزى عنيد هو سير وليم ريدجواى Sir William Ridgeway^(٢) وزعزع هذه الثقة العزيزة على نفوس العلماء بقوله إن الحضارة الآخية ، وإن اتفقت هى والميسينية فى نواح كثيرة ، تختلف عنها فى تفاصيل هامة : (١) فالحديد لا يكاد يعرف فى الحضارة الميسينية أما الآخيون فهم على علم به . (٢) ويذكر هومر أن موتى الآخيين يحرقون ، أما فى تيرينز وميسيني فهم يدفنون ، وهذا يدل على اختلاف هؤلاء وأولئك فى عقيدتهم عن الحياة الآخرة . (٣) والآلهة الآخية هى الآلهة الأولمبية ، وهذه لا أثر لها قط فى ثقافة ميسيني . (٤) إن الآخيين يستعملون سيفاً طويلة ، وتروساً مستديرة ودبابيس للصدور مأمونة ، ولم يعثر قط بين الآثار الميسينية على أدوات مشابهة لها فى الشكل . (٥) وبين الشعبين اختلافات كثيرة فى ملابسهم وفى تصفيف شعرهم . واستنتج ريدجواى من هذا أن الميسينيين بلاسجيون ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وأن الآخيين « كِلْت » شقر أو من شعوب أوربا الوسطى نزحوا إلى تلك البلاد مخترقين لإيروس وتاليا ابتداء من عام ٢٠٠٠ ق . م ، وجاءوا معهم بعبادة زيوس ، ثم غزوا البلوبونيز حوالى عام ١٤٠٠ ، واتخذوا اليونانية لغة لهم ، واتبعوا أساليب الحياة اليونانية ، وأقاموا من أنفسهم زعماء إقطاعيين يحكمون من قصورهم الحصينة البلاسجيين الخاضعين لسلطانهم .

وتلك نظرية تلقى بلا شك كثيراً من الضوء على أصل أولئك القوم حتى لو اضطر العلماء إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها . وما يؤخذ عليها أن الآداب اليونانية لا تذكر قط شيئاً عن غارة آخية على بلاد اليونان ، وأن ليس من الحكمة أن ترفض نظرية أجمع عليها العلماء بسبب زيادة تلميحية فى استعمال الحديد ، أو تبدل فى أساليب الدفن أو تصفيف الشعر ، وفى إطالة

السيف أو استدارة التروس أو التزين بدبابيس مأمونة . وأرجح من هذا الرأي أن نفترض ، كما كان يفترض كتاب اليونان الأقدمون ، أن الآخيين قبيلة يونانية انتشرت على أثر الزيادة الطبيعية في عددها من تساليا إلى البلوونيز في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر وامتزجت دماؤهم بلدءاء البلسجيين - الميسينيين الذين كانوا في تلك البلاد - وأنهم أصبحوا حوالي عام ١٢٥٠ ق . م الطبقة الحاكمة فيها^(٤) . وأغلب الظن أنهم هم الذين أخذ عنهم البلاسجيون اللغة اليونانية ، ولم يأخذوها هم عن البلاسجيين . وقد تكون ألفاظ كورنثة ، وتيرينز ، وپارنسس Parnassus ، وأولمبيا(*) وأمثالها من أسماء الأماكن ، قد تكون هذه أصداء للغة كريتيية - پلاسجية - ميسينية^(٥) . وبهذه الطريقة عنها ، فيما يبدو لنا ، فرض الآخيون آلهتهم المحلية والساوية على الآلهة - لأرضية التي كان يعبدها من قبلهم من الأهلين . أما فيما عدا هذا فليس ثمة فارق واضح بين الثقافة الميسينية وذلك الطور الأخير منها ، وهو الآخية ، الذي نجده في أشعار هومر . ويلوح أن أساليب الحياة عند هؤلاء وأولئك قد امتزجت وانصهرت حتى أمست أساليب واحدة . ثم انمحت الحضارة الإيجية ببطء بعد أن جرى هذا الامتزاج في مجراه ، وقضى عليها الفضاء الأخير في هزيمة طروادة ، ومن ذلك الوقت بدأت الحضارة اليونانية .

(*) وألفاظ يونانية أخرى مثل *sesamon* سمسم ، *kyprisos* (السرو) ، *hyssops* (الثنام) ، *oinos* (الخمر) ، *sandalon* (المسندل) ، *chaikos* (التحاس) ، *thalassa* (البحر) ، *molybdos* (الرصاص) ، *zephyros* (انفسيم) ، *kybernao* (يوجه السفينة) ، *sphongos* (الإسفنجة) ، *jaos* (النساس) ، *labyrinthis* (آليه) ، *klitharis* (الزيتار وهي آلة موسيقية شبيهة بالقيثارة) ، *syrix* (النأى) ، *paian* (تهليل) .

الفصل الثاني

خرافات الأبطال

توحى إلينا خرافات عصر الأبطال بأصل الآخين وبما آل إليه أمرهم . وليس من حقنا أن نغفل هذه القصص ، فهي وإن سادها خيال القتل وإراقة الدماء قد يكون فيها من الحقائق التاريخية أكثر مما نظن ، وهي ممزجة بالشعر والسر والفرن اليوناني امتزاجاً يجعل فهمها مستحيلاً بغير هذه القصص (*) ،

وتذكر التتوش الحثية اسم ملك يدعى أتا ريسياس Atarissyas تقول إنه ملك الأهيجا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأكبر الظن أنه هو أتريوس ملك الآخين (٦) . وتقول الأساطير اليونانية إن زيوس أعقب تنتالوس Tantalus ملك فريجيا (**) وإن هذا أعقب بلبس Pelops ، وأعقب بلبس أجمنون ، ولما نفي بلبس من وطنه جاء إلى إليس في غرب

(٥) بريسوس ... هرقليلس ... مينوس ، نيسوس ، جيسن ... إن من المؤلفين في هذه الأيام أن تعد هؤلاء وغيرهم من أبطال ذلك العصر ... من خلق الأساطير وسدها . أما اليه فان المتأخرون فقد كانوا في تقدم لتواريخ أيامهم الماضية لا يشكون في أن هؤلاء أشخاص حقيقيون حكموا بالفعل في أرجوس وغيرها من الممالك ، وقد أخذ كثيرون من النقاد الحديثين ، بعد أن ظلوا يشكون في آراء النقاد اليونان زمناً طويلاً ، أخذ كثيرون من هؤلاء النقاد يعودون إلى رأي اليونان ويرون أنه هو الرأي الذي يفسر ما لدينا من الشواهد بتفسيراً مقبولاً ... إن أبطال انقصص « أبطال حقيقيون » ، شأنهم في هذا شأن المواضع الجغرافية التي كانوا يتحركون فيها . تاريخ كيمر دج القديم المجلد الثاني ص ٤٧٨ . وسنفترض في هذا الكتاب أن الخرافات الكبيرة حقيقية في جوهرها وهرية في تفاصيلها .

(٥٥) وأعضب تنتالوس الآلهة بأن أفشى أسرارها ، وسرق شراها وطعامها ، وقدم لها بدلاً منها ابنة بلبس يد أن قطعه إرباً وغلاه . وأعاد زيوس جسم بلبس كما كان وجازى تنتالوس في الجحيم بأن سلط عليه ظمأ شديداً ، فوضعه وسط بحيرة ينحصر ماؤها كلما لم يشربه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما حلق فوقه وعلق فوق رأسه أغصاناً مثقلة بالفاكهة ، تبتد عنه كلما حاول الوصول إليها ، كما حلق فوقه سحرة تهدمه في كل وقت بأن تسقط عليه وتهشمه (٧) .

البلوبونيز حوالى ١٢٨٣ وصمم على أن يتزوج هبودوميا Hippodomia ابنة أونوماوس Onomaus ملك لإليس . ولا تزال القوصرة الشرقية فوق الهيكل العظيم المقام لزيوس فى أولبيا تقص علينا قصة خطبتهما . وقد كانت عادة الملك أن يختبر من يتقدمون لخطبة ابنته بأن يتبارى وإياهم فى سباق المركبات فإذا سبقه الخطيب تزوج هبودوميا ، أما إذا لم يسبقه فإنه يقتل . وحاول كثير من الخطابين أن يفوزوا بها ، ولكنهم خسروا السباق وخسروا حياتهم جميعاً ؛ وأراد پلپس أن يقلل ما يتعرض له من الأخطار بأن أرشى مرتيلوس Myrtilus سائق عربة الملك ليزيل المسامير التى تربط عجلات العربة بقطبها ، ووعده بأن يقتسم معه المملكة إذا أفلحت خطبتهما . وحدث فى أثناء المباراة أن انكسرت عربة الملك وقتل ، وتزوج پلپس هبوداميا وحكم لإليس ولكنه لم يقتسم مملكته مع مرتيلوس بل ألقاه فى البحر ؛ وصب مرتيلوس وهو يفرق لعنة على پلپس وعلى جميع نسله .

وتزوجت ابنة پلپس سثنلوس Sthenelus بن پرسبوس ملك أرجوس ؛ وورث الملك من بعده ابنهما يوريسثيوس Eurystheus ، ولما مات خلفه عمه أتريوس . وتزوج أجمنون ومنلوس Menelaus ابنا أتريوس كليتمنسترا وهلى ابنتى تنداريوس Tyndareus ملك لاسيديمون Lacedaemon ، ولما مات أتريوس وتنداريوس اقتسم أجمنون ومنلوس فيما بينهما بلاد البلوبونيز الشرقية بأجمعها ، وحكماها من عاصمتيهما ميسينى واسبارطة ، وسميت تلك البلاد بلوبونيز أو جزيرة پلپس نسبة إلى جددهما ، بعد أن نسى أحفاده لعنة مرتيلوس .

وكانت بقية بلاد اليونان فى ذلك الوقت تجدد فى إنجاب الأبطال ، وكانوا يعملون فى الغالب فى تشييد المدن . وتقول الرواية اليونانية إن زيوس غضب على الجنس البشرى لما كان يقرقه من مظالم لسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينجح منه إلا رجل واحد هو ديوكاليون Deucalion وزوجته پرها Pyrrha فى فلك

أو صندوق استقر على جبل پارنسس . وتناسلت من هيلن Hellen بن ديوكاليون جميع القبائل اليونانية واشتق من اسمه هلين Hellenes اسم هذه القبائل مجتمعة . وكان هيلن جد أخيوس Acheus وأيون Ion اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية واستقرتا بعد تجوال طويل أولاهما في البلوبونيز والثانية في أتكا . وأنشأ سكرپس أحد أبناء أيون بمعونة الإلهة أثينا في موضع كان الپلسجبون قد استقروا من قبل على رابية فيه المدينة التي سميت فيما بعد باسمها وهي مدينة أثينة^(٨) . وتقول القصة إنه هو الذي نشر الحضارة في أتكا ، وسن شريعة الزواج ، وحرم التضحية بالأحياء ، وعلم رعاياه عبادة الآلهة الأولمبية ، وخاصة زيوس وأثينا .

وحكم أبناء سكرپس وأحفاده أثينة وكانوا ملوكاً عليها . وكان رابع من حكمها من نسله إركثيوس Erechtheue الذي ألهته المدينة وأقامت له فيما بعد هيكلًا من أجل هياكلها . وجمع حفده ثسيوس حوالي ١٢٥٠ ق م . قرى أتكا الاثنتي عشرة في وحدة سياسية سمي سكانها فيما بعد أيثا كانوا بالآثينيين . ولعل السبب في أن اسم أثينة اليوناني ينطق به بصيغة الجمع كما ينطق أيضاً اسم طيبة وميسيني هو أنها نشأت في بداية أمرها من اجتماع سكان عدة قرى متجاورة . وكان ثسيوس هو الذي وهب أثينة النظام والقوة ، وقضى على عادة التضحية بأبنائها قرباناً لثيوس ، وأمن أهلها في ترحالهم بقتل قاطع الطريق بركرستيس Procrustes الذي كان يحب أن يمد سيقان أسراه أو يقطعها حتى تكون في طول سريره . وعبدت أثينة ثسيوس بعد وفاته واتخذته هو أيضاً إلهاً لها . وجاءت المدينة في عام ٤٧١ ق م أي في عصر التشكك أيام بركليز ، جاءت بعظام ثسيوس من اسكروتس Scyros وأودعتها آثاراً مقدسة في هيكل ثسيوس .

وقامت في شمال أثينة في بوٲوتيه Boeotia حاضرة أخرى تنافسها ، وكان لها مثلها تاريخ مثير للمشاعر ، قدر له أن يكون محور المسرحيات اليونانية في عصر البلاد الأدبي . فقد أنشأ الفينيقيون أو الكريتيون ، أو كادموس Cadmus أحد أمراء المصريين في أواخر القرن الرابع عشر مدينة طيبة عند ملقى الطرق التي تعبر بلاد اليونان من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلم منشئوها أهلها الحروف الهجائية ، وقتلوا التين (ولعل هذا رمز قديم لوباء معد أو فتاك) الذي كان يمنع الأهليين من الانتفاع بماء العين الآرية Areian وخرج من أستان التين التي غرسها كدموس في الأرض رجال مسلحون أخذوا يقتتلون كما يقتتل اليونان في عصورهم التاريخية حتى لم يبق منهم إلا خمسة ؛ وهؤلاء الخمسة هم الذين أنشئوا المدينة المالكة ، على حد قول طيبة نفسها . وكان مركز حكومة المدينة حصناً يدعى كدمية Cadmeia أقيم على ربوة عثر فيها في هذه الأيام على قصر كدموس (١) وحكم بعد كدموس من هذا الحصن نفسه ابنه پوليدوروس Polydorus ثم حفيده لبدكوش Labdacus ثم ابن حفيده لاوس Laius وهو الذي قتل ابنه أوديبوس (أوديب) Oedipus كما يعرف العالم كله وتزوج أمه . ولما مات أوديب تنازع الملك أبناؤه كما يتنازع الأمراء على الدوام ، وطرده إيتوكليز Eteocles أخاه پولينيسيز ، فذهب هذا إلى أدراسطوس Adrastus ملك أرجوس وأقنعه بالعمل على تنصيبه ملكا . وحاول أدراسطوس أن يقوم بهذه المهمة (حوالي ١٢١٣ ق . م .) وشن على أثينة حرب (الأحلاف) السبعة ، ثم عاد إلى حربها مرة أخرى بعد ستة عشر عاماً من ذلك الوقت في حرب الإيجوني Epigoni أو الأبناء السبعة . وفي هذه الحرب قتل إيتوكليز وپولينيسيز وحرقت طيبة عن آخرها .

(١) يرجع المؤرخون تاريخ هذا العصر إلى ما بين ١٤٠٠ ، ١٣٠٠ ق . م . وقد عثروا فيه على كتابة قليلة بحروف لم تحل رموزها بعد ولعلها متفرعة من أصل كريتى .

وكان بين أشراف طيبة رجل يسمى أمفتريون Amphitryon مزوج من امرأة فاتنة تدعى ألكمين Alcmena . وزارها زيوس وأمفتريون غائب في حرب من الحروب واستولدها هرقلز (هرقل) Heracles أو هرقل Hercules (*). ولم تكن هيرا Hera تحب أن ينزل الآلهة في عبثهم إلى هذا الحد فأرسلت حيتين لإهلاك الوليد في مهده ؛ ولكن الطفل أمسك كل واحدة منهما بإحدى يديه وخنقهما جميعاً ، ومن أجل ذلك سمي هرقلز لأنه ورث المجد عن هيرا . وحاول لينوس Linus ، أقدم الأسماء في تاريخ الموسيقى ، أن يعلم الطفل العزف والغناء ، ولكن هرقلز لم يعبأ بالموسيقى ، وقتل لينوس بقيثارته . ولما شب الطفل ، وأصبح جباراً ، شقياً ، سمجاً ، سكيراً ، نهماً ، تعهد أن يقتل أسداً كان يفتك بقطعان أمفتريون وثسيبوس . وقدم ثسيبوس ملك ثسبيا Thespiee بيته وبناته الخمسين إلى هرقلز . وقام البطل بما تعهد به على أحسن وجه (١٠) ، فقتل الأسد واتخذ جلده لباساً له ، وتزوج بجارة Megara ابنة كريون Creon الطبي وحاول أن يحيا حياة مستقرة هادئة ، ولكن هيرا سلطت عليه نوبة من الجنون ، فقتل أبناءه هلى غير علم منه . وجاء إلى مهبط الوحى في دلتى يستنصحه ، فأشير عليه بأن يذهب إلى تيرينز ويعيش فيها ويخدم يورثيوس ملك أرجوس مدى اثني عشر عاماً يصبح بعدها إلهاً مخلداً . فصعد بالأمر وقام ليورثيوس بالاثني عشر عملاً (**) الذائعة الصيت . ولما أطلقه الملك عاد إلى طيبة ، حيث قام

(*) ويقول ديودور إن « زيوس ضاعف طول تلك الليلة ثلاثة أضعاف طولها الأصل ؛ وإنه تنبأ للطفل بقرته غير العادية بسبب طول الوقت الذى قضياه في إنجابها » (٩)

(**) وخنق الأسد الذى كان يفتس قطعان نيميا Nemea ، وقتل الأفعى هيدرا الكثريرة الرؤوس التى أهلكت ليرنا Lerna ، وقبض على ظبي سريع العدو وجاء به إلى يورثيوس Eurythous ، واقتنص خنزيراً برياً من جبل يورممنثوس Eurymanthus وجاء به إلى يورثيوس ، وظهر في يوم واحد اسطبلات أو چياس وكان فيها ثدنة آلاف خور وذلك بأن حول مجرى مجرى ألفيوس Alpheus وپنيوس Peneus إلى مزاد اليران ، وانتظر في إلس حتى أقام الألعاب الأولمبية ، ثم أهلك الطيور الاستمقالية Stymphalian هفتاك التى كانت في أركاديا ، وقبض على اثور الهائج الذى كان يعيش في كريت فساداً ، =

بأعمال كثيرة شاقة ، وانضم إلى ركاب السفينة أرجوس ، ونهب طروادة فيمن نهبها ، وأعان الآلهة على أن تنفصر على المردة الجبابرة ، وفك قيود بروميثيوس Prometheus ، وأعاد الحياة إلى أليستيس Alcestis ، وقتل أصدقاءه في أوقات مختلفة بطريق الصدفة . واتخذ الناس بعد موته بطلا وإلهاً وعبدوه . وإذا كان قد أحب فتيات يخطئن الحصر فقد ادعت كثير من القبائل أنها من نسله(*) .

واستقر أبناؤه في تراكيس Trackis في تساليا ، ولكن يوريشيوس خشي أن يخلعوه عن عرشه انتقاماً منه لما عاناه. أبوهم على يديه من نصب لا ضرورة له ، فأمر ملك تراكيس أن يخرجهم من بلاد اليونان . ولجأ أبناء هرقل إلى أثينة ، وسير يوريشيوس إليهم جيشاً ليقاتلهم ولكنهم هزموا الجيش وقتلوه . ولما جاءهم أثريوس على رأس قوة أخرى ، عرض هيلوس Hyllus أحد أبناء هرقل أن يبارز أحد رجال أثريوس مشروطاً أنه إذا غلب خصمه استولى المهرقليون على مملكة ميسيني ، وإذا هزم خرج المهرقليون فلا يعودون قبل

= وحمله فوق ظهره إلى يوريشيوس ، وقبض على خيل ديومديس Diomedes آكلة الآدميين وروضها ، وقتل الأمزوبات عن آخرهن ، وأنشأ عند مدخل البحر المتوسط فتوةين بارزين متقابلين هم « عمود هرقل » . وقبض على ثوري جريون Geryon وخترق بلاد غالة وحياث الألب ، وإيطاليا ثم عبر بهما لبحر إلى يوريشيوس ، ووجد تفاحتى هيريدس ، ثم أسلك بالأرض زما ما بذل أطلس ، ثم نزل إلى هيدس (الجحيم) ، وأنجى من العذاب فيها ثسيوس وأسكلفوس Ascalophus . وكانت هيرا قد عهدت إلى بنات أطلس بالتفاحات الذهبية التي أهدتها إياها جاثيا Gaia (الأرض) حين تزوجت زيوس . وكان تين جبار يحرس التفاحين ، اللتين تهبان من يأكلهما صفات شبيهة بصفات الآلهة .

(*) يظن دودور أن هذا « البطل الثقافي » التعجب كان مهندساً بدائياً في عصر ما قبل التاريخ. شبيهاً بأبيدقليس . ويفهم من الخرافات التي قروى عنه أنه طهر اجرون لماثية ، وشق الطرق في الجبال ، وحول مجارى الأنهار وصلاح الأراضي البور ، وطهر الغابات من الوحوش المفترسة ، وجعل أرض اليونان صالحة للسكنى (١١) وقد تفسر قصة هرقل على أنه كان ابن إله المحبوب الذي يرضى بالعذاب حباً في الخلق ، ويحيى الموتى وينزل إلى الجحيم ثم يصعد إلى السماء .

مضى خمسين عاماً يمتلك أبناؤهم بعدها ميسيني^(١٢) . فلما هزم خرج هو وأبناؤه من البلاد ، وبعد خمسين عاماً عاد إليها جيل جديد من المهرقلين . وكانوا هم ، لا الدوريون ، الذين رفضت مطالبهم ، ففتحوا البلوينيز ، كما تقول الرواية اليونانية ، وانتهى بهذا الفتح عصر الأبطال .

وإذا كانت قصة بليس وأبنائه تروى بأن آسية الصغرى هى أصل الآخيين فإننا نستطيع أن نتبع ما آل إليه أمرهم فى قصة ركاب السفينة أرجوس ، وهذه القصة ككثير غيرها من الخرافات التى تجمع بين الرواية التاريخية والقصص الشعبية عند اليونان تعد من أحسن القصص القديمة لأن فيها جميع عناصر المغامرة ، والارتداد ، والحرب ، والحب ، والغموض ، والموت ، اندمجت كلها بعضها ببعض وتكون منها نسيج غنى خصب صاغ منه أبولونيوس الرودسى فى أيام الحضارة المتأخرة ملحمة جديدة متوسطة القيمة بعد أن كاد الكتاب المسرحيون الأثينيون يبلونه بما صاغوه منه من مسرحيات . وتبدأ هذه الملحمة بقصة أوركينوس البيوتى Boeotian وبالتضحية الآدمية كما تبدأ مأساة أجمنون . ذلك أن الملك أثاماس Athamas لما وجد أن بلاده قد حل بها القحط ، عرض أن يقرب ابنه فركسوس Phrixus قرباناً للآلهة . وبلغ الخبر مسامع فوكسوس ففر من أركينوس بصحبة أخته هيلي Hel'e بأن طار معها فى الجو على ظهر كبش ذى جزء من الذهب . ولكن الكبش لم يكن ثابتاً فى طيرانه فسقطت هلي من فوق ظهره وغرقت فى المضيق الذى سُمى فيما بعد الهلسينت . أما فركسوس فوصل سالماً إلى البر واتخذ طريقه إلى كلكير Colchis عند الطرف الشرقى من البحر الأسود ، وهناك ضحى بالكبش وعلق جزته قرباناً لآريس Ares إله الحرب . وأقام أيتيس Aietes ملك كلكير تينياً لا تغمض له عين ليحرس الحزاة ، لأن نبوءة قد أوحى إليه أنه سيموت إذا استولى عليها رجل من غير أهل البلاد ؛ وأراد أن يزيد اطمئنناً على نفسه فأمر أن يقتل

كل من يأتى إلى كلكتيز من الغرباء . وكانت ابنته ميديا Medea تحب الغرباء والأساليب الغربية ؛ وتشفق على أبناء السبيل وتساعدهم على الخروج من بلاد أبيها سالمين ، فأمر أبوها بأن تمنع من الاتصال بالناس ، ولكنها فرت إلى مكان مقدس بجوار البحر وعاشت هناك مكنئة حزينة دائمة التفكير فى أمرها حتى عثر عليها جيسن Jason فى أثناء تجواله على شاطئ البحر .

وقبل عشرين عاماً من ذلك الوقت (والمؤرخون اليونان يقولون إن ذلك كان حوالى ١٢٤٥) اغتصب پلياس Pelias بن پوسيدون Poseidon عرش إيسن Aeson ملك يولكون Iolus من أعمال تساليا . وأخفى أصدقاء الملك المخلوع ابنه الطفل جيسن ، وشب هذا الطفل فى الغابات حتى أصبح شاباً قوياً شجاعاً . وظهر يوماً من الأيام فى السوق يرتدى جلد فهد ويحمل من السلاح رمحين ، وطالب بملك أبيه . ولكنه كان يبلغ من السذاجة مبلغه من القوة . وأقنعه پلياس أن يقوم بعمل شاق يكون ثمنه لعرشه — وكان هذا العمل الشاق هو استعادة الخزانة الذهبية . فصنع جيسن السفينة العظيمة أرجو (أى السريعة) ودعا إلى صحبته فى مغامرته أشجع شجعان اليونان ، فلبى الدعوة هرقل ومعه هيلاس Hylas رفيقه المحبوب ؛ وجاء معهما پليوس Peleus والد أخيل ، وثيسوس ، ومليجر Meleager ، وأرفيوس Orpheus والعذراء أثلنتا السريعة العدو . ولما دخلت السفينة الهلسينت اضطرت إلى الوقوف ، ولعلها قد وقفت فى وجهها قوة من طروادة لأن هرقل ترك الحملة لينهب المدينة ويقتل ملكها لؤمدون Laomedon وأبنائه كلهم عدا پريام .

ولما وصل ركاب السفينة أرجو إلى مقصدهم بعد أن لاقوا ألوانا من العذاب حذرهم ميديا من الموت الذى ينتظر كل من جاء كلكتيز من الغرباء ، ولكن جيسن أصر على عزمه ورضيت ميديا أن تساعد فى الحصول على الخزانة إذا وعدها بأن يأخذها معه إلى تساليا ويحفظ بها زوجة له حتى مماته .

وعاهدها على ذلك واستولى بمعوتها على الجزة ، وفربها إلى سفيفته ومعه ميديا ورجاله . وجرح الكثيرون منهم ولكن ميديا عالجتهم بالأعشاب والخلدور . ولما وصل جيسن إلى پولكوس طالب بمملكته مرة أخرى ، وتلكأ پلياس في إجابة طلبه ، فما كان من ميديا إلا أن استعانت بفنون السحر فخدعت بنات پلياس وحملتهن على أن يقلن أباهن حتى يموت . وارتاع الناس من قواها السحرية فأخرجوها هي وجيسن من پولكوس وحرموه من العرش إلى أبد الدهر (١٣) . وترك بقية القصة إلى يورپديز .

إن الأسطورة في الكثير الغالب قطعة من الحكم الشعبية يخلق منها الشعر أشخاصاً . وكثيراً ما تكون الأسطورة قطعة من التاريخ تضخمت بفضل ما اتصل بها من قصص جديدة على مرّ السنين . وأكبر الظن أن اليونان قد حاولوا في الجبل السابق على حصار طروادة التاريخي أن يشقوا طريقهم في الملسينت ويفتحوا بلاد البحر الأسود للاستعمار والتجارة ؛ وقد تكون قصة رجال السفينة أرجو ذكريات قديمة لهذا الارتياح التجاري صيغت في قالب المسرحيات ؛ وقد تكون قصة « الجزة الذهبية » إشارة إلى الجلود الصوفية أو الأقمشة التي كانت تستخدم قديماً في شالي آسية الصغرى للحصول على ما تحمله المحارى المائية من قطع ذهبية صغيرة (١٤) .

ولقد استقر اليونان فعلاً حوالى ذلك الوقت في جزيرة لمنوس Lemnos التي لا تبعد كثيراً عن الملسينت . لكن البحر الأسود لم يكن من البحار الصالحة للتجارة والاستعمار رغم اسمه المغرى ، وقامت طروادة الحصينة مرة أخرى بعد أن انتهبا هرقل تعترض سبيل من يخاطرون باجتياز المضيق ؛ ولكن اليونان لم ينسوا ما فعلوه من قبل وعادوا من جديد يحاولون اجتيازه بمائة سفينة بدل سفينة واحدة ، وأهلك الآخيون أنفسهم في سهل إليون ليحرروا الملسينت .

الفصل الثالث

الحضارة الهومرية

ترى كيف نستطيع أن نعيد تصوير حياة بلاد اليونان الآخية (١٣٠٠ - ١١٠٠ ق . م) بالاستناد إلى أقاصيصها ؟ أن أكثر ما نعلم عليه من المصادر في رسم هذه الصورة هو أشعار هومر ، وهو إنسان قد لا يكون له وجود ، وقد قبلت ملاحمه بعد عصر الآخيين بثلاثة قرون على أقل تقدير . نعم إن علم الآثار قد أدهش الأثريين بأن أثبت أن طروادة ، وميسيني ، وتيرينز ، وكنوسس وغيرها من المدائن التي وصفها الإلياذة كلها مدن حقيقية ، كما أدهشهم بالكشف عن حضارة ميسينية تشبه شهاً عجباً تلك الحضارة التي تشكل من تلقاء نفسها بين أشعار هومر ، ومن أجل هذا ينزع العلماء في هذه الأيام إلى أن يعدلوا بعض الأشخاص المهمين الذين ورد ذكرهم في هذه القصص الخرافية أشخاصاً حقيقين . لكننا مع هذا لا نستطيع أن نقول إلى أي حد تعكس قصائد هومر حال العصر الذي كان يعيش فيه الشاعر لا العصر الذي يكتب عنه . إذن فكل الذي في وسعنا أن نسأل عنه هو : ما هي الصورة التي كانت تخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هومر في أشعاره عن العصر الهومري ؟ ومهما تكن هذه الصورة فإننا سنحصل منها على صورة من بلاد اليونان في طور الانتقال الطريف من الثقافة الإيجية إلى حضارة اليونان في العصور التاريخية .

١ - العمال

إن الصورة التي تنطبع في أذهاننا عن الآخيين (أي عن اليونان في عصر الأبطال) هي أنهم كانوا أقل حضارة من الميسينيين الذين سبقوهم ،

وأرق حضارة من الدورين الذين خلفوهم ، وأهم ما نلاحظ فبهم أنهم كانوا أحسن أجساماً من هؤلاء وأولئك ، فرجالهم طوال القامة أقوياء البنية ، ونساؤهم ذوات جمال بارع فتان يسلب العقول بكل ما في هذا التعبير من معان . والآخيون ينظرون ، كما ينظر الرومان الذين عاشوا من بعدهم بألف عام ، إلى الثقافة الأدبية على أنها تدهور وتخث . وهم لا يستخدمون الكتابة إلا مضطرين ، ولا يعرفون من الأدب إلا الأغاني الحربية وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة . وإذا جاز لنا أن نصدق هومر حق علينا أن نقول إن زيوس قد حقق في المجتمع الآخى آمال الشاعر الأمريكى الذى كتب يقول إنه لو كان إلهاً لحمل الرجال كلهم أقوياء ، والنساء كلهن حسناً ، ثم جعل نفسه بعد ذلك رجلاً . لقد كانت بلاد اليونان الهومرية جنة من الحور العين^(١٥) . وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال ، كان لهم شعر مرسل طويل ، ولحى كبيرة ، وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التى تحرق عليها جثة صديقه^(١٦) ، ولم يكن العرى قد أصبح بعد عادة فى البلاد فكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع بطوونه فوق الكتفين ، ويشبكونه بدبوس ، ويصل إلى قرب الركبتين . وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أو حزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين — قدر له أن يتطور على مر الزمن وازدياد الاحتشام والكرامة حتى أصبح هو اللباس ثم السروال (البنطلون) . وكان الأغنياء يرتدون أثواباً غالية الثمن كالثوب الذى تقدم به بريام فى ذلة إلى أخيل ليفتدى به ولده^(١٧) . وكان الرجال حفاة الأقدام والنساء عاريات الأذرع ، إلا فى خارج الدور فكانوا يحتذون جميعاً صنادل ، أما فى داخلها فكانوا فى العادة حفاة . وكانوا رجالاً ونساء يتحلون بالجواهر ، وقد ادهنت النساء وادهن باريس « بالزيت الذى له رائحة الورد^(١٨) » .

ترى كيف كان يعيش أولئك الرجال والنساء ؟ يصفهم هومر بأنهم

كما نوا يحرثون الأرض ، ويشمّون وهم فرحون الأرض السوداء بعد تقلبها ، ويتبعون بأعينهم في فخر وخيلاء الخطوط المستقيمة التي خطتها المحارث : ويثرون القمح ويروون الأرض ، ويقيمون الجسور ليتقوا بها فيضان الأنهار في الشتاء^(١٩) . ويشعرنا هومريّاس الفلاح الذي قضى الشهور الطوال في كدح مستمر ثم يأتي « التيار الجارف السريع فيهدم الحواجز والجسور ، ولا تستطيع سلسلة الأكوام الطويلة أن تكبح جماحه ، أو أسوار البساتين المثمرة حين يفاجئها أن تقف في سبيله^(٢٠) » وليست أرض البلاد ممّا يسهل فلحها لأن الكثير منها بجال أو مناقع ، أو تلال كثيفة الأشجار ؛ وكانت الحيوانات البرية تهاجم القرى ، فكان الصيد ضرورة قبل أن يصبح رياضة وهواية . وكان الأغنياء يعنون بتربية قطعان كبيرة من الماشية ، ولضأن ، والخنازير ، والمعز ، والحيل ، ويروى أن رجلاً منهم يسمى إركثونيوس Erichthonius كان له ثلاثة آلاف فرس ولود مع أمهارها^(٢١) . وكان الفقراء يأكلون لحم السمك ، والبقول ، والخضر أحياناً ، أما المحاربون والأغنياء فكان جل اعتمادهم على اللحم المشوى الكثير ، وكان فطورهم اللحم والنيذ . وقد تغذى أديسيوس مع راعي خنازيره بخنزير صغير مشوى ، وتعشياً بثلاث خنزير عمره خمس سنوات . وكانوا يستعملون غسل النحل بدل السكر ، ودهن الحيوان بدل الزبد ، والكعك المصنوع من الحبة بدل الخبز ، فكانوا يجعلونه رقائق ثم يخبزونه على لوح من الحديد أو على حجر محمى ، ولم يكن الآكلون يضطجعون في أثناء تناول الطعام كما كان الأثينيون يفعلون فيما بعد ، بل كانوا يجلسون على كراسي ممتدة على طول الجدار لا مصفوفة حول مائدة وسطى . ولم يكونوا يستعملون الشوك أو الملاعق أو الفوط إلا ما عسى أن يكون مع الضيوف من مدى ، وكنوا يأكلون بأيديهم وأصابهم^(٢٢) ، وكان شراهم الرئيسي حتى الفقراء والأطفال هو النيذ المنخفض .

وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد : وكان الأب هو الذي

يشرف عليها ويصرف شئونها ، ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها^(٢٤) ، وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة (الدومين) ؛ وكانت في واقع الأمر ملكاً للمجتمع يستطيع أى إنسان أن يرعى فيها ماشيته ؛ ونرى في الأودية أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت — أو أصبحت ملكاً للأفراد الأثرياء أو الأقوياء ؛ وهكذا اختفت الأرض المشاعة في بلاد اليونان القديمة بنفس الطريقة التي اختفت بها في إنجلترا الحديثة^(٢٥) .

وكان في مقدور الأرض أن تخرج المعادن كما تخرج الطعام ؛ ولكن الآخين أهملوا استخراج المعادن واكتفوا باستيراد النحاس ، والقصدير ، والفضة والذهب ، ومادة أخرى جديدة عجيبة من أسباب الترف ، وهى الحديد . فنرى كتلة غير مشكلة من الحديد تقدم هدية ثمينة في الألعاب التي أقيمت تكريماً لپتروكلوس Patroclus^(٢٦) ، ويقول عنها أخيل إنه سوف يصنع منها كثير من الأدوات الزراعية . وهو لا يذكر في هذا المقام شيئاً عن الأسلحة ، وكانت لا تزال تصنع من البرنز^(٢٧) ، وتصف الأوديسة سقى الحديد(*) ، ولكن هذه الملحمة قد وصلت إلينا في أكبر الظن من عصر متأخر من عصر الإلياذة .

وكان الحداد أمام كوره والفخراى أمام عجلته يعملان في حانوتيهما ، وكان غيرهم من الصناع الذين ورد ذكرهم في أشعار هومر — كصناع السروج ، والبنايين ، والتجارين ، وصناع الأثاث — كان هؤلاء يعملون في منازل من يكلفونهم بعمل لهم ؛ ولم يكونوا يعملون للأسواق ؛ أو للبيع . أو للكسب ؛ وكانوا يداومون العمل ساعات طويلاً ، لكنهم كانوا يعملون على مهل وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة^(٢٨) . وكانت الأسرة نفسها تقوم بصنع أكثر حاجياتها ، فكان كل فرد يعمل بيديه ، وكان

(*) هـ حين يس الحداد بلطة عظيمة أو مقشراً في الماء البارد ، كان يخرج منها أومته ، حيس هو الذى يكسب الحديد صلابته^(٢٨) .

رب الأسرة ، بل كان الملك المحلى نفسه مثل أديسيوس ، يصنع ما يحتاجه بيته من سرر وكراسى ، وما يلزمه هو من أحذية وسروج ، وكان - على عكس اليونان المتأخرين - يفخر بمهارته فى الأشغال اليدوية . ولقد كانت بنى ، وهلين ، وأندروماك وخادماتهن لا ينقطعن عن الاشتغال بالغزل والنسج والتطريز ، والأعمال المنزلية . وتبدو هلين وهى تعرض تطريزها على تلامك^(٣٠) ، أبجل منها وهى تتبختر فوق أسوار طروادة .

وكان الصناع من الأحرار ، ولم يكونوا قط من الرقيق كما كانوا عند اليونان الأقدمين ؛ وكان من المستطاع عند الحاجة تجنيد الفلاحين للعمل فى خدمة الملك ، ولكننا لا نسمع قط بالأقنان اللاصقين بالأرض المرتبطين بها ، ولم يكن الأرقاء كثيرين ، ولم تكن منزلتهم منخفضة ، وكان معظم الرقيق من الجوارى خادمت المنازل ، وكانت منزلتهن فى الواقع لا تقل عن منزلة خادمت المنازل فى هذه الأيام إذا استثنينا أنهن كن يشتريْن أو يبعن لآجال طوال لا للقيام بأعمال قصيرة غير ثابتة كحاهن فى هذه الأيام . وكن فى بعض الأحيان يعاملن بقسوة ووحشية ؛ لكنهن فى العادة كن كأعضاء فى الأسرة التى يعملن لها ، يعنى بهن فى مرضهن أو عجزهن أو شيخوختهن ؛ وكن يرتبطن فى بعض الأحيان بعلاقات الود والمحبة مع رب الأسرة أو ربتهن . فقد كانت نوسكا Nausica تساعد جوارىها فى غسل الملابس فى النهر ، وتلعب الكرة معهن ، وتعاملهن فى جميع الأحوال معاملة الرفيقات^(٣١) . وإذا ولدن الجارية ولداً من سيدها كان هذا الولد فى العادة من الأحرار^(٣٢) ، غير أنه كان ككل إنسان معرضاً لأن يكون رقيقاً إذا وقع أسيراً فى الحبيب أو فى غارة القراصنة . وكان هذا أسوأ ما فى الحياة الآخية .

والمجتمع الهومرى مجتمع ريفى ، وحتى « مدنه » لانهدو أن تكون قرى تشرف عليها قلاع قائمة فوق التلال المجاورة لها . وكانت الرسائل تنقل على أيدي السعاة أو الرسل ، وإذا كانت المسافة طويلة نقلت الرسالة بإشارات

النار تبعث من إحدى قلل الجبال إلى قلة أخرى^(٣٣) : وكان النقل البرى تعوقه الجبال الخالية من الطرق ، كما تعوقه المستنقعات ، والمجارى الخالية من القناطر . وكان النجارون يصنعون عربات ذات أربع عجلات لها تروس وأطر من الخشب ، ولكن معظم البضائع كانت رغم وجود هذه العربات تنقل على ظهور البغال أو الرجال ؛ وكانت التجارة البحرية أقل مشقة من التجارة البرية رغم القراصنة والعواصف ؛ فقد كانت الموانئ الطبيعية كثيرة ، ولم تكن السفن تنقطع عن رؤية الأرض إلا فى أثناء الرحلة الخطرة التى تدوم أربعة أيام من كريت إلى مصر . وكانت السفن عادة ترسو إلى البر فى الليل وينام البحارة والمسافرون فى مكان أمين على الأرض . وكان الفينيقيون فى العصر الذى نتحدث عنه لا يزالون أفضل من اليونان فى النجارة والملاحة ، وكان اليونان يثأرون لأنفسهم من هذا النقص باحتقار النجارة وإيثار القرصنة .

ولم يكن عند اليونان الهومريين نقود ، فكانوا يستخدمون بدل النقود المضروبة سبائك من الحديد ، والبرنز ، والذهب ؛ وكان الثور والبقرة يتخذان واسطة للتبادل . وكانت السبيكة الذهبية التى تزن سبعة وخمسين رطلا تسمى تالنت (من تالتون أى وزنة^(٣٤)) . وكانت المقايضة كثيرة رغم ما كان عندهم من وسائل متعددة للتبادل ، وكانت ثروة الشخص تقدر بما عنده من بضائع وخاصة بما عنده من ماشية لا بما يملك من قطع من المعدن أو الورق قد تفقد قيمتها أو يعثرها التغير والتبديل فى أى وقت من الأوقات إذا ما بدل الناس عقائدهم الاقتصادية . وفى أشعار هومر كما فى الحياة الواقعية أغنياء وفقراء ؛ ذلك بأن المجتمع أشبه ما يكون بعربة تجمع^(*) فى طريق لا مستو ولا معبد ، ومهما أنقن صنع العربة وتركيبها فإن بعض ما تحمله من متاع سوف يرسب فى قاعها ويطفو بعضه الآخر

(*) الجمع صوت الرعى وهو أقرب الأصوات إلى صوت الغرباء على الطريق الغير المعبد . (المترجم)

إلى أعلى سطحها . ولم يصنع الفخراى آتيته كلها من طينة واحدة كما لم يصنعها كلها بنفس القوة والمهاشة ؛ ومن أجل هذا لا يكاد يسهل عصر الكتاب الثانى من كتب الإلياذة حتى نستمع إلى حرب الطبقاته ، وحين يستشيط ثرسيس Ther.siles غضباً ويطلق لسانه فى أجمنون ندرك من فورنا أن هذا عرض قديم من أعراض ذلك الداء المزمن الوبيل (٣٥) .

إننا ليعزّل إلينا ونحن نقرأ أشعار هومر أننا نعيش فى مجتمع أكثر بدائية وأقل خضوعاً للقوانين من المجتمع الذى شهدناه فى كنوسس أو ميسينى . فلقد رجعت الثقافة الآخية خطوة إلى الوراء ، وكانت مرحلة انتقال بين الحضارة الإيجية الزاهرة والعصر المظلم الذى سوف يعقب الفتح الدورى . فالحياة الهومرية فقيرة فى الفنون ، غنية فى النشاط والعمل ؛ وهى ثقافة ينقصها التفكير والتأمل ، خفية سطحية ، سريعة . وهى أصغر سناً وأصلب عوداً من أن تهتم بالأخلاق أو الفلسفة . أو لعلنا نخطئ فى حكمنا عليها لأننا نراها فى الأزمنة الحادة أو الفوضى التى أعقبت الحرب .

ولسنا ننكر أننا نشهد فى هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة ، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً ، يعطف بعضهم على بعض ، كما ترى بين الأب والابن حبا به من العمق قدر ما به من السكون والصمت . فما هو ذا أديسوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حينما يعرفونه بعد غيابة الطويل ، وما هم أولاء يقبلونه كما يقبلهم (٣٦) . وحين يعلم منلوس وتعلم هلن أن تلمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذى حارب من أجلهم حرب الأبطال ييكبان ويتحسران (٣٧) . وحتى أجمنون نفسه لا يستعصى عليه البكاء فيذرف من الدموع ما يذكر هومر بمجرى ماء يتدفق فوق الصخور (٣٨) . والصدقة بين الأبطال قوية متينة ، وإن كنا نظن أنه قد يكون فى العلاقة أو قل العلاقة الغرامية التى بين أخيل وبتركولس وخاصة بتركولس الميت

شئ من الصلات الجنسية الشاذة . وهم شديدو السخاء على الأضياف لأن « الغرباء والمتسولين أبناء زيوس »^(٣٩) والعداوى يغسلن قدمى الضيف أو جسمه ويدهنه بالأدهان ، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه ، وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان فى حاجة إليهما ، وقد يتلقى الهدايا أيضاً^(٤٠) . ومن أقوال هلن ذات الخلد الأسيل ، وهى يضع بين يدي تلمكس ثوباً غالى الثمن : « هأنذا أقدم لك أيها الطفل العزيز هذه الهدية لتذكر بها يدي هلن فى يوم زواجك المرتقب من زمن بعيد وتلبسها زوجتك »^(٤١) . تلك صورة تكشف لنا عن الحنو الإنسانى والشعور الرقيق اللذين يختفيان حتماً فى الإلياذة بين نقع الحرب وقمعقة السلاح .

والحرب نفسها لا تحول بين اليونان وبين جهم القهى للألعاب . فالصغار والكبار على السواء يتبارون مباريات على جانب عظيم من الخطورة والمهارة ، تسودها العدالة والفكاهة . ويلعب خُطَّاب بنلى الداما ويتقاذفون الأقراص والحراب ، ويلعب ضيوف أديسيوس الفاكهون لعبة القرص وألعاباً غريبة هى مزيج من ألعاب الكرة والرقص^(*) . ولما أحرقت جثة بتركولوس بعد وفاته أقيمت بهذه المناسبة حسب العادات الآخية ألعاب كانت هى المثل الذى احتذى فى الألعاب الأولمبية ، وكانت تشمل العدو ، وقذف القرص والحربة ، والرماية بالسهم ، والمصارعة ، وسباق المركبات ، والمبارزة بالسلاح ، وكانت كلها تسودها الروح الرياضية الطيبة ، إذا استثنينا أنها كانت محرمة إلا على الطبقات الحاكمة ، وأن الآلهة وحدها هى التى كان يسمح لها بالغش والخداع^(٤٢) .

(*) ثم أمر ألسنوس Alcinous هلياس Halias ولأودماس Laodmas أن يرقصا منفردين لأن أحداً من قبل لم يجرؤ على أن يراقصهما . وأخذ كل منهما فى يد الكرة الجميلة ، المصبوغة باللون الأرجوانى ... وأغذا يلعبان . فكان أولهما يثنى جسمه كله إلى الوراء ، ثم يقذف الكرة نحو الجاهل الذى لا يراها ، فيقفز الآخر فى الهواء ويلتقطها بخفة ورشاقة قبل أن تلمس قدماء الأرض . وبعد أن يمارسا لعبة قذف الكرة إلى أعلى ، يشرعان فى قذفها فيما بينهما ، وهما فى أثناء ذلك كله يرقصان فوق الأرض المشرقة

أما الجانب الآخر من الصورة فكان أقل من هذا مدعاة للسروء .
فنحن نرى أخيل يقدم « امرأة تحذق الأشغال اليدوية الجميلة » جائزة للفائز
فى سباق العربات . ونرى الحيل ، والكلاب ، والثيران ، والضأن ،
والآدميين يضحي بها على كومة لإحراق بتركلوس حتى يكون له بعد موته
ما يتيغيه من حسن الخدمة ومن الطعام^(٤٤) . ويحسن أخيل معاملة بريام ،
ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يجر جسم هكتور المشوه جراً مهيناً حول
كومة الحريق . وكانت الحياة فى نظر الرجل الآخى قليلة القيمة ، لا يعد
سلبها من الأمور الخطيرة ، وكانت لحظة من السرور كفيلة بردها إلى من
قضى عليه بفقدانها . وإذا ما غلبت مدينة على أمرها قتل رجالها أو بيعوا ببيع
الرقيق ، واتخذت النساء خليلات إن كن حسناً ، أو رقيقات إن لم تكن
كذلك . وكانت القرصنة لا تزال من المهن المحترمة ، وكان الماوك أنفسهم
ينظمون حملات مغيرة ، تنهب المدن والقرى وتتخذ أهلها عبيداً ، ويقول
توكيديدس فى هذا : « والحق أن هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد
الرزق لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يحجل
صاحبها العار^(٤٥) » ، بل كانت تكسبه المجد . وكان فى مقدور الأمم العظيمة
أن تهاجم الشعوب الضعيفة المحرومة من وسائل الدفاع وتخضعها لسلطانها
دون أن يعد ذلك منها مخالفاً للعدل أو الكرامة ، شأنها فى هذا شأن الأمم
القوية فى هذه الأيام . وحين يسأل أديسيوس هل هو تاجر يهتم بالمكاسب
التي يسدها مطامعه^(٤٦) يرى فى هذا القول إهانة له ؛ ولكنه يتحدث فى
زهو وخيلاء عما فعله وهو عائد من طروادة إذ قل ما كان لديه من المون
فنهب مدينة إسمروس Ismarus وملأ منها سفينة بالطعام ، وكيف صعد فى
نهز إلى مجيئس Aegyptus (يقصد نيل مصر) لينهب الحقول النضرة ويسوق
أمامه النساء والأطفال الصغار ، ويقتل الرجال^(٤٧) . وملاك القول أنه .

لم تكن ثمة مدينة من المدن آمنة من هجوم القراصنة. المفاجئ عليها دون أنه تعمل من جانبها ما يستفزهم أو يبرر هجومهم .

ويتصنف الآخيون فضلاً عن حبهم للنهب والقتل دون أن يخشوا في ذلك تأنيب الضمير ، يتصفون فضلاً عن هذا بالكذب والخداع دون حياء ؛ فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول. دون أن يكذب فيه ، أو يعمل عملاً دون يشوبه الغدو . من ذلك أنه لما قبض على دولون Dolon الجاسوس الطروادى وعده هو وديوميد Diomed أن يبقيا على حياته إذا أدلى إليهما بما يطلبانه من المعلومات ، فلما فعل قتلاه^(٣٨) . ولسنا ننكر أن غير أديسيوس من الآخيين لا يضارعونه في الغدر والخيانة ، ولكنهم لا يمتنعون عن ذلك لأنهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا ، بل هم يحسدون أديسيوس ويعجبون به ، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب ؛ والشاعر الذى يصوره يعده بطلاً من كل الوجوه ، وحتى الإلهة أثينا نفسها تنفى عليه لكذبه ، وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التى تحببها إليها ، وتقول له وهى تبسم وتربت عليه بيدها : « إن الذى يفوقك فى حيلك المختلفة الأنواع لا بد أن يكون ماكرأ خبيثاً ، ولو كان الذى يلقاك إلهاً من الآلهة . إنك رجل ماكر فيما تسديه من نصيح ، لا يقف خداعك وغدرك عند حد ؛ ويلوح أنك لا تمتنع فى بلدك نفسه عن الاحتيال وعن القصص الكاذبة الخادعة التى نجها من أعماق قلبك »^(٣٩) .

والحق أننا نحن أنفسنا نشعر بميل نحو هذا البطل الذى يشبه فى التاريخ القديم البطل مشهورن الخرافى Munchausen ، فنحن نتبين فيه وفى الشعب المجد الخيال الذى ينتمى إليه من الصفات ما يستثير الحب ؛ فهو أب لطيف رقيق القلب ، وهو فى بلده حاكم عادل « لم يسئ لأحد فى أرضه لا بالقول ولا بالفعل » . ويقول فيه راعى خنازيره : « إننى لن أجد بعد اليوم سيداً يضارعه فى شفته مهما بعدت البلاد التى أذهب إليها ، حتى لو عدت إلى

بيت أبى وأى ! » (٥٠) . ونحن نغبط أديسيوس على « شكله الشبيه بأشكال الآلهة المخلدين » وعلى جسمه الرياضى ، الذى يمكنه وهو فى نحو الخمسين من عمره أن يتذف القرص أبعد مما يتذفه أى شاب من شبان الفيشيان Phaeacian ؛ ونعجب « بثبات جنانه » و « بحكمته الشبيهة بحكمة چوف » (٥١) . ولا ينقطع عطفنا عليه وهو يتمنى الموت بعد أن يئس من قدرته على أن يرى مرة أخرى « الدخان ينبعث من أرض وطنه » ، أو حين يقوى قلبه وسط ما يحيط به من أخطار وآلام بالألفاظ التى كان ببقرات يجب أن يرددها : « اصبرى الآن يا نفسى ، لقد قاسيت من قبل ما هو شر من هذا » (٥٢) . وهو فى جسمه وعقله رجل من حديد ، ولكن كل قطعة فيه مهما صغرت قطعة من إنسان ، ولهذا فإننا نعفو عنه ونتجاوز عن سيئاته .

والحق أن المعايير الخلقية عند الآخرين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم . فالرجل الآخى يعيش فى عالم مضطرب ، كدِر جوعان ، على كل إنسان فيه أن يعنى بحراسة نفسه ، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه ، قادراً على أن ينظر فى هدوء إلى الدم المراق . وفى ذلك يقول أديسيوس : « إن المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخيفها ... ومن أجلها صنعت السفن المعوجة وأعدت لنحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر الهائج المضطرب » (٥٣) . وإذا كان الآخى لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة فى بلاده . فإنه لا يرى شيئاً منهما فى خارجها ؛ ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف . وأسمى الفضائل فى رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة ، لفظ الفضيلة فى لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares أو المريخ (*) . وليس الرجل الصالح عنده هو الرجل اللطيف المتسامح ،

(*) Virtus = الرجولة ، Arete صفة أريس أو المريخ .

الأمين الرزين ، المحمد الشريف ؛ بل هو الرجل الذى يحارب ببسالة وكفاية ، وليس الرجل الطالح هو الذى يدمن الشراب ، ويكذب ، ويقتل ويغدر ، بل هو الجبان الغيى أو الضعيف . لقد كان ثمة نينثيون قبل تنشه ، وقبل ثراسمكس Thrasymachus بزمان طويل ، فى فجاجة العالم الأوربى وصلابته ٥

٣ - الرجال والنساء

كان المجتمع الآخى مجتمعاً أبوياً استبدادياً ، يمتزج به جمال المرأة وغضبها بخنان الأبوة وجبا القويين(*) . وكان الأب من الوجهة النظرية صاحب السلطان الأعلى ، وكان له أن يتخذ من السرارى ما يشاء(**) ، وأن يقدمهن لضيوفه ، وأن يضع أطفاله على قمم الجبال ليموتوا أو يذبجهم قرباناً للآلهة الغضاب . وهذه السلطة الأبوية المطلقة لا تستلزم حتماً أن يكون المجتمع الذى تسوده مجتمعاً وحشياً ، بل كل ما تعنيه أن هذا المجتمع لم يبلغ نظام الدولة فيه مبلغاً يكفى لحفظ النظام الاجتماعى ، وأن الأسرة فيه تحتاج فى خلق هذا النظام الاجتماعى إلى القوى التى آلت فيما بعد إلى الدولة حين أتمت حق القتل ٥ وكلما تقدم التنظيم الاجتماعى وارتقى نقص سلطان الأب ، وتفككت وحدة الأسرة ، ونمت الحرية والفردية . ولقد كان الرجل الآخى فى الحياة العملية رجلاً معقولاً فى أغلب الأحوال ، يصغى فى صبر وأناة إلى فصاحة أهل منزله ويخلص إلى أبنائه .

وكان مركز المرأة فى نطاق هذا الإطار الأبوى أرقى فى بلاد اليونان

(*) لدينا آثار تدل على وجود مجتمع قبل ذلك العهد كانت السيادة فيه للأُم . من ذلك ما تقوله الرواية الأثينية من أن « الأطفال » قبل سكرپس Cecrops لم يكونوا يعرفون آبائهم ؛ ولنا أن نستنتج من هذا أن الأطفال كانوا ينتسبون إلى أمهم . بل إننا نرى فى الأيام الهومرية نفهم أن الآلهة التى كانت تميدها المدن اليونانية بصفة خاصة كانت نساء : هيرا فى أرجوس ، وأثينا فى مدينة أثينة ، ومتروريسفون فى إلبوريسس Ilusis . ولستأ نرى هذه الإلهات تنقص لإله ذكر (٥٤)

(**) لقد كان لتسيوس زوجات بلغن من الكثرة درجة لم يحاول معها مؤرخ أن يترك لنا إحصاء لمن موثقاً به (٥٥)

الهومرية منه في أيام بركليز . فهي تضطلع بدور رئيسى فى القصص والملاحم من خطبة بلبس لهوداميا Hippodameia إلى رقة إفيجينيا وحقد إلكترا : فلا الحجاب ولا البيت بمنع لها من الخروج ، بل نراها تسير حرة بين الرجال والنساء على السواء ، وتشترك أحياناً فى مناقشات الرجال الجدية كاشتراك هلن مع منلوس وتلمكس . ولم يكن الزعماء الآخيون إذا أرادوا أن يستثيروا غضب الشعب على طروادة يلجئون إلى المبادئ السياسية أو العنصرية أو الدينية ، بل كانوا يستثرونه بجمال النساء ؛ ومن أجل ذلك كان وجه هلن الجميل هو الحجة التى تدرعوا بها لإثارة حرب تهدف إلى امتلاك الأرض وإلى التجارة ؛ واولا المرأة لكان بطل هومر جلفاً فظاً ليس له هدف يعيش من أجله ، فهى تعلمه شيئاً من الأدب والمثالية ودماثة الأخلاق .

وكان الشراء طريقة الزواج ، وكان الثمن عادة أثواراً أو ما يساويها يؤديه الخطيب إلى والد الفتاة . ويحدثنا الشاعر عن « العذراء حالية الماشية »^(٥٦) . ولم يكن الخطيب وحده هو الذى يؤدى ثمن العرس ، بل كان والدها يؤدى لها أحياناً بائنة قيمة . وكانت حفلة الزفاف عائلية واجتماعية معاً ، وكان من مظاهرها كثرة الطعام ، والرقص ، والمرح الذى تنطلق فيه الألسنة . وكانوا يسرون بالعروسين فى وهج المشاعل من حجراتهما ويخترقون بها المدينة وسط أغاني العرس العالية . وكان الشبان يرقصون وهم يدورون ، وتعلو بينهم نغمات الناي والقيثارة^(٥٧) . — ألا ما أشبه الليلة بالبارحة . ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكريم بقدر ما تنجب من الأبناء وكان الحب بمعناه الحقيقى أى بوصفه حناناً وشوقاً — يأتى إلى اليونان كبا يأتى إلى الفرنسيين بعد الزواج لا قبله ، فلم يكن هو الشرارة التى تنطلق باتصال جسمين أو تقاربهما . بل كان ثمرة الاشتراك الطويل فى العناية بالبيت وشئونه . وفى الزوجة الهومرية من الوفاء بقدر ما فى زوجها

من عدمه ، وليس في أشعار هومر إلا ثلاث زانبات - هن كليتمسترا ، وهلين ، وأفرديتي ؛ ولكن الصورة التي يرسمها هن لا تنطبق على المرأة العادية ، وإن انطبقت على الإلهات في تلك الأيام :

وكانت الأسرة الهومرية التي أثرت فيها هذه العوامل (إذا صرفنا النظر عن مغالاة الأفاضيل التي لا وجود لها في أشعار هومر) نظاماً سليماً يستريح له الإنسان ويسر منه ، أكثر نساءها مهذبات رقيقات وأكثر أطفالها مخلصون أوفياء . ولم يكن عمل الأمهات مقصوداً على إنجاب الأبناء ، بل كن يقمن فيها بكثير من الأعمال ، فكن يطحن الحب ، ويمسطن الصوف ، ويغزلن ، وينسجن ، ويطرزن . ولم يكن يخطن كثيراً لأن معظم الملابس لم تكن بحاجة إلى الخياطة ، كما كان الطبخ في العادة من أعمال الرجال . وكن فضلاً عن هذه الأعمال يلدن الأطفال ويربينهم ، ويعالجن ما يصيبهم من أذى ، ويسوين ما يقوم بينهم من خصام ، ويعلمنهم عادات القبيلة وأخلاقها وتقاليدها الموروثة . ولم تكن لديهم تربية منظمة ، ولم يكونوا يتعلمون الكتابة أو الهجاء أو النحو ، ولم تكن عندهم كتب ؛ فكانت الأسرة والحالة هذه أحسن نظام يرتضيه الصبيان . وكانت البنات يتعلمن الفنون المنزلية على حين يتعلم الأولاد الصيد والحرب ؛ فكان الولد يدرب على صيد السمك وعلى السباحة ، وحرث الأرض ، ونصب الشراك وترويض الحيوانات ، وتصويب السهام والحرب ، وأن يعنى بنفسه في كل ما يعترضه من الأحداث في حياته التي لم يكن للقوانين فيها السلطان الكامل على الأهلين . وإذا شب أكبر أبناء الأسرة من الذكور وبلغ سن الرجولة أصبح في غيبة أبيه رب الأسرة المسئول عنها ؛ فإذا تزوج جاء بزوجه إلى بيت أبيه . وهكذا تتجدد الأجيال جيلاً بعد جيل ، يتغير في خلالها أفراد الأسرة على مر الأيام وتبقى الأسرة محتفظة بهما عدة قرون ، تضع في بوتقة البيت التي ينصهر فيها الأفراد قواعد النظام والأخلاق التي لا بد منها لقيام الحكومات على اختلاف أنواعها .

٤ - الفنون

وترك الآخيون إلى التجار والكتبة من أهل الطبقة الدنيا فن الكتابة الذي تلقوه في أغلب الظن من بلاد اليونان الميسينية ، ذلك أنهم كانوا يفضلون الدم عن المداد واللحم عن الطين ، ولسنا نجد في أشعار هومر كلها إلا إشارة واحدة للكتابة^(٥٨) . ونجدها في سياق فذ واضح الدلالة ، وهو أن لوحة مطوية تعطى لرسول ويؤمر فيها من سوف يتلقاها بأن يقتل حاملها . وإذا ما وجد الآخيون وقتاً يقضونه في ممارسة الأدب فإن ذلك لم يكن إلا حين يجدون بين الحروب والغارات فترة من الوقت يركنون فيها إلى السلم ، ووقتئذ يجمع الملك أو الأمير أتباعه حوله ، يولم لهم وليمة ويدعو شاعراً أو مغنياً جوالاً ينشدهم على قيثارته شعراً ساذجاً يقص أعمال الأبطال من أسلافهم الأولين . وكان ذلك شعر الآخيين وتاريخهم . ولعل هومر قد أراد كما أراد فيدياس أن ينقش صورته على ملاحه فأخذ يقص علينا كيف طلب ألسينوس ملك القباشانيين أن يحكي أديسيوس بشيء من هذه الأغاني : « ادع إلينا المنشد الإلهي دمدوكس Demodocus ، لأن الله قد اختصه دون غيره بالمهارة في الغناء ثم اقترب الرسول يقود المنشد القدير الذي تحبه إلهة الشعر أكثر من سائر الناس ، فوهبته من نعمتها وسلطت عليه من نعمتها ، فحرمته قوة البصر ولكنها وهبته نعمة الصوت الجميل »^(٥٩) .

والفن الوحيد الذي يعنى به هومر غير فنه هو طرق الحديد وتشكيله فهو لا يذكر شيئاً عن التصوير ولا النحت ولكنه يستجمع كل ما أوتي من إلهام ليصف المناظر المصورة بالجواهر أو المزركشة على ترس أخيل ، أو المنقوشة نقشاً بارزاً على دبوس أديسيوس الذي يحلى به صدره . وإذا تحدث عن العماره كان حديثه قصيراً ولكنه يلقى على هذا الفن كثيراً من الضوء . ففي وسعنا أن نستدل من حديثه على أن المساكن العادية في

عصره كانت تشاد من اللبن على أساس من الحجارة ، وأرضها من الطين المطروق بالأقدام ، والذي كان ينظف بحكه بأداة خشنة ؛ وكان السقف يتخذ من الغاب تعلوه طبقة من الطين لا تميل إلا بالقدر الذي يمكن الأمطار من النزول . وكانت الأبواب مفردة أو مزدوجة ، وقد تكون لها مزالج أو مفاتيح^(١٠) . أما المساكن التي هي أعلى من هذه درجة فكانت جدرانها لتغطي بالجبس الملون ، وتزين حافاتهما أو تنقش ، وتعلق عليها الأسلحة والتروس والنسيج المنقوش . ولم يكن في الدار مطبخ ، ولا مدخنة ، ولا نوافذ ، وكان في سقف بهوها الأسط فتحة يخرج منها بعض الدخان المنبعث من الموقد ، وتخرج بقيته من باب الدار ، أو تستقر صنابجا على الجدران . وكانت الحمامات من المرافق التي تحتويها بيوت الأغنياء ، أما غيرهم فكانوا يقنعون بؤءا . من الخشب بدل الحمام . وكانوا يتخذون أناثهم من الخشب الثقيل ، وكثيراً ما كان يصقل وتحفر فيه أشكال فنية جميلة . وقد صنع إكاليوس لپنلبي كرسيّاً ذا متكأ مطعماً بالعاج والمعادن النفيسة ، وكذلك صنع أديسيوس له ولزوجته سريراً ضخماً متيناً قدّر له أن يبقى مائة عام .

ومن خصائص هذا العصر أن أهله يُغفلون الهياكل ويوجهون كل عنايتهم إلى تشييد القصور ، بعكس عصر بركليز فإن أهله كانوا يهتمون القصور ويصرفون جهودهم في بناء الهياكل . فنحن نسمع عن « بيت باريس الفخم » الذي شاده ذلك الأمير بمعونة أمهر المهندسين في طروادة^(١١) ، وقصر الملك ألسنوس الفاخر الذي كانت جدرانه من البرنز ؛ وطفه من عجين الزجاج الأزرق ، وأبوابه من الفضة والذهب ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدق على الشعر أكثر مما تصدق على فن العمارة . ونسمع كذلك الشيء القليل عن بيت أبجمنون الملكي في ميسيني كما نسمع الشيء الكثير عن قصر أديسيوس في إثاكا . وقد كان لهذا القصر دهليز أماى مرصوف بعضه بالحجارة ، ويحيط به سور محصص ، ويزدان بالأشجار ومذاود الخلال ، وكومة من الروث الساحن ينام عليها أرجوس كلب أديسيوس في

ضوء الشمس(*) . ويؤدى إلى داخل القصر مدخل ذو عمد ينم فيه العبيد والزائرون فى كثير من الأحيان ، أما داخل القصر نفسه فكان يحتوى على حجرة للانتظار تؤدى إلى بهو أوسط يستند إلى عمد يصل إليه الضوء من قمته فى السقف ، وفى بعض الأحيان من فتحة أخرى بين طنف البناء وعوارضه لتى فوق الأعمدة . وكانت مجامر نحاسية مستقرة على قواعد عالية تضىء البيت إضاءة مضطربة غير مستقرة . وكان فى وسط البهو مدفأة الدار تجتمع الأسرة حول نارها المقدسة أثناء الليل للدفء والطرب ، وللتحدث عن أخبار الجيران ، وعاد الأطفال ، وتقلبات الأيام .

٥ - الدولة

ترى كيف كان هؤلاء الآخيون الأشداء السريعو الانفعال يُحكمون ؟ لقد كانوا فى السلم تحكمهم الأسرة وفى الأزمات تحكمهم العشيرة . والعشيرة جماعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد ويدينون بالطاعة إلى رئيس واحد ، وحصن هذا الرئيس هو منشأ المدينة ومركزها ، حتى إذا ما أصبح سلطانه سنة متبعة وشريعة معترفاً بها ، تجمعت حول الحصن عشيرة بعد عشيرة حتى يتكون من مجموعها مجتمع سياسى من ذوى القربى . وإذا تطلب الرئيس عملاً إجماعياً من عشيرته أو مدينته دعا أحرارها المذكور إلى اجتماع عام وعرض عليهم اقتراحاً قد يقبلونه وقد يرفضونه ، ولكن أعظم الأعضاء شأنًا هم الذين يستطيعون أن يقترحوا تغييره . ولقد كانت هذه الجمعية القروية العنصر الديمقراطي الوحيد فى هذا المجتمع الأرستقراطى الإقطاعى ، وكان أعظم أعضائها فائدة للدولة أفصحهم لساناً وأقدرهم على التأثير فى عامة الشعب . وإنا لنشهد منذ ذلك الوقت البعيد فى الشيخ نسطور الذى « يسيل صوته من لسانه أحلى من الشهد » (٢٣) ، وفى أديسيوس المختال الذى تقع

(٥) يموت أرجوس من فرط الطرب حين يرى سيده بعد أن غاب عنه عشرين عاماً .

كلماته « على الناس وقح هشائش الثالث^(٦٣) » ، نشهد فيهما بداية ذلك السيل من الفصاحة الذى قدر له أن يبلغ فى بلاد اليونان مستوى أرفع مما بلغه فى أية حضارة أخرى ، والذى قضى فى آخر الأمر على هذه الحضارة القضاء الأخير ،

وإذا تطلب الأمر أن تعمل العشائر مجتمعة فإن رؤساءها يطيعون أوامر أقوامهم سلطاناً ، ويتخذونه ملوكاً عليهم ، ويدنون له بالطاعة هم وجيوشهم من الأحرار وأتباعهم العبيد . وكان أقرب الرؤساء إلى الملك مسكناً ، وأكبرهم مقاماً عنده ؛ يسمون « صحابة الملك » ، وهذا هو الاسم الذى أطلق عليهم أيضاً فى مقدونية أيام فليب وفى معسكر الإسكندر . وكان هؤلاء الأعيان يستمتعون فى البول boule أو المجلس بحرية القول ويخاطبونه حين يوجهون له القول على أنه « الأول بين الأنداد » . ومن هذه الهيئات المختلفة - الجمعية العامة ، ومجلس الأعيان ، والملك - نشأت دساتير العالم الغربى الحديث كله على كثرتها واختلاف أنواعها وأسماؤها .

وكان للملك سلطان عظيم ولكنه ضيق الحدود . فهو ضيق فى الرقعة التى يظلمها لأن مملكته صغيرة ، وهو ضيق فى زمانه لأن الملك معرض لأن يخلعه المجلس أو أن يخلع استناداً إلى حق سرعان ما اعترف به الآخيون وهو حق من عساه أن يكون أقوى من الملك سلطاناً . وفيما عدا هذا فقد كان حكم الملك وراثياً وكانت حدود سلطانه غير واضحة المعالم . وهو قبل كل شيء زعيم عسكري شديد العناية بمجيئه لأنه إذا عدمه تبينت للناس أخطاؤه ، وهو يحرص على أن يكون هذا الجيش حسن العدة ، والطعام ، والتدريب ، لديه ذخيرة من السهام المسمومة^(٦٤) ، والحراب ، والخوذ ، والجراميق ، والرماح ، والتروس ، والدروع ، والعربات الحربية . وهو الحكومة بأجمعها طالما كان الجيش يحميه ، يجمع فى يديه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وهو كاهن الدين الأكبر الذى يقرب القرابين باسم الشعب ، وأوامره هى القانون ، وأحكامه نهائية لا معقب لها ، ولم يكن لفظ القانون قد وجد بعد^(٦٥) . ومن

تمتته المجلس الذى يجتمع أحياناً ليفصل فى المنازعات الخطيرة ؛ وكأنما كان هذا المجلس يضع التقاليد التى تسير عليها جميع المحاكم فيما بعد ، فكان يبحث عن السوابق ويحكم على غرارها . وكان للسوابق الغلبة على القانون لأن السابقة مستمدة من العادة ، والعادة هى الأخت الكبرى للقانون تنازعه سلطانة : على أن المحاكمات على أنواعها نادرة فى المجتمع الهومرى ، وقلمنا نسمع فيه عن هيئات عامة للقضاء ، بل كان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتثار لنفسها ، وكانت أعمال العنف كثيرة تسود المجتمع .

ولم يكن من عادة الملك أن يجبى الضرائب ليقم بها دعائم ملكه ، بل كان يتلقى من حين إلى حين « هدايا » من رعاياه ؛ ولو أنه كان يعتمد على هذه الهدايا وحدها لكان ملكاً فقيراً بحق ، أما مورده الأكبر فكان فى أغلب الظن مستمداً من الرسوم التى يفرضها على ما ينتزعه جنوده وسفنه من الأسلاب فى البر والبحر . ولعل هذا هو السبب من أجله وجد الآخيون فى عصر متأخر كالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فى مصر وفى كريت . فكانوا فى مصر قراصنة غير ناجحين وفى كريت فاتحين عابرين . ثم نسمع عنهم فجأة وهم يستثيرون غضب الشعب بقصة عن السبي المذل ؛ ويجمعون بذلك قوى القاتل جميعها ، ويمجدون مائة ألف محارب ، ويبحرون بأسطول ضخم منقطع النظير مكون من نحو ألف سفينة ليحاربوا حظهم ضد حراب آسية على سهول طروادة وتلها .

الفصل الرابع

حصار طروادة

ترى هل حوصرت طروادة بحق ؟ لسا نعلم أكثر من أن كل مؤرخ يوناني وكل شاعر يوناني ، وأن كل سجل في معبد يوناني إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ، وكل قصة يونانية - من أن هذه كلها تسلم بلا جدال بأن طروادة حوصرت ؛ وأن علم الآثار قد كشف لنا عن المدينة المحرقة مضاعفة عدة مرار ؛ وأن الفصة وأبطالها لا تزال في هذه الأيام كما كانت في آخر القرن الماضي تعد في جوهرها قصة صحيحة (٦٦) : وقد جاء في نقش مصرى خلفه رمسيس الثالث أن « الجزائر كانت قلعة مضطربة » حوالى ١١٩٦ ق . م (٦٧) ، وفي بلنى إشارة إلى رمسيس « الذى سقطت طروادة في أيامه » (٦٨) . ويرجع إرتستنيز Eratosthenes العالم الإسكندرى العظيم تاريخ هذا الحصار إلى عام ١١٩٤ ق . م مستنداً في ذلك إلى الأنساب المتواترة التى نسقها المؤرخ - الجغرافى هيكيتيوس Hecataeus في أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

ويتفق الفرس الأقدمون والفينيقيون مع اليونان في قولهم إن تلك الحرب العظمى قد استمرت نارها لأن أربعة من النساء الحسان قد اختطفن عن بلادهن . فالمصريون على قولهم اختطفوا أبو Io من أرجوس ، واليونان اختطفوا أوروبا Europa من فينيقية وميديا من كلكير Colchis ؛ أليس من الإنصاف والحالة هذه أن يختطف باريس (*) هلى (٦٩) ؟ ويأبى استسيكورس

(*) لا حاجة بنا إلى القول بأن هلى كانت ابنة زيوس ، فقد اتخذ صورة بجمة وأغوى ليدا زوجة تندراريوس Tyndareus . لك أسطورة .

فى سنه الأخرىة بعد أن تاب وأناب ، كما يأبى هيرودوت ويورپدز من بعده ، أن يعترفأ بأن هلن قد غادرت بلادها إلى طروادة ؛ وكل ما فى الأمر أنها ذهبت إلى مصر مكرهة وأقامت فيها اثنتى عشرة سنة حتى جاءها منلوس . ويتساءل هيرودوت قائلاً : هل من الناس من يصدق أن الطرواديين يحاربون عشر سنين من أجل امرأة واحدة ؟ ويعزو يورپدز إرسال الحملة إلى ازدياد السكان فى بلاد اليونان أكثر مما تتحملة مواردها ، واضطرار أهلها بسبب هذه الزيادة إلى الهجرة والتوسع (٧٠) . ألا ما أقدم الأسباب الحديثة التى تبرر بها الرغبة فى القوة والسلطان .

على أنه لا يبعد أن تكون قصة شبيهة بهذه القصة قد استعين بها على جعل هذه المغامرة مستساغة لدى اليونان العادى ، وذلك بأن الناس فى حاجة إلى الألفاظ الطنانة إذا أريد منهم أن يضحوا بحياتهم . ومهما تكن أسباب الحرب الظاهرة ، فإن الذى لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق الميسنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود ، وكانت بلاد اليونان بأجمعها وغرب آسية على بكرة أبيها ترى أنها نزاع حاسم ؛ واحتشدت أمم اليونان الصغيرة لمساعدة أجمنون ، كما أرسلت شعوب آسية الصغرى العون بعد اسون لطرودة . وكانت الحرب فى حقيقة أمرها بداية الكفاح الذى تجدد فى مراثون وسلاميس ، وعند إسوس وأربىلا ، وعند تور وغرناطة ، وعند لينتو وقينا ...

وليس فى وسعنا أن نذكر من أحداث الحرب وما بعدها غير ما يهصه علينا الشعراء اليونان ومؤلفو المسرحيات منهم ، ونحن نقبل ما يقولون على أنه أدب أكثر مما هو تاريخ ، وهذا فى حد ذاته مبرر قوى لاعتباره جزءاً من قصة الحضارة . فنحن نعلم أن الحرب بشعة وأن الإلياذة جميلة ، وأن الفن (إذا عكسنا قول أرسطاطاليس) قد يحمل الرعب - ويظهر تبعاً لذلك -

بما يخلعه عليه من معنى جميل وشكل ظريف . ولسنا نقصد بقولنا هذا أن الإلياذة قد وصلت إلى حد الكمال في شكلها ، إذ الحقيقة أن تركيبها مهلهل غير رصين ، وأن القصص فيها متناقض تارة وغامض تارة أخرى ، وأن خاتمها ليست خاتمة بالمعنى الصحيح . غير أن كمال كل جزء على حدته يعوض ما في مجموعها الكلى من اضطراب ، والقصة رغم عيوبها الصغرى لا تنقل في مستواها عن مسرحيات التاريخ العظمى ، ولعلها لا تنقل عن مستوى التاريخ نفسه .

(١) (*) نرى اليونان في مستهل القصيدة وقد قضوا في حصار طروادة تسع سنين دون أن يظفروا بها ؛ وقد غلبهم اليأس والحزن إلى الوطن ، وفتك بهم المرض . وقد وقفوا طويلاً عند أوليس Oulis لأن المرض وسكون الريح في البحر قد حالاً بينهم وبين مواصلة السير ، وأثار أجمنون غضب كلتمنسترا وهياً السبيل لسوء مصيره بأن ضحى بابتها لافجينا لكي تهب الريح . وكان اليونان قد وقفوا في أماكن متفرقة في طريقهم ليأخذوا حاجتهم من الطعام والسراري ، فأخذ أجمنون الحساء كريسيس Chryses وأخذ أخيل بريسيس البارة الجمال ؛ ثم يقول عراف إن أبلو يمنع النصر عن اليونان لأن أجمنون قد اعتسدى على عفاف ابنة كاهنه كريسيس Chryseis . فإرد أجمنون كريسيس لأبيها ولكنه يواسى نفسه ويخلق في القصة موقفاً مثيراً بأن يرغم بريسيس على أن تفارق أخيل وتحمل عمل كريسيس في الخيمة الملكية . ويدعو أخيل الجمعية العامة إلى الانعقاد ، ويشكو إليها أجمنون وهو غاضب ثائر ، وينطق بأول كلمة في الإلياذة ويشير الموضوع الذي يتردد فيها مراراً وتكراراً ، ويقسم أنه لن يمدد أو جنوده يداً لمساعدة اليونان . (٢) ثم ننتقل بعدئذ إلى استعراض سفن الجيوش المتجمعة وقبائلهم ، ثم (٣) نشاهد منلوس المتعجرف يبارز باريس

(*) تشير الأعداد المحصورة بين قوسين إلى كتب الإلياذة .

مبارزة يراد بها وضع حد للقتال ؛ ويتهاذن الجيشان مهادة المتحفزين ، ويشترك بريام مع أجمنون في تقديم القرбан إلى الآلهة . ويظفر منلوس بياريس ولكن أفردتي تنقذه وتختطفه في سحابة ثم تلقيه على فراش زوجته بعد أن تعطره وتمسحه بالمساحيق الربانية . وتأمره هلن أن يعود إلى القتال ولكنه يعرض عليها بدلا من هذا أن « يصرفا الوقت في الفراش » . وتتغلب على هلن شهوتها فتجيبه إلى طلبه (٤) و يعلن أجمنون انتصار منلوس ، ويلوح أن الحرب قد وضعت أوزارها ، ولكن الآلهة تعقد مجلساً على جبل أولمبس للتشاور في الأمر كما يتشاور البشر ، وتقرر أنها في حاجة إن أن يسفك فوق ما سفك من الدماء . ويقترح زيوس لمصلحة السلم ولكنه يسحب صوته وينقلب مرتاعاً حين توحه زوجته هيرا خطاها إليه ، وتقترح أن تسمح لزيوس بأن يدك ميسيني وأرجوس واسبارطة دكا إذا وافق على تدمير طروادة : ويبدأ القتال من جديد ويهلك عدد كثير من الرجال تمزق أجسامهم السهام ، أو الحراب أو السيوف « وينجم الظلام على أعينهم » .

(٥) وتشترك الآلهة في هذه اللعبة المرحية لعبة التقتيل والتقطيع ، فتتخذ حربة ديوميدي في جسم أريس إله الحرب الرهيب ، ويصبح صبيحة كأنها صادرة من تسعة آلاف رجل » ، ويسرع إلى زيوس ليثنه شكواه .

(٦) وتعقب ذلك فترة يودع فيها هكتر البطل الطروادي زوجته أندرمكا وداعاً حاراً قبل عودته إلى القتال . وتخطبه بصوت رقيق قائلة : « حبيبي ، إن بسالتك ستؤدي إلى هلاكك ؛ إنك لا ترحم طفلك ولا ترحمني ، أنا التي سأكون عما قريب أرملة ، لقد قتل أبي وأمي وإخوتي جميعاً ، ولكنك أنت يا هكتر أبي وأمي ، وأنت زوج شبابي ، فأشفق على إذن وأقم هنا في البرج » . فيرد عليها بقوله : « إنني أعلم حق العلم أن مآل طروادة هو السقوط ، وأرى بعين الخيال أحزان إخواني وأحزان الملك ؛ غير أنني لا أحزن من أجلهم ؛ أما الذي يكاد يزلزل كياني فهو أن أراك أسيرة رقيقة في أرجوس ؛ ولكني مع هذا لن أحجم

عن القتال (٧١) « ويصرخ ابنه الطفل أستياناكس Astyanax ، الذى قتل له ، أن يلقيه اليونان للمتصرون من فوق أسوار المدينة بعد قليل فيسقط على الأرض جثة هامدة ، يصرخ مرتاعاً حين يبصر الريش يتأوج في خوذة أبيه ، فيرفع البطل خوذته حتى يستطيع أن يضحك ، ويبكى ويصلى للطفل الحائر المندھش . ثم يتخذ طريقه إلى المعركة : (٧) و يبارز أجاكس Ajax ملك سلاميس . ويستमित البطالان في القتال ثم يفرقان في المساء بعد أن يتبادلا النناء والهدايا . يا لها من زهرة مجاملة تسبح في بحر من الدماء . (٨) وبعد أن يقضى الطرواديون يوماً كاملاً ينتقلون فيه من نصر إلى نصر بأمر هكتور المحاربون بالكف عن القتال ليستريحوا .

هكذا خطب فيهم هكتور : وحياء الطرواديون بأعلى أصواتهم وصفقوا نه بكفهم . ثم رفعوا النير عن جيادهم حرية والعرق ينصب من أجسامهم وعقل كل منهم جواده بانسيور بجوار عربته ، وجاء من المدينة بالثيران والضأن السمين ؛ وقدم هكتور لهم النبيذ وهو يخاطبهم بأعذب الألفاظ وأرقها .. وجاءهم بالحب من البيوت ، وجمع الرجال وقود النار ، وحمل الخبز لرائحة الذكية من السهل إلى السماء ، وسهر من كانوا على جانبي الميدان الليل الطويل يملأ الأمل صدورهم ، وأوقدوا فار المراقبة ، وعلا لهب النيران الكثيرة التى أوقدها الطرواديون مروضو الخيول بجوار اليوم بين السفن السود ونهر زنتوس Thanathus ، وتلألأت تلالؤ النجوم حول آية الليل ، فكان منظرأ من أعجب المناظر ، وسكنت الريح ، ولاحت قمم الجبال والرووس ، وظهرت الخلوات التى بين الجبال . وبدت السماء الواسطة ذات الجلال ، وتلألأت نجومها التى بخطئها الحصر على قلب الراعى الذى أضناه النصب . وفى هذه الأثناء كانت خيل القتال المتعة تلوك القمح والشعير الأبيض بالقرب من مركباتها تنتظر مقدم الفجر فوق عرشه الجميل (٧٢) .

(٩) ويشير نسطور ملك فيلوس الإيلية على أبخمون أن يرد بريسيس

إلى أخيل ، ويحييه أجمنون إلى طلبه ، ويعد أخيل بأن يعطيه نصف بلاد اليونان إذا انضم مرة أخرى إلى المحاصرين ، ولكن أخيل يفضل غضباً . (١٠) وبفاجئ أديسيوس وديوميد معسكر الطرواديين بهجمة في أثناء الليل يقتلان فيها اثني عشر من رؤساء العشائر . (١١) ويقود أجمنون جنده ويستبسل في القتال ويُجرح ثم ينسحب من الميدان . (١٢) ويلتف الأعداء حول أديسيوس فيقاتلهم قتال الأسود ، ويشق له أجاكس ومنلوس الطريق وينجيانه ليقاسي فيها بعد حياة مريرة (١٢ - ١٣) ويتقدم الطرواديون إلى الأسوار التي أقامها اليونان حول معسكرهم . (١٤) فتزعج هيرا ونصمم على إنقاذ اليونان ، فتدهن بالزيت وتتعطرو تلبس أفخر الثياب ، وتنطق بمنطقة أفرديتي المقوية ، وتغوي زيوس فيضاجعها ، ويعمد بوسيدن في هذه الأثناء إلى مساعدة اليونان على رد الطرواديين (١٥) وتظل الحرب سجالاتاً فيصل الطرواديون إلى سفن اليونان ، وهنا تصل حماسة الشاعر ذروتها وهو يقص علينا كيف كان اليونان يحاربون مستبشرين وهم يراجعون تراجعاً سيؤدى بهم إلى الهلاك .

(١٦) ويقنع بتركولوس حبيب أخيل هذا الطلب فيسمح له بأن يقود جنوده لمحاربة طروادة . ويقتله هكتور بيده هـ (١٧) ويحارب أجاكس حرباً شديدة فوق جثة الشاب القتيل . (١٨) ويسمع أخيل بموت بتركولوس فيصمم آخر الأمر على القتال ، وتقنع أمه الإلهة ثيتيس الحداد الإلهي هفستوس Hephaestus بأن يصنع له أسلحة جديدة ودرعاً سابقة ضخمة . (١٩) ويتصالح أخيل مع أجمنون ، (٢٠) ويقاتل إنياس ويوشك أن يقتله لولا أن بوسيدن يتخذ منه فرجلاً موضوعاً لشعره . (٢١) ويقتل أخيل عدداً كبيراً من الطرواديين ويقذف بهم إلى البحر مودعين بخطب يتحدث فيها عن نسبهم . وتواصل الآلهة القتال : فتقذف أثينا أريس بحجر يطرحها أرضاً وتحاول أفرديتي وهي في زي جندي أن تقتله ، فتضربها أثينا ضربة على

صلوها الجميل تلقىها على الأرض . وتصفع هيرا أرتميس على أذنها ،
أما بوسيدن وأبلو فيكتفیان بحرب الألفاظ . (٢٢) ويولى الطرواديين
الأدبار من أخيل عدا هكتر وحده ؛ ويشير بريام وهكيا على هكتر أن
يبقى وراء أسوار المدينة ولكنه يرفض مشورتها ، حتى إذا تقدم أخيل نحوه
ولى الأدبار فجأة ؛ ويطارده أخيل حول أسوار طروادة ويطوف بها ثلاث
مرات ؛ ثم يقف هكتر ليلاقى عدوه فيخر صريعا .

(٢٣) وفي ختام هذه المسرحية تحرق جثة پتركولوس بالمراسم الفخمة ؛
ويضحى أخيل من أجله بعدد كبير من الماشية ، وبأثنى عشر من أسرى
الطرواديين وبشعره هو الطويل . ويقم اليونان الألعاب تكريماً له
و (٢٤) يجر أحيل جثة هكتر خلف مركبته ثلاث مرات حول كومة
الحريق . ويقبل بريام بموكبه وحزنه يرجو أن يسمح له ببجثة ولده ،
ويرقى قلب أخيل له ، ويرضى بعقد هدنة تدوم اثني عشر يوماً ، ويسمح
للملك الشيخ بأن يأخذ جثة ولده بعد تطهيرها ودهنها بالزيت ، ويعود بها
إلى طروادة .

الفصل الخامس

العودة إلى الوطن

وهنا تختتم القصيدة العظيمة خاتمة فجائية ، كان الشاعر قد قام بتصيير من القصة العامة ورأى من واجبه أن يترك ما بقي منها ينشده شاعر غيره ، وتقص الأداب بعدئذ كيف رعى باريس أخيل وهو واقف إلى جانب المعركة بسهم اخترق مؤخرة قدمه ، وهو الجزء الوحيد من جسمه الذى تؤثر فيه السهام ، فأرداه قتيلًا ، وكيف سقطت طروادة آخر الأمر نتيجة لخدعة الحصان الخشبي .

وكان النصر الذى أحرزه المنتصرون سبباً فى هزيمتهم ، فعادوا منهكين محزونين إلى أوطانهم بعد حنين إلىهما طويل . ونحطم كثير من السفن التى أقلنهم ، وارتطم بعضها بشواطئ البلاد الأجنبية وأنشأ من فيها مستعمرات يونانية فى آسية وجزائر بحر إيجه وإيطاليا^(٧٣) : ولما أقبلت هلن « الإلهة بين النساء » على منلوس بجلال جمالها الهادى عاد حبها إلى قلبه وكان قد أقسم أن يقتلها حين يظفر بها ، وسره أن يعود بها إلى اسبارطة لتكون ملكته فيها . ولما عاد أجهمنون إلى ميسيني « عاتق أرض بلاده وقبلها وذرفت عينه الدمع السخين^(٧٤) » ولكن كلتمنسترا تزوجت ابن عمه إجسثس وأجلسته على العرش ، فلما أن دخل أجهمنون القصر قتلا .

وأدعى إلى الأسى من هذا عودة أديسيوس ، وأكبر ظننا أن شاعراً آخر غير هومر قد قص قصته فى ملحمة أقل قوة وبطولة من الإلياذة^(*) ،

(*) وأكبر ظن أن أساس القصة التى تروىها أديسيوس مؤسستها الشاعر التاريخى من الإلياذة . ذلك أن أسطورة الملاح أو المحارب الحول الذى لا تموت زواجه حين هو دله أقدم بقاءاً من قصة طروادة ، ولا يكاد يحاو منها أدب من أداب الأمم كلها (٧٥) -

ولكنها أسلس منها وأرق وأجل ، وتقول الأديسة إن أديسيوس تحطمت سفينته على ساحل جزيرة أجيچيا Ogygia ، وهي جزيرة مسحورة شبيهة بجزيرة تيهي Tahiti ، تحكمها ملكة إلهة تدعى كلبسو Calypso ؛ شغفها حباً فاسدته عندها ثمانى سنين يحن فيها أشد الحنين إلى زوجته بئلي وابنه تلمكس اللذين ينتظرانه في إثكا على أحر من الجمر .

وتقع أثينة زيوس بأن يأمر كلبسو بإطلاق سراح أديسيوس ، وتطير الإلهة إلى تلمكس وتستمع إلى قصته الساذجة وتعطف عليه ، فتعرف كيف أقبل أمراء إثكا والجزائر الخاضعة لها على بئلي يتوددون لها ويسعون إلى تزواجها ليظفروا بعد ذلك الزواج بعرش إثكا ، وكيف يعيشون في قصص ومرح في قصر أديسيوس ويستمتعون بخيراته (٢) ويأمر تلمكس الخطاب بأن يعودوا إلى ديارهم ولكنهم يسخرون من شبابه ، فيخرج سراً على ظهر سفينة يبحث عن أبيه ، وتخزن بئلي لبعد زوجها وابنها ، وتستهمل خاطبها بأن تعدم أنها ستزوج واحداً منهم بعد أن تتم نسيج غزلها ، ولكنها تنقض منه في الليل ما عمله بالنهار (٣) ويزور تلمكس نسطور في بيلس و (٤) منلوس في اسبارطة ولكن أحداً منهما لا يستطيع أن يدلّه على مكان أبيه . ويرسم الشاعر صورة جذابة لهن وقد استقرت في بيتها خاضعة ولكنها لا تزال تستمتع بجمالها الرباني ، وقد غفر لها زوجها خطاياها من زمن بعيد ، وتقول إنها حين سقطت طروادة كانت قد سئمت المقام في المدينة (٥) .

= تأديسيوس اليوقان هو يمينه سنوحى Sinahe وسندباد ، وريبن كروزو ، وإثك أردن Enoch Arden . أما الأماكن الواردة في القصيدة فهي من الأسرار الأخيرة للمقول التي لا يجد أصحابها ما يتصورون فيه أوقات فراغهم .

(•) وتقول الرواية الليونانية إن مواطنها قد اتخذوها بعد موتها إلهة لم وعبدوها ، وكان من العقائد الشائعة في بلاد اليونان أن الآلهة تماقب من يستطيون في عرسها . بل لأنهم قد أشاروا إلى أن هومر نفسه إنما أصيب بالعمى لأنه تغنى بالفريفة المائلة بأن هن قوت إل طروادة عدل أن يقول إنها اختطفت وحلت إل مصر رغم إرادتها (٧٧)

(٥) وهنا يدخل أديسيوس القصة لأول مرة . فقد كان « يجاس على ساحل جزيرة كلپسو » وقد جف الدمع من عينيه وغاض ماء حياته الحلوة من شدة حزنه وحنينه إلى وطنه . نعم إنه كان يقضى ليله في الكهوف الخوفاء مضطجعا على الرغم منه بجوار كلپسو ، ينام وهو كاره بجوار الحورية المشتاقة ، ولكنه كان يقضى النهار جالسا على الصخور والرمال ، يبكي ويتوجع وينظر إلى البحر المضطرب (٧٨) « وتستيقبه كلپسو ليلة أخرى تأمره بعدها أن يصنع رمثا ويبحر فيه منفردا .

(٦) وبكافح أديسيوس البحر كفاحا طويلا ثم ينزل في أرض فيثيا الخرافية (ولعلها كرسيرا — كورفو Corcyra - Corfu) حيث تعثر عليه العذراء نوسكا Nausicaa وتأخذ إلى قصر أبيها الملك ألسنوس ، وتعشق الفتاة البطل الجريء المقتول العضلات ، وتفضى بسرّها إلى أترابها فتقول لمن : « استمعن إلى أينما العذاري ذوات الأذرع الجميلة البيضاء . . . لقد كان هذا الرجل يبدو لي منذ قليل غير وسيم ، أما الآن فهو في نظري كالآلهة التي تستقر في السماء الواسعة . ألا ليت رجلا كهذا يصبح لي زوجا ، يقيم هنا ، ألا ليته يرضى أن يقيم هنا معي (٧٩) » . (٧ - ٨) ويعجب ألسنوس بأديسيوس أشد الإعجاب فيعرض عليه ان يزوجه نوسكا ، ويعتذر أديسيوس ولكنه يصره أن يقص عليه قصة عودته من طروادة .

(١١) فيقول للملك إن سفته قد دفعته الرياح عن طريقها إلى أرض أكلة (اللوطس) ، وإن هؤلاء قدموا لرجاله فاكهة اللوطس الحلو ففسى الكثيرون منهم أوطانهم وحنينهم إليها حتى لم يجد أديسيوس بد من أن يرغمهم على العودة إلى سفنهم . وساروا من هنا إلى أرض السيكاوبين الجبابرة العور ، الذين لا يقومون بعمل ولا يخضعون لقانون ، ريعشون في جزة تكثر فيها الحبوب والفاكهة البرية . ووقعوا في كهف السيكاوب

بوليفيمس Polyphemus فأكل عدداً منهم ، وأنقذ أديسيوس من بقى بأن
أثام الوحش الجبار بعد أن أسكره ، ثم حرق بالنار عينه الوحيدة : (١٠)
ثم ركب الجوالون البحر مرة أخرى وأوغلوا فيه حتى وصلوا إلى أرض
الستريجونيين Laestrygonians ، وكان هؤلاء أيضاً من أكلة اللحوم
البشرية فلم تنج منهم إلا سفينة أديسيوس . ووصل هو ومن كان معه في
السفينة إلى جزيرة إنييا Aenea حيث أغوت سرس Circe الإلهة الحميلة
القدارة معظم رفاقه بفنائها الجميل فدخلوا كهفها ، ثم خلدتهم ومسختهم
فصاروا خنازير . وأوشك أديسيوس أن يذبحها ، ولكنه غير رأيه ورضى
بحبها ، ثم عاد هو ورفاقه إلى صورتهم البشرية وأقاموا مع سرس سنة
كاملة . (١١) أبحروا بعدها مرة أخرى ووصلوا إلى أرض يغشاها الظلام
السرمدى تبين لهم أنها مدخل الجحيم (هيدس Hades) ، وفيها تحدث
أديسيوس إلى أطراف أجمنون وأنخيل ووالدته . (١٢) ثم واصلوا سيرهم
ومروا بجزيرة السيرينات Sirens ، وهناك أنجى أديسيوس رجاله من
أغانيهن المغوية بأن وضع شمعاً في آذانهم . ثم تحطمت سفينته في مضيق
سلا Scyllis وكربديس Charybdis (مسينا ؟) ولم ينج ممن كانوا فيها إلا هو
وحده ، وقد نجا ليعيش تسع سنين أخرى في جزيرة كلپسو .

(١٣) ويتأثر ألسنوس بقصة أديسيوس وتدفعه شقيقته عليه فيأمر رجاله
أن يقلوه بحراً إلى إنكا ، على أن يعصبوا عينيه لئلا يعرف مكان أرضهم
الهيثة ويدل الناس عليها . وفي إنكا تقود الإلهة أثينة السائح الجوال إلى
كوخ يومبوس Eumaeus راعي خنازيره . (١٤) ويستقبله الراعي ويكرمه
إكراماً حائماً ، وإن كان لا يعرفه . (١٥) وتقود أثينة تلمكس إلى هذا
الكوخ نفسه (١٦) ويكشف أديسيوس عن نفسه لولده . (١٧) ويكيان
كلاهما « وينتجان بحرقه وبأعلى صوتيهما » ويفضى الوالد لولده بخدعة
يقتل بها جميع الذين تقدموا لخطبة زوجته .

(١٧ - ١٨) ويدخل القصر في زى متسول ، ويرى الخاطبين يأكلون ويتمتعون بماله ، وتغلى مراحل الغضب في صدره حين يعلم أنهم يضاجعون خادماته بالليل وإن كانوا يغازلون بئلي بالنهار . (١٩ - ٢٠) ويحتقره الخاطبون ويهينونه ولكنه يرد أذاهم بقوته وصبره . (٢١) وكان الخاطبون وقتئذ قد كشفوا حيلة النسيج التي خدعتم بها بئلي ، وأرغموها على أن تفرغ منه ، وتوافق على أن تزوج من يستطيع منهم أن يشد وتر قوس أديسيوس المعلق على أحد جدران القصر ، ويرى منه بسهم يمر من فتحات اثنتي عشرة بلطة مصفوفة في صف واحد . ويحاولون جميعاً أن يفعلوا هذا ولكنهم لا يفعلون ، ويطلب أديسيوس أن تتاح له الفرصة ليحرب حظهم ويفلح فيما أخفقوا فيه . (٢٢) ثم يلقي عن نفسه القناع ويكشف عن حقيقة أمره وهو غضبان أسف ، ويصوب سهامه إلى صدور الخاطبين ويقتلهم جميعاً بمعونة تلمكس ، ويوميس ، وأثينا . (٢٣) ويلقى صموية شديدة في إقناع بئلي أنه هو أديسيوس ، ذلك أن من أصعب الأمور أن تتخلى امرأة عن عشرين خاطباً من أجل زوج واحد . (٢٤) ويواجه هجمات أبناء الخاطبين ، ويستل سخام صدورهم ويستعيد ملكه .

وفي هذه الأثناء كانت أشد المآسى في القصص اليوناني تجري في مجراها ذلك أن أرسيتز Arestes بن أجمنون كان وقتئذ قد بلغ رشده ، وأثارت أخته إلكترا ثأثرته فأخذت بأثر أبيهما وقتل أمهما وعشيقتها . وقضى رستز بعدئذ سنتين كثيرة يضرب في الأرض وهو ذاهب العقل حتى جلس آخر الأمر على عرش أرجوس - ميسيني (حوالي عام ١١٦٧ ق . م) ، وضم بعدئذ أسبارطة إلى ملكه (*). ولكن بيت پلويس Pelops أخذ بعد اعتلائه العرش في الاضمحلال ،

(*) مثل السير آثر ليفز في قبر ميسيني في بؤوتيا على نقوش محفورة تمثل كهلا يهاجم تمثالا لأبي الهول وشابا يهاجم رجلا أكبر منه سناً وامرأة . ويرى أن هذه للنقوش تشير إلى =

ولعل هذا الاضمحلال قد بدأ من أيام أجمنون نفسه ، وكان هذا الزعيم قد اتخذ الحرب وسيلة لضم شتات ملك كان وقتئذ ينفرد عقده . غير أن انتصاره كان الضربة القاضية عليه لأن من كان معه من الزعماء لم يعد منهم إلا القليل ، وشقت كثير من الممالك عصا الطاعة وخرجت على كثيرين ممن لم يصحبوه من الزعماء . ولم يكد ينتهى العهد الذى بدأ بحصار طروادة حتى كانت قوة الآخيين قد أنهكت ونضب معين الحياة من جسم أبناء بلوئس ، وأخذ الشعب يترقب فى صبر وأناة ظهور أسرة جديدة .

= أدسيوس وأرستيز . وإذا كان يعزو هذه النقوش إلى حوالى عام ١٤٥٠ ق.م. فإنه يرجع تاريخ أدسيوس وأرستيز بناء على هذا إلى صربىق يماضى عام ١٤٥٠ ق.م. حددناه فى المقن إلى هاتين الشخصيتين تحديداً لا نجزم بصحته .

الفصل السادس

فتح الدوريين

اجتاحت بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٤ موجة جديدة من الهجرة أو الغزو متدفقة من الشمال القلق المضطرب النازع إلى التوسع ؛ فقد انزلق أو سار إلى البلوينيز ، أو تدفق عليها ، شعب ذو روح حربية ؛ طويل القامات مستدير الرؤوس ، معدوم الصلة بالأدب ، بعد أن اخترق إليريا وتسلوا وعبر خليج كورنثة عند نوپكتوس Naupactus ، ومضيق كورنثة عند كورنثة نفسها ، وأستولى على البلاد وقضى على الحضارة الميسينية قضاء يكاد يكون تاماً . وكل ما نقوله عن أصلهم وعن الطريق الذى سلكوه لا يرق إلى أكثر من الحدس والتخمين . أما أخلاقهم وأثرهم فى البلاد التى فتحوها فلأن علمنا عنهما يرق إلى مرتبة البقن . لقد كانوا لا يزالون فى مرحلة الرعى والصيد ؛ وكانوا من حين إلى حين يستقرون لفلاح الأرض ، ولكن جل اعتمادهم كان على ماشيتهم ، وكانت حاجة هذه الماشية إلى المرعى الحديد سبباً فى كثرة نقلهم وعدم استقرارهم . وكان الشيء الوحيد الموفور عندهم وفرة لم يسمع بها عند غيرهم هو الحديد ؛ ومن أجل ذلك كانوا هم رسل الثقافة الهلستانية(*) إلى بلاد اليونان ؛ وكانت صلابة أسياهم وشدة بأسهم سبباً فى تفوقهم على الآخيين والكريتيين ، وفى قسوة قلوبهم وبطشهم الشديد ، وكان الآخيون والكريتيون وقتئذ يستخدمون أسلحة من البرنز . والراجع أنهم تدفقوا من الغرب والشرق ، من إليس ومجارا ، على ممالك البلوينيز المتفرقة الصغيرة وذبحوا بسيفهم طبقاتها الحاكمة ، واتخذوا من بقى

(*) مدينة فى انسا أطلق اسمها على الفترة الأولى من الحديد فى أوروبا لكثرة ما كشف فيها من الآثار المصنوعة منه .

من الميسينيين أرقاء . ودمرت النيران ميسيني وتيريز وأضحت أرجوس عاصمة جزيرة بلوبس وظلت كذلك مائتين من السنين . واستولى الغزاة في برزخ كورنثة على أكروكورنثوس Acrocorinthus وهى قمة عالية تشرف على ما حولها وتسيطر عليه ، وشادوا حولها مدينة كورنثة الدورية^(٨٠) . وفر أمامهم من بقى حياً من الدوريين ، فلجأ بعضهم إلى جبال اليلوبونيز الشمالية ، وبعضهم إلى أنكا ، وعبر بعضهم البحر إلى الجزائر وإلى سواحل آسية . واقتنى الفاتحون أثرهم إلى أنكا ولكنهم صدوا عنها ؛ وجاءوا في أثرهم إلى كريت^(٨١) ، ودمروا ما بقى من كنوسس لمبراً تاماً ؛ واستولوا على ميلوس وثيرا Thera وكوس Cos ، ونيدس Nidus ورودس . وكان الخراب أشمل وأتم في جميع أنحاء اليلوبونيز ودرت حيث ازدهرت الثقافة الميسينية أكثر من ازدهارها في غيرها من الأصقاع .

وهذه الكارثة الختامية الى وقعت في العصر السابق للحضارة الإيجية هي المعروفة لدى المؤرخين المحدثين باسم الفتح الدورى ، والتي تسميها الرواية اليونانية « عودة الهرقليين » . ذلك أن الظافرين لم يقنعوا بأن يسموا انتصارهم هذا غلبة أقوام هج على شعب متحضر ، بل قالوا إن ما حدث في واقع الأمر هو أن أبناء هرقل ومن تناسلوا من أبنائه حيل بينهم وبين حقهم المشروع في العودة إلى اليلوبونيز ، فانتزعوا هذا الحق بقوة سواعدهم وبطولتهم . ولسنا نعرف ما في هذا القول من الحقائق التاريخية وما فيه من الأساطير الدبلوماسية التي يقصد بها تصوير هذا الفتح الدموى في صورة حق مقدس . ولنا ليصعب علينا أن نعتقد أن الدوريين قد برعوا في الكذب هذه البراعة كلها في شباب العالم . وقد تكون القصتان كلاهما صحيحتين وهو ما لم يسلم به المحاجون : فقد يكون الدوريون غزاة فاتحين من الشمال يقودهم أبناء هرقل وحفدته .

ومهما يكن مظهر هذا الفتح فإن ما ترتب عليه من الأثر هو أنه عاق تقدم بلاد اليونان ونماءها زمناً طويلاً ، وأصابها بمحنة شديدة . فقد ظلت أحوالها السياسية مضطربة قرنين كاملين ، وكان كل رجل فيها يحمل السلاح لأنه بات غير مطمئن على حياته ؛ وزادت أعمال العنف زيادة مطردة فغطت أعمال الزراعة والتجارة اليرية والبحرية ، واشتعلت نيران الحرب وعلا سعيها ، وازداد الفقر شدة وانتشاراً ؛ وأصبحت الحياة قلقاً مضطربة لأن الأسر أخذت تنتقل من إقليم إلى إقليم طلباً للأمن والسلام^(٨٢) . ويسمى هزبود Hesiod هذا العصر عصر الحديد ، ويأسف على فسادة وانحطاطه عن العصور الجميلة التي سبقتها ، وكان كثير من اليونان يعتقدون أن « كشف الحديد قد أضر بالإنسان^(٨٣) » ؛ واضمحلت الفنون وأهمل التصوير ، وقنع المثالون بنحت التماثيل الصغيرة الملونة ؛ وانحطت صناعة الفخار لأن الصناع غفلوا عما كان يمتاز به فن ميسيني وكريت من نزعة طبيعية حيوية ، فاتبعوا « طرازاً هندسياً » لاحاة فيه ، ظل يسيطر على فن الخزف اليوناني جملة قرون .

ولكن الخسارة لم تحل بكل شيء ، فقد امتزج العنصر الحديد بالقديم امتزاجاً سريعاً في خارج لكونيا Laconia وامتزاجاً بطيئاً في داخلها ، على الرغم من تصميم الغزاة الدوريين على أن يحتفظوا بدمائهم نقية طاهرة من دماء الأهليين المغلوبين ، وعلى الرغم من الكراهية العنصرية بين الدوريين والأيونيين ، وهى الكراهية التى اصطبغت بها بلاد اليونان على بكرة أبيها . ولعل امتزاج دم الآخيين والدوريين القوى النشيط بدم الشعوب التى هى أقدم من هذين الشعبين وأرق ، والتى كانت تقيم فى جنوبى اليونان ، لعل هذا كان ذا أثر حافز منشط . ومهما يكن لهذا الامتزاج من أثر فإن النتيجة النهائية التى أسفر عنها بعد قرنين من الزمان هى نشأة شعب جديد مختلف عن الشعوب التى كانت تعيش من قبل فى تلك البلاد ، امتزجت فيها دماء عناصر « البحر المتوسط » و « الألبى » و « الشمالى »

(النوردي) : والعناصر الأسبوعية امتزاجاً أدى إلى كثير من القلق والاضطراب .

كذلك لم تمنح الحضارة المسيحية من الوجود . فقد بقيت الحياة كاملة طوال قرون العنف والفوضى في بعض عناصر التراث الإيجي - كطرائق الحكم والنظام الاجتماعي ، وعناصر الصناعات اليدوية والفنية ، وأساليب التجارة وطرقها ، وأشكال العبادة وأدواتها^(٨٤) ، والمهارة في صنع الخزف والنقش ، وفن طلاء المظلمات ، وأساليب الزينة وطرز العمارة . ويعتقد اليونان أن النظم الكريتية قد انتقلت إلى اسبارطة^(٨٥) ، وقد ظلت الجمعية الآخية عنصراً أساسياً في بلاد اليونان الديمقراطية . وأكبر الظن أن تصميم الهياكل الدورية قد أخذ عن المسيين^(٨٦) ، بعد أن خلعت عليه الروح الدورية حرية وتناسقاً وقوة . وانتعشت التقاليد الفنية انتعاشاً بطيئاً فرفعت كورنثة وطيبة وسكيون Sicron وأرجوس إلى نهضة فنية مبكرة ~~في~~ بالنهضة الأوربية التي أعقبت العصور الوسطى ، وجعلت الفن والغناء يتسمان في اسبارطة العنيدة نفسها ، حيناً من الدهر ، وظلت هذه التقاليد تبعث الحياة في الشعر الغنائي طوال هذا العصر المظلم الذي لا تاريخ له ، وحملها معهم البلاسجيون والآخيون ، والأيونيون ، والميناويون المنفيون في هيرسهم إلى جزائر بحر إيجه وإلى آسية هرباً من الغزاة الفاتحين ، وأعانت المدن التي أقامها المستعمرون على أن تفوق أمهاتها في الآداب والفنون . ولما جاء المنفيون إلى الجزائر وإلى أبونيا وجدوا بقايا الحضارة الإيجية فاستولوا عليها واستعانوا بها . فقد احتفظ عصر البرنز بشيء من المهارة والنضارة القديمتين في المدن القديمة بهذه الجزائر ، لأنها كانت أقل اضطراباً من مدن القارة الأوربية ، وهناك في هذه الأرض الأسبوية بدأت بعدئذ يقظة اليونان الجديدة .

وبعض هذا الاتصال بين خمس ثقافات - الكريتية والمسيحية والآخية ، والدورية والشرقية - الشباب من جديد في حضارة بدأ يدب فيها دينب

الفناء ، حضارة فقدت رقتها في أرض القارة بفعل الحرب والنهب ، وأصبحت حضارة منحلة مخنثة في كريت لما ركنت إليه عبقرية أهلها من ترف . وقد احتاج امتزاج السلالات والأساليب قروناً عدة حتى استقر بعض الاستقرار ، ولكنه أعان على خلق ما في التفكير اليوناني والحضارة اليونانية من تنوع ، ومرونة ، ودقة منقطة النظر . وليس من حقنا أن ننظر إلى الثقافة اليونانية على أنها وميض لاح فجأة ، وبطريقة غير عادية ، في بحر مظلم من الممجية ، بل إن علينا أن ننظر إليها على أنها عملية بطيئة كلورة أدت إلى خلق شعب غني غني يكاد أن يكون مفرطاً في تنوع دمائه وفي ذكرياته ، تحيط به وتتحداه ، وتعلمه ، جموع همجية ، وإمبراطوريات قوية وحضارات قديمة ٥

الكتاب الثاني

نهضة بلاد اليونان

من ١٠٠٠ إلى ٤٨٠ ق. م.

أهم الحوادث في الكتاب الثاني

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ السابقة لعام ٤٨٠ هـ ٧٧٦ تواريخ غير مؤكدة . إذا ذكر اسم مكان غير مصحوب بوصف آخر دل ذكره هل تاريخ استيطانه الأول كما تذكره الـ واهيات التاريخية المأثورة :

ق . م . ٠	
١١٠٠ -	هجرة الأبوليين والأيونيين .
١٠٠٠ -	تشيد هيكل هيرا في أولمبيا .
٨٤٠ -	عصر هومر المرجع .
٧٧٦ -	الأماب الألبية الأول .
٧٧٠ -	سيوب وكوميا .
٧٥٧ -	٦ سيزكس وترايزس .
٧٥٢ -	المهد الأول للرؤساء (الأرغون) الذين كانوا يتولون الأمور .
عشر سنين .	
٧٥٠ -	اليونان يستقرون في شبه جزيرة تراقية .
٧٥٠ -	٥٩٤ عصر الأشراف .
٧٥٠ -	عصر هزيود المرجع .
٧٣٥ -	ناكسوس و (صقلية) .
٧٣٤ -	كرسير و سرقوسة .
٧٣٠ -	٢٩ رجيوم ، ولينتي : وكثانا .
٧٢٥ -	٧٠٥ الحرب المسيية الأول .
٧٢٥ -	النفود في ليديا وأيونيا .
٧٢١ -	سيارس ، ٧١٠ كروتونا .
٧٠٥ -	تاراس ، ٧٠٠ ، بوسيدونيا ؛ بدء استعمال الحجارة في العمارة اليونانية .
٦٨٣ -	المصر الأول للحكام ائمة الذي كان يلمع عالمًا واحدًا .
٦٨٠ -	فيدون طاغية أرجوس ؛ أول ظهور العملة الرسمية في بلاد اليونان .
٦٧٦ -	أرجراس طاغية في سيكون .
٦٧٠ -	تريندو السبوس الشاعر والموسيق ؛ أركلوكس الباروس الشاعر ، أناشيد هومر لأبلو وديتر .
٦٦٠ -	شرانغ زلركس في لكري .
٦٥٨ -	بيزنطية ، ٦٥٤ لمساكوس .

ق . م .

- ٦٥٥ - ٦٢٥ : كيسيوس طاغية في كورنثة .
- ٦٥١ - سلتيوس ٦٥٠ ، أبديرا وألبيا .
- ٦٤٨ - هميرا ، ميرون طاغية في سكيون .
- ٦٤٥ - ٣١ : الحرب الميسينية الثانية ، ترفيوس الشاعر في اسبارطة .
- ٦٣٥ - شرائع ليقرورغ في اسبارطة (٢) .
- ٦٣٥ - سيربي (٦١٥) أبيدوس .
- ٦٢٥ - ٥٨٥ : بريندر طاغية في كورنثة .
- ٦٢٥ - شرائع دراكو في أثينة .
- ٦١٥ - ثرايببولوس طاغية في ميليتس .
- ٦١٥ - شرائع كارتداس في كنانا .
- ٦٠٥ - نقراطس ، مساليا (مرسيليا) ، كليستينيس طاغية في سكيون ، وبناكس في مثليتي ، وسيفو وألكيوس شاعرا لسبوس ، طاليس فيلسوف ميليتس ، ألكمان الشاعر في اسبارطة ، نهضة فن النحت .
- ٥٩٥ - الحرب المقدسة الأولى .
- ٥٩٤ - شرائع صولون في أثينة .
- ٥٩٥ - عصر الحكماء السبعة ، نشأة الحلف الأمفكتيوني ، والأرفية ، الهيكل الثاني لأرتميس في إفسس .
- ٥٨٢ - الألعاب البيئية والبرزخية الأولى ، تمثيل الأكروبولس وأبلو
- ٥٨٠ - أكراياس ، ليسوب الساموسي ، صاحب الحرافات المشهورة .
- ٥٧٦ - الألعاب النيمية الأولى .
- ٥٧٥ - فلاس طاغية في أكراياس ، استيكتورس الهيرى الشاعر ، انكسمندر فيلسوف ميليتس .
- ٥٦٦ - الألعاب الاثينية الجامعة الأولى .
- ٥٦١ - ٦٠ : حكومة الطاغية بيستراتس الأولى .
- ٥٦٠ - ٤٦ : كرويسس اللينى يخضع أيونيا .
- ٥٥٨ - قرطاجة تستول على صقلية وقورسقة .
- ٥٥٠ - إسيوروم (اسبانيا) ، ٦٣٥ إيليا (إيطاليا) .
- ٥٤٦ - ٢٧ : حكومة الطاغية بيستراتس الثانية
- ٥٤٥ - فارس تخضع أيونيا .
- ٥٤٤ - انكسينس فيلسوف ميليتس .
- ٥٤٥ - هيب فاكس شاعر إفسس .

ق. م.	
٥٣٥ - ١٥	يولكراتس طاغمة ساموس ؛ ثيودورس فنان ساموس ؛ أنكريون شاعر قيس .
٥٣٤ -	ثيسيس يوطد قواعد التمثيل في أثينة .
٥٣٠ -	ثيجينيس شاعر مجارا .
٥٢٩ - ٥٠٠	الفيلسوف فيثاغورس في كروتانا .
٥٢٧ - ١٠	هيباس طاغية أثينة .
٥٢٠ -	بده هيكل الألمبيوم في أثينة .
٥١٧ -	سمنيدس شاعر كيوس .
٥١٤ -	مؤامرة هرمديوس وارستوجيتون .
٥١١ -	فريشكوس الممثل الأثيني .
٥١٠ -	كروتونا يدمر سيبارس .
٥٠٧ -	كليستينز يوسع نطاق الديمقراطية في أثينة .
٥٠٠ -	هكتيوس جغرافي ميليتس .
٤٩٩ -	أيونيا ثور ؛ مسرحية إيسكلس الأولى .
٤٩٧ -	اليونان الأيونيون بحرقين سرديس .
٤٩٤ -	الفنرس يفلبون الأيونيين في لادى .
٤٩٣ -	شمسكيز حاكم (أرخون) في أثينة .
٤٩٠ -	مرثون ؛ هيكل أنيا في إيجنيا .
٤٨٩ -	أرسيديز حاكم (أرخون) ؛ محاكمة ملتيداس .
٤٨٨ - ٧٢	ثيرون طاغية في أكرجاس .
٤٨٧ -	اختيار الأرغونيين بالقرعة لأول مرة .
٤٨٥ - ٤٧٨	جيلون طاغية في سرقوسة .
٤٨٥ -	إنكارميس يوطد دعائم الملهة في سرقوسة .
٤٨٢ -	نق أرستيديز .
٤٨٠ -	عمارك أرتميجوم ، وترمويل ، وسلاميس ، وهيرا ؛ أجلاذاس .
	الأرجوسى المثال .
٤٧٩ -	معركتا بلاتية ومكالى .

الباب الرابع

اسـيـارـطـة

الفصل الأول

البيئة المحيطة ببلاد اليونان

لننظر إلى خريطة للعالم القديم ونطلع فيها على جيران بلاد اليونان القديمة ، ونعنى ببلاد اليونان أو هلاس جميع البلاد التي كان يسكنها في الزمن القديم شعوب تتكلم اللغة اليونانية .

ولنبداً بالنظر إلى الأصقاع التي دخل منها إلى تلك البلاد كثير من الغزاة - فوق تلال إبيروس وعلى طول وديانها . وما من شك في أن أسلاف اليونان قد أقاموا في تلك الأماكن كثيراً من السنين ، لأنهم أنشأوا في ددونا Dodona مزاراً لزيوس إله السماء المرعد . ولقد ظل اليونان حتى القرن الخامس يتلقون الوحي في هذا المكان ويقرأون ما تريده الآلهة في غليان المراجع أو حفيف أوراق البلوطة المقدسة^(١) . ويحترق نهر أكرون الجزء الجنوبي من إبيروس ، وسط أخاديد بلغت من الظلمة والعمق درجة جعلت شعراء اليونان يصفونها بأنها مدخل الجحيم أو أنها هي الجحيم نفسها . وكان معظم أهل إبيروس في أيام هومر يتكلمون اللغة اليونانية ويتبعون الأساليب اليونانية ، ثم طغت عليهم موجات جديدة من الهمج أهل الشمال وحالت بينهم وبين المدينة .

وإلى شمال إبيروس على ساحل البحر الأدرياتي تقع إليريا Illyria ، وكانت في الوقت الذي نتحدث عنه بلداً قليلة السكان أهلها من الرعاة يبيعون الماشية والعبيد بملح الطعام^(٢) . وعلى هذا الساحل عند إيدمنوس Epidamnus (وهي ديركيوم Dyrrachium الرومانية ودرزو الحالية) أنزل قيصر جنوده وهو يطارد بيمبي . وعلى الجانب الآخر من البحر الأدرياتي اغتصب اليونان السواحل الجنوبية من القبائل المستوطنة هناك . وأدخلوا الحضارة في إيطاليا ، (وقد عادت تلك القبائل في آخر الأمر فاكنتسحتهم وابتلعت معهم بلادهم الأصلية وضمت بلادهم إلى إمبراطورية لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم) . وكان من وراء جبال الألب الغاليون ، الذين أخلصوا الود فيما بعد لمساليا (مرسيليا) ، وفي الطرف الغربي من البحر المتوسط تقع أسبانيا ، وكانت قد تمدنت إلى حد ما على يد الفينيقيين والقرطاجيين حين أنشأ اليونان في عام ٥٥٠ مستعمرتهم الوجلة في إمبريوم (أمبورياس Ampurias) . وكانت قرطاجنة الإمبراطورية تقع على ساحل أفريقية أمام صقلية تسلط عليها وتهدها ، وقد اختط هذه المدينة ديدو Dido والفينيقيون ، وتقول الرواية إن ذلك كان في عام ٨١٣ . ولم تكن وقت إنشائها قرية صغيرة بل كانت مدينة عامرة يبلغ سكانها ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، تحتكر تجارة البحر المتوسط الغربي وتسيطر على يتكا ، وهو Hippo وثلاثمائة بلدة أخرى في أفريقية ، ومناجم غنية ، ومستعمرات في صقلية ، وسردينية ، وأسبانيا ، وقد قدر لهذه الحاضرة ذات الثروة الطائلة أن تقود الكفاح ضد اليونان من ناحية الغرب ، كما قدر لبلاد الفرس أن تقوده من ناحية الشرق .

وإلى شرق هذه المدينة على ساحل أفريقية كانت تقع مدينة قورينة اليونانية ، وفي مؤخرتها بلاد اللوبيين المجهولة ، وإلى شرقها مصر . وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من مصر . وتعزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال كدموس

Cadmus ودانوس Danaus جاءوا من مصر أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت^(٣) . وقد انتعشت التجارة المصرية وبعث الفن المصرى من جديد فى عهد الملوك-الساويين (٦٦٣ - ٥٢٥) ، وفتحت الثغور الواقعة على نهر النيل لتستقبل التجارة اليونانية لأول مرة فى التاريخ . وزار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين - أمثال طاليس ، وفيثاغورس ، وصولون ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، فأعجبوا أشد إعجاب بعظيم حضارتها وقدمها ؛ ولم يجدوا فيها برايرة همجاً كالذين كانوا يجدونها فى الأقطار الأخرى ، بل وجدوا فيها أقواماً كانت لهم حضارة ناضجة ، وفنون راقية ، قبل سقوط طروادة بألفى عام . وكان مما قاله أحد الكهنة المصريين لصولون : « إنكم أيها اليونان لا تزالون أطفالاً ، ثوثرارين ، مغرورين ، لا تعرفون شيئاً عن الماضى . ولما أخذ هكتيوس الملبى يزدهى على الكهنة المصريين ويقول لهم إن فى وسعه أن يذكر لهم سلسلة نسبة التى تنتهى بعد خمسة عشر جيلاً إلى أحد الآلهة ، أطلعه فى هياكلهم على ٣٤٥ تمثالا لكبار الكهنة كل منهم ابن الذى قبله ويتكون من مجموعهم ٣٤٥ جيلاً تبدأ من العهد الذى كان فيه الآلهة يحكمون الأرض^(٥) . وكان علماء اليونان أمثال هيرودوت وأفلو طرخس يرون أن العقيدة الأرفية القائلة بأن الخلق يحاسبون بعد موتهم على ما قدموا من خير وشر فى حياتهم ، وأن الاحتفالات التى كانت تقام لبعث دمترو وپرسفونى فى إليوسيس ، مأخوذة كلها من عبادة إيزيس وأوزيريس المصريين . وأكبر الظن أن طاليس الملبى تعلم الهندسة النظرية فى مصر ، وأن روكوس Rhoecus وثيودورس الساموسيين قد عرفا فيها فن صب الآنية المجوفة البرنزية ، وفى مصر ازداد مهارة فى صناعة الفخار والنسيج وطرق المعادن والحفر على العاج^(٧) . وعن المصريين والأشوريين والفينيقيين والحثيين أخذ المثلون اليونان طراز تماثيلهم الأولى - وجوهها المستوية ، وعيونها

المائلة ، وأيديها المقبوضة ، وأطرافها المعتدلة المتصلبة(*) . وقد وجد مهندسو اليونان بعض إلهامهم الفني ، الذى أوحى إليهم بالعمد المحززة وبالطراز الدورى ، فى عمد سقارة ، وبني حسن ، كما وجدوا بعضه الآخر فى بقايا ميسنى اليونانية(٨) . وكما أن بلاد اليونان قد تعلمت فى شبابها من مصر واعترفت لها بالفضل ، فإنها حين خارت قواها ماتت فى أحضان مصر إذا جاز هذا التعبير ، فقد مزجت فى الإسكندرية فلسفتها ، وطقوسها الدينية ، وآلهتها بنظائرها فى مصر وبلاد اليهود حتى تبعث وتحيا حياة جديدة فى رومة وفى المسيحية .

وكان أثر فينيقية فى اليونان لا يزيد عليه إلا أثر مصر نفسها . فقد كان تجار صور وصيدا المغامرون وسيلة طوافه لنقل الثقافة ، ونشروا فى جميع أقاليم البحر المتوسط علوم مصر والشرق الأدنى ، وصناعاتها ، وفنونها . وطقوسها الدينية . ولقد بز الفينيقيون اليونان فى صنع السفن ولعل اليونان قد أخذوا هذه الصناعة عنهم ؛ وعلموهم كذلك أساليب فى طرق المعادن ، والنسيج والصباغة خيراً من أساليبهم(٩) ، وقد اشتركوا مع كريت وآسية الصغرى فى نقل الصورة السامية للحروف الهجائية إلى بلاد اليونان بعد نمائها وتطورها فى مصر واليونان وسوريا ؛ وأخذت بلاد اليونان عن بابل نظام موازينها ومكاييلها(١٠) ، وساعنها المائية ومزولتها(١١) ، ووحدات العملة المتداولة فيها ، وهى الأبول obol والمينا mina ، والثالث (الوزن) (١٢) ، وقواعد علم النلك ، وآلاته ، وسجلاته ، وحسابه ، ونظامها الستينى الذى يقضى بتقسيم السنة والدائرة والزوايا الأربعة القائمة التى تتقابل فى مركزها إلى ٣٦٠ جزءاً ، وتقسيم كل درجة إلى ٦٠ دقيقة وكل دقيقة من هذه الستين إلى ٦٠ ثانية ، ولعل معرفة طاليس بعلم الفلك عند المصريين

(*) انظر تمثال كاريز Ciharez الجالس للذى عثر عليه فى ميليس والمحفوظ فى المتحف البريطانى ، أو رأس كلوبيس Cleobis الذى صنعه بليبيديس Polymedes والمحفوظ فى متحف دلفى .

والبابليين هي التي أمكنته أن يتنبأ بكسوف الشمس^(١٣) ، ولعل هزبود قد أخذ عن بابل فكرته القائلة إن القوضى والعاء أصل الأشياء جميعها ؛ وإن قصة إشتار وتموز لتشبه قصتي أفرديتي وأدنيس ودمتر وهرسفوني شهاً يدعو إلى الظن بأن الأولى هي الأصل الذي أخذت عنه القصتان الأخريان .

وكان بالقرب من الطرف الشرقى للمحيط التجارى الذى يضم أجزاء العالم القديم كله آخر أعداء اليونان ونعنى بهم الفرس . ولقد كانت حضارة بلادهم من بعض نواحيها - وإن كانت نواحي قليلة - أرقى من حضارة بلاد اليونان المعاصرة لها . فلقد أخرجت إلى العالم طرازاً من الرجل المهذب أرقى وأظرف من الرجل اليونانى فى كل ناحية من النواحي عدا حدة الذهب والتعليم ، كما أنشأت نظاماً للإدارة الإمبراطورية يفوق بلا جدال ذلك النظام الذى كانت تزعمه أثينة واسبارطة ، ولم يكن ينقصه إلا حرص اليونان على الحرية . ولقد أخذ اليونان الأيونيون عن آشور قدراً من المهارة فى صنع تماثيل الحيوان ، كما أخذوا عنهم فى صناعة النحت المبكرة ميلهم إلى ضخامة التماثيل واستواء ما عليها من الملابس ، وأساليب الزينة فى الأظناف والقوالب ، وفى طراز النقش البارز فى بعض الأحيان ، كما نشاهد ذلك فى لوحة أرسطيون الجميلة^(١٤) . وكانت لليديا علاقات وثيقة بأيونيا ، وكانت سرديس عاصمتها الزاهرة بمثابة البيت التجارى الذى تصفى فيه المتاجر والأفكار المتبادلة بين بلاد النهرين والمدن اليونانية المنتشرة على الساحل . وقد اقتضت الأعمال التجارية الواسعة قيام المصارف ، واضطرت الحكومة الليدية إلى إصدار عملة مضمونة من الدولة فى عام ٦٨٠ . وسرعان ما حاكى اليونان هذا العمل الجليل ذا الفائدة العظمى للتجارة ، وأدخلوا عليه ضروب الإصلاح والتحسين ، وكان له من الآثار التى لا تقل فى خطرها وسعتها عن استخدام الحروف الهجائية . وكان أثر فريجيا فى بلاد اليونان أقدم من هذه الآثار السابقة . وأدل على حذق الفريجيين . فقد دخلت سيبلى أمها

الإلهة من أول الأمر إلى دين اليونان ، وأضحت موسيقى الناي وما يصحبها من تهتك هي « الطراز الفريجي » الشائع بين عامة الشعب ، والذي أقلق بال رجال الأخلاق اليونان . وعبرت هذه الموسيقى العنيفة مضيق الهلسينت من فريجيا إلى تراقية ، واستخدمت في طقوس ديونيسس . وكان إله الخمر أهم ما أهدته تراقية إلى بلاد اليونان ، ولكن مدينة تراقية هي أبداً المتأثرة أرادت أن تعوض بلاد اليونان عما أصابها بهذه الهدية فأهدت إليها ثلاثة من فلاسفتها - هم ليوسيبس Leucippus ودمقريطس Democritus ، وپروجراس Protagoras . وتراقية هي التي انتقلت منها طقوس ربات الشعر إلى بلاد اليونان ، ولقد كان واضعو فن الموسيقى اليونانية نصف الخرافيين - أرفيوس ، وموسايوس Mausaeus وثاميريس Thamyris - مغنين وشعراء تراقيين .

وننتقل بعد من تراقية نحو الجنوب إلى مقدونية ، وبذلك نكون قد أتممنا دراسة كل ما يحيط ببلاد اليونان من حضارات . ومقدونية بلاد جميلة المناظر الطبيعية ، كانت أرضها في الزمن القديم غنية بالمعادن ، وسهولها الخصبة تنتج الفاكهة والحب ، وجبالها تنشئ أقواماً صلاباً قدر لهم فيما بعد أن يفتحوا بلاد اليونان . وكان سكان الجبال والفلاحون من أهلها من عناصر مختلطة ، أهمها الإليريون والتراقيون ، وربما كانت لهم صلات في الدم باللوريين الذين فتحوا البلوونيز . وكان حكامها الأشراف يدعون أنهم من نسل اليونان (ومن أبناء هرقل نفسه) ، وكانوا يتكلمون لهجة يونانية . وكانت عاصمتهم الأولى إدسا Edessa تقع فوق هضبة واسعة بين السهول الممتدة إلى إبيروس وسلاسل الجبال التي تصل إلى بحر إيجه . وكان إلى الشرق منها مدينة پلا Pella التي أضحت فيما بعد عاصمة فليب والإسكندر ، وبالقرب من البحر مدينة پدنا ، التي هزم فيها الرومان المقدونيين الفاتحين وكسبوا بعد هذه الهزيمة حق نقل حضارة اليونان إلى العالم الغربي .

تلك إذن هي البيئة التي كانت تحيط ببلاد اليونان : حضارات كحضارة مصر وكريت وبلاد النهرين أهدت العناصر الفنية في الصناعة ، والعلوم ، والفن ، فاستحالت على أبدى اليونان إلى أزهى صورة في التاريخ ، وإمبراطوريات كبلاد فارس وقرطاجنة تؤثر فيها منافسة التجارة اليونانية ، وينضم بعضها إلى بعض لمحاربة اليونان وجعلها ولاية خاضعة لسلطانها غير قادرة على أذاها ، وإلى الشمال جموع حربية النزعة ، تتكاثر دون تفكير في العواقب ، وتنقل في قلق واضطراب ، وتعب بعد زمن قد يقصر وقد يطول الحواجز الجبلية القائمة بينها وبين بلاد اليونان ، وتفعل بها ما فعله الدوريون من قبل فتمزق ما سماه شيشرون الإطار اليوناني الموشى به الثوب الممجي^(١٥) ، وتدمر حضارة لا تفقه لها معنى . ولما كانت هذه الأمم المحيطة ببلاد اليونان تعنى بما كان يعده اليونان جوهر الحياة وأعلى ما فيها ألا وهو الحرية - حرية الحياة والتفكير ، والقول والعمل . وكان كل شعب من هذه الشعوب ، عدا الفينيقيين ، يزرع تحت حكم الطغاة المستبدين ، ويسلم أرواح بنيه إلى الخرافات والأوهام ، ولا يعرف إلا القليل من بواعث الحرية أو الحياة العقلية . وهذا هو السبب الذي حدا باليونان إلى أن يطلقوا عليهم بلاء تميز بينهم اسم البربر *barbaroi* أى المممج ، فالممجي في اعتقادهم هو الذي لا يرضى بالاعتقاد دون تفكير ، والذي يعيش مسلوب الحرية . ثم تتنازع الفكرتان - صوفية الشرق وعقلية الغرب - آخر الأمر جسم بلاد اليونان وروحها ، فتنتصر العقلية في عهد بركليز ، كما انتصرت في عهد قبصر ، وليو العاشر ، وفردريك ، ولكن الصوفية كانت تعود على الدوام . وتبادل النصر بين هاتين الفلسفتين المكملة كلتاهما للأخرى هو الذي تتكون منه أهم المراحل في قصة الحضارة الغربية .

الفصل الثاني

أرجوس

وأخذت بلاد اليونان الصغيرة تمد رقعتها داخل هذه الدائرة من الأمم المحيطة بها حتى لم يكذبني جزء من شاطئ البحر المتوسط لم يعمره أبناؤها . ذلك أن اليد الهزيلة التي مدت أصابعها الرفيعة إلى البحر نحو الجنوب لم تكن إلا جزءاً صغيراً من بلاد اليونان التي يعيننا تاريخها في هذا الكتاب ؛ فقد انتشر اليونان ، الذين لا تصدهم عن غرضهم عقبات مهما قويت في أثناء تطورهم ونمائهم ، في كل جزيرة من جزائر بحر إيجه ، وإلى كريت وقبرص ، وإلى مصر وفلسطين ، وسوريا ، وما بين النهرين ، وآسية الصغرى ، وإلى بحر مرمره والبحر الأسود ، وإلى شواطئ بحر إيجه وشبه الجزيرة الممتدة منه ، وإلى إيطاليا ، وغالة ، وصقلية ، وإلى شمال أفريقية . وقد أنشأوا في هذه الأقاليم جميعها دول مدن مستقلة متفرقة ولكنها يونانية ، تتكلم اللغة اليونانية وتعبد الآلهة اليونانية ، وتكتب الآداب اليونانية وتقرؤها ، وتقوم بنصيبها في تقدم العلوم والفلسفة اليونانية ، وتمارس الديمقراطية على الطريقة اليونانية الأرستقراطية . وهم حين هاجروا من بلاد اليونان لم يتركوا موطنهم الأصلي وراءهم ؛ بل حملوه معهم ، حتى أرضه نفسها ، أينما ذهبوا ، وقد جعلوا حوض البحر المتوسط بحيرة يونانية ومركزاً للعالم ، ودام على هذا الوضع قرابة ألف عام .

وأصعب ما يواجه مؤرخ الحضارة اليونانية القديمة ويشبط همته هو أن يؤولف من هذه الأعضاء المتفرقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة

وقصة متصلة الأجزاء(*) . وسنحاول أن نفعل هذا بتلك الطريقة الشيقة طريقة الطواف في رحلة بهذه الأجزاء . وسنضع أماناً في خلال هذه الرحلة خريطة ، لا تكلفنا غير قليل من الخيال ، وسنتقل من مدينة إلى مدينة في العالم اليوناني ، وندرس في كل مركز من هذه المراكز حياة الأهليين قبل الحرب الفارسية - أساليبهم الاقتصادية والحكومية ، ونشاط علمائهم وفلاسفتهم ، وما أنشدوه من الشعر وما أنتجوه من الفنون(**) . ولسنا ننكر أن في هذه الطريقة عيوباً كثيرة : فالتتابع الجغرافي لن يتفق كل الاتفاق مع السياق التاريخي ، وسنضطر في هذه الرحلة إلى أن نقفز من قرن إلى قرن ومن جزيرة إلى جزيرة ، وسنجد أنفسنا نتحدث إلى طاليس وأنكسمندر قبل أن نصنى إلى هومر وهزiod . ولكننا لا يضيرنا قط أن نرى الإلياذة وما فيها من فحش في ضوء التشكك الأيوني ، أو أن نسمع إلى شكاية هزiod الشديد بعد أن زار المستعمرات الأيونية التي جاء منها والده المنهوك . وسنحيط بعض الإحاطة ، حين نصل في آخر رحلتنا إلى أثينة ، بالنواحي الكثيرة الاختلاف لتلك الحضارة التي ورثها والتي حافظت عليها ببسالة في مرون . وإذا بدأنا رحلتنا من أرجوس حيث أقام الدوريون المنتصرون حكمهم ، وجدنا أنفسنا في إقليم يوناني خالص : في سهل غير مسرف في خصبه ، ومدينة صغيرة مهوشة النظام ، ذات بيوت صغيرة من الآجر والجص ، وهيكل

(•) « إن كتابة تاريخ بلاد اليونان في كل عصر من عصوره إلا القليل النادر منها من غير أن يتشكك اهتمامنا عمل من أصعب الأعمال ... ذلك أنه لا توجد وحدة دائمة متصلة أو مركز ثابت نستطيع أن نخضع له أعمال الدول اليونانية المتعددة وأهدافها » بيورى Bury من كتاب « المؤرخون اليونان الأقدمون » .

(••) سنقص التاريخ الممارى للمدن اليونانية الصغرى في هذه الفصول (الكتاب الثاني) حتى وفاة الإسكندر (٣٢٣) ، وذلك لكي فتحاشى المودة مراراً كثيرة إلى المكان // احد .

على تلها ، وملهى فى الهواء الطلق على سفح ذلك التل ، وقصور متواضعة فى أماكن منها متفرقة ، وأزقة ضيقة ، وشوارع غير مرصوفة ، وعلى بعد منها البكر الجميل الجذاب المضطرب الأمواج . ذلك أن بلاد اليونان إنما تتكون من جبال وبحار ، والمناظر الجميلة الفخمة عادية فيها مألوفة إلى حد يجعل اليونان لا يعنون بذكر ذلك الجمال فى كتبهم وإن كان يستحوذ على قلوبهم ويوحى إلى عقولهم . وشتاء البلاد بارد مطير ، وصيفها حار جاف ، وأهلها يزرعون فى الخريف ويحصدون فى الربيع ، والمطر فيها نعمة وبركة ، وزئوس مرسل المطر إله الآلهة . وأنهارها قصيرة ضحلة ، تتحول إلى سيول جارفة فى فصل الشتاء ، وتجف حتى تظهر الحصباء فى قيعانها فى حر الصيف . ولقد كان على طول الشاطئ اليونانى مائة مدينة فى حجم أرجوس وشبيهة بها ، وألف مدينة أخرى تشبهها ولكنها أقل حجماً منها ، وكلها ذات سيادة تغار على سيادتها ، يفصل كل واحدة عن الأخرى ما بينها من خصام شديد أو مياه خطيرة ، أو تلال عديمة المسالك .

ويعزو أهل أرجوس منشأ مدينتهم إلى أرجس البيلاسجى ، البطل ذى المائة العين ، كما يعزون ازدهارها الأول إلى رجل مصرى يدعى دانوس Danaus قدم إليها على رأس جماعة من « الدنائين » ، وعلم الأهلىن طريقة لإرواء حقولهم من الآبار . وليس من حقنا أن نسخر من هذه الأسماء الخيالية ، فقد كان اليونان يفضلون أن تنتهى بالأساطير تلك التواريخ الطويلة التى تنتهى عندنا نحن إلى الجهل والغموض . وقد أصبحت أرجوس ، تحت حكم تمنوس أحد المرقليين الذين عادوا إليها ، أقوى المدن اليونانية بأجمعها ، وأخضعت لسلطانها تيرينز ، وميسينى وجميع الأراضى المحيطة بها . واستولى على زمام الحكم فيها حوالى عام ٦٨٠ أحد أولئك tyranoi ، الذين أصبح حكمهم الطراز المألوف فى كبريات المدن اليونانية طوال القرنين اللذين أعقبا ذلك العهد . ولعل هذا الطاغية المسمى فيدون Pheidon قد استولى على الحكم ،

كما استولى عليه أمثاله من الطغاة ، بأن تزعم طبقة التجار الآخذة قوتها في الازدياد بعد أن ضموهم إليهم العامة مؤقتاً ليسهل عليهم الوصول إلى غرضهم — وهو مقاومة سلطان الأشراف ملاك الأراضي . ولما هددت إيدروس وأثينة سفينة إيري — حلفاء أثينة — لمساعدتها واستولى عليها لنفسه . وراشتمل فيديون نظريته المرائية والمكايل البلية — ولعله أخذها عن الفينيقيين — كما استخدم نظام النقد الليدي الذي تضمنته الدولة . وأنشأ دار الضرب في إريثينة وأضحت « السلاحف » (أى قطع النقد المنقوش عليها رمز الجزيرة) أول عملة رسمية في بلاد اليونان القارية (١٧) .

وكان حكم فيديون الاستبدادى المستنير بداية عصر من الرخاء جاء إلى أرجوس وما حولها بكثير من الفنون حتى كال موسيقبو أرجوس أشهر الموسيقيين في بلاد اليونان كلها في القرن السادس قبل الميلاد (١٧) ، ومن هؤلاء لاسوس Lasus الهرميونى (Hermione) الذى اشتهر بين الشعراء الغنائيين في عصره ، والذى أخذ عنه بندار Pindar مهارته في هذا الضرب من الشعر . وقد أهداه مع أساس مدرسة النحت الأرجوسية التى أهدت إلى بلاد اليونان بديهيوس كما أهدت إليها قواعد الفنى ، ووجد التمثيل موضعاً له في تلك المدينة حيث أنشئت له دار تحتوى على عشرين ألف مقعد ، وشاء المهندسون فيها هيكلاً لهيراً ، التى كانت تحجب أرجوس ، وتخصها بعبادتها ، وتعددها العروس الإلهة التى تتجدد بكارتها في كل عام (١٨) . لكن ما أصاب حلفاء فيديون من ضعف وفساد — هما نعمة الملكية — بالإضافة إلى الحروب المتعاقبة الطوال مع أسباطه ، أوهن أرجوس ، واضطرها إلى أن تتخلى عن زعامة الهلوبيونيز إلى السديمونيون Lacedaemonians . وهى اليوم بلدة هادئة تخفى معالمها بين ما يحيط بها من حقول ، ولا تذكر إلا قليلاً عن مجدها الغابر ، وتفخر بأن أهلها لم يهجروها قط في أثناء تاريخها الحافل الطويل .

الفصل الثالث

لكونيا

في جنوب أرجوس ، وعلى مسافة بعيدة من البحر ، يشاهد السائح قلل سلاسل جبال البرنون Parnon ، وهي قلل جميلة المنظرو لكن أجمل منها في العين نهر يوروناس Eurotas الذي يجري بينها وبين سلسلة تيجتوس في الغرب ، وه أكثر منها ارتفاعاً وأشد قتاماً وتكثلل أعلاها الثلوج . وفي الوادى المعرض لفعل الزلازل يمتد « تجويف لسديمون » ، وهو سهل منبسط تحميه التلال من جميع جوانبه بحيث لا تحتاج حاضرتة اسبارطة إلى أسوار نحميها . وكانت اسبارطة « المبعثرة » في ذروة مجدها تتكون من خمس قرى منضمة بعضها إلى بعض يعمرها حوالى سبعين ألف نسمة . أما اليوم فهى قرية صغيرة لا يزيد سكانها على أربعة آلاف ، ولا يكاد يبقى شيء حتى فى متحفها الصغير ، من تلك المدينة التى حكمت فيما مضى بلاد اليونان وكانت سبباً فى خرابها .

١ - توسع اسبارطة

ولقد سيطر الدوريون من هذا الحصن الطبيعى المنيع على جنوبي الهلوبيونز واستعبده . وكان هؤلاء الشماليون ذوو الشعر المرسل الطويل ، الذين قوت حياة الجبال أجسامهم وضرستهم الحروب ، كان هؤلاء الأقوام يرون أن الحياة إما فتح أو استرقاق ولا ثالث لهما . وكانت الحرب عملهم المألوف يحصلون بها على رزقهم الشريف فى ظنهم ، كما كان غير الدوريين من أهل البلاد الذين أضعفهم اشتغالهم بالزراعة وطول عهدهم بالسلام فى حاجة ملحة إلى سادة متلون أمه وهم ريسيطرون عنهم . وكان أول ما فعله ملك اسبارطة ، الذين

يدعون أنهم من سلالة الهرقلين الذين وفدوا إلى البلاد منذ عام ١١٠٤ ، أن أخضعوا سكان لكونيا الأصليين ثم هاجموا مسينيا Messina . وكانت تلك الأراضي الممتدة في الطرف الجنوبي الغربي من البلوونيز مستوية وخصبة إذا قيست إلى سائر أجزاء شبه الجزيرة ، وتقوم بحرثها قبائل هادئة مسالمة . ويقص علينا بوسنياس كيف ذهب أريستوديموس Aristodemus ملك مسينيا إلى مهبط الوحي في دلفي ليستشير في الوسائل التي يستطيع بها أن يهزم الإسبارطيين ، وكيف أمره أبلو أن يضحى بعذراء يجرى في عروقها دمه الملكي ، وكيف قتل ابنه هو وخسر الحرب^(١٩) (وربما كان سبب خسارته أنه كان مخفئاً في اعتقاده أنه قتل ابنه) ، وكيف قاد أريستمينس Aristomenes الشعاع الميسينيين بعد جيلين من ذلك الوقت في ثورة جامعة على حكامهم الفاتحين ، وكيف ظلت مدنها تسع سنين صابرة على الهجوم والحصار ولكن الإسبارطيين ظفروا بهم آخر الأمر ، فأخضعوا الميسينيين وفرضوا عليهم جزية سنوية تعادل نصف محصولاتهم ، وساقوا نصف عددهم وضموهم إلى أقتان هيلوت Helot :

والصورة التي ترسم في مخيلتنا للمجتمع اللكوني قبل ليقورغ تتكون ، كما تتكون بعض الصور الملونة القديمة ، من ثلاث طبقات ، العليا منها هي طبقة السادة الدورين ، ويعيش معظمهم في أسباطه على منتجات الحقول التي يملكونها في الريف والتي يحرثها لهم الهيلوتيون (الأرقاء) . وكان بين هاتين الطبقتين من الوجهة الاجتماعية ، ويحيط بهما من الوجهة الجغرافية ، طبقة البرئيسيين Perioeci (الساكنين حولهم) ، وهم قوم أحرار يسكنون في مائة قرية أو على تخوم لكونيا ، أو يشتغلون بالتجار أو الصناعة في المدن ، يؤدون الضرائب ويخدمون في الجيش ولكنهم لا نصيب لهم في حكم البلاد ، وليس لهم حق الزواج من الطبقة الحاكمة . وكانت أحط الطبقات وأكثرها عدداً طبقة الهيلوتيين ، وقد سموا بهذا الاسم —

- على حد قول استرابون - نسبة إلى مدينة هيلوس ، وكان أهلها من أول من استعبدهم الاسبارطيون^(٢٠) . وقد استطاعت اسبارطة بالغزو السافر لسكان لكونيا من غير الدورين أو باستيراد أسرى الحرب أن تجعل لكونيا بلاداً يعمرها نحو ٢٢٤ر٠٠٠ من الهيلوتين ، ١٢٠ر٠٠٠ من البريتيسين ، ٣٢ر٠٠٠ رجل وامرأة وطفل من طبقة المواطنين(*)^(٢١) .

وكان الهيلوتيون يتمتعون بجميع الحريات التي يستمتع بها أفتان الإقطاع في العصور الوسطى ، فكان للواحد منهم أن يتزوج كيف شاء ، وأن يكون له أبناء لا يهتم بعددهم أو ما سوف يوول إليه أمرهم ، ويستغل الأرض بطريقته هو ، ويعيش في قريته مع جبرته ، لا يقلقه مالك أرضه الغائب عنها ، ما دام يؤدي إلى هذا المالك بانتظام إيجارها الذي حددته لها الحكومة . وكان هذا الفن مرتبطاً بالأرض ولكن مالكتها لم يكن في مقدوره أن يبيعه أو يبيعها وكان في بعض الحالات يؤدي خدمات منزلية في المدينة ؛ وكان ينتظر منه أن يقوم على خدمة سيده في الحرب ، وأن يحارب دفاعاً عن الدولة إذا ما طلب إليه أن يحارب من أجلها ، فإذا أبلى في الحرب بلاء حسناً فقد ينال حريته . ولم تكن حاله الاقتصادية في الظروف العادية أسوأ من حال المزارعين القرويين في سائر أجزاء اليونان الخارجة عن أنكا ، أو الفعلة غير المهرة في مدينة من المدن الحديثة . وكان مما يخفف عنه عبء الحياة مسكنه الذي يملكه ، وعمله المتنوع ، وما حوله من حقول وأشجار هادئة تؤنسه وتعينه على عيشه ؛ ولكنه كان من الناحية الأخرى معرضاً على الدوام لأن تطبق عليه القوانين العسكرية ، وأن تفرض عليه رقابة الشرطة السرية تقتله في أية لحظة من غير سبب أو محاكمة .

وكان الساذج في لكونيا كما كان في غيرها من بلاد العالم يؤدي الجزية إلى الشاطر الماكر : وتلك عادة لها ماضٍ قديم مبجل ومستقبل ميسر بطول البقاء .

(•) هذه الأرقام بطبيعة الحال ظنية كلها ، تستند إلى إشارات قليلة وفروض كثيرة .

وسبب ذلك أن طيبات الحياة في أكثر الحضارات تأتي بها وتنظم تصرفها عملية البيع والشراء المادية السوية : فالشاطر الماكر يجعلنا على أن ندفع في الكماليات التي لا يتيسر مضاعفتها وفي الخدمات التي يؤدنها لنا أكثر مما نستطيع الساذج أن يحصل عليه في نظير ما ينتجه من الضرورات التي يسهل إنتاجها وتعويض ما يستهلك منها . أما في لكونيا فقد توصل بعضهم إلى تركيز الثروة في أيديهم بوسائل بادية للعين منفرة ، ملأت قلوب الهيلوتيين غبطة بلغم من الشدة حدّاً جعل اسبارطة في كل عام تقريباً مهددة بالثورات التي تعرض كيان الدولة لأشد الأخطار .

٢ - عصر اسبارطة الذهبي

كانت اسبارطة في هذا الماضي الغامض قبل أن يأتيها ليقورغ مدينة كسائر المدن اليونانية ازدهر فيها الفن والأغاني كما لم يزدهرا قط بعد أيامه . وكانت الموسيقى أكثر الفنون انتشاراً فيها وهي قديمة فيها قدم السكان أنفسهم ، ذلك أننا مهما أوغلنا في القدم نجد اليونان يغنون . وإذا كان تاريخ اسبارطة لا تنقطع منه الحروب فإن موسيقاها قد اصطبغت بالصبغة العسكرية - وكان أسلوبها هو الأسلوب الدوري ، البسيط القوي . أما غيره من الأساليب الموسيقية فلم يكن يثبت فحسب ، بل كان كل خروج عن هذا النمط الدوري يعاقب عليه القانون ؛ وحتى تريندر نفسه Terpander ، وهو الذي أخذ بأغانيه فتنة قامت في المدينة ، قد حكم عليه الإفوربيون(*) بغرامة وسمرت قيثارته في جدار لأنه جرؤ على أن يزيد على أوتارها وترّاً جديداً لتنسجم نغماتها مع صوته ؛ ولم يسمح لثيموثيوس Timotheus في عهد آخر من عهودها بأن يشترك في المباريات

الاسپارطية إلا بعد أن نزع بأمر الإفوريين ما أضافه من الأوتار الشائنة المرذولة على قيثارة تريندر وكان قد زاد هذه الأوتار من سبعة إلى أحد عشر (٢٣) .

وقد وجد في اسبارطة ، كما وجد في إنجلترا ، مؤلفون عظام في الموسيقى ، حين كانت تستورد هؤلاء المؤلفين من خارجها ، فقد استدعيت حوالي عام ٦٧٠ تريندر من لسيوس بأمر الوحي في دلفي ، حسب زعمهم ، ليعد مباراة في الغناء الجماعى في الاحتفال بعيد كرنيا Carneia . وكذلك استدعى ثاليئاس Thaletas من كريت حوالي عام ٦٢٠ كما استدعى بعد ذلك بقليل تريتوس Tyrteus ، وألكمان Alcman ، وپلمنستوس Polymnestus . وقد وجه هؤلاء معظم جهودهم لوضع ألحان وطنية وتدريب الفرق على إنشادها . وقبلما كانت الموسيقى تعلم للأفراد من الاسپارطيين (٢٤) ، فقد بلغت الروح الشيوعية فيها ، كما بلغت في روسيا الثورية ، من القوة درجة جعلت الموسيقى تنزع فيها نزعاً جماعية ، وكانت الجماعات فيها تتبارى في إقامة حفلات الغناء والرقص الفخمة . وأتاحت هذه الأغاني الجماعية للاسپارطيين فرصة أخرى للتدريب ولتنظيم الجماهير ، لأن كل صوت في الغناء كان خاضعاً للرئيس . ولم يشذ الملوك أنفسهم عن هذا الخضوع ، فقد حدث في احتفال الهياثيا Hyacinthia أن غنى الملك أجلسوس في الزمان والمكان اللذين عينهما له رئيس الفرقة . وكان الاسپارطيون على بكرة أبهم ، كبيرهم وصغيرهم ، رجالهم ونساؤهم ، يشتركون أثناء الاحتفال بعيد الهيمونيديا Gynaeceia في تمارين رياضية جماعية ورقص متناسق وغناء . وما من شك في أن هذه المناسبات كانت باعثاً قوياً للشعور الوطنى ، ومصرفاً ينصرف فيه ما يتأجج في الصدور من هذا الشعور .

وكان تريندر أى « مطرب الناس » أحد أولئك الشعراء الموسيقيين النابهن الذين بدأ بهم عصر ليسيوس المجيد في الجليل الذى سبق سافو . وتعزو إليه الرواية الماثورة اختراع أناشيد الشراب المعروفة باسم اسكوليا scolía

وزيادة أوتار القيثارة من أربعة إلى سبعة ، ولكن القيثارة ذات السبعة الأوتار كانت ، كما سبق القول ، قديمة قدم ميتوس ، هـ أ. ب. الظن أن الناس كانوا يتغنون بفضائل الخمر في شباب العالم الذي جر عليه التسيان ذيله ، والذي لاشك فيه أن تريندر قد ذاع صيته في لسبوس وعرف فيها بأنه مؤلف المقطوعات الغنائية الموسيقية ومغنيها . ولما أن قتل رجلا في مشجرة ، نفي من هذه المدينة ورأى من مصلحته أن يقبل دعوة جاءته من اسبارطة بالذهاب إليها . « يلوخ أنه أقام فيها بقية أيام حياته يعلم الموسيقى ويدرب الفرق الغنائية . ويقال لنا إنه قضى نجه في مجلس شراب : فينتا هو يغني - ولعله كان يغني النخمة التي أضافها في أعلى السلم الموسيقى - قذفه أحد السامعين بتينة ، فدخلت في فيه ، وفي قصبته الرئوية ، فسدت مسالك التنفس ، وقضت عليه وهو في نشوة الغناء » (٢٥) .

وواصل ترينوس عمل تريندر في اسبارطة في أثناء الحرب الميسينية الثانية ؛ وقد جاءها من أفيدنا Aphidna - وقد تكون في لسيدمون ، وقد تكون وهو الأرجح في أتكا . والذي لاشك فيه أن الأثينيين كانوا يروون فكاهة قديمة عن الأسبارطيين ، وهي أنهم حين كانت الدائرة تدور عليهم في الحرب الثانية أنجاس من المزيمة الماحقة معلم أتيكسي أعرج أيقظت أغانيه الاسبارطيين الحاملين وبعثت في قلوبهم الشجاعة فانتصروا بذلك على أعدائهم (٢٦) . وجلى أنه كان ينشد أغانيه في المجتمعات العامة بمصاحبة الناي ، وهو يعمل لتبديل الموت الحربي بالهدى الذي يحسد عليه . وقد جاء في إحدى القطع الباقية من أغانيه : « ما أجل أن يموت الرجل الشجاع في الصف الأول من المجاهدين في سبيل أوطانهم ؛ ألا فليثبت كل لإنسان في مكانه واقفاً على قدميه لا يترشح عن موقفه ، وليعض على نواجذه وليضم كل إنسان قدمه إلى قدم زميله ، ولتلاحق الدروع ، ولتختلط الرياش المتأوجة ، والخوذ المتلاطمة ، وليتقدم المقاتلون متلاصقين كالبيان المرعبوس ، تتلافى في معمعان القتال نضال سيوفهم وأسنة رماحهم » (٢٧) . ويقول

ليوننداس ملك اسبارطة إن ترتيوس « كان رجلاً بارعاً في إثارة حمية الشباب » (٢٨) .

وغنى الكمال لأهل ذلك الجيل نفسه ، وكان صديقاً لثرتيوس ومنافساً له ، ولكن غناؤه كان أكثر تنوعاً من غناء صديقه وأقرب منه إلى مطالب هذه الحياة الدنيا . وكان موطنه الأصلي ليديا البعيدة . ويقول بعضهم إنه كان عبداً ولكن اللسديمونيين رحبوا به لأنهم لم يكونوا قد تعلموا كراهية الأجنبي التي أصبحت فيما بعد جزءاً من قانون ليقورغ . ولو أنه قد عاصر الاسبارطيين المتأخرين لرأوا في مدائحه في الحب والطعام وتعداده لأصناف الخمور اللكونية مسبة لهم . وتصفه الرواية التاريخية بأنه أشد الأقدمين شراً وشغفاً بالنساء . وهو يقول في إحدى أغانيه إنه كان سعيد الحظ لأنه لم يبق في سرايس ، وإلا بلجت خصيناه وأصبح من كهنة سيبل ، بل جاء اسبارطة حيث يستطيع أن يحب بكامل حريته حبيبته مجالسترا *Megalostara* ذات الشعر الذهبي (٢٩) . وبه تبدأ أسرة الشعراء العشاق التي تنتهي بأنكريون ، وهو حامل لواء « التسعة الشعراء الغنائيين » الذين اختارهم النقاد الإسكندريون ووصفهم بأنهم أحسن شعراء بلاد اليونان القديمة (*) ؛ ولقد كان في وسعه أن يكتب ترانيم وتهاليل ، وخمريات وغزلا ، وكان أحب شيء إلى الاسبارطيين ما وضعه من المقطوعات لتغنيها البنات مجتمعات . وإنا لنجد في هذه الأغاني من حين إلى حين قطعاً تكشف لنا عن قوة الشعور الخيالي التي هي جوهر الشعر وأساسه :

« لقد استغرقت في النوم قتل الجبال ومسايلها ، وشعابها ، وخزائنها ، والزواحف التي تخرج من الأرض السوداء ، والوحوش التي تربص على

(*) ألكان ، ألسيوس *Alcaeus* ، سفو ، استيكورس ، إيكس ، أنكريون ، سمنيدس ، بندار ، بكليدس .

سفوح التلال ، وثول النحل ، والحيوانات المهولة في قاع البحر الأرجواني ، استغرقت كلها في النوم ، ومعها أسراب الطيور المجنحة (٣٠) .

ولنا أن نستنتج من وجود هؤلاء الشعراء أن الاسبارطيين لم يكونوا اسبارطيين على الدوام ، وأنهم لم يكرنوا في القرن السابق لليقورغ أقل شغفاً بالشعر والفنون الجميلة من سائر اليونان ؛ ولقد أضحت الأغاني الجماعية من الخواص الوثيقة الصلة بهم ؛ ولما أن أراد كتاب المسرحيات الأثينيون أن يكتبوا أغاني جماعية لمسرحياتهم ولم يروا بداً من أن يكتبوها باللهجة الدورية ، مع أنهم كتبوا الحوار باللهجة الأتيكية . وليس من السهل علينا أن نقول أي الفنون الأخرى قد ازدهرت في لسديمون في تلك الأيام ، أبام الهدوء والاطمئنان ، لأن الاسبارطيين أنفسهم قد غفلوا عن تأريخ تلك الأيام والاحتفاظ بتاريخها إن كانوا قد سجلوه ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن الفخار والبرنز اللكونيين قد اشتهرا في القرن السابع ، وإن الفنون الصغرى قد أخرجت كثيراً من الكماليات التي تستمتع بها الأقلية المخطوطة . لكن هذه النهضة القصيرة الأجل قضت عليها الحروب المسيفية . فقد وزعت الأراضي المفتوحة على الاسبارطيين ، وكاد عدد الأتقان أن يتضاعف نتيجة لهذا التوزيع . وكيف يستطيع ثلاثون ألفاً من المواطنين أن يخضعوا على الدوام أربعة أمثالهم من البرثيسيين وسبعة أمثالهم من الهيلوتيين ؟ إنهم

(*) ما أشبه هذه الأغنية « بأغنية الجائل الليل » بلحيته . كأن إحساساً واحداً قد جمع بين شاعرين بين أحدهما والآخر خمسة وعشرون قرناً من الزمان :

فوق قلل انتلال كلها

ساد السكون الآن

وفي أعلى الأشجار جميعها

لا تكاد تستمع

إلى نفس يهب .

إن الطيور قائمة بين الأغصان ،

على رسلك ، إنك أنت الآخر

لن تلبث حتى تتربيع مثلها

لا يستطيعون ذلك إلا إذا نفذوا أيديهم من ممارسة الفنون ومناصرتها ، وجعوا من كل اسبارطى جندياً شاكى السلاح مستعداً على الدوام لقمع الثورات أو السير إلى ميدان القتال . ولقد بلغوا هذه الغاية بفضل دستور ليقورغ ، ولكن هذا الدستور نفسه قد أخرج اسبارطة من تاريخ الحضارة بكافة معانيها اللهم إلا معناها السياسى وحده .

٣ - ليقورغ

يعتقد المؤرخون اليونان اعتقاداً لا يقبل الجدل أن ليقورغ هو واضع شرائع اسبارطة ، كما يعتقدون أن حصار طروادة وقتل أجمنون من الحقائق التاريخية المسلم بصحتها . وكما أن العلماء المحدثين قد ظلوا مائة عام كاملة ينكرون وجود طروادة وأجمنون ، فلأنهم اليوم يرددون في الاعتراف بأن ليقورغ شخص واقعى كان له وجود فى التاريخ . وتختلف التواريخ التى يحددها له من يؤمن بوجوده منهم ما بين ٩٠٠ ، ٦٠٠ ق . م ؛ وكيف يستطيع رجل واحد أن يبتدع أعجب وأبغض طائفة من الشرائع فى التاريخ كله ثم لا يفرضها فى سنين قليلة على شعب خاضع مغلوب فحسب بل يفرضها كذلك على الطبقة الحاكمة ذات النزعة العسكرية صاحبة الإرادة القوية (٣٣) ؟ ولكننا رغم هذا إذا رفضنا رواية يأخذ بها جميع المؤرخين اليونان اعتماداً منا على هذه الأسباب ، نكون متجنين على الحقيقة والتاريخ . لقد كان القرن السابع قبل الميلاد عصر المؤرخين الأفراد - زلوكس Zleucus فى لكريس الإيطالية (حوالى ٦٦٠) ، ودريكو Draco فى أثينة (٢٦٠) ، وكرانداس Charondas فى قطانا بصقلية (حوالى ٦١٠) - دع عنك كشف يوشع لشرائع موسى فى هيكمل أورشليم (حوالى ٦٢١) . ولعل الحق فى الحالات السالفة الذكر أن هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل بعينه بل كانت طائفة من العادات

نسقت وصيغت — حتى صارت قوانين معينة محددة ، سميت من قبيل التيسير باسم الرجل الذى جمعها وقتها وأبرزها فى معظم الأحيان فى صورة شرائع مكتوبة(*) . وسوف نسجل فى هذا الكتاب الرواية المتواترة كما وصلت إلينا على أن نذكر مع ذلك أنها فى أغلب الظن تجسيد وتصوير لعملية طويلة تطورت فيها العادات حتى صارت قوانين على يد عدد كبير من المؤلفين دأبوا على العمل كثيراً من السنين .

ويقول هيرودوت^(٣٤) إن ليقورغ ، عم الملك كاريلوس Charilaus ملك اسبارطة ووليه ، تلقى من الوحي فى دلنى بعض مراسيم ، يصفها البعض بأنها قوانين ليقورغ نفسها ، ويصفها البعض الآخر بأنها تصديق ربانى على القوانين التى اقترحها هو . ويبدو أن المشرعين قد أحسوا أن أمن طريقة لتغيير بعض العادات القائمة أو إدخال عادات جديدة هى أن يعرضوا ما يريدونه فى الحالىين على أنه أوامر من عند الله ؛ ولم تكن هذه أول مرة أقامت الدولة قواعدها فى السماء . وتضيف الرواية إلى هذا أن ليقورغ سافر إلى كريت ، وأعجب بنظمها ، واعتزم أن يدخل بعضها فى لكونيا^(٣٥) ؛ وقبل الملوك ومعظم النبلاء إصلاحاته على مضض لأنهم رأوا أن لا بد لهم منها إذا أرادوا أن يضمّنوا لأنفسهم السلامة والطمأنينة ؛ ولكن أحد الشبان الأشراف ، واسمه الكمندر ، قاوم هذا الإصلاح مقاومة شديدة عنيفة وفقاً لإحدى عيني المشرع نفسه . ويقص أفلوطرخس هذه القصة بأسلوبه السلس الساحر ؛

ولم يثبط هذا العمل عزيمة ليقورغ أو يضعف همته ، بل سكت وكشف لمواطنيه عن وجهه المشوه وعينه المفقوءة . واستولى عليهم الحجل والهلح من هذا المنظر فجاءوه بالكمندر ليعاقبه على فعلته فشكر لهم ليقورغ ما فعلوا ، وصرفهم عن آخرهم ، ولم يستبق منهم إلا الكمندر ، ثم أخذه معه

(*) ويقال إن ليقورغ قد نعى الناس من كتابة قوانينه .

إلى منزله ، ولم يقل له كلمة نابية أو يوقع عليه أى عقاب ، بل . . . أمره أن يقف في خدمته وقت الطعام . وكان الشاب ذا خلق كريم فقام بكل ما كان يؤمر أن يقوم به دون أن يتذمر أو يتملل ، وبذلك أتاحت له الفرصة لأن يعيش مع ليقورغ فيلاحظ فيه فضلاً عن رفته وهذوه طباعه استقامة لا عهد له بها ، وجداً وصبراً على العمل ، وأصبح الشاب من أشد الناس إعجاباً به وقد كان من قبل من ألد أعدائه ، وقال لأصدقائه وأقاربه إن ليقورغ لم يكن ذلك الرجل البكد السيئ الطباع كما كانوا يظنون ، بل إنه دون غيره الرجل الظريف الرقيق الحاشية في العالم كله .

ولما أتم ليقورغ قوانينه ، أخذ على الأهلين عهداً (ولعل هذه زيادة خرافية زيدت على قصته) ألا يبدلوا في القانون شيئاً قبل أن يعود إليهم . ثم سافر إلى دلي ، واعتزل العالم ، وحرم على نفسه الطعام حتى مات « فلما منه أن الواجب يقضى على السياسى أن يجعل موته إذا استطاع عملاً يخدم به الدولة (٣٧) » .

٤ - دستور لسديمدينيا

وإذا أردنا أن نحدد بالضبط إصلاحات ليقورغ ، وجدنا الروايات التاريخية مضطربة متناقضة ، حتى ليصعب علينا أن نقول أى عناصر القوانين الاسبارطية سبقت ليقورغ ، وأياها من وضعه هو أو من وضع الجليل الذى كان يعيش فيه ، وأياها أضيفت إليها بعد أيامه . فأما أفلوطرخس ويليبيوس^(٣٨) فيؤكدان لنا أن ليقورغ أعاد تقسيم أراضى لكونيا ثلاثين ألف قسم متساوية ووزعها على المواطنين ، وأما توكيديدس^(٣٩) فيفهم من أقواله أن تقسيماً من هذا النوع لم يحدث قط ، ولعل الذى حدث فعلاً أن الأملاك القديمة لم تمس وإنما وزعت الأراضى التى استولوا عليها حديثاً توزيعاً متساوياً . وألغى ليقورغ (أو واضعوا الدستور المنسوب إليه) ،

كما فعل كليستينز السكيوني وكليستينز الأثيني ، نظام المجتمع اللكوني القائم على صلة القرابة ، واستبدل به أقساماً جغرافية ، وبهذا تحطم سلطان الأسر القديمة ، وأنشئ نظام أرستقراطي واسع النطاق . وأراد ليقورغ أن يمنع هذه الأبحركية مالكة الأرض من أن تقضى عليها طبقات التجار ونحوها التى كانت تسير سبباً حثيثاً نحو مركز الزعامة فى أرجوس ، وسكيون ، وكورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، فحرم على المواطنين أن يشتغلوا بالصناعة ، أو التجارة ، ومنع استيراد الفضة والذهب ، وأمر ألا يستخدم فى سك العملة غير الذهب وحده . ذلك بأنه قد وطلد العزم على أن يتفرغ الاسبارطيون (المواطنون ملاك الأرض) إلى شئون الحكم والحرب .

وكان مما يفخر به المحافظون الأقدمون^(١٠) أن دستور ليقورغ قد دام عهداً طويلاً لأن أنظمة الحكم الثلاثة : الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية قد اجتمعت كلها فيه ، واجتمعت بنسب تمنع طغيان أى عنصر منها على العنصرين الباقين . من ذلك أن الملكية الاسبارطية كانت فى الواقع ملكية ثنائية ، فقد كان فيها ملكان يحكما معاً وينحلران من الهرقليين الغزاة . ولعل هذا النظام الغريب كان تراضياً بين أسرتين متنافستين لأنهما تنتميان إلى أصل واحد ، أو لعله كان وسيلة للاستفادة مما للملكية من مزايا نفسانية فى المحافظة على النظام الاجتماعى والعزة القومية مع تجنب استبدادها وطغيانها . وكانت سلطة الملكين سلطة محددة غير مطلقة : فكانا يقومان بتقريب القرايين التى يتطلبها دين الدولة ، ويرأسان الهيئة القضائية ، ويقودان الجيش فى الحرب . وكانا فى جميع أعمالهما خاضعين لمجلس الشيوخ ، وأخذاً بعد معركة بلاتية يفقدان سلطانهما شيئاً فشيئاً ويتولاهما الإفورون .

أما العناصر الأرستقراطية ذات السلطان الأكبر فى الدولة فكان مقرها فى مجلس الشيوخ أو الجروسيا . وكانت الجروسيا بمعناها الحرفى

وحقيقة أمرها جماعة من الرجال كبار السن ، وكان الذين تقل أعمارهم عن صتين عاما يدون في العادة غير ناضجين لمناقشة شئون الدولة في هذا المجلس . ويحدد أفلوطرخس عدد أعضاء المجلس بثمانية وعشرين عضواً ويروى عن طريقة انتخابهم رواية لا يصدقها العقل ، فيقول إنه إذا خلا مكان في المجلس كان يطلب إلى من يتقدمون للمثله أن يمروا صامتين واحداً بعد واحد أمام الجمعية ، فن حينه منهم بأعلى الأصوات وأطولها أعلن انتخابه^(١) . وربما كانت هذه الطريقة في رأيهم طريقة واقعية مختصرة للإجراءات الديمقراطية الطويلة الكاملة . ولسنا نعرف أى المواطنين كانوا هم الصالحين لهذا الانتخاب ، وأكبر الظن أن الذين يصلحون كانوا هم « الهوميوى » أى الأنداد والذين يمتلكون أرض لكونيا وخدموا في الجيش ، وجاءوا بنصيبهم من الطعام إلى المائدة العامة^(٢) . وكان مجلس الشيوخ هو الذى يقترح القوانين ، وكان هو المحكمة العليا التى تفصل في الجرائم الكبرى ، وهو الذى يضع أسس السياسة العامة للدولة .

وكانت الجمعية ، الأپلا Apella ، هى العنصر الديمقراطي الذى ارتضته اسبارطة في حكومتها . ويلوح أن جميع المواطنين الذكور كانوا يقبلون فيها متى بلغوا سن الثلاثين ، وكان عدد من يمكن اختيارهم أعضاء فيها ٨٠٠٠ من بين سكان اسبارطة البالغ عددهم ٣٧٦٠٠٠ . وكانت تجتمع في كل يوم من الأيام التى يكون فيها القمر بدرأ ، وتعرض عليها جميع المسائل العامة ذات الأهمية الكبرى ، ولا يسن قانون إلا إذا وافقت عليه . على أن الذى حدث بالفعل أن القوانين التى أضيفت إلى دستور ليقورغ كانت قلة لا تستحق الذكر ، وهكذا لم يكن للجمعية إلا أن تقبلها أو ترفضها دون أن يكون لها حق تعديلها . فهى في جوهرها الاجتماع الهومرى العام القديم تستمع في رهبة إلى آراء الزعماء والكبار أو إلى الملكين قائدى الجيش . وكانت الأپلا من الوجهة النظرية مصدر السلطات وصاحبة السيادة ، ولكن تعديلاً أدخل على

الدستور بعد ليقورغ جعل لمجلس الشيوخ حق تغيير قرار الجمعية إذا رأى أنها اتخذت قراراً « معوجاً »^(٤٣) « ولما أن طلب مفكر سبّاق لعصره إلى ليقورغ أن ينشئ دولة ديمقراطية أجابه المشرع بقوله : « ابدأ أيها الصديق بإنشائها في أسرتك »^(٤٤) .

وكان شيشرون يشبه الإفورين (المشرفين) الخمسة بالثريونين في رومة لأن الجمعية هي التي كانت تختارهم في كل عام ، ولكنهم في الواقع كانوا أكثر شها بالفتاقل الرومان لأنهم كانت لهم سلطة إدارية لا يقف في سبيلها إلا معارضة مجلس الشيوخ . وكانت وظيفة الإفور قائمة قبل ليقورغ ، ولكنها مع ذلك لم يرد لما ذكر فيما وصل إلينا من أنباء عن شرائعه . ولم يكدهمى من القرن السادس إلا نصفه حتى أضحت سلطة الإفورين مساوية لسلطة الملكين ؛ ثم أصبحوا في واقع الأمر أصحاب السلطة العليا بعد الحرب الفارسية ، فكانوا يستقبلون السفراء ، ويفصلون في المنازعات القضائية ، ويقودون الجيوش ؛ ويرجعون أعمال الملوك ، ويعاقبون الملوك أنفسهم أو يرثونهم من التهم التي توجه إليهم .

أما تنفيذ أوامر الحكومة فكان يتولاه الجيش أو الشرطة . وقد جرت عادة الإفورين بأن يسلحوا بعض الشبان الاسبارطيين ، ويتخذوهم شرطة سرية (كريتيا krypteia) ليتجسسوا على الناس ، وكان لهم حق قتل الهليوتيين بمحض إرادتهم^(٤٥) . وكانت هذه الهيئة تستخدم في أوقات لم يكن ينتظر أن تستخدم فيها ، بل إنها كانت تستخدم للتخلص من الهليوتيين إذا كان سادتهم يرونهم رجالا قادرين يخشى بأسهم ، وإن كانوا قد دافعوا عن الدولة في الحرب دفاع الأبطال . ويقول عنهم تركيديدس النزيه بعد ثمان سنين من حرب البلوونيز :

صدر إعلان يدعو الهليوتيين لأن يختاروا من بينهم من يقولون لأنهم

قد أظهروا تفوقهم في قتال الأعداء لكي ينالوا حريتهم ، وكان الغرض الحقيقي من هذه الدعوة هو اختبارهم ، لأن أول من يتقدمون للمطالبة بحريتهم كانوا في رأى الداعين أعزهم نفساً وأكثرهم استعداداً للعصيان . واختير بهذه الطريقة ألفان منهم وضعت على رؤوسهم التيجان ، وطافوا بالهياكل مغتبطين بحريتهم الجديدة ، ولكن الاسبارطيين ما لبثوا أن تخلصوا منهم جميعاً ؛ ولم يعترف أحد قط كيف هلك كل فرد من أفرادهم^(١٦) .

وكان الجيش عماد السلطة في اسبارطة ومناطق فخرها ، لأنها وجدت في شجاعته ، ونظامه ، ومهارته ، أمنها ومثلها الأعلى . وكان كل مواطن يدرّب تدريباً حريياً ، وكان عرضة لأن يدعى إلى الخدمة العسكرية فيما بين العشرين والسنتين من عمره . وبفضل هذا التدريب القاسى نشأت الهيليت hoplites الاسبارطية وهى فرق المشاة المتراسة الثقيلة . قاذفات الحراب ، والمكونة من المواطنين ، التى كانت تقذف الرعب في قلوب الأثينيين أنفسهم ، ولم يكذب قهرها عدو حتى انتصر عليها إياميننداس في Epaminondas في لكترا Leuctra . وكان هذا الجيش هو المحور الذى صاغت اسبارطة حوله قانونها الأخلاقى . فالبطية في اسبارطة هى أن تكون قوياً شجاعاً ؛ والموت في ميدان القتال هو أعظم الشرف ومنتهى السعادة ؛ والحياة بعد الهزيمة هى العار الذى لا يمجدى والذى لا تغفره الأم نفسها لابنها الجندى . وكانت الأم تودع ابنها الجندى الذاهب إلى حومة الوغى بقولها : « عد بدرعك' أو محمولا عليه » . وكان الفرار بالدرع الثقيل أمراً مستحيلاً .

٣ - القانون الاسبارطى

إن تدريب الناس على مثل أعلى متعب للجسم وخاصة إذا كان كالذى يدرّب عليه الاسبارطيون ، يحتم أخذهم من أيام مولدهم وتعويدهم أشد النظم

وأعظمها صرامة . وكانت الخطوة الأولى هي تقوية النسل بأقصى الطرق . فلم يكن كل ما يفرض على الطفل هو أن يواجه ما لأبيه من حق قتله ، بل كان يوثق به فضلاً عن ذلك أمام مجلس من مجالس الدولة مكونة من مفتشين ، فإذا ظهر أن الطفل مشوه ألقى به من فوق جرف في سبيل تيجيتس ليلقى حتفه على الصخور القائمة في أسفله^(٤٧) . وكان ثمة وسيلة أخرى للتخلص من ضعاف الأطفال نشأت من العادة التي جرى عليها الاسبارطيون وهي تعويد أطفالهم تحمل المشاق والتعرض لمختلف الجواء^(٤٨) . وكان يطلب إلى الرجال والنساء أن يهتموا بصحة من يريدون أن يتزوجهم وبأخلاقهم وحتى الملك أركداموس Archidamus نفسه قد فرضت عليه غرامة لأنه تزوج بامرأة ضئيلة الجسم^(٤٩) . وكان الأزواج يشجعون على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال ذوى قوة ممتازة غير عادية حتى يكثر بذلك الأطفال الأقوياء ؛ وكان ينتظر من الأزواج الذين أنهكهم المرض أو أعجزهم الشيخوخة أن يدعوا الشبان ليعينهم على تكوين أسرة قوية . ويقولون أفلو طرخس « إن ليقورغ كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج ويقول إن من أسخف الأشياء أن يعنى الناس بكلاهم وخيلهم ، فيبذلوا جهدهم ومالهم ليحصلوا منها على سلالات جيدة ، ثم تراهم مع ذلك يقولون زوجاتهم في معزل ليختصوا بهن في إنجاب الأبناء ، وقد يكونون ناقصى العقل أو ضعفاء أو مرضى » . والأقدمون كلهم مجمعون على أن الذكور من الاسبارطيون كانوا أقوى أجساماً وأجمل وجوهاً من سائر رجال اليونان ، وأن نساءهم كن أصح وأجمل من سائر نساء تلك البلاد^(٥٠) .

وأغلب الظن أن هذه النتيجة يرجع أكثرها إلى التدريب لا إلى العناية بالنسل . وفي ذلك يقول توكيديدس على لسان الملك أركداموس : « قلما يكون ثمة فرق » (يعنى وقت المولد على ما نظن) « بين الرجل والرجل . ولكن الذى يتفوق فى آخر الأمر هو الذى ينشأ فى أقصى مدرسة »^(٥١) . وكان الولد الاسبارطى يؤخذ من أسرته فى السابعة من عمره

لتنكفل الدولة بتربيته ؛ فكان يسلك في فرقة عسكرية هي في الوقت نفسه فصل مدرسي تحت إشراف بيدونوموس Paidonomos أوقم على الأولاد . وكان أقدر الأولاد وأشجعهم في كل فصل ينصب عريفاً عليهم ؛ ويطلب إلى سائر الأولاد أن يطيعوه ، وأن يخضعوا لما عساه أن يقرضه عليهم من عقاب ، وأن يحاولوا أن يجاروه أو أن يتفوقوا عليه في الأعمال الشاقة وفي حسن النظام . ولم يكن هدفهم من هذه التربية هو الجسم الرياضي والمهارة في الألعاب كما كان هدف الأثينيين ، بل كان هذا الهدف هو الشجاعة الحربية والقيمة العسكرية . وكانوا يقومون بالألعاب وهم عراة على أعين الكبار والعشاق من الرجال والنساء . وكان هم الكبار من الرجال أن يثيروا الشحنة بين الأولاد فرادى وجماعات ، ليختبروا بهذا ما لديهم من قوة وجلد ويدربوهم عليهما ؛ فلذا ما جبنوا لحظة جلهم العار أياً ما طالوا . وكان يطلب إلى الاسبارطين جميعاً أن يتحملوا الألم ويقاسوا الصعاب ، وأن يصبروا على المصائب وهم صامتون لا يتذمرون . وكان عدد من الشبان يختارن كل عام أمام مذبح أرتميس أرثيا Artemis Orthia وتلهب أجسامهم بالسياط حتى تخضب دماؤهم الحجارة^(٥٢) . وإذا بلغ الولد الثانية عشرة من عمره منعت عنه ملابسه السفلى ، ولم يسمح له إلا بثوب واحد طوال أيام السنة . ولم يكن يستحم كثيراً كغلمان الأثينيين ، لأن الماء والأدهان تجعل الجسم ليناً رخواً ، أما الهواء البارد والتراب النظيف فيجعلانه صلباً شديد المقاومة . وكان ينام في العراء صيفاً وشتاء ، على فراش من الأسل يقطع من شاطئ يوروتاس . وكان يعيش حتى الثلاثين من عمره في الثكنات مع فرقته ، ولا يعرف وسائل الراحة المنزلية .

وكان يتعلم القراءة والكتابة ، ولكنه لا يكاد يتعلم منهما ما يكفي لأن يخرج من سلك الأميين ، وقلماً كانت الكتب تجدد في اسبارطة من يشتريها^(٥٣) . وكان الناشرون قلة كالمشتريين . ويقول أفلوطرخس إن ليقورغ كان يرغب ألا يتعلم الأطفال قوانينه بطريق الكتابة ، بل يجب أن يتلقوها مشافهة وبطريق

المران عليها في شبابهم بعناية من يرشدهم ويضرب لهم المثل بنفسه . وكان يرى أن تقويم الأخلاق بتعويدهم إياها دون أن يحسوا هم بذلك خير من الاعتماد على الإقناع بالحجج النظرية ؛ وأن التعليم الصحيح هو خير أساليب الحكم ، على أن يكون هذا التعليم خلقياً أكثر منه عقلياً ، لأن الخلق أعظم خطراً من العقل . وكان الشاب الاسبارطي يدرّب على الاعتدال في الشراب ، وكانوا يرغمون بعض المليونيين على الإفراط فيه حتى يرى الشبان ما قد يتردى فيه المخدور من حماقات^(٥١) . وكان يعلم أن يستعد للحرب بأن ينطلق في الحقول يحد طعامه بنفسه أو يموت جوعاً إذا لم يجده ، وكانوا يجيزون له السرقة في هذه الأحوال ، فإذا قبض عليه وهو يسرق عوقب بالجلد^(٥٢) . وإذا كان حسن السلوك سمح له أن يحضر اجتماع المواطنين العام ، وكان ينتظر منه أن يعنى بالاستماع إلى ما يقال فيه حتى يلم بمشاكل الدولة ويتعلم فن الحديث الظريف . فإذا تخطى صعاب الشباب بشرف وبلغ سن الثلاثين منح كل ما للمواطن من حقوق ، وألقيت عليه جميع ما يلقى على المواطن من تبعات ، وأجيز له أن يجلس لتناول الطعام مع من هم أكبر منه .

وكانت البنت أيضاً خاضعة لقيود تفرضها الدولة وإن كانت تركها لتربي في منزل أبويها . فكان يطلب إليها أن تقوم ببعض الألعاب العنيفة - كالجري ، والمصارعة ، ورمي القرص ، وإطلاق السهام من القوس - لكي تصبح قوية البنية ، صحيحة الجسم ، صالحة في يسر للأومنة الكاملة . وكان عليها أن تسير عارية في أثناء الرقصات والمواكب العامة ، ولو كانت في حضرة الشبان لكي يخفّزها ذلك إلى أن تعنى بجسمها العناية الواجبة ، ولكي تنكشف للناس عيوبها فيعملوا على إزالتها ، وفي ذلك يقول أفلوطرخس وهو الرجل الشديد الحرص على الأخلاق : « ولم يكن ثمة شيء يستحي منه في عرى الفتيات ، فقد كان الوقار شعارهن ، وكان الفجور أبعد الصفات عنهن . وكن وهن يرقصن يغنين الأغاني »

فى مدح من أظهروا الشجاعة فى الحرب . وبصبن اللعنات على من يحبن . ولم يكن الاسبارطيون يضيعون جهودهم ووقتهم فى تربية البنات تربية عقلية .

أما الحب فكان يسمح للشباب أن ينغمس فيه وأن يحب الذكور والإناث دون ما تخرج ؛ فقد كان لكل صبي تقريباً حبيب بن من هم أكبر منه من الرجال ، وكان ينتظر من هذا الحبيب أن يواصل تعليمه ، وأن يجزيه الصبي عن هذا حباً وطاعة . وكثيراً ما استحال هذا النفع المتبادل صداقة عاطفية قوية تبعث فى نفس الفتى والرجل ضروب البسالة فى الحرب^(٥٦) . وكان يسمح للشبان بالكثير من الحرية قبل الزواج ، ولذلك كانت الدعارة الرسمية نادرة الوجود وكان النسرى لا يلقى تشجيعاً^(٥٧) . ولم نسمع عن وجود هياكل لأفرديتى فى لسديمون كلها ، اللهم إلا هيكل واحد ، وحتى فى هذا الهيكل قد مثلت الإلهة وعليها نقاب وفى يدها سيف ، وفى قدميها أغلال ، كأنها تشير بذلك إلى ما فى زواج الحب من سخرى وطيش ، وإلى خضوع الحب للحرب ، وإلى إشراف الدولة إشرافاً قوياً على الزواج .

وحددت الدولة أنسب سن للزواج سن الثلاثين للرجال والعشرين للنساء . وكانت العزوبة فى اسبارطة جريمة ، وكان العزاب يحرمون حق الانتخاب وحق مشاهدة المواكب العامة التى يرقص فيها الفتيان والفتيات عرايا ؛ ويقول أفلوطرخس إن العزاب أنفسهم كانوا يرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عرايا صيفاً وشتاء ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا العقاب العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد . وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم فى أى وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذنينهم أشد الأذى . ولم يكن العار الذى يلحق بمن يتزوجون ولا يلدون ليقل كثيراً عن العار الذى يلحق العزاب ؛ وكان المفهوم أن من لا أبناء لهم من الرجال غير خليقين بذلك الإجلال الدينى الذى يقدمه الشبان الاسبارطيون لمن هم أكبر منهم سناً^(٥٨) .

وكان الرالدان هما اللذين ينظمان زواج أبنائهما ، دون أن يكون للبيع والشراء أثر في هذا التنظيم ؛ فإذا ما اتفقا على الزواج كان ينتظر من العريس أن ينتزع عروسه من بيت أبيها قوة واقتداراً ، كما كان ينتظر منها أن تقاوم هذا الانتزاع ، وكان اللفظ الذى يعبر به عن الزواج هو لفظ هرپدزين harpadzein أى الاغتصاب^(٥٩) . فإذا ترك هذا التنظيم بعض الكبار بلا زواج ، جاز حشر عدد من الرجال في حجرة مظلمة ومعهم عدد مساو لهم من البنات ، ثم يترك هؤلاء وأولئك ليختار كل رجل شريكة حياته في الظلام^(٦٠) ؛ ذلك أن الاسبارطيين كانوا يعتقدون أن هذا الاختيار لم يكن فيه من العمى أكثر مما في الحب . وقد كان من المألوف أن تبقى العروس مع أبيها وقتاً ما ، وأن يبقى العريس في ثكناته لا يزور زوجته إلا خلسة . ويقول أفلوطرخس إنهما كانا يعيشان على هذا النحو زمناً طويلاً حتى لقد كان بعضهم ينجب من زوجته أطفالاً قبل أن يرى وجهها في ضوء النهار . فإذا ما أوشكا أن يكونا أبوين سمح لهما بأن ينشأ بيتاً . وكان الحب ينشأ بعد الزواج لاقبله ، ويلوح أن الحب بين الزوج وزوجته لم يكن في اسبارطة أقل منه في سائر الحضارات^(٦١) . وكان الاسبارطيون يفخرون بأن الزنا لا وجود له بينهم ، وقد يكونون على حق في هذا الفخر . لأنهم كانوا يتمتعون قبل الزواج بقسط كبير من الحرية ، وكان الكثيرون من الأزواج يقبلون أن يشترك معهم غيرهم وخاصة إخوتهم في زوجاتهم^(٦٢) . وكان الطلاق نادراً وقد عوقب ليسندر Lysander القائد الاسبارطى لأنه هجر زوجته وأراد أن يتزوج أخرى أبجل منها^(٦٣) .

وكان مركز المرأة بصفة عامة في اسبارطة خيراً منه في أى مجتمع يونانى . فقد احتفظت فيها أكثر من سائر المدن اليونانية بمكانتها المهورية العالية وبالمزايا التى بقيت لها من أيام المجتمع القديم الذى كان الأبناء فيه ينسبون إلى أمهاتهم... وفى ذلك يقول أفلوطرخس إن النساء الاسبارطيات كن

يمتزن « بالجرأة والرجولة ، وبالتشامخ على أزواجهن ... وكن يتحدثن بصراحة حتى في أهم الأمور » ؛ وكان من حقهن أن يرثن ويورثن ، وقد آلت لهن على مر الوقت نصف الأملاك الثابتة في اسبارطة بفضل ما كان لهن من سيطرة قوية على الرجال^(٦٥) . وكن يعشن في بيوتهن عيشة الترف والحرية ، على حين كان الرجال يقاسون أهوال الحروب الكثيرة أو يطعمن الطعام البسيط مع سائر الرفاق .

ذلك أن الدستور الاسبارطى كان يفرض على كل رجل من سن الثلاثين إلى الستين أن يتناول وجبته اليومية الرئيسية في مطعم عام كبير ، وكان الطعام فيه بسيطاً في نوعه وأقل قليلاً في كميته مما يلزم للشخص للعادی . وكانت هذه القلة في الطعام متعمدة يقصد بها المشترع كما يقول أفلوطرخس أن يعودهم الصبر على ما يلاقونه في الحرب من حرمان ، وأن يحول بينهم وبين ما ينشأ في عهود السلم من تدهور وانحطاط ؛ فكان يحرم عليهم « أن يقضوا حياتهم في البيوت ، ينامون على الفراش الوثير ويطعمون الطعام الشهى ، يسلدون أنفسهم إلى أيدي التجار والطهاة ، يتخمونهم في أركان النور كما يتخمون الحيوانات الشرهة ، فلا يفسدون بذلك عقولهم فحسب بل يفسدون أجسامهم كذلك ، فإذا ما انحطت قواهم بسبب الانهماك والإفراط ، أصبحوا في حاجة إلى النوم الطويل والاستحمام بالماء الساخن والتحرر من العمل ؛ وجملة القول أنهم يصبحون لا يعنون بعمل شيء ولا يشرفن على شيء كأنهم مصابون بعلّة دائمة لا يبرءون منها^(٦٦) » . وكانوا يحصلون على المواد اللازمة لهذه الوجبة العامة بأن يطلب إلى كل شخص أن يقدم في فترات معينة إلى النادى الذى يطعم فيه كميات محددة من الحبوب وغيرها من الطعام ؛ فإذا لم يقدمها حرم من حقوق المواطنين .

وكانت هذه البساطة في المأكل والمشرب ، وكان هذا التقشف في المعيشة ، اللذان يدرّب عليهما الشاب الاسبارطى يمتدان في القرون الأولى بعد وضع القانون إلى ما بعد سن الشباب . ولذلك كانت البدانة نادرة في لسديمون ؛ نعم

إنهم لم يسنوا قانوناً يحدد حجم المعدة ، ولكن إذا كبر بطن الرجل كبراً معيماً ، كان عرضة لأن تؤنبه الحكومة علناً على هذا الكبر أو أن تنفيه من لكونيا . ولم يكن في اسبارطة إلا القليل من السكر واللحم المنتشرين في أئينة ؛ وكان ثمة فروق حقيقية في الثروات ولكنها كانت فروقاً خفية ؛ فقد كان الأغنياء والفقراء يلبسون الثياب البسيطة نفسها - وهي قميص من الصوف يتدلى من الكتفين من غير تظاهر بجمال أو اختيار شكل معين له ؛ وكان الإكثار من الثروة المتقولة من أصعب الأمور ، وكان ادخار نقود حديدية تبلغ قيمتها نحو مائة ريال أمريكي يتطلب صندوقاً كبيراً ، ولم يكن نقل هذا القدر من المال يحتاج إلى أقل من ثورين^(١٨) ، بيد أن الطمع الإنساني لم يكن معدوماً ، وكان يجد له منفذاً في الفساد الرسمي ، ذلك أنه كان من المستطاع شراء الإفورين ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، والرسل ، وقواد الجيش ، والملوك بأثمان تتفق مع مكانتهم^(١٩) . ولما أن عرض سفير من جزيرة ساموس صحافة الذهبية في اسبارطة حتم الملك كليومنيس الأول استدعاءه منها لئلا يفسد مواطنوه بهذا المثل الأجنبي^(٢٠) .

وكان نظام الحكم الاسبارطي ، نخوف الأهلين من هذه العدوى ، غير كريم في معاملة الأجانب إلى حد لم يسبق له مثيل . فقلما كان الأجانب يرحب بهم في البلاد ، وكانوا يفهمون عادة أن زيارتهم يجب ألا تطول ، فإذا طالت فوق ما يجب صحبهم رجال الشرطة إلى حدود البلاد . وكان يحوم على الاسبارطيين أنفسهم أن يخرجوا من بلادهم إلا بإذن من الحكومة ؛ كما كان يقلل من تشوفهم بتعويدهم العزلة المتعجرفة التي لا يحلمون معها أن في وسع غيرهم من الأمم أن تعلمهم شيئاً^(٢١) ؛ وكان لا بد لهذا النظام أن يكون غير كريم إلى هذا الحد ليحمي بذلك نفسه ؛ لأن ربحاً تهب من هذا العالم المحرم عليهم ، عالم الحرية ، والترف ، والآداب ، والفنون ، قد تدك هذا النظام المصطنع العجيب الذي كان ثلثا الشعب فيه من الأقنان وكل السادة فيه من الرقيق .

٦ - ما لاسبارطة وما عليها .

ترى أى طراز من الرجال وأى نوع من الحضارة أنتجتهما هذا القانون ؟
فأما الرجال فكانوا أقوياء الأجسام ألفوا المشاق والحرمان . وقد قال عنهم
أحد السياريين Sybarites المترفين إن الاسبارطيين « لا يمدحون على
استعدادهم للموت فى ميدان القتال لأن موتهم هذا ينجمهم من كثير من العمل
الشاق ومن الحياة البائسة » (٧٢) . وكانت صحة الجسم من الفضائل الرئيسية فى
اسبارطة ، كما كان المرض جريمة فيها ؛ وما من شك فى أن أفلاطون قد سره
أن يجد بلاداً خالية من الدواء ومن الديمقراطية . وكان الاسبارطى شجاعاً ؛
وما من أحد من الناس غير الرومان يضارعه فى ثبات جنانه وفى انتصاره
فى الحروب ؛ وليس أدل على ذلك من أن بلاد اليونان كلها لم تكذ تصدق
ان الاسبارطيين قد استسلموا لأعدائهم فى اسفكتيريا Sphacteria ؛ ذلك
أنه لم يسمع عنهم من قبل أنهم لم يحاربوا إلى آخر رجل فيهم ، وحتى الجندى
الاسبارطى العادى كان يفضل الانتحار على الحياة بعد الهزيمة (٧٣) . ولما أن
وصلت إلى آذان الإفورين أبناء هزيمة الاسبارطيين المنكرة فى لوكترا Leuctra
- وكانت هزيمة ما حقه اختتم بها فى واقع الأمر تاريخ اسبارطة - وكانوا
وقتش على رأس الألعاب الجمنوبودية ، لم ينطقوا بكلمة واحدة . وكل
ما فعلوه أن أضافوا إلى سجل الموتى المقدسين الذين نالوا شرف الموت فى
لألعاب أسماء القتلى الجدد . وكان من الصفات العادية التى يتصف بها كل
مواطن اسبارطى ، والى كان يكتب عنها الأثينيون ولكنهم قلما كانوا
تحلون بها ، كان من هذه الصفات ضبط النفس ، والاعتدال ، والهدوء .
والثبات فى السراء والضراء .

وإذ كانت إطاعة القانون فضيلة فقد كان الاسبارطى يفوق فى هذه

الفضيلة سائر الناس . وفى ذلك يقول الطبيب دمراتوس Demaratus

لخشيارشاي : « إن اللسديمونيين ، وإن كانوا أحراراً ، ليسوا أحراراً في كل شيء ، لأن القانون سيدهم الأعلى ، يخافونه أكثر مما يخافك شعبك » (٧٤) .
وقل أن تجد شعباً غيرهم — مع جواز استثناء الرومان واليهود في العصور الوسطى — كان احترامه لقوانينه سبباً في قوته . وقد ظلت اسبارطة مائتي عام على الأقل تزداد قوة على قوة تحت دستور ليقورغ ، وهي وإن عجزت عن فتح أرجوس وأركاديا ، قد أقنعت جميع البلوونيزيين أن يقبلوا زعامتها لحلف البلوونيز الذي ساد بفضل السلام في جزيرة بلويس ما يقرب من قرنين كاملين (٥٦٠ — ٣٨٠ ق . م) . وكانت بلاد اليونان على بكرة أبيها تعجب بجيش اسبارطة وحكومتها ، وتتطلع إلى معوتها في ثل عروش الطغاة الظالمين . ويحدثنا أكسانوفون عن « الدهشة التي عرنتني حين لاحظت أول مرة موقع اسبارطة الفد بين دول اليونان ، وعدد سكانها القليلين بالنسبة لغيرها من الدول ، وقوة شعبها ومنزلته العالية بالرغم من هذه القلة . وقد حيرني تعليل قوة هذا الشعب ومنزلة هذه الدولة ، ولم تزل هذه الحيرة إلا حين فكرت في أنظمة الاسبارطيين العجيبة » (٧٥) . ولم يكن أكسانوفون يمل من الثناء على أساليب الاسبارطيين ، كما لم يكن أفلاطون وأفلوطرخس يملان من الثناء عليهم . ولا حاجة إلى القول بأن اسبارطة هي التي وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسية لمدينته الفاضلة ، التي طمس معالمها بعض الشيء لإغفاله العجيب للمثل العليا . ولقد كان كثيرون من المفكرين اليونان يعمدون إلى تمجيد نظام اسبارطة وشرائعها بعد أن ملوا ما في الديمقراطية من انحطاط وفوضى وأوجسوا في أنفسهم خيفة منها .

والحق أنهم كانوا يستطيعون انثناء على اسبارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها ، ولم يروا عن كتب ما في أخلاق الاسبارطيين من أنانية ، وبرود ، وقسوة ، ولم يتبينوا من يرونهم من الصفوة التي التقوا بها منهم ، أو من الأبطال الذين يمجدونهم عن بعد ، أن الشرائع الاسبارطية كانت تخرج

جنوداً بوسائل ولا شيء غير الجنود ، وأنها جعلت قوة الجسم وحشية
مرذولة لأنها أمانت الكفايات العقلية كلها تقريباً . ذلك أنه لما أصبح لهذا
القانون المقام الأول في البلاد أصاب الموت فجأة جميع الفنون التي ازدهرت
قبل سيادته ، فلم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء أو مثالين ، أو بناة في
اسبارطة بعد عام ٥٥٠ ق . م (*) ، ولم يبق فيها إلا الرقص الجماعي
والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتجلى النظام الاسبارطي وأن يخفف الفرد ويضع
في المجموع . ولقد كان أثر حرمان الاسبارطيين أن يتجروا مع العالم
ومنهم من الأسفار ، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة
في الظهور والنماء ، أن أصبحوا أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقال ،
لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا في هذه الجندية حياتهم كلها .
ولقد كان الرحالة اليونان يعجبون من هذه البسيطة الخالية من الرونق
والبهاء ، ومن هذا القدر الضئيل المقيد من الحرية ، وهذه المحافظة الشديدة
على كل عادة وكل خرافة ، وفي الشجاعة التي كانت موضع الإجلال ،
وذلك النظام الصارم ، وهذا الخلق النبيل ، وذاك الغرض الدنيء الذي
لا يؤدي إلى غاية . وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور
الحياد كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم والأخطاء صرح حضارة
واسعة المدى ، قوية في أعمالها ، تتقبل كل فكرة جديدة ، حريصة على
الاتصال بالعالم ، متسامحة ، متنوعة ، معقدة ، مترفة ، مبتدعة ، متشككة ،
واسعة الخيال ، شعرية ، مشاعبة ، حرة . لقد كان ما بين أثينة واسبارطة
من التناقض هو الذي صبغ التاريخ اليوناني بصبغته المعروفة ورسم
خطوطه الرئيسية .

(*) لقد زين جتياداس Oitiadas هيكل أثينة بمصناعات البرنز البديعة الصنع ، وشاد
باتكليز Bathycles الهبتي مرشاً فخماً لأبائهم في أمكل Amyclae كما شاد ثيودورس الساموسي
بهرام كبيراً للمدينة اسبارطة ؟ وبعد هذا لا تكاد نسمع شيئاً عن الفن الاسبارطي حتى حل يد
فائين من غارجها .

ولقد قضى ضيق أفق اسبارطة في آخر الأمر على ما لها من قوة نفسية ،
ذلك أن نفسيتهما قد انحطت حتى صارت ترتضى كل وسيلة تؤدى إلى غرض
اسبارطى ، وبلغ من ذلتها في آخر الأمر للغزاة أن باعت للفرس تلك الحريات
التي كسبتها بلاد اليونان في مراثون . لقد استحوزت عليها النزعة العسكرية
وجعلتها سوط عذاب بلخيراتها بعد أن كانت في مكان الشرف منها ، ولما
أن سقطت ، عجبت الأمم كلها من سقوطها ، ولكن ما من أمة حزنت لها .
ولا نكاد اليوم نجد بين الأنقاض القليلة الباقية من هذه العاصمة القديمة نقشاً
واحداً أو عموداً ملقى على الأرض يعلن للعالم أن اليونان كانوا في يوم من
الأيام يسكنون في هذا المكان .

الفصل الرابع

الدول المنسية

يمتد وادى نهر يوروتس Eurotas فى شمال اسبارطة إلى جبال أركاديا المتجمعة بعد أن يجتاز حدود لكونيا . ولو أن هذه الجبال كانت أقل مما هى خطورة لكانت أكثر مما هى جمالا . ويلوح أنها لم ترحب بالطرق الضيقة التى نحتت فى منحدراتها الصخرية ، وأنها تهدد بقتامها كل من يحاول الاعتداء على هذه الملاجئ الأركادية المنعزلة ؛ فلا غرابة والحالة هذه إذا ضل فيها الفاتحون الدوربيون والاسبارطيون وتركوا أركادية كما تركوا إليس وأخيا للسلاسل الآخية والبلاسية . ويعثر السائح فى أماكن متفرقة من هذا الإقليم على سهل أو هضبة ، كما يجد فيه مدناً جديدة زاهرة كمدينة تريبوليس Tripolis ، أو بقايا مدن قديمة كمداثن أركنوس Orchomenos ، ومجالبوليس Megalopolis ، وتيجيا Tegea ، ومنطينا Mantinea حيث انتصر أباميننداس ولاقى حتفه . ولكنها فى معظم أجزائها أرض يسكنها فلاحون ورعاة متفرقون يعتمدون على موارد مزرعة غير ثابتة ، ويعيشون هم وماشيتهم على هذه التلال الضئيلة ؛ ومع أن هذه المدائن قد استيقظت بعد مرثون لتستقبل الحضارة والفن ، فإن من الصعب أن نسلکها فى قصة الحضارة قبل الحرب الفارسية . وفى هذه الغابلات ذات الأشجار العمودية كان يجول الإله بان فى وقت من الأوقات .

ويلتقى نهر يوروتس فى أركاديا الجنوبية بنهر آخر أوسع منه شهرة وهو نهر ألفيوس Alpheus . وهذا النهر يشق طريقه شقاً سريعاً خلال سلاسل الجبال البرهازية Parhasian ، ثم يشق ببطء حتى يدخل سهول إليس ،

ويرشد السائح إلى أولبيا . ويحدثنا بوزنياس بأن الإليانيين^(٧) . كانوا من أصل إيولى أو پلاسجى جاءوا إلى إيتوليا بعد أن عبروا الخليج . وكان أول ملوكهم إيثليوس Aethlius والد إندميون Endymion الذى أغوى جماله القمر^(*) فأغمضت عينيه وأرسلت عليه نعاساً سرمدياً ، وما زالت تضاجعه على مهل حتى ولدت منه مائة بنت . وفى هذا المكان الذى يلتقى فيه نهر ألفيوس بنهر كلاديبوس Cladeus المقبل من الشمال كانت المدينة المقدسة للعالم اليونانى كله ؛ وقد بلغ من قدسيتها أن الحرب قلما أزعتها ، ومن أجل ذلك نعم الإيليون Elians بتاريخ استبدلوا فيه الألعاب بالحروب . وفى الزاوية المحصورة بين النهرين كانت الألتيس Altis أو التخوم المباركة لمقر زيوس الأولي . وكانت موجات الغزاة المتتابعة تحط رحالها فى هذا المكان لتعبده ، كما كان مندوبون عن هؤلاء الغزاة يعودون إليه فيما بعد فى مواسم معينة ليسألوه العون ويغنوا مزاره بالنذور . وظلت ثروة هيكل زيوس وهيرا وشهرتهما تزدادان جيلاً بعد جيل حتى انتصر اليونان على الفرس فحشد أكابر المهندسين والمثاليين اليونان ليعيدوا بناء الهيكلين ويزينوهما وينفقوا فى سبيل ذلك الأموال الطائلة اعترافاً بما كان لهما من فضل فى هذا النصر . ويرجع تاريخ هيكل هيرا إلى عام ١٠٠٠ ق . م ، وآثاره أقدم ما بقى من آثار الهياكل فى بلاد اليونان جميعها . وقد بقى من هذه الآثار أجزاء من ستة وثلاثين عموداً وعشرين تاجاً دورياً تشهد بأن هذه العمدة قد أقيمت المرة بعد المرة ، وأنها كانت تقام بأشكال مختلفة . ولا جدال فى أنها صنعت فى أول الأمر من الخشب . وكان جذع من أحدها وهو من شجر البلوط لا يزال قائماً حين أقبل بوزنياس على ذلك المكان ، ويده كراسته ، فى أيام الأنطونيين .

وإذا ما غادر الإنسان أولبيا مر بموضع إيليس العاصمة القديمة ودخل

(•) القمر فى القصة مؤنث وقد احتفظنا به كذلك حتى يستقيم المعنى .

آخيا التي فر إليها بعض الآخيين بعد أن استولى الدوريون على أرجوس وميسيني ، وهى شبيهة بأركاديا فى أنها بلاد جبلية يرعى على منحدراتها الرعاة الصابرون قطعان الماشية ، ويصعدون إلى أعلاها أو ينزلون إلى سفليها فى فصول السنة المختلفة . ولا يزال ثعر بتراس القديم قائماً مزدهراً حتى الآن على الساحل الغربى ؛ وهذا الثغر هو الذى قال هوزنياس عن نسائه لهن « ضعننا عدد الرجال ، ولهن وفيات لأفريقي إن كان فى النساء وفاة » (٧٧) . وكانت هناك عدة مدن أخرى محتشة فى غير نظام على طول خليج كورنثة — إيجيوم Aegium ، وهليس Helice ، وإيجيرا Aegira ، وپليني Pellene ، وقد كادت كلها تصبح نسياً منسياً ولكنها كانت فى غابر الأزمان تعج بالرجال والنساء والأطفال ، وما من أحد منهم إلا كان مركز العالم .

الفصل الخامس

كورنثة

وبعد أن يخترق السائح عدداً آخر قليلا من الجبال يعود إلى سكيون مستقر الدورين . وفي هذه المدينة علم رجل يدعى أوثجوراس Orthagoras العالم في سنة ٦٧٦ حيلة ظل يلجأ إليها فيما بعد ذلك من القرون . فقد قال للفلاحين إنهم من نسل البلاسجين أو الآخيين على حين أن الأشراف المالكين للأرض والذين يستغلونهم من نسل الغزاة الدورين ؛ ثم أخذ يستثير نكرة غير المالكين العنصرية ، وتزعمهم في ثورة موفقة ، ونصب نفسه حاكما بأمره عليهم ، ووضع السلطة في أيدي طبقتي الصناع والتجار (*) . وأصبحت سكيون في عهد خليفته العظيم ميرون Myron وكليسنيز مدينة يشتغل نصف أهلها بالصناعة ، واشتهرت بأحذيتها وفخارها ، وإن كانت لا تزال تسمى باسم ما ينمو فيها من الخيار .

وإلى شرقها تقوم المدينة التي كان موقعها الجغرافي والاقتصادي خليفاً بأن يجعلها أغنى بلاد اليونان وأرقاها ثقافة . تلك هي مدينة كورنثة ؛ وكان موقعها على الخليج المسمى باسمها مما تحسدها عليه سائر المدن اليونانية ؛ فقد كان في مقدورها أن تغلق باب الطريق البري الموصل إلى البلوينيز ، وفي وسعها أن تيسر أسباب التجارة البرية بين شمالي بلاد اليونان وجنوبها ، أو أن تفرض عليها ما تشاء من الإتاوات . وكان لها موان وسفن على خليجي ساروس وكورنثة . وقد أنشأت بين هذين البحرين « مزلقاً لاسفن »

(*) وحكنا فل كامى ده مولن Camille Desmoulins في عام ١٧٨٩ فقد حرص

لغالبين من فوق دكتة في المقهى على طرد الأشراف الألمان .

(ديولكوس Diolcos) - أى طريقاً خشبياً تجر عليه السفن نحو أربعة أميال فوق الأرض على اسطوانات ، وربحت من وراء ذلك كثيراً من الأموال (٨٠) . وكان لها قلعة منيعة تدعى أكروكورنثس Acrocorinthus وهى قلة من قتل الجبال يبلغ ارتفاعها أثنى قدم ، ويغذيها بالماء نبع لا ينضب معينه أبداً . وقد وصف لنا استرابون المنظر الذى تقع عليه عين من يشرف على هذا المكان من القلعة ، والمدينة مبسوطة على سطحين مدرجين من تحتها ، والملهى المقام فى الهواء الطلق والحمامات العامة العظيمة ، والسوق ذات العمد ، والهياكل البراقة ، والأسوار التى تصد عنها الأعداء والتى تمتد إلى ميناء لكيوم Lechaum على الخليج الشمالى . وكان على قمة الجبل نفسها هيكل لأفرديتى وكأنما أقيم ليرمز إلى صناعة من أهم صناعات المدينة (٨٠) .

وكان لكورنثة تاريخ يرجع فى قدمه إلى الأيام الميسينية ، واشتهرت المدينة فى أيام هومر نفسه بثروتها الطائلة (٨١) . وكان يحكمها بعد الفتح الدورى ملوك ، ثم تولى حكمها الأشراف تسيطر عليهم أسرة البكيادى Bachidae ثم حدث فيها ما حدث فى أرجوس ، وسكيون ، ومجارا ، وأثينة ، ولسيوس ، وميليتس ، وساموس ، وصقلية ، وفى كل مكان راجت فيه التجارة اليونانية ، وهو استيلاء طبقة التجار ورجال الأعمال على السلطة السياسية بالثورة أو الدسائس . وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يجب أن يفهم من قيام حكومات « الطغيان » أو الدكتاتورية فى بلاد اليونان فى القرن السابع قبل الميلاد . فى عام ٦٥٥ استولى سيسيلوس على مقاليد الحكم ، وكان قد نذر أن يخص زيوس بثروة كورنثة كلها إذا ما وصل إلى غرضه ، فلما تم له الأمر فرض

(*) وكان هذا المزلق طريقاً يرحب به التجار ويفضلونه على المياه الصاخبة القريبة من رأس ماليا Malea التى تتمرّض الطريق الذهاب إلى الجزء الغربى من البحر المتوسط . وكان الطريق الخشبي يقوى على حمل السفن التجارية المألوفة فى أيام اليونان . ولقد نقل أغسطس أسطوله على هذا الطريق وهو يطارد أنطونيوس وكليوباترة ، بعد معركة أكتيوم ، ونقل أغسطس يوفاني هذه الطريقة نفسها فى عام ٨٨٣ (٧٨) م . وقد وضع هيرندر فى أيامه مشروعا لحفر القناة التى تصل الخليجين ، ولكن مهندسيه رأوا هذا العمل فوق طاقتهم (٧٩)

على جميع أملاك المدينة ضريبة سنوية قدرها عشرة في المائة من قيمتها ،
ووهب ما تجمع منها للهيكل ، فلم تمض إلا عشر سنين حتى كان قد وفى
بنذره وأبقى ثروة المدينة كما كانت من قبل (٨٢) . وقد وضع بحكمه المحبب
المستنير الذى دام ثلاثين عاماً أساس رخاء كورنثة (٨٣) .

وكان حكم ولده القاسى بريندر أطول حكم للطغاة فى تاريخ اليونان
(٦٢٥ - ٥٨٥) . وقد أقر فيه الأمن والنظام ، ومنع استغلال الناس
بعضهم بعضاً ، وشجع الأعمال التجارية والصناعية ، وناصر الآداب
والفنون ، وجعل كورنثة زمناً ما أولى المدائن اليونانية ، ونشط التجارة
يسك عملة رسمية (٨٤) ، كما نشط الصناعة بخفض الضرائب المفروضة عليها ،
وحل مشكلة التعطل بإقامة طائفة من المباني العامة وإنشاء المستعمرات فى
خارج البلاد ؛ وحى صغار رجال الأعمال من منافسة الشركات الكبرى
بتحديد عدد الأرقاء الذين يجوز للرجل الواحد أن يستخدمهم فى أعماله ،
وحرم استيرادهم بعد هذا التحديد (٨٥) ، وأنجى الأغنياء مما عندهم من
الذهب الزائد على حاجتهم بأن أرغمهم على الاشتراك بذهبهم فى صنع
تمثال ذهبي لتزدان به المدينة ؛ ثم دعا النساء ذوات المال فى كورنثة إلى
حفلة كبرى ، جردهن فيها من أثوابهن الغالية وحلبن الثينة ، ثم
أمرهن بالعودة إلى بيوتهن بعد أن أم جماعهن . وقد خلقت له أعماله هذه
أعداء كثيرين أقوياء ، فلم يكن يجرؤ على الخروج دون حرس كبير ،
وكان لخوفه وعزلته نكداً قاسياً . وأراد أن يحمى نفسه من الثورات
فعمل بالنصيحة الخفية التى أشار بها عليه زميله الطاغية تراسيبولس
الميليتى ، وهى أن يقطع « القينة بعد القينة أطول ما فى الحقل (٨٦) من
سنابل (*) » . وأخذت سراريه يوجهن التهم إلى زوجته ، حتى أثرن
غضبه عليها ، فألقاها فى نوبة من نوبات هذا الغضب من فوق سلم
القصر ، وكانت حاملاً فماتت من شدة الصدمة ، فما كان منه إلا أن

(*) يريد بذلك أنه كان يعمد أقوى رجال الدولة (المترجم) . قارن ذلك بأعمال
و التطهير ، التى تحدث من آن إلى آن فى روسيا الشيوعية ١٩٣٥ - ٣٨ .

حرق السراري وتقي ابنه ليكفرون Lycophron إلى كرسيرا Corcyra لأنه حزن على أمه حزناً لم يطق معه أن يتحدث إلى أبيه . ولما أن قتل الكرسيريون ليكفرون قبض بريندر على ثلثائة شاب من أشرف الأسر وأرسلهم إلى أليئس Alyattes ملك ليديا ليتخذهم خصباناً ، ولكن السفينة التي أقلتهم مريت بساموس ، فما كان من أهلها إلا أن أطلقوا سراح الشبان متحدين بعملهم هذا بريندر غير عابئين بغضبه . وعمر هذا الطاغية طويلاً وعده البعض بعد مرته من السبعة الحكماء في بلاد اليونان القديمة (٨٧) .

وثل الاسبارطيون بعد جيل من وفاته عرش الطغاة في كورنثة ، وأقاموا مكانهم حكم الأشراف - ولم يكن ذلك لأن اسبارطة تعشق الحرية ، بل لأنها كانت تفضل طبقة الملاك على طبقات رجال الأعمال . بيد أن ثروة كورنثة كانت تقوم على التجارة يعينها من حين إلى حين أتباع أفرديتي والألعاب الهلينية التي كانت تقام في برزخ كورنثة . وكانت العاهرات كثيرات في المدينة إلى حد جعل اليونان يطلقون اسم كورنثيازوماي Corinthiazomai على المهر نفسه (٨٨) . وكان من العادات المتبعة في كورنثة أن تخصص إلى هيكل أفرديتي نساء يحترفن فيه الدعارة ويأتين بأجورهن إلى الكهنة . وقد وصل إلى علمنا أن رجلاً يدعى أكسانوفون (وهو غير أكسانوفون قائد العشرة الآلاف) وعد الإلهة خمسين محظية إذا أعانته على النصر في الألعاب الأولمبية . ويشير بندار الشاعر التقي إلى هذا النذر وهو يشيد بهذا النصر دون حياء أو اشتزاز (٨٩) . ويقول استرابون إن « هيكل أفرديتي قد بلغ من الثروة أن كان له أكثر من ألف عبد من عبيد الهياكل ، ومحافظ وهبهن الرجال والنساء للهياكل ؛ وبفضل أولئك النسوة ازدهت المدينة بالناس وعظمت ثروتها ، من ذلك أن قادة السفن كانوا يتفقون أموالم في المدينة بلا حساب » . وكانت المدينة تشكر لمن حسن صنيعهم وتنظر إلى « أولئك السيدات الكريمات » نظرتها إلى المحسنين للشعب . وفي ذلك يقول

مؤلف قديم نقل عنه أثينوس Athenayus : « من العادات القديمة في كورنثة ، كلما أرادت المدينة أن توجه دعاء إلى أفرديتي . . . ، أن تستعين بأكبر عدد مستطاع من المحاظي ليشاركن في هذا الدعاء » . وكان لهؤلاء المحاظي عيد ديني خاص بهن هو عيد الأفرديزيا Aphrodisia يحتفلن به احتفالا فخما محوطاً بضروب التقى والصلاح^(٩٢) . وقد ندد القديس بولس في رسالته الأولى إلى الكورنثيين^(٩٣) بأولئك النسوة اللاتي ظالن يمارسن حرقهن في المدينة إلى أيامه .

وكان يسكن كورنثة في عام ٤٨٠ ق م خمسون ألفاً من المواطنين وثلاثون ألفاً من الأرقاء ، وهذه النسبة بين الأحرار والعبيد عالية علواً غير مألوف في المدن اليونانية^(٩٤) . وكان اقتناص اللذة والذهب هم جميع الطبقات ، يستنفد كل جهودهم فلا يبقى منها ما ينفقونه في الأدب والفنون إلا القليل . نعم إننا نسمع في القرن الثامن عشر عن شاعر يدعى يوميلوس Eumelus ولكن الأدب اليوناني قلما يزدان بأسماء كورنثية . وكان هيريندر يرحب بالشعراء في بلاطه واستقدم أريون Arion من لسبوس لينظم شئون الموسيقى في كورنثة . واشتهر فخار المدينة وبرنزها في القرن الثامن ؛ وكان من يعملون في طلاء مزهرياتها في القرن السادس أرقى أهل هذا الفن في بلاد اليونان كلها . ويحدثنا هوزنياس عن صندوق عظيم من خشب الأرز اختفى فيه سپسيلوس Cypselus من البكياديين وحفر فيه الفنانون نقوشاً ظريفة وورصوه بالعاج والذهب^(٩٥) . والراجح أن عصر هيريندر هو الذي أقامت فيه كورنثة لأهلها هيكلاً دورياً اشتهر بأعمدته السبعة المدحوت كل واحد منها من حجر واحد . ولا تزال خمسة من هذه الأعمدة قائمة إلى يومنا هذا توحى بأن كورنثة قد تكون أحببت الجمال في أكثر من صورة واحدة . ولربما كان الدهر والمصادفات قد ظلما هذه المدينة فلم يوفياها حقهما من الشكر لأن تاريخها دونه رجال لا يدينون لها بولاء ولا يعترفون لها بفضل ، ولو أتيح للماضي أن يطلع على ما كتب عنه في صحف المؤرخين لعجب مما يرى أشد العجب .

الفصل السادس

مجارا

لم تكن مجارا أقل جبا للذهب من كورنثة ، وكانت التجارة عماد ثروة الأولى كما كانت عماد ثروة الثانية ، لكنها تخاف عنها في أنها كان لها شاعر عظيم تحيا تلك المدينة القديمة في شعره ، كأن ما قام فيها من الثورات هي بعينها الثورات التي قامت في بلادنا . وكانت المدينة تقع عند مدخل البلوبونيز نفسه ، وكان لها مرفأ على كلا الخليجين ، ومن أجل هذا كان موقعها يمكنها من أن تساوم الجيوش المغيرة على تلك البلاد ، وتفرض المكوس على التجارة ؛ وقد أضافت إلى هذه التجارة صناعة للنسيج زدهرة يشغل بها رجال ونساء كانوا يسمون بلغة تلك الأيام الصادقة عبيداً . وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها في القرنين السابع والسادس حين كانت تنازع كورنثة تجارة البرزخ ؛ وهذا هو العهد الذي أنشأت فيه مستعمرات لها كانت بمثابة محطات تجارية انتشرت ما بين بزنطية على البسفور حتى مجارا هيليا Megara Hyblaea في صقلية ، وازدادت الثروة في المدينة زيادة مطردة ؛ ولكنها تجمعت في أيدي طائفة قليلة برعت في جمعها وبقيت جبهة الشعب مكونة من أقنان معدمين بين أقلية موفورة الثراء ،^(٩٦) يستمعون إلى الدعاة الذين يمنونهم بعيش أرخي وحياة أنعم من عيشهم وحياتهم . وفي عام ٦٣٠ ترر ثياجيز Theagenes أن يصبح طاغية فيها ، فأخذ يتملق الفقراء ويندد بالأغنياء ، ثم قاد جماهير الغوغاء الجياع إلى مراعي الأغنياء أصحاب الأنعام ، وأفلح في حل العامة على أن يؤلفوا له حرساً خاصاً ، فلما تألف ضاعف عدده ، واستعان به على إسقاط الحكومة القائمة^(٩٧) . وحكم ثياجيز مجارا

نحو ثلاثين عاماً حرر في أثنائها الأفق ، وأذل الأقوياء ، وناصر الفنون ، ولكن أغنياء المدينة أنزلوه عن العرش حوالى عام ٦٠٠ ؛ ثم قامت ثورة ثالثة أعادت الديمقراطية الشعبية ، وصادرت أملاك زعماء طبقة الأشراف ، واستولت على بيوت الأغنياء ، وألغت الديون ، وأصدرت قراراً يحتم على أصحاب الأموال أن يردوا إلى المدينين ما استولوا عليه من فوائد عن قروضهم (٩٨) .

وكان ثيوجنيز Theognis حياً خلال هذه الثورات كلها ، وقد وصفها في قصائد مائة حقداً تصلح لأن تكون وصفاً لحرب الطبقات عندنا في هذه الأيام . ويقول عن نفسه (وهو مرجعنا الوحيد في هذا الموضوع) إنه من أبناء أسرة قديمة شريفة . وما من شك في أنه قد نشأ نشأة منعمة راضية ، لأنه كان مرشداً ، وفيلسوفاً ، وعاشقاً لشاب يدعى سيرنس Cynus أصبح فيما بعد زعيم حزب الأشراف ؛ وهو يسدى سيرنس هذا كثيراً من النصح ، ولا يطلب إليه في نظير هذا إلا أن يجبه . وهو يشكو الصد كما يشكو سائر الهجين ، وأجل ما بقى من قصائده قصيدة يذكر فيها سيرنس بأنه لن يخلد اسمه إلا شعر ثيوجنيز :

هأنذا قد جعات لك جناحين تطير بهما
فوق البحر والأرض اللذين لا آخر لهما ؛
وسيردد اسمك على ألسنة الكثيرين ،
وستكون رفيقاً لهم في مآذهم وفي مرحهم .
وسأمرك الشبان الذين يحبونك أن
تطربهم بالنأى الفض ذى الصوت الشجى ؛
وإذا ما ذهبت إلى أطباق الثرى المظامة ،
إلى مستقر الموتى الذى يبعث الأسى فى القلوب ،
فلن ينقطع اتصالك بالمجد والشرف
بل سوف تجول فى الآفاق اسماً مخلداً ،

سيرنس ، يتردد في بحار بلاد اليونان وسواحلها ،
يعبر البحر المجدب من جزيرة إلى جزيرة
ولن تكون في حاجة إلى الخيل ؛ بل سوف تنطلق بخفة
تحملك ربات الشعر ذوات التاج البنفسجي .
وسيولع بذكرك كل من يولع بالغناء ،
أجل ، لقد جعلت لك جناحين ، ولم أنل منك
في نظير هذا إلا السخرية التي تنلظى كالنار بين أضلعي^(١١)
وهو ينذر سيرنس بأن مظالم الأشراف قد توقد نيران الثورة فيقول
إن الليالي جبال ، وستلد عما قريب
من ينتقمون لهذا الفساد الطويل الأمد .
إن العامة ليظهرون حتى الآن بمظهر الاعتدال ،
ولكن سادتهم فاسدون عمى العيون .
وحكم النفوس النبيلة ، الباسلة العالية ،
لم تعرض السلام والانسجام للخطر في يوم من الأيام ؛
أما التثامخ والغطرسة والادعاء الكاذب
من ذوى العقول الصغيرة ، والضعف والوقاحة ،
واغتصاب العدالة والحق والقانون ،
والعبث بها بالحيلة والطمع والكبرياء ،
أما هذا كله فهو الطريق الذي سيؤدي بنا إلى الخراب .
وحذار أن تحلم يا سيرنس
(وإن بدت الدولة هادئة غير مضطربة)
أن ستكون اللولة في مستقبلها متمتعة بالسلام والأمن ،
بل سيعقب هذا الهدوء الظاهر ،

عاجلا كان ذاك أو آجلا ، الدم المراق والزراع (١٠٠) (*) .

وشبت نار الثورة فعلا ؛ وكان ثيوجنيز من بين من نفهم الديمقراطية المنتصرة من البلاد وصودرت أملاكه . فترك زوجته وأطفاله في رعاية بعض أصدقائه ، وأخذ ينتقل من دولة إلى دولة - من عوبية ، إلى طيبة ، إلى اسبارطة ، إلى صقلية ؛ وكان يجد فيها بادية الأمر الطعام والحفاوة جزاء له على شعره ، ثم حل به بعدئذ ما لم يتعوده من ضنك شديد . وأنطقه غيظه بتلك الأسئلة يوجهها إلى زيوس ، وما أشبهها بالأسئلة التي يوجهها أيوب إلى يهوه :

طوبى لك يا جوف يا ذا الحول والطول ! إني أنظر إلى العالم وأنا مندهش غاية الدهشة ، متحير من أساليبك فيه . . . يا عجبا كيف ينطبق فعلك فيه على إدراكك للحق والباطل إذا كنت توزع نعمك على الصالح والطالح على حد سواء ؟ وإذن فكيف يعرف الناس كنه شرائعك أو يدركون معناها ؟ (١٠١) .

ويصب جام غضبه على زعماء الديمقراطية ويرجو زيوس الإله الذى تخفى على الناس طرائقه أن ينعم عليه بشرب دماهم (١٠٢) . وهو يشبه مجارا بسفينة استبدل بقائدها ملاحون عاجزون لا يعرفون قيمة النظام فى العمل (١٠٣) ه وتلك على ما نعلم هى أول مرة يستخدم فيها هذا التشبيه . ويقول إن بعض الناس أقدر من غيرهم بفطرتهم ، وإن الأرستقراطية فى صورة من الصور نظام لا بد منه ؛ وهكذا نرى أن الناس فى ذلك العهد القديم قد تبينوا أن الأغلبية لا تحكم قط . وهو يستخدم لفظ الأخبار hoi agathoi بمعنى الأشراف ، ولفظ الأشرار أو الأراذل أو المنحطين hoi kekoi بمعنى السوقة . ويقول إن هذه الفروق المتأصلة لا يمكن

(ه) إن نسبة هذه القصيدة والتصانيد التى سيرد ذكرها فيما بعد إلى فترات معينة فى حياة

ثيوجنيز ظنى محض .

استنصاها ؛ « وإن الرجل الشرير لا يمكن أن يصبح صالحا مهما علمته » (١٠٥) . — وقد يكون كل الذى يعنيه بقوله هذا أنه ما من تعليم يستطيع أن يجعل السوق أرسقراطياً ، وهو ككل المحافظين الخللص يحرص أشد الحرص على نقاء النسل ويقول « إن ما فى العالم من شرور ليس ناشئاً من شره الأخيار بل من سوء اختيارهم لأزواجهم ومن ضعف خصهم » (١٠٦) .

وهو يدبر مع سبرنس ثورة جديدة مقاومة للثورة السابقة ؛ ومن رأيه أن الإنسان ، وإن أقسم بيمين الولاء للحكومة الجديدة ، يجوز له أن يفتال الحاكم المستبد الظالم ؛ ويتعهد بأن يعمل مع رفاقه حتى ينتقموا لأنفسهم من أعدائهم أشد انتقام . لكنه بعد أن قضى فى النفي والعزلة كثيراً من السنين يرشو موظفاً من الموظفين ليمكنه من العودة إلى مجارا (١٠٧) . ثم تشمئز نفسه من نفاقه هذا وينشد أبياتاً من الشعر يعبر فيها عن بأسه ، وهى أبيات يكرررها مئات من اليونان :

لبس فى العالم نعمة

أحسن من ألا يولد الإنسان ألا يرى الشمس !

ويلها أن يدركه الموت عاجلاً

ويدفن تحت أطباق الثرى (١٠٨) .

وتراه فى آخر حياته فى مجارا رجلاً طاعناً فى السن مهتماً ، وقد أخذ على نفسه ألا يكتب شيئاً فى السياسة ليضمن بذلك سلامته . ويجده سلواه فى الخمر وفى زوجة صالحة (١٠٩) ، ويجاول جهده أن يتعلم أخيراً أن كل شيء طبعى ممكن أن يفتقر .

تعلم ، ياسبرنس ، تعلم أن تكون هادئ العقل ؛

ووفق بين مزاجك وبين الجنس البشرى والطبيعة البشرية ،

ونخذ تلك الطبيعة كما تجدناها ،
فهى مزيج من العناصر فيه الطيب وفي الخبيث —
هكذا خلقنا كلنا ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .
فخير الناس لا يخلون من لنقص ، ومن بقى منهم
حين يراد الانتفاع بهم لا يقولون عن خيارهم .
ولو أن الأمر كان على عكس هذا
لا أمكن أن تسير شئون العالم (١١٠) !

الفصل السابع

إيجينا وإبلدورس

لقد رفعت الزلازل أو خلقت وراءها في عرض الخليج الممتد من مجارا إلى كورنثة جزيرة من أقدم الجزائر المنافسة لهاتين البلدتين في الصناعة والتجارة ، وهي جزيرة إيجينا حيث نشأت في أيام ميسيني مدينة عامرة كشف في مقابرها كميات كبيرة من الذهب^(١١١) . وقد وجد القائمون الدوريون أرض الجزيرة جدباء مستعصية على الزراعة ولكنها جد صالحة للتجارة . ولما غزا الفرس بلاد اليونان لم تكن في الجزيرة إلا أرستقراطية من التجار الحريصين على أن يبيعوا المزهريات الرائعة والآنية البرنزية التي يصنعونها في حوانيتهم ، ليشتروا بها العبيد الذين كانوا يستوردون منهم عدداً كبيراً ليعملوا في المصانع ، أو ليبيعوها للمدن اليونانية . وقد قدر أرسطو حوالى عام ٣٥٠ ق م سكان إيجينا بنصف مليون منهم ٤٧٠.٠٠٠ من العبيد^(١١٢) . وفي هذه المدينة وسكت أول عملة يونانية ، وبقيت الموازين والمكايل الإيجينية هي للموازين والمكايل الرسمية في بلاد اليونان إلى أيام الفتح الرومانى .

ولقد عرف أن هذه البيئة التجارية يمكن أن تتحول من الاهتمام بالثراء إلى الاهتمام بالفن حين كشف أحد الرحالة في عام ١٩١١ في كومة من الخلفات التماثيل الجميلة القوية التي كانت تزدان بها في وقت من الأوقات قوصرة هيكل أفثيا Aphaea . أما الهيكل نفسه فقد بقى منه اثنان وعشرون من الأعمدة الدورية تحمل فوقها عوارضها . وأكبر الظن أن أهل إيجينا قد

شادوا هذا المعبد قبيل الحرب الفارسية ، وذلك لأن في التماثيل شواهد كثيرة من الطراز نصف الشرقي العتيق وإن كانت هندسة البناء من الطراز ليوناني . غير أننا لا نستطيع أن نجزم بهذا ، فربما كان الهيكل قد شيد بعد سلاميس لأن التماثيل التي تصور الإيجيين يهزمون الطرواديين قد تكون مجرد رمز للنزاع الدائم بين بلاد اليونان والشرق ، وإلى النصر الذي أحرزه الأسطول اليوناني من عهد قريب على مرأى من إيجينا في سلاميس ، وقد أمدت الجزيرة الصغيرة ذلاء الأسطول بثلاثين سفينة منح اليونان إحداها بعد النصر الجائزة الأولى من جوائز الشجاعة .

ويستطيع السائح بعد رحلة بحرية ممتعة أن ينتقل من إيجينا إلى إيدورس ، وهي الآن قرية لا يزيد سكانها على خمسة نسمة ، ولكنها كانت في وقت من الأوقات من نهر أشهر المدن في بلاد اليونان ؛ فقد كان فيها ، أو على الأصح على بعد عشرة أميال منها ، في أخدود ضيق بين أعلى الجبال وبين شبه جزيرة أرجوس ، الموطن الرئيسي لأسكليبيوس Asclepius إله الشفاء وبطله . وقد خاطبه أبلو نفسه على لسان الوحي في دلفي بقوله : « أي أسكليبيوس يا من ولدت لتكون مصدر السرور للخلق أجمعين ، يا وليد الحب يا من أنجبك لى كورونيس الجميلة عند إيدورس الصخرية » (١١٣) . ولقد بلغ من شفاهم إسكيبيوس من الكثرة حداً جعل پلوتو إله الجحيم يشكو إلى زيوس — وخاصة بعد أن أحيار رجال من الموت — أنه لا يكاد أحد يموت . وتخير زيوس في أمره ، ولم يدر ما يفعل بالجنس البشري إذا لم يكن مألهم الموت ، فأرسل على أسكليبيوس صاعقة أهلكته (١١٤) . لكن الناس اتخذوه إلهاً متقدماً وعبدوه في تساليا أولاً ثم في بلاد اليونان بعدئذ ، وشادوا له في إيدورس أعظم تماثيله ، وهناك أنشأ الكهنة الأطباء ، الذين سموا على اسمه بالأسكليپاويين ، مصحة اشتهرت في بلاد اليونان جميعها بنجاحها في علاج الأمراض . وأصبحت إيدورس فيما بعد لورديس Lourdes اليونان ، يحج

إليها الناس من جميع بلاد البحر المتوسط ، ينشدون فيها نعمة الصحة التي بعدها اليونان أعظم النعم جميعها . وكانوا ينامون في الهيكل ، ويتبعون بدقة النظام الذي يفرض عليهم ، ويسجلون شفاءهم الذي يعتقدون أنه من المعجزات الإلهية على ألواح من الحجر لا تزال باقية في أماكن متفرقة بين خربات الأيكة المقدسة . ومن الأجور والهدايا التي كانت تجمع من هؤلاء المرضى شادت إيدورس دار تمثيلها وملعبها ، ولا تزال مقاعدها ومرامبها باقية إلى اليوم بالقرب من التلال المجاورة لها ، وقبائها المرفوعة على العمد والتي تعد بقاياها المحفوظة في متحف المدينة الصغير من أروع قطع الرخام المنقوش في بلاد اليونان . ويذهب اليوم أمثال هؤلاء المرضى إلى تنوس Tenos في السكلديس حيث يعالجهم قساوسة الكنيسة اليونانية^(١١٥) كما كان قساوسة أسكليبيوس يعالجون أسلافهم منذ ألفي عام وخمسمائة . أما القلعة القائمة التي كان أهل إيدورس يقربون عليها القرابين إلى زيوس وهيرا فقد أضحت الآن جبل سانت الياس St. Elias المقدس . إن الآلهة تموت ولكن التقى والصلاح مخلدان .

وليس أعظم ما يحرص العلماء على مشاهدته في إيدورس هو خرائب أسكليبيوم التي سويت بالأرض . فالمكان كثير الأشجار وليس في وسع السائح أن يرى الملهي الكامل الذي جاء لمشاهدته حتى يصل إلى منعطف في الطريق يبسطه أمامه عند سفح الجبل على هيئة مروحة ضخمة من الحجارة . ولقد شاده بوليكليتوس الأصغر في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنه لا يزال باقيا إلى اليوم ، ويكاد يكون كاملا لم ينقص منه شيء . وإذا وقف السائح في وسط المرقص (الأوركسترا Orchestra) وهو مكان رحب مستدير مرصوف بالحجارة ، وأبصر أمامه أربع آلاف مقعد في صفوف متراصة يعلو بعضها وراء بعض ، وقد نظمت تنظيما رائعا بحيث يكون كل مقعد منها مواجهها له ، وإذا ما تنبع بنظراته الممرات المتشعبة التي ترتفع ارتفاعا

سريعا في خطوط مستقيمة من المسرح إلى سفح الجبل من ورائه ، وتحديث بصوت خافت إلى أصدقائه الجالسين على أبعد المقاعد وأعلاها على مسافة مائتي قدم منه ، وأيقن أن كل كلمة نطق بها قد سمعها هؤلاء الأصدقاء وفهموها ، إذ ما فعل هذا تمثلت له إيدورس في أيام عزها ورخائها ، وصور له خياله الجموع الهائلة مقبلة حرة مرحة من كل مدينة ومزار لتستمع إلى يورپديز ، وسرى في نفسه إحساس ، أقوى من أن يعبر عنه بلسانه ، بحياة الهواء الطلق البهجة التي كان يستمتع بها اليونان الأقدمون ٥

الباب الخامس

أثينة

الفصل الأول

بؤوتية هزيرود

يتفرع الطريق في شرق مجارا - فينتجه جنوباً إلى أثينة وشمالاً إلى طيبة . والطريق الشمالى جبلى وعري يودى بالمسافر إلى مرتفعات جبل سيثرون Cithaeron ، وإذا نظر المسافر نحو الغرب رأى من بعيد جبل برنسس Parnassus . ومن وراء هذا الجبل تقوم مرتفعات أقل منه ، ومن بعدها يتوسط سهل بؤوتية الحصيب . وعند سفح التل تقوم بلاثية حيث ألقى حافة ألف من اليونان ثلثمائة ألف من الفرس . وإلى غربها قليلاً نجد لوكترا Leuctra حيث كسب أبامينداس أول نصر عظيم له على الاسبارطين . وإلى غرب لوكترا بقليل يرتفع جبل هليكون Mt. Helicon موطن ربات الشعر « وهكرين الحية » التى تغنى بها كيتس Keats ، وهى ينبوع الذائع الصيت ، ينبوع الجواد الذى تؤكد لنا الأساطير أنه ينبع منه الماء حين ضرب بيجسوس Pegasus الجواد المجنح الأرض بقدمه وهو يصعد إلى السماء^(١) . وإلى شمال هذا النبع مباشرة تقوم مدينة ثيسيا التى لا ينقطع النزاع بينها وبين طيبة ، وبالقرب منها يوجد النبع الذى أبصر فيه تارسس خباله - أو خيال أخته الميتة التى كان يحبها على ما جاء في قصيدة أخرى^(٢) .

وفى بلدة أسكرا Askra الصغيرة بالقرب من ثيسيا كان يعيش ويكدهج الشاعر هزيرود الذى لا يعلو عنه فى حب اليونان الأقدمين إلا هومر وحده .

وتقول الرواية المتواترة إن هذا الشاعر ولد في عام ٨٤٦ وتوفي في عام ٧٧٧ ، ولكن بعض العلماء المحدثين يؤخرون تاريخه إلى حوالي ٦٥٠ (٣) ، وأكبر ظننا أنه عاش قبل التاريخ الأخير بمائة عام (٤) . وكان مولده في سيمي Cyme من أعمال إيوليا في آسية الصغرى ، ولكن والده حاقت به الفاقة فيها فهاجر إلى أسكرا التي يصفها هزيود بأنها « بائسة في الشتاء ، لا نطاق في الصيف ، وليس فيها خير في وقت من الأوقات » (٥) — كعظم الأماكن التي يعيش فيها الناس . وبينما كان هزيود الغلام الراعى والعامل في المزرعة يسير وراء قطعانه على سفوح جبال هليكون صاعداً تارة ونازلاً تارة أخرى خيل إليه أن ربات الشعر قد نفثت في جسمه روح الشعر فأخذه يكتبه ويغنيه ويكسب الجوائز في المباريات الموسيقية (٦) ، ويقول البعض إنه فاز على هومر نفسه (٧) .

وإذ كان ككل شاب يوناني مولعاً بعجائب الأساطير ، فقد كتب (*) أنساباً للآلهة عندنا منها ألف بيت تسرد أسر الأرباب وملوكهم ، وهى أنساب لا غنى عنها في الدين كما أن أنساب الملوك لا غنى عنها في التاريخ . وقد تغنى في بادئ الأمر بربات الشعر نفسها لأنها كانت جاراته على تل هليكون إذا جاز القول بأن الآلهة يجاورون الآدميين ، وقد صور له خيال الشباب أنه يكاد يراها « ترقص بأقدامها الدقيقة » على سفح الجبل ، و « تغسل جلدها الرقيق » في الهبكرين (٧) . ثم وصف بعدئذ مولد العلم — لا خلقه — فأخذ يقص علينا كيف ولد إله من إله حتى ضاق أولمبس بالآلهة . ويقول إنه في بادئ الأمر عماء ثم « كانت بعدئذ الأرض العريضة الصدر المقر الثابت الأمين لجميع الآلهة المخلدين » ؛ وكان الآلهة في الدين اليوناني يعيشون إما على ظهر الأرض أو في باطنها ، وهم على الدوام قرييون من الناس ،

(*) هذا ما كان يعتقده جميع الكتاب الأقدمين ما عدا بعض الأدباء البزوتيين من عاشوا في القرن الثاني بعد الميلاد ، وهؤلاء يرتأهون في أن هزيود هو مؤلف هذه الأنساب .

ثم جاء بعدئذ طرطروس Tartarus إله العالم السفلى ثم جاء بعده إروس Eros أو الحب « أجل الآلهة » كلهم^(١) . وولد للعاء Chaos الظلمة والليل وولد لهذين الأثير Ether والنهار ، وولدت الأرض الحبال والسماء ، وولد من اقتران السماء والأرض الأقيانوس Oceanus أى البحر . والمؤلفون الإنجليز يعلمون هذه الأسماء بالحروف الكبيرة Capitals ولكن هذه الحروف لم يكن لها وجود فى اللغة اليونانية أيام هزيبود ، ومبلغ علمنا أنه لم يكن يقصد بهذا كله أكثر من أن العالم فى بادئ الأمر كان عاء ، ثم نشأت الأرض وما فى باطنها ، والليل والنهار والبحار ، وأن الشهوة هى التى أوجدت كل شئ ولعل هزيبود كان فيلسوفاً ألهم الشعر فأخذ يحسد المعانى المجردة وينشئ منها شعراً ؛ وقد لجأ إلهدقليز إلى تلك الأساليب نفسها بعد مائة عام أو مائتين فى صقلية^(٢) . وليس بين هذا القصص الدينى وبين فلسفة الأيونيين الطبيعية إلا خطوة واحدة .

ويكثر فى أساطير هزيبود الهولات والدماء وهو لا يتحرج من أن يعزو إلى الآلهة أفحش الصلات الجنسية . وقد نشأ من تزواج السماء (أورانوس) والأرض (جى أوجيا) جنس من الجبابرة (Titans) لبعضهم خمسون رأساً ومائة يد . ولم يكن أورانوس يحبهم فقدف بهم إلى طرطروس المظلمة . ولكن الأرض ساءها هذا فعرضت عليهم أن يقتلوا أباهم . وقام كرونس أحد الجبابرة بهذه المهنة . فابتهجت «جى الضخمة بهذا العمل وأخفته فى كين ، ووضعت فى يده منجلا ، مثل الأسنان ، وأوحت إليه بالخطوة التى يسير عليها . ثم جاء السماء الواسع وأحضر معه الليل (Erebus) ، وكان السماء محباً ولماً فاحتضن الأرض وامتد حولها فى جميع الجهات . فلما رأى كرونس ذلك بر قضيب أبيه وألقى باللحم المقطوع فى اليم ، ونشأت من نقط للاء التى سقطت على الأرض آلهة الانتقام (Furias) ؛ ومن الزبد الذى

(١٦١ - ١ - علة ٢)

تكون حول اللحم وهو طاف فوق الماء نشأت أفرديتي (*) (١٢) . واستولى الجبابرة على أولمبس ، وأنزلوا أورانوس (السماء) عن عرشه ورفعوا عليه كرونس . وتزوج كرونس بأخته ريا Rhae ، ولكن أبويه الأرض والسماء كانا قد تنبأ بأن أحد أبنائه سيقتله ، فابتلعهم كرونس جميعاً ما عدا زيوس ، الذى ولدته ريا سرا فى كريت . فلما شب زيوس خلع كرونس وأرغمه على أن يخرج أولاده من بطنه . وأعاد الجبابرة إلى باطن الأرض قوة واقتداراً (١٣) .

هذه هى الطريقة التى ولدت بها الآلهة وهذه هى أساليبهم كما جاء فى أقوال هزiod . وهنا نجد قصة پروميشيوس البعيد النظر ، جالب النار ، ونجد كذلك فجور الآلهة الكثير الممل ، وهو الفجور الذى استطاع به كثير من اليونان أن يصلوا بأنسابهم إلى هؤلاء الآلهة - ولم يكن الإنسان ليظن أن الشعر الذى يروى هذا الفجور سيكون شعراً مملاً خالياً من الروعة إلى هذا الحد . ولسنا نعرف كم من هذه الأساطير كانت هى القصص الشعبى الذى نشأ فى ثقافة بدائية تكاد أن تكون همجية ، وكم منها من تأليف هزiod نفسه ، ولسنا نجد فى صحف هومر الطيبة إلا القليل من هذه الأساطير . ولربما كان بعض الفساد الذى غمرت فيه هذه القصص آلهة جبل أولمبس فى أيام النقد الفلسفى والتطور الأخلاقى ربما كان هذا البعض من خيال شاعر أسكرا القاتم النكد .

وينزل هزiod فى القصيدة الوحيدة التى لا يجادل أحد فى أنها من شعره من قلل أولمبس إلى السهول فيكتب شعراً زراعياً قريباً فى وصف حياة الفلاح . وتلك هى قصيدة الأعمال والأيام وهى عتاب طويل ونصيحة إلى أخيه پرسوس ، وقد صورته فيها بصورة غريبة تحمل على الظن بأن هذا الأخ لا يعلم أن يكون تجسيدا أدبياً لمعنى تخيله الشاعر . وهو يقول فى مطلع

(*) واللفظ مشتق من أفروس Aphros الزبد . أما المقطع الأخير فى الكلمة dite

فلا يعرف أصله على وجه التحقيق .

القصيد : « والآن سأحدث إليك أيها الأخ الأبله برسبوس ولا أبغى مر حديثي إلا الخير لك^(١١) » . ويقول لنا هزيود إن برسبوس هذا قد خدعه واغتصب منه بعض ميراثه ؛ ثم يحدثنا بعد هذا الاغتصاب حديثاً هو أول موعظة معروفة في التاريخ تصف فضيلة الجلد وكرامته ، وتقول إن الشرف والكدح أوفر كرامة وأدل على الحكمة من الرذيلة والترف والجمول : « إن من أبسر الأمور لك أن تختار الرذيلة وأن تختار منها أكداً مكدسة ؛ لأن الطريق إليها معبد ومقامها جد قريب . ولكن الآلهة المخلدين قد أقاموا في سبيل الفضيلة عرق الكدح ، وجعلوا الطريق المؤدى إليها طويلاً وعراً . شاقاً في بداية الأمر ، ولكنك إذا وصلت إلى أعلاه وجدته سهلاً بحق رغم ما لقيت فيه من المشقة قبل^(١٢) » . ثم يضع الشاعر قواعد لأعمال الزراعة الجدية ، ويحدد خير أيام الحرث والغرس والحصاد ، ويصوغ أقواله في أمثال فجأة صقلها فرجيل فيما بعد في شعر بلغ حد الكمال . وهو يحذر برسبوس من عاقبة الإفراط في الشراب صيفاً ومن تخفيف الملابس شتاء . ويصور شتاء بوؤتية القامسي فيقول عنه إن ريحه زمهرير تسلخ جلد الجؤذر والبحار والأنهار تضطرب مياها بفعل ريح الشمال ، والغابات تنوح وأشجار الصنوبر تنساقط ، والحيوانات « تهرب الثلج الأبيض » ، وتأوى خائفة إلى حظائرها ومذاذرها^(١٣) ، وما أدفا الكوخ الحسن البناء في ذلك الوقت ، فهو الجزاء الأخير للكدح بشجاعة وفطنة ! ففيه لا تنقطع الأعمال المنزلية مهما اشتدت العواصف ، وفيه تكون الزوجة نعم العون حقاً ، فهي خير عرض للرجل مما سببته له من متاعب كثيرة .

ولا يستطيع هزيود أن يقطع برأى في الزوجات ، وما من شك في أنه كان أعزب أو أرملة ، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد . نعم إن الشاعر يبدأ في آخر القطعة الياقية من قصيدته ثبناً بأسماء النساء كله شهامة ومروءة ، ويعيد على مامعنا قصص تلك الأيام التي كان عدد البطلات فيها لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت كثرة الأرباب

من النساء . ولكنه يذكر في كتابيه الكبيرين في اغتياب الحاقد الشامت أن معظم الشرور التي في العالم من فعل باندورا الحسنة ، وأن زيوس لما غضب على بروميثيوس Prometheus حين سرق النار من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل : « فأمر هفستوس Hephaestus أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته ، وأن يجعل وجه الفتاة الحسنة جميلاً كوجه الآلهات والمخلدات . ثم أمر أثينا أن تعلمها كيف تنسج القماش المتين ، وأمر أفروديتي الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة ، والشهوة الملحة ، والقلق الذي يتلف الأعضاء ، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كمقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء . وأطاعوا كلهم زيوس ... ووضع رسول الآلهة في جوفها صوتاً جذاباً ؛ وسمى هذه المرأة باندورا لأن كل الساكنين في البيوت الأولمبية قد أهدوا إليها هدية لتؤدي بها الرجال المبدعين (١٧) » .

ثم يقدم زيوس باندورا إلى إيميثيوس Epimstheus ؛ وقد حذر أخوه بروميثيوس من قبول هدايا الآلهة ، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة . وكان بروميثيوس قد ترك مع إيميثيوس صندوقاً خفياً عجبياً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال . وغلب على باندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنغص على الناس حياتهم ، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده . ومن باندورا ، كما يقول هزبود ، نشأ جنس النساء الرقيقات ، ومنها نشأت سلالة مؤذية ، وتسكن طوائف النساء الشديديات الأذى مع الرجال وهن لا يعنهم على الفقر المدقع بل يعنهم على التخمه ؛ وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى (١٨) » .

ثم يقول الشاعر المديذب بعدئذ في حمرة ولوعة إن العزوبة لا تقل شراً عن الزواج لأن الشيخوخة مع العزلة شقاء أما شقاء ، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيرته ، ولهذا فلن من مصلحة الرجل أن

بزوج - وإن كان عليه ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، ومن مصلحته أن يكون له أولاد - وإن كان من الواجب ألا يكون له أكثر من ولد واحد ، حتى لا تنقسم ثروته بعد موته .

« إذا ما توج النضج فخر رجولتك ، فخذ بيدك إلى بيتك زوجة راضية ؛ وخبر سن الزواج هي سن الثلاثين ، فلا تنقص منها كثيراً ولا تزد عليها كثيراً ؛ . . واخترها عذراء حتى تطبع الأخلاق الطاهرة صدرها بطابع الحب القائم على الحكمة والعقل . ولتكن الهدية التي تهدي إليك فتاة من جبرتك معروفة لك ؛ ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا نسيء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك . وخبر ما تنبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة ؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضى كل وقتها في الطعام والشراب . إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذي أنهكته المتاعب ؛ وتشعل النار في عظامك القوية التي في داخل جسمك ، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال في عنفوان الشباب^(١٩) . »

ويقول هزبود إن الجنس البشري عاش على وجه الأرض قبل سقوط الإنسان على هذا النحو مئات من السنين يرسل في حلل السعادة . ذلك بأن الآلهة قد خلقت أولاً في أيام كرونس (ستورينا في شعر فرجيل) جيلاً ذهبياً كانوا كالألهة يعيشون بلا كدح ولا قلق ؛ تنتج لهم الأرض من نفسها الطعام ، وتغذى بكلثا قطعانهم الكثيرة ، ويقضون كثيراً من الأيام فرحين مسرورين لا تدركهم الشيخوخة ، حتى إذا أقبل عليهم الموت آخر الأمر كان كأنه نوم خال من الآلام والأحلام . ثم خلق الآلهة في نزوة من نزواتهم القدسية جيلاً فضياً أحط منزلة من الجيل الأول ، يحتاج أفراداه في نموهم إلى مائة عام ، فإذا كمل هذا النمو عاشوا معذبين زمناً قليلاً يدركهم بعده الموت . ثم خلق زيوس جيلاً نحاسياً ، رجالاً أعضاؤهم وأسلحتهم ويوتهم من النحاس ، شن بعضهم على بعض كثيراً من الحروب

حتى « ساط عليهم الموت الأسود فغادروا ضياء الشمس اللامعة » . ثم عاود زيوس التجربة وخلق جيل الأبطال الذين حاربوا في طيبة وطروادة ؛ ولما مات أولئك الرجال « سكنوا بأرواحهم الخالية من الهم في جزائر الأبرار » ، وجاء من بعدهم شر الناس كلهم ، الجبل الحديدى ، وهم خاق أدنياء فاسدون فقراء لا يعرفون النظام ، يكلدحون بالنهار ويقاسون الشدائد والأهوال بالليل ؛ لا يوقر أبناؤهم آباءهم ، يعصون الآلة ويبخاؤون عليهم ، كسالى مشاغبون ، يحارب بعضهم بعضاً ، يرشون ويرتشون ، لا يثق بعضهم ببعض ، ويفترى بعضهم على بعض ، ويطأون بأقدامهم وجوه الفقراء منهم . ويقول هزيود فى حسرة : « ألا ليتنى لم أولد فى هذا العهد بل ولدت قبله أو بعده ! » وهو يتمنى أن يعجل زيوس بدفن هذا الجبل الحديدى فى باطن الأرض (٢٠) .

هذا هو اللاهوت التاريخى الذى يفسر به هزيود ما فى زمانه من فقر وظلم . وقد كان يرى هذه اشروور بعينه ويلمسها بيديه ؛ ولكن الشاعر لم يكن يشك فى أن الماضى الذى ملأه أبطالا وآلة كان أنبل وأجمل من هذا الجبل ؛ ولما نرتاب فى أن الناس لم يكونوا على الدوام فقراء معذبين أذلاء كما كان الزراع الذين عرفهم فى بوثوية . وهو لا يعرف أن أخطاء الطبقة التى ينتمى إليها قد أثرت فى نظراته ، وأن آراءه فى الحياة والعمل والنساء والرجال آراء ضيقة ، أرضية ، تكاد أن تكون تجارية . وما أبعد هذه الصورة من صورة أعمال الناس التى تطالنا فى شعر هومر ، وهى صورة إن كان فيها الإجرام والفرع فإن فيها أيضاً العظمة والنبل ! لقد كان هومر شاعراً ، يعرف أن وهضة من الجمال تحو آلافا من الخطايا ؛ أما هزيود فكان فلاحاً يصعب عليه ما تتكلفه الزوجة ، وينضب من وقاحة النساء اللاتى يجاسن حول المائدة مع أزواجهن (٢١) . ويكشف لنا هزيود فى صراحة فظة عما كان فى المجتمع اليونانى القديم من انحطاط قبيح — عن النقر المدمع الذى كان يعانى به رقيق الأرض وصغار الزراع الذين يقوم على سواعدهم مجد

الأشراف والملوك وعبث الحروب . وكان هومر يتغنى بالأبطال والأمرء للأشراف من الرجال والنساء ، أما هزيود فلم يكن يعرف أمرء ، بل كان يتغنى في قصائده بالسوقة من الرجال ويؤثم بين نغماته وبين موضوعه . فنحن نستمع في شعره إلى قعقة ثورات الفلاحين التي أنتجت في أتكنا من بعد إصلاحات صولون وطغيان بيسستراتس(*) .

لقد كانت الأرض في بوؤتية ، كما كانت في الپلوبيونيز ، في حوزة نبلاء غائبين عنها يقيمون في المدن أو بالقرب منها . وقد شيدت أكثر المدن رخاء وازدهاراً نحو بحيرة كپسيس Capsais ، وهي الآن جافة ولكنها كانت فيما مضى تمتد بالماء شبكة معقدة من قنوات الري وأنفاقه . وقد غزت هذا الإقليم المغرى الجذاب في أواخر عصر هومر شعوب اشتق اسمهم من جبل بيئون Boeon في إپيروس الذي أقاموا بيوتهم بالقرب منه . وقد استولوا على قيرونيا Chaeronia (وبقرها قضى فليب على حرية اليونان) ، وطبية عاصمتهم في مستقبل الأيام ، ثم استولوا أخيراً على أركنوس العاصمة المينياوية القديمة . وقد انضوت هذه المدن وغيرها في أيام اليونان الأقدمين تحت لواء طبية في اتحاد بوؤتي يصرف شئونه العامة رجال من أهل هذا الحلف يختارون في كل عام ، ويحتفل أهلهم مجتمعين في كورونية Coronea بعيد الجامعة البوؤتية .

وكان من عادة الأثينيين أن يسخروا من البوؤتيين ويتهمهم بأنهم أغبياء ويعزوا بلادة ذهنهم إلى إفراطهم في الأكل وإلى جو بلادهم الكثير الضباب والأمطار — كما كان الفرنسيون يعيرون الإنجليز سواء بسواء . وقد

(*) ولا يذكر التاريخ شيئاً عن موت هزيود ، ولكن الأقاصيص تقول إنه وهو في سن الثلاثين أغوى المذراء كليمنى Clymene ؛ وإن أخاها قتله وألقى بجثته في البحر ؛ وإن كليمنى حملت منه بابه الشاعر الماعاني استسيكوروس Stesiehorus وهو الشاع الذي ولد مع ذلك في صقلية .

يكون في هذا الوصف والتعليل بعض الصدق ، لأن البووتيين يضطلعون في تاريخ اليونان بدور لا ترتاح له النفوس . من ذلك أن طيبة مثلاً قد ساعدت الغزاة الفرس ، وظلت شوكة في جانب أثينة مئات السنين . ولكننا نضع في الكفة الأخرى — كفة الحسنة — أبطال بلاتية الشجعان الأوفياء ، ونضع هزيبود الكادح المثابر ، وبندار الذي بلغ السماكين ، وأيامينداس الأبى الشريف النفس ، وفلوطرخس الحبيب إلى النفوس . ومن واجبنا أن نكون على حذر فلا نرى منافسى أثينة بأعين الأثينيين .

الفصل الثاني

دلفى

بعد أن يغادر الإنسان قبرونيا مدينة أفلو طرخس يصعد وهو يعرض حياته للخطر فوق اثني عشر ميلا يلتقى عند آخرها بفوقيس Phocis ، ثم يصل عند سفح جبل پارنسس نفسه إلى دلفى مدينة اليونان المقدسة . وعلى بعد ألف قدم من تحتها ينبسط سهل كريسيا Crisaea الذى تتلأأ فيه بأوراقها الفضية عشرة آلاف شجرة زيتونة ؛ وعلى بعد خمسمائة قدم أخرى تحت هذا السهل تمتد فى الأرض جون صغير من خليج كورنثة ، تمر فيه السفن وهى مقبلة من بعيد ، تهادى فى بطاء وصمت فوق المياه الساكنة الخلداعة . ومن وراء الجون سلاسل أخرى من الجبال تكسوها عند مغيب الشمس حلة أرجوانية . وعند منعطف فى الطريق يلتقى السائح بنبع كستاليا Castalia فى خائق بين الصخور العمودية . وتروى القصص أن أهل دلفى ألقوا لإسوب Aesop من فوق هذه الصخور المرتفعة (وأضافوا بقولهم هذا خرافة أخرى إلى خرافاته) ؛ كما يروى التاريخ أن فلو ميلوس Philomelus الفوقى Phocian طارد اللكرين المنهزمين من فوق هذه الصخور فى الحرب المقدسة (*) الثانية (٢٣) . ومن فوقها قمنا برنسس التوأمتان حيث سكنت ربات الشعر بعد أن ملت المقام فى جبل هليكن . ولم يكن اليونان الذين يتسلقون مئآت

(*) اقد أوقد اليونان نار حربين مقدستين بسبب مطالب هيكى أبلو أولاما من ٩٥٠ إلى ٨٠٠ وفيها قضى اليونان الجنوبيون على ما كان يفرضه أهل سرا Cirrha المجاورة لهيكل من أنوات باعظة على الحجاج المازين بشغرم فى طريقهم إلى دلفى ؛ وكانت الحرب الثانية بين عامى ٣٥٦ ، ٣٤٦ . فيها هزم جيش حلف يونانى بقيادة فليب المقدونى الفوقيين الذين استولوا على دلفى ونهبوا أموال الهيكل . وأدت الحرب الأولى إلى إعلان حياد دلفى وإلى إقامة الألعاب البيثية Pythian ، أما الثانية فكانت عاقبتها أن فحمت مقدونية بلاد اليونان .

الأميال فوق الصخور الوعرة ليقفوا على قمة الجبل - متزينين على لسان بارز من الصخر بين المرتفعات التي يكسوها الضباب من جهة والبحر الذي تسطع عليه الشمس من جهة أخرى ، ويحيط بهم من جميع الجهات جمال الطبيعة وأهواها - لم يكن هؤلاء اليونان يشكّون في أن من تحت هذه الصخور إله رهيب . وكثيراً ما زلزلت الأرض في هذا المكان وقذفت الرعب في قلوب الفرس النهابين ، ومن بعدهم بمائة عام في قلوب الفوقيين النهابين ، وبعد مائة عام أخرى في قلوب الغالبين النهابين ؛ وكانت الزلازل في اعتقاد اليونان من فعل الإله يحميها قراره . وكان العباد المتدينون يؤمنون هذا المكان من أقدم الأزمنة التي تتحدث عنها التواريخ اليونانية ليجدوا في الرياح التي تهب بين الأخاديد ، أو الغازات التي تنبعث من باطن الأرض ، صوت إلههم وإرادته . وكانت الصخرة العظيمة ، التي تكاد تسد الفتحة التي تنبعث منها الغازات ، وسط بلاد اليونان كلها في اعتقاد الأهليين ، ومن ثم كانت هي سرّة العالم أو أمفالوسه omphalos كما كانوا هم يسمونها .

وقد شادوا فوق هذه السرة مذابحهم لحي أهمهم الأرض في الأيام القديمة ، ثم لأپلو مالکها الأزهر فيما بعد . وكانت تحرس الأخدود في الزمن القديم أفعى رهية فتصد عنه الرجال ؛ حتى قتلها فيبوس Phoebus بسهم وأصبح هو أپلو البشيش الذي يعبد في هذا الضريح . ولما أن دمرت النيران في عام ٥٤٨ هيكلاً قديماً أعاد بناءه الأشراف الألكمونيون المنفيون من أثينة بأموال اكتسبت بها بلاد اليونان كلها وبأموالهم هم ، وجعلوا له واجهة من الرخام . وأحاطوه برواق دورى الطراز ، وأقاموه من الداخل على أعمدة أيونية . وقاموا رأّت بلاد اليونان ضريحاً مثله من قبل . وكان طريق مقدس ملتف حول الجبل يؤدي إلى المزار ، ويزدان في كل خطوة بالتماثيل والأروقة والخزانات أى الهياكل الصغيرة التي أقامها عند تخومه المقدمة (في أولمبيا ، ودلفي ، وديلوس المدن اليونانية) لتودع فيها أموالها أو لتكون

هبات منها إلى الإله . وقد أقامت كورنثة وسكسيون خزائن من هذا النوع في
دلني ، وأقامت مثلها فيما بعد أثينة ، وطيبة ، وسيريني ، وأقامت أحسن
منها نيدوس Cnidus وسفنوس Siphnos . وفي وسطها كلها شيد ملهى مواجه
لجبل برنسس ليذكر الناس أن التمثيل كان في اليونان أصلا من الأصول
الدين . وكان يعلو فوق هذه كلها ملعب يمارس فيه اليونان أحب الشعائر
لإلههم وهي عبادة الصحة ، والشجاعة ، والجمال ، والشباب .

وفي وسعنا أن نتخيل منظر هذا المكان في عيد أبلو ، فنصور لأنفسنا
الحجاج المتحمسين يزحمن الطريق الموصل إلى المدينة المقدسة ، وتغص بهم
وبصخبهم وضجيجهم الزل والخيام التي أقيمت على عجل لتأويهم ، وهم
يمرون في حذر وارتباب بين الحوانيت التي يعرض فيها للتجار الماكرون
بضاعتهم ، ثم يصعدون في مواكب دينية أو حاجين إلى هيكل أبلو يطلبون
إليه الرضوان ، ويقربون إليه القرابين أو الضحايا ، ويرتلون الأناشيد ،
أو يتلون الأدعية والصلوات ، ويجلسون خاشعين في الملهى ، ثم يصعدون
في خطى ثقيلة متعبة تبلغ الحصائنه عدا ليشهدوا الألعاب البيئية أو ليتطلعوا في
دهشة إلى البحر والجبال . لقد كانت الحياة يوماً من الأيام تسير على هذا
النهج المليء بالحمية والحماسة .

الفصل الثالث

الدول الصغرى

كان الأهليون فى الجزء الغربى من أرض اليونان الأصلية يعيشون قانعين بحياتهم الريفية الهادئة طوال تاريخ اليونان القديم ولا يزالون كذلك حتى اليوم . لقد كان الناس فى لكريس Locris ، وإيتوليا Aetolia ، وأكرانيا Acarnania ، وإينيانيا Aeniania ، لشدة قربهم من الحقائق البدائية الواقعية ، وبعدهم عن تيار الحركة والتجارة الجارف ، لا يجدون منسجاً من الوقت ، وليست لهم المهارة الكافية ، للاشتغال بالأدب أو الفلسفة أو الفن ؛ إن الملعب والمهلى العزيزين على أنكا لم يجداهما مواطناً فى هذا المكان ، وكانت الهياكل نفسها أضرحة قروية لا يجعلها الفن ولا تثير العاطفة القومية . وكانت تقوم فى فترات طويلة مدائن متواضعة مثل أمفسا Amphissa فى لكريس ، أو نوبكتوس Naupactus الإيتولية ، أو كليدون Clydon الصغيرة حيث صاد مليجر Meleager فى يوم من الأيام الخنزير البرى مع أطلنطا Atalanta (*) . وعلى الساحل الغربى بالقرب من كليدون تقوم مسولنجيون Messolongion أو مسولنجى Messolongi حيث

(*) دمر خنزير برى حقول كليدون فانبرى له مليجواين مليكها إنيوس . ودير أمر صيده مستعيناً بشيوس ، وكاستر ، وپلكس ، ونسطور ، وجيسن ، وأطلنطا ذات الوجه الجميل والخطو السريع . وقتل الخنزير عدداً من الأبطال ولكن أطلنطا صادته ومليجر قتله . وتزاحم الخاطبون على أطلنطا فى بيتها فى أركاديا ، فوافقت على أن تتزوج من يسبقها منهم واشترطت أن تقتل كل من لا يستطيع أن يسبقها . واستطاع هپومينس Hippomenes أن يسبقها بأن ألقي فى طريقها وهو يمدو التفاحات الثلاث التى أعطتها إياه أفردى من المهردين Hesperides ، فوفقت أطلنطا لتأخذها وخسرت الرهان . وفى وسع انقارى أن يطالع هل حب مليجر الحق لأطلنطا وموته المنفع فى قصيدة سونيرن Swinburne المسماة « أطلنطا فى كليدون Atalanta in Clydon » .

حارب ماركو بوزارس Marco Bozzaris وقتل بيرن Byron ، ويمجى بين أكرانيا وإيتوليا أعظم نهر فى بلاد اليونان — نهر أكولوس الذى اتخذه اليونان ذو الخيال الحصب إلهاً لهم وعبدوه واسترضوه بالصلاة والضحايا . وبالقرب من منابعه فى إبيروس Epirus ينبع نهر أسبركيوس Spercheus ، وبالقرب من شاطئيه فى دولة إينيانيا Aeniania الصغيرة كان يعيش الآخيون فى العصر السابق لعصر هومر ، هم وقبيلة صغيرة تسمى هليز وهو الاسم الذى سمي به اليونان كلهم أنفسهم طوعاً لحكم العادة التى لا تخضع لغير الهوى . وفى اتجاه الشرق يقع عمر ترموبيل المعروف باسم « الأبواب الحارة . . . » بسبب عيونه الكبريتية الساخنة وعمره الضيق المنيع الممتد من الشمال إلى الجنوب بين الجبال والخليج المالى Malic Gulf ؛ وبعد أن يصعد الإنسان جبل أثريس Othrys ويحترق أخيا ثيوتيس Achaea Ththiotis ينحدر إلى سهول تساليا العظيمة .

وفى عند فرسالس Pharsalus أبادت جنود قيصر المتعبة قوات بيمى ؛ وليس فى بلاد اليونان كلها لإقليم آخر أوفر من تساليا زرعاً ، أو أقوى منها خيولاً ، أو أفقر فنوناً . وتجري فيها الأنهار من جميع الجهات ، ويصب كلها فى نهر پنيوس فتكون فيها تربة غرينية خصبة تمتد من حدود الإقليم الجنوبية إلى سفوح السلاسل الشمالية . ويشق نهر پنيوس طريقه خلال هذه الجبال محترقاً تساليا إلى بحر تراقية ، وينحت بين قمم أسا Assa وأوليس وادى التيمى (القطع) حيث تحيط بالنهر الغضوب من جميع الجهات صخور وعرة تمتد على شاطئيه مدى أربعة أميال ، وتعلو عن ماء النهر نحو ألف من الأقدام . وقد قامت على طول النهر فى الزمن القديم مدن كثيرة — فىرى ، وكرانون ، وفركا ، ولاريسا ، وجيرتون ، وإلاتيا(*) ، كان يحكمها أمراء إقطاعيون

يعيشون من كدح رقيق الأرض . وهنا في أقصى الشمال يعلو جبل أولمبس أعلى قتل البلاد ومواطن الآلهة الأولمبية . وعلى سفوحه الشمالية والشرقية تقوم *Pieria* التي كانت موطن ربّات الشعر قبل انتقالهن إلى هليكون(*) . وإلى الجنوب ، على طول الخليج ، تمتد مجنيزيا حيث تتجمع الجبال من أساً *Ossa* إلى *Pelion* .

وتمتد جزيرة عويية العظيمة *Euboea* مقابلة لسواحل اليونان القارية بين الخلجان الداخلية ومياه بحر إيجه الخارجية ، مبتدئة في عرض المضيق على بعد أميال قليلة من مجنيزيا ، وترتكز على شبه جزيرة في كلّيس تكاد تصلها بيووتية . والعمود الفقري للجزيرة سلسلة جبلية هي امتداد لأولمبس ، وپليون ، وأثريس وتنتهى بجزائر سكلديس . وقد بلغت سهولها الساحلية درجة من الخصب والثراء أغرت بها الأيونيين القادمين من أتكا في أيام غزو الدوربين ، وأدت إلى فتحها على يد الأثينيين في عام ٥٠٦ ق . م ، وكانت حجة أثينة التي تذرعت بها لهذا الفتح أنها إذا حوصرت عند پريوس ماتت جوعاً إن لم تصلها حبوب عويية . وكانت رواسب النحاس والحديد وأجراف الأصداف مصدر ثراء كلّيس والأصل الذي اشتق منه اسمها . وقد ظلت وقتاً ما أهم مراكز الصناعات المعدنية في بلاد اليونان ، واشتهرت بسيوفها التي لا تضارعها قط سيوف أخرى ، وبمزهرياتها البرنزية التي بلغت أعلى درجة من الإتقان . ومما ساعد على انتعاش تجارة الجزيرة أن استخدمت فيها نقود من أقدم النقود اليونانية ، وكانت تخرج من كلّيس فكانت مصدر ثراء أهلها وحافزاً لهم إلى إنشاء مستعمرات تجارية في تراقية وإيطالية وصقلية . وكاد نظام الموازين والمكاييل العوى أن يعم بلاد اليونان كلها ، كما أضحت حروف كلّيس المهاجئة التي أخذتها رومة عن كوى الإيطالية مستعمرة

(*) وهي التي وردت في نصيحة ألكسندر بوب الحكيم التي يتضمنها البيتان الآتيان :

إن العلم القليل يعرض للأخطار

فإنما أن ترتوى منه وإما ألا تمس النبع الپرى (٢٤)

عوية ، كما أوضحت هذه الحروف في صورتها اللاتينية هي الحروف لهجائية لأوروبا الحديثة . وعلى بعد أميال قليلة من جنوب كلسيس كانت مدينة إرثريا منافستها القديمة حيث أنشا منديموس Meredemus أحد تلاميذ أفلاطون مدرسة للفلسفة ؛ وفيما عدا هذا فإن إرثريا وكلسيس Cha cis كلتيهما لا يظهر اسمهما واضحين في تاريخ الفكر أو الفن اليونانيين .

ومن كلسيس يعبر المسافر على جسر قائم مكان المعبّر الخشبي الذي أنشئ في عام ٤١١ ق . م مضيق يوربوس Euripus عائداً إلى بؤوتية . وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب على الساحل البؤوتى تقع بلدة أويس الصغيرة حيث ضحى أبجمنون بابنته للآلهة . وكانت تعيش في هذا الإقليم في يوم من الأيام قبيلة خاملة الذكر هي قبيلة الجرايس التي أرسلت مع العوبيين جماعة من أهلها أنشؤا مستعمرة كوى بالقرب من نابلى ، واشتق الرومان من اسم هذه القبيلة الاسم الذى أطلقوه على من قابلهم من الهيلينيين فسموهم الحراكى (الإغريق) (*) . ومن أجل هذا أطلق العالم كله على هلاس Hellas اسماً لم يسم أهلها بلادهم به في يوم من الأيام (٢٥) . وإلى جنوب أويس تقوم تنجارا Tangara التى كسبت شاعرتها كورنا Corinna الجائزة من بندارحوالى عام ٥٠٠ ق . م . والتى صنع خزاؤها في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أشهر التماثيل الصغيرة في التاريخ . وبعد خمسة أميال أخرى إلى الجنوب يدخل السائح أتكا ، وفي وسعنا إذا وقفنا على قلل جبال پارنيس أن نبصر نلال أثينة .

(•) وقد فعل العرب بهم ما يشبه هذا فاشتقوا من اسم الأيونيين اسماً أطلقوه على جميع الهيلينيين فسموهم اليونان أو اليونانيين . (المترجم)

الفصل الرابع

أتكا

١ - ما حول أثينة

إن الجو نفسه في هذا الإقليم يختلف عنه في الإقليم السابق - فهو هنا نظيف ، بارد ، مضيء ؛ وكل سنة هنا تحتوى على ثلثائة يوم ذات شمس ماطعة . وإذا قدم الإنسان إليه تذكر من فوره وصف شيشرون « هواء أثينة الصافي الذى يقال إنه كان له أكبر الأثر في حدة عقول أهل أتكا » (٢٦) . ويسقط المطر في أتكا في الخريف والشتاء ، وقاما يسقط في الصيف والضباب نادر فيها ، ويسقط الداج في أثينة مرة واحدة في العام تقريباً ، ويسقط أربع مرات أرحساً كل عام على قمم الجبال المحيطة بها (٢٧) . والصيف هنا حار ولكنه جاف يطاق ؛ وكانت الأراضي المنخفضة في الزمن القديم ذات منافع تنتشر فيها الملاريا فتقلل من ملاءمة الهواء للصحة (٢٨) . وتربة أتكا فقيرة ، والصخور الصلبة قريبة من سطح الأرض في كل مكان تقريباً ، وهذا القرب يجعل الزراعة كفاً شاقاً للحصول على أبسط ضرورات الحياة (*) ؛ ولولا التجارة التي تتطلب كثيراً من المغامرة ، وزراعة الزيتون والكرم التي تتطلب كثيراً من الصبر ، لما أمكن قيام الحضارة في أتكا .

وأكثر ما يدهش له الإنسان أن تقوم مدن كثيرة في هذه الشبه الجزيرة القاحلة ؛ فهي تطالع الإنسان في كل مرفأ على الساحل ، وفي كل واد

(*) يقول توكيديس إن « أتكا نجت افقر تربتها منذ أقدم الأزمان من الانقسامات الداخلية (٩) والغزو الأجنبي » .

بين اللال ، فقد استقر في أتكأ شعب نشيط مغامر إبان العصر الحجري الحديث أو قبله ، وأكرم وفادة القادمين عليه من الأيونيين - وهم مزيج من الهلاسجيين الميسينيين والآخيين^(٢٨) - الفارين من بؤوتية والبلوونيز أمام المهاجرين والغزاة الشماليين ، وتزوج منهم وتزوجوا منه . ولم يكن هؤلاء القادمون فاتحين من الأجانب ، يستغلون أهل البلاد الأولين ، بل كانوا سلالة مختلطة من شعوب البحر المتوسط ، متوسطى القامة ، سمر البشرة ، ورثوا من طريق مباشر دم الحضارة الهلينية وثقافتها ، وكانوا يعتزون بنشأتها وصفاتها الأصادية^(٢٩) ، يصلون عن قدسها القوي ، الأكروبوليس ، الدوريين نصف المميج الحديثي المعهد بالثقافة اليونانية^(٣٠) .

وكان نظامهم الاجتماعي ممتداً من صلة الدم هذه ؛ فكانت كل أسرة تنتمي إلى قبيلة من القبائل يدعى أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً ، ويشتركون في حفلات دينية واحدة ، ولهم أركون (حاكم) واحد وخازن على المال واحد ، ويملكون مجتمعين بعض الأراضي العامة ، ويستمتعون بحق التزاوج والتوارث ، ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون ، والثأر ، والدماخ ، ويوارون التراب آخر الأمر في مدافن القبيلة . وكانت كل قبيلة من قبائل أتكأ الأربع تتألف من ثلاثة بطون ، وكل بطن من ثلاث أفخاذ وكل فخذ من ثلاثين من آباء الأسر أو نحوهم^(٣١) . وكان تقسيم المجتمع الأتيكي هذا التقسيم القائم على صلة القرى مما يسر تنظيمه الحربى وتعبئته العسكرية ، كما أنه ساعد على قيام طبقة أرستقراطية من الأسر القديمة اضطرت كليشئز بسبب وجودها إلى إعادة توزيع القبائل قبل أن يستطيع إقامة نظام ديمقراطى فى البلاد .

وينبى على الظن أن كل بلدة أو قرية كانت فى الأصل موطن بطن من البطون وكانت تسمى أحياناً باسم هذا البطن أو باسم الإله أو البطل الذى (١٥ - ج ١ - مج ٢)

تعبده ، وكانت هذه هي الحال في أثينة نفسها . وإذا أقبل السائح على أتكا من بوثوية الشرقية التقى أولا بأوروبوس Oropus وانطبعت في ذهنه صورة غير جميلة لهذا الإقليم ، لأن أوروبوس كانت بلدة قائمة عند تخومه يرتاع لها السائح ارتياعه من أية بلدة مثلها في هذه الأيام . ويصفها ديكى آرکوس ، Dicaearchus حوالي عام ٣٠٠ ق . م بقوله إن « أوروبوس معشش للبائعين المحتالين . وموظفو الجمارك في هذا البلد شرهون شرهاً لا يدانيه شره سواه ، وخستهم متأصلة في لحمهم وعظامهم . ومعظم أهلهم أغلاظ ، شرسو الطباع ، لأنهم أطاحوا بروثوس المؤدبين الظرفاء من الأهلين » (٣٢) . وإذا اتجه السائح من أوروبوس نحو الجنوب التقى في الزمن القديم بسلسلة من البلدان المتقاربة ، رامنوس Rhamnus ، أفدنا Aphidna ، دسليا Dereleia (وهي مكان ذو موقع حربي حصين اشتهر في حرب البابونيز) ، وأكارني Acharnae (موطن ديسهوبوليس Dicaeopolis داعية السلام الشرس في مسرحيات أرسطوفيز) ، ومراثون ، وبرورونيا Brauronia . وفي الهيكل العظيم الذي كان قائماً في هذه المدينة الأخيرة نصب تمثال أرتيمس الذي جاء به أرسيز وإفيجينيا من كرسنيز Chersonese في طوروس Taurus ، وكان يحج إليه كل أربعة أعوام كل من يستطيع الحج إليه من أهل أتكا ليشاركوا في حفلات التقى والدعارة المعروفة باسم برورونيا أو عيد أرتيمس (٣٣) . وبعد هذا يلتقى السائح ببراسيه Prasiae وثوركوس Thoricus ، ثم يدخل إقليم لوريوم Laurium الذي تستخرج الفضة من مناجمه ، والذي كان عظيم الشأن في تاريخ أثينة الاقتصادي والحربي ؛ ثم يلتقى في طرف شبه الجزيرة بسونيوم Sunium التي شيد على أطرافها هيكل جميل يهتدى به الملاحون ويوفون فيه بنذورهم إلى بوسيدن . وعلى الساحل الغربي (لأن نصف أرض أتكا سواحل ، واسمها نفسه مشتق من أكتيكي Aktike أي أرض

(السواحل) ، يمر المسافر بأنافليستوس Anaphlyetus ويصل إلى جزيرة سلاميس Salamis (*) موطن لإچاكس ويورپديز ، ومن بعدها إلى إلوسيس المدينة المقدسة لدمتر وطقوسها الخفية ، ثم يعود الأمر إلى پيريس (پيريه) Piraeus . وإلى هذا المرفأ الأمين ، الذى ظل مهملًا حتى كشف ثمستكلير فائدته العظيمة ، صارت السفن فيما بعد تنقل جميع غلات عالم البحر المتوسط لتستخدمها أثينة فيما يعود عليها بالمنفعة أو اللذة . وكان جذب تربة أنكا ، وقرب أجزائها كلها من شاطئ البحر ، ووفرة الموانئ الصالحة ، كان هذا كله حافزا لأهل أنكا للاشتغال بالتجارة ؛ وقد كسبوا بفضل شجاعتهم بقوة ابتكارهم أسواق بحريجه ؛ ومن هذه الإمبراطورية التجارية العظيمة نشأت ثروة أثينة ، وقوتها ، وثقافتها ، فى عصر هركلير .

٢ - أثينة فى عهدھا الأجركى

لم تكن هذه البلدان محيطة بأثينة فحسب ، بل كانت أجزاء منها كذلك . وقد سبق القول كيف جمع ثيسوس ، كما يعتقد اليونان ، الأهلين فى نظام سياسى واحد وجعل لهم عاصمة واحدة (**). ونشأت أثينة ثم نمت على بعد خمسة أميال من پيريس بين معشش من التلال ، همتوس Hymettus وپنتلكرس Pentalicus وپارنس Parnes ، حول الحصن الميسيني القديم . وكان جميع ملاك الأراضى فى أنكا من مواطنيها . وكانت أقدم الأسر ، وأكثرها أملاكًا هى التى تحتفظ التوازن بين ذوى السلطان فى البلاد ؛ فقد رضوا بقيام الملكية حين كان اضطراب الأمن يهدد

(٥) وأكبر الظن أنّ الفيزيقيين هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم المشتق من شالام أى السلام ؛ ومنه أيضاً سالم الخ .

(٥٥) تحدد الرواية زمن هذه الحادثة بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكن اتحاد أنكا كلها تحت سلطان أثينة لا يمكن أن يكون قد تم قبل عام ٧٥٠ ، وذلك لأن نشيد ديمتر ه الهومرى ه الذى وضع حوالى ذلك الوقت حين يتحدث عن إليوسيس يقول إنها كانت لا تزال تحت حكم ملك خاص بها (٣٦)

البلاد ، ولما أن عاد إليها الهدوء والاستقرار عادوا هم أيضاً إلى الاستمساك بسيطرتهم الإقطاعية وبالحكومة المركزية ؛ ولما مات الملك كادروس Cadrus ميتة الأبطال مضجياً بنفسه لصدد الدوربين الغزاة(*) أعلنوا (كما تروى القصة المتواترة) أن أحداً من الناس لا يصلح خليفة له ، واستبدلوا بالملك أركونا (حاكماً) يختار ليتولى السلطة مدى الحياة . وفي عام ٧٥٢ حددوا مدة الأركونية بعشر سنين ثم أنقصوها إلى سنة واحدة في عام ٦٨٣ . وفي هذه السنة الأخيرة قسموا سلطة صاحب هذا المنصب بين تسعة أركونيين ، أركون سميت السنة باسمه ليستطيعوا بذلك تأريخ الحوادث ، وأركون يسمى ملكاً ولكنه لم يكن إلا رئيس دين الدولة ؛ وأركون يتولى قيادة الجند وستة مشرعين . وحدث هنا ما حدث في إسبارطة ورومة ، فلم يكن القضاء على الملكية نصراً للعامة أو خطوة مقصودة نحو الديمقراطية ، بل كان يمثل عودة الإقطاعيين إلى السيادة ، ويكرر ما كان يحدث في التاريخ كله من قيام السلطة المركزية تارة وغير المركزية تارة أخرى . وبفضل هذه الثورة المجزأة جرد منصب الملك من كل ما كان له من سلطان ، واقتصر عمل من يتولاه على الكهانة دون غيرها من الأعمال . ولقد بقيت لفظة ملك في الدستور الأثيني حتى آخر تاريخ المدينة القديم ، ولكن حقيقة الملكية لم تعد إليها قط . إن الدساتير قد تبدل أو يقضى عليها من ذوى السلطة العليا دون أن ينالهم من جراء ذلك عقاب ما إذا تركت أسماءها دون تغيير .

وظل « الحاكون الشريفو المختد » (Eupatrid Oligarchs) يحكمون أتنكا زمناً يكاد يبلغ خمسة قرون . وكان أهل البلاد أيام حكمهم مقسمين خمس طبقات سياسية : طبقة الفرسان (Rippes) الذين يملكون الخيل(**)

(*) والراجع أنها حادثة خرافية ترجمها الرواية التاريخية إلى عام ١٠٦٨ ق . م .

(**) وكانت هذه وقتئذ ميزة الرجل الشريف المذهب كما كانت الحال عند الفرسان

الرومان equites والفرنسيين Chevalliers والإنجليز Cavaliers .

والذين يستطيعون أن يكونوا فرقة الفرسان في الجيش ، وذوى الثيران (Zeugitai) الذين يملك كل منهم ثورين والذين يستطيعون أن يسلحوا أنفسهم ليكونوا من فرق المشاة الثقيلة ، وطبقة العمال الأجورين Chetes الذين كانوا يؤلفون فرق المشاة الخفيفة . وكانت الطائفتان الأوليان وحدهما هما اللتين تحسبان في عداد المواطنين ؛ والفرسان وحدهم هم الذين يمكن اختيارهم أركونين أو قضاة أو كهنة . وكان الأركونون بعد أن يتموا مدة توليهم منصبهم يصبحون ، إذا لم يرتكبوا فضائح تلوث سمعتهم ، بحكم منصبهم القديم أعضاء في البول boule أو المجلس الذى كان يجتمع في نسيم المساء العليل على الأريوپاجوس Arcopagus أو تل أريس Ares ، ويختارون الأركونين ، ويحكمون الدولة . وقد حدد مجلس شيوخ الأريوپاجورسى في عهد الملكية نفسها سلطان الملوك ؛ فلما قامت الحكومة الأبركية كان له مثل ما لنظيره في رومة من سعة النفوذ وعظيم السلطان^(٣٦) .

وكان السكان ينقسمون من الوجهة الاقتصادية ثلاثة أقسام كذلك . فكان على رأسهم الأشراف الكريمو المختد Eupatrids الذين كانوا يعيشون عيشة مرفقة بالنسبة إلى غيرهم من الجماعات ، ويقيمون في المدن بينما يقوم العبيد والعمال الأجورون بزراعة أملاكهم في الريف ، أو انتجار باستغلال الأموال التى اقترضوها منهم وأداء جزء غير يسير من الأرباح إليهم . ويلى هؤلاء في الثروة العمال العموميون (demiugoi) أى أرباب المهن ، والصناع ، والتجار ، والعمال الأحرار . ولما فتح الاستعمار أسواقاً جديدة للتجارة ، وتحررت هذه التجارة بعد سك العملة ، كان سلطان هذه الطبقة المتزايد هو القوة الفعالة التى أنالها في عهد صولون وبيستراتس نصيباً من الحكم ، ورفعتها في عهد كليستينز وبركليز إلى ذروة السلطان . وكان معظم العمال أحراراً لأن العبيد كانوا في ذلك العهد لا يزالون أقلية حتى بين الطبقات الدنيا^(٣٧) . وكان أفقر الأهليين عمال الأرض (georgoi) ، وهم

الزراع الصغار الذين يترعون القوت من التربة الضئيلة ومن شره المرابين والأشراف ، وليس لهم من عزاء إلا التباهى بأنهم يملكون قطعة من الأرض .

وكان بعض هؤلاء الزراع يملكون في أيامهم الحالية أراضى واسعة ، ولكن زوجاتهم كن أكثر خصوبة من أرضهم ، فتنقسمت هذه الأرض ثم تقسمت بين أبنائهم وأحفادهم على مر الأجيال . وكان امتلاك العشائر أو الأسر الأبوية للأرض يزول زوالاً سريعاً ، كما كانت الأسوار والخنادق والحواجز تشير إلى الأملاك الفردية وما يصحبها من غيرة وتحاسد . . وكلما صغرت مساحة الأراضى التى يملكها الأفراد وأضحت الحياة الريفية مزعزعة غير مأمونة باع كثيرون من الفلاحين أرضهم - رغم ما كان يوقع على الذين يبيعونها من عقاب وما يحرمون بسببه من حقوق - ونزحوا إلى أئينة أو غيرها من المدن الصغرى ليشغلوا فيها تجاراً أو صناعاً أو فعلة . وأصبح غيرهم ، ممن عجزوا عن تحمل لزامات الملكية ، مستأجرين لضبايع الأشراف hectemoroi ، أو عاملين فيها لقاء نصيب من غلتها^(٣٨) . وظل غيرهم في أرضهم يكافحون ، يقرضون المال بربا فاحش ويرهنون أرضهم ضماناً لما اقترضوه ، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم وألفوا أنفسهم لاصقين بالأرض يلزمهم بذلك دائنهم ويعملون فيها عمل الرقيق الإقطاعيين . وكان الدائن المرهونة إليه الأرض يعد مالك الأرض الحقيقي حتى يسترد ماله من دين ، وكان يضع عليها لوحاً من الحجر يعلن فيه هذه الملكية^(٣٩) . ونضاءت الملكيات الصغيرة على توالى الأيام ، وقل عدد الملاك ، واتسعت الأملاك الكبيرة . ويقول أرسطاطاليس في هذا : « وأصبحت كل الأراضى ملكاً لعدد قليل من الناس ، وتعرض الزراع هم وأزواجهم وأبنائهم لأن يباعوا بيع الرقيق » لا في داخل البلاد فحسب بل في خارجها أيضاً ، « إذا عجزوا عن أداء إيجار الأرض » أو الوفاء بما عليهم من ديون^(٤٠) . وألحقت التجارة الخارجية واستبدال النقود بالمقايضة ضرراً آخر بالأهلين ، لأن منافسة مواد الطعام المستوردة من خارج

البلاد أبقت أثمان محصولاتهم منخفضة ، على حين أن ما كان عليهم أن يؤدوه ثمناً للسلع المصنوعة التي كانوا مضطرين إلى شرائها كانت تحدده عوامل لاسلطان لم عليها ؛ وظلت هذه الأثمان تزداد على توالى السنين . وإذا ما أجذبت البلاد عاماً حل الخراب بكثيرين من الزراع وهلك بعضهم جوعاً . وبلغ الضنك في أتكأ درجة رحب معها الأهلون بالحرب وعدوها نعمة وبركة ، فقد تؤدى إلى كسب أرض جديدة ، وستؤدى حتأ إلى قلة الأفواه التي تنطلب الطعام^(٤١) .

وفى هذه الأثناء كانت الطبقات الوسطى من أهل المدن التي لا يقف فى وجهها القانون تنزل بالعمال الأحرار الفقر والضنك ، وتستبدل بهم الرقيق شيئاً فشيئاً^(٤٢) . وبلغ الجهد العضلى من الرخص حدأ أصبح معه كل القادرين على ابتاعه يرفعون عن العمل بأيديهم . وصار العمل اليدوى غلا وعبودية ، ومهنة غير جديرة بالأحرار ، وأخذ ملاك الأرض ، لغيرتهم من ثراء التجار المتزايد ، يبيعون فى خارج البلاد الحبوب التي يحتاجها مستأجرو أرضهم طعاماً لهم ، وانتهوا آخر الأمر ببيع الأثنيين أنفسهم تطبيقاً لقانون الديون^(٤٣) .

وأمل الناس وقتاً ما أن تعالج تشريعات دراكون Draco هذه الشرور . فقد كلف هذا المشرع ثسموثيتى Thesmothete حوالى عام ٦٢٠ بأن يسن القوانين الكفيلة بإعادة النظام إلى أتكأ ، وأن يسجلها كتابة لأول مرة . فى تاريخ اليونان . ومبلغ علمنا أن أهم ما نجده من تقدم فى قوانينه هو أنه وسع إلى حد ما دائرة من لم الحق فى أن يُختاروا أركونين حتى شملت كثيرين من الأغنياء المحدثين ، وأحل القانون محل الغصب والانتقام ، وأصبح مجلس الشيوخ الأريوباجوسى بعدئذ صاحب الحق فى النظر فى جميع جرائم القتل . وكان هذا التشريع الأخير إصلاحاً أساسياً تقدماً ؛ ولكنه لما أراد أن ينفذه ، بل لما أراد أن يقنع ذوى الثراء بقبوله وبأنه أقسى من كل ما يستطيعون قرضه من ثأر وانتقام ، لما أراد هذا وذاك

اضطر أن يضمن قوانينه صنوفاً من العقاب القاسى الشديد . ولما أن حلت شرائع صولون محل معظم قوانينه هو ، كان كل ما يذكره الناس به هو ضرور القسوة والعقاب لا قوانينه ننسها . والحقيقة أن دراكون قد جمع فى شرائعه ما كان فى نظام الإقطاع من عادات قاسية مهوشة خالية من النظام ، ولكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذ المدينين من الاسترقاق ، أو يقلل من استغلال الأقرباء للضعفاء ؛ ومع أنه قد وسع دائرة من لهم حقوق سياسية بعض التوسيع ، فإنه ترك لطبقة كرام المحتد (اليوترد) السيطرة التامة على دور القضاء ، كما ترك لهم الحق فى أن يفسروا كما يرون كل ما يمس مصالحهم من القوانين ونقط الخلاف^(٤٤) . وقد ضمنت شرائعه لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم من قبل ؛ فكانت السرقات الصغيرة ، بل التراخي فى العمل ، يعاقب عليهما بحرمان المواطنين من حقوقهم السياسية ، ويعاقب عليهما غير المواطنين(*) بالإعدام^(٤٥) .

وبينا كان القرن السابع عشر قبل الميلاد يقرب من نهايته ، كان حقد الفقراء المعدمين عديمى النصير على الأغنياء المتمتعين بحماية القانون قد أوشك أن يقذف بأثينة فى أتون الثورة . ذلك أن المساواة ليست نظاماً طبيعياً ، وحيث تطلق الحرية للكفاية وللدهاء فلا بد من أن تنشأ الفوارق وتبقى حتى تقضى على نفسها فى الفقر الشامل الذى تؤدى إليه الحرب الاجتماعية والذى لا يميز بين من كان فى الأصل غنياً ومن كان فقيراً ؛ وقصارى القول أن الحرية والمساواة ليستا رفيقين متلازمين بل عدوين متباغضين . وتجمع الثروة يبدأ بأن يكون نظاماً محتوماً ، ثم ينتهى بأن يكون نظاماً مهلكاً ميئداً . وفى ذلك يقول أفلوطرخس : إن التفاوت فى الثراء بين الأغنياء والفقراء قد بلغ غايته ، حتى بدا أن المدينة قد أضحت فى حال تخشى مغبتها ، وأن ليس ثمة وسيلة تنجىها من الاضطراب . . . إلا سلطة استبدادية^(٤٦) . ورأى الفقراء أن حالهم تزداد سوءاً عاماً بعد عام ،

(٥) « كان الذى يسرق كرنبه يجازى بما يجازى به من يقتل أمه أو يتهك حرمة الدين » صولون لأفلوطرخس .

فزام الحكم والحيش في أيدي سادتهم ، والمحاكم الفاسدة المرتشية تقضى في كل نزاع في غير مصلحتهم^(٤٧) — فأخذوا يتحدثون عن الثورة العنيفة ، وعن توزيع الثروة توزيعاً يخالف ما هو قائم وقتئذ مخالفة تامة^(٤٨) . فلما عجز الأغنياء عن تحصيل ما لهم من ديون قانونية ، وأغضبهم تحدى الفقراء لهم وتهديدهم بالاعتداء على أموالهم المدخرة وأملأهم^(٤٩) ، بلجأوا إلى القوانين القديمة واستعدوا الحماية أنفسهم بالقوة من الغوغاء ، بعد أن بدا لهم أن هؤلاء لا يهددون أموالهم فحسب ، بل يهددون فوق ذلك النظام القائم كله ، والدين ، والحضارة بقضها وقضيضها .

٢ — الثورة الصولونية

قد يبدو عجباً بعيداً عن المعقول أن يقوم في هذا الدرك الذي تدهورت إليه شئون أثينة والذي يتكرر كثيراً في تاريخ الأمم ، نقول قد يبدو عجباً أن يقوم رجل يستطيع بغير عنف أو خطب قاسية مريرة أن يقنع الأغنياء والفقراء على السواء بأن يسوا أمورهم فيما بينهم تسوية لم تحل دون الفوضى الاجتماعية فحسب بل أقامت فوق ذلك نظاماً سياسياً واقتصادياً جديداً. خيراً من النظام السابق ، بقي ما بقيت أثينة مدينة مستقلة . ألا إن ثورة صولون السلمية لمن المعجزات التاريخية التي تبعث الشجاعة والأمل في النفوس !

كان والد صولون من الأشراف الكرام المحتد ، ومن أرفعهم بيتاً ، وأنقاهم دماً ، ينتهى نسبه إلى الملك كلدروس ، بل إنه كان يتبع نسبه إلى يوسيدن نفسه . وكانت أمه ابنة عم بيسستراتس الطاغية الذي خرق دستور صولون في أول الأمر ثم عاد بعدئذ فثبت دعائمه . وقد انغمس صولون في شبابه فيما كان ينغمس فيه أهل زمانه : فكان يقرض الشعر ويتغنى بملاذ للصدائة اليونانية^(٥٠) ، وفعل ما فعله تيرتاوتوس Tyrtaetus فأثار حساسة

الناس بشعره ودفعهم إلى فتح سلاميس^(٥١) . ثم صلحت أخلاقه في سن الكهولة صلاحاً يتناسب تناسباً عكسياً مع شعره ، فأصبحت أشعاره فاترة ونصائح جيدة . انظر مثلاً إلى قوله في أشعاره : « إن الكثيرين من الناس أغنياء ، ولكنهم لا يستحقون هذا الغنى ، على حين أن من هم خير منهم يقاسون آلام الفاقة . ولكننا لن نستبدل حال هؤلاء الأغنياء بحالنا ، لأن ميزتنا باقية دائمة ، أما ميزتهم فلأنها تنتقل من إنسان إلى إنسان » ، وثروة الغنى « ليست أعظم من ثروة من لا يملك إلا معدته ورثته وقدميه ، وهي الأعضاء التي تأتيه بالسرور ولا تأتيه بالألم ؛ وليست خيراً من محاسن الفتي أو الفتاة أو نضرة شبابه أو شبابها ، أو من وجود ينسجم مع صروف الأيام^(٥٢) » . ولما حدث في أثينة شقاق وانقسام بقى هو على الحياد ، وكان ذلك لحسن الحظ قبل أن تقرر الشرائع المعزوة له أن هذه الحبيطة جريئة^(٥٣) ، ولكنه لم يتردد قط في التشهير بالوسائل التي سلكها الأغنياء لإذلال الفقراء ، ودفعهم إلى أخضاض الفاقة^(٥٤) . وإذا كان لنا أن نأخذ بأقوال أفلوطرخس فإن والد صولون قد « بدد ثروته في التصديق على الناس والإحسان إليهم » . واشتغل صولون بالتجارة وأصبح من التجار الناجحين ذا مصالح كثيرة في أقطار بعيدة ، أكسبته خبرة واسعة وأمكنته من الأسفار والتنقل في بلاد بعيدة ، وكان يسير في عمله على المبادئ التي يدعو إليها في قوله ، واشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة . وكان لا يزال صغير السن نسبياً — في الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين — حين أقبل عليه في عام ٥٩٤ ميثاق الطبقات الوسطى بدعونه إلى قبول ترشيحهم إياه ليكون أركونا بالاسم *teponymos* ، على أن يمنح ساطة مطاوعة لإخاد نار حرب الطبقات ، ووضع دستور جديد للبلاد ، وإعادة الاستقرار إلى الدولة . ووافقت الطبقات العليا على هذا

الاختيار وهى كارهة ، وكان الباعث لها على الموافقة ثقتها بأن رجلا مثله من أصحاب المال لا بد أن يكون رجلا محافظا .

وكانت أعماله الأولى أعمالا بسيطة ولكنها كانت من قبيل الإصلاحات الاقتصادية الشاملة ؛ وقد خيب آمال المتطرفين بإحجابه عن إعادة تقسيم الأراضى . ولو أنه فعل هذا لأدى ذلك إلى الحرب الأهلية وإلى الفوضى التى تدوم جيلا كاملا ، وإلى عودة الفوارق مسرعة ، ولكن صولون استطاع بفضل قانونه الشهير قانون السيسكتيا Seisachtheia أو « رفع الأعباء » أن يلغى كما يقول أرسطاطاليس « جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة »^(٥٥) ، وهكذا حرر أراضى أنكا من جميع الرهون بجرة قلم ، هذا إلى أنه أطلق سراح جميع من استرقوا أو التصقوا بالأرض ، وكل من بيعوا رقيقا فى خارج البلاد وطلب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم ، وحرّم مثل هذا الاسترقاق فى المستقبل . وخلق بنا أن نذكر من خصائص الخلق فى هذا المقام أن بعض أصدقاء صولون قد عرفوا ما يعزّمه من إلغاء الديون فاشترى أراضى واسعة مرتبة ثم احتفظوا بها فيما بعد من غير أن يؤدوا ما عليها من رهون ؛ ويحدثنا أرسطاطاليس بأسلوب تهكمى بأن هذا كان منشأ ثروات طائفة كثيرة العدد « ظن الناس » فيما بعد « أنها ترجع إلى أزمة لا يذكرها الناس لقدم عهدها »^(٥٦) . وقال بعض الناس إن صولون قد تغاضى عن هذا العمل وإنه استفاد منه ، حتى تبين بعدئذ أنه وهو الدائن الكبير قد خسر بقانونه الشيء الكثير^(٥٨) . واحتج الأغنياء بأن هذا التشريع كان فى حقيقة الأمر مصادرة لأموالهم ، ولكنه أصم أذنيه عن مسمع احتجاجهم ؛ ولم تمض عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس ؛ أو كادوا يجمعون ، على أنه أنجى أنكا من الثورة^(٥٩) .

وثمة إصلاح آخر من إصلاحات صولون لا نستطيع أن نتحدث عنه حديثا يقينيا واضحا . وفيه يقول أرسطاطاليس إن صولون قد « استبدل

بالنقود الفيدونية « Pheidonian » — أى النقود الأجنبية التى كانت مستعملة فى أتكا حتى ذلك الوقت — « نظام عوبية النقدى على نطاق واسع وجعل قيمة المينا mina (*) مائة درخمة بعد أن كانت من قبل سبعين^(١٠) » . ويقر أفلوطرخس فى بيانه عن هذا الإصلاح ، وهو أوفى من بيان أرسطاطاليس ، إن صولون جعل المينا تصرف بمائة درخمة بعد أن كانت ثلاثاً وسبعين ، وبهذا أصبحت قيمة القطع التى تدفع أقل مما كانت قبل وإن كان عددها واحداً ، وكان فى هذا نفع كبير للذين يريدون أن يوفوا بديونهم ، ولم يكن فيه خسارة على الدائنين^(١١) . إن أفلوطرخس الظريف الكريم وحده هو الذى استطاع أن يجد طريقة لتضخم العملة بنفذهما المدينين دون أن يلحق الضرر بالدائنين — إلا هذا الضرر الوحيد وهو أن نصف العمى فى بعض الحالات خير بلا ريب من العمى كله (**).

وكان أبقى من هذه الإصلاحات الاقتصادية تلك القرارات التاريخية التى أنشئ بمقتضاها دستور صولون . وقد قدم لما صولون بعفو عام أطلق به سراح كل من سجن ، وأعاد إلى البلاد كل من نفي منها لجرائم سياسية إذ لم تكن هذه الجرائم هى محاولة اغتصاب متاليد الحكم فى البلاد . ثم واصل عمله بأن ألغى إلغاء صريحاً أو ضمناً معظم شرائع دراكون ؛ إلا أنه أبقى منها على القانون الخاص بعقاب القتل^(١٢) وقد طبقت قوانين صولون

(*) انظر قيمة العملة الأثينية فى الفصل الثالث من الباب الثانى عشر من هذا كتاب .

(٥٥) فسر جروت Grote وغيره قول أفلوطرخس إن صولون قد خفض السلطة بمقدار ٢٧٪ من قيمتها فتبصر لأمر للملاك الذين كانوا هم أنفسهم مدينين وحرروا من فوائد الرهون التى كانوا يعتمدون عليها للوفاء بما عليهم من التزامات . غير أن هذا التضخم أو أنه قد حصل لكان ضربة ثأنية شديدة الوقع على الملاك الذين أقرضوا الأجار أموالاً ؛ وإذا كان قد أفاد طائفة ما فهى طائفة التجار لا طائفة الملاك أو الفلاحين الذين أفنى من قبل ما على أملاكهم من رهون . ولعل صولون لم يفكر قط فى تخفيض قيمة العملة ، بل كل ما فعله هو أنه أراد أن يستبدل بالمعيار النقدى الذى وجد أنه ييسر التجارة مع بلاد الإليوبديز معياراً آخر ييسر الأعمال التجارية مع أسواق أيونيا الغنية المطردة الاتساع والتى كان معيار النقد الموبى مستعملاً فيها^(١٣) .

على جميع السكان الأحرار بلا تمييز بينهم ؛ فأصبح الأغنياء والفقراء على السواء مقبدين بقيود واحدة تفرض عليهم عتوبات واحدة . وإذا كان صولون قد عرف أنه لم يستطع تنفيذ إصلاحاته إلا بمعونة طبقتى التجار والصناع ، ورغبة منه في أن يجعل لهم حظاً في حكومة البلاد ، فقد قسم سكان أتكنا أربع مجموعات على أساس ثروتهم : الأولى أصحاب الخمسمائة بشل *oushel* (*) وهم الذين يصل دخلهم السنوى إلى خمسمائة مكيال من الحاصلات أو ما يعادلها *pentacosimedemni* (***) ، والثانية هم الهبي *hippes* الذين يتراوح دخلهم بين ثلثمائة وخمسمائة بشل . والثالثة جماعة الزوجتائى *zeugitai* الذين يتراوح دخلهم بين مائتين وثلثمائة ، والرابعة جماعة الثنئى *hetes* وتشمل غير هؤلاء كلهم من الأحرار . وكانت مظاهر الشرف والتكريم تتناسب مع ما يؤدى من الضرائب فلا يستمتع إنسان بالأولى دون أن يتحمل عبء الثانية ؛ يضاف إلى هذا أن الضرائب التى تؤديها الطبقة الأولى كانت تفرض على ما يعادل دخلها السنوى اثنى عشر مرة ؛ والطبقة الثانية على ما يعادل دخلها عشر مرات ، والثالثة على ما يعادل دخلها خمس مرات فقط ؛ أى أن ضريبة الأملاك كانت في واقع الأمر ضريبة دخل تصاعدية (٦٥) . أما الطبقة الرابعة فكانت معفاة من الضرائب المقررة (المباشرة) . وكانت الطبقة الأولى وحدها هى التى يمكن اختيار رجالها إلى الأركونية وإلى قيادة الجيش ؛ أما الطبقة الثانية فكان من حقها أن يختار أفرادها إلى المناصب وإلى فرق الفرسان فى الجيش ، وكانت الطبقة الثالثة تختص بالعمل فى فرق المشاة الثقيلة ؛ وأما الرابعة فكان يطلب إليها أن تمد الدولة بالجنود اعاديين . وقد أضعف هذا التقسيم الفذ نظام

(*) البشل مكيال إنجليزى يعادل ثمانية جالونات .

(**) كان المدمنس *medimnos* - المادل لبشل ونصف تقريباً - يمد مساوياً في قيمته النقدية للدرخمة .

القرابة الذى كانت تعتمد عليه قوة الأبحاركية ؛ وأحل محله مبدأ جديداً هو مبدأ « التفراسيه Timocracy » ، أى حكم ذوى الشرف أو لمنزلة ، ويحدد لهم صراحة ما لهم من ثروة تفرض عليها الضرائب . وكان حكم « بلوتوقراطى (يتولاه المثلون) » ، شبيه بهذا الحكم منتشرأ خلال القرن السادس كله وبعض القرن الخامس فى معظم المستعمرات اليونانية .

وقد أبقي دستور صولون على رأس الدولة مجلس الشيوخ القديم مجلس الأريوبجوس ، بعد أن جرده من بعض ما كان له من سلطان وما كان يتمتع به من عزلة ، وبعد أن أصبح مفتوح الأبواب لجميع أفراد الطبقة الأولى ، ولكنه ظل مع ذلك صاحب السلطة العليا المهيمن على سلوك الناس وعلى موظفى الدولة^(٦٦) . ثم أنشأ بولا boule أو مجلساً جديداً مؤلفاً من أربعائة عضواً يلى مجلس الشيوخ فى السلطة تختار له كل طبقة من الطبقات الأربع مائة عضو . وكان هذا المجلس يختار جميع الأعمال التى تعرض على الجمعية ويبحثها ويعملها . ووضع صولون فى منزلة أدنى من هذا النظام الأبحركى الأعلى الذى استرضى به الأقوياء ، أنظمت ديمقراطية فى أساسها ، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بحسن النية ورغبة العمل على خير الطبقات الدنيا . فقد أعاد إلى الحياة الإكليزيا leklesia (الجمعية) القديمة التى كانت قائمة فى أيام هومر ودعا كل المواطنين إلى الاشتراك فى مناقشتها . وكانت هذه الجمعية تختار كل عام من بين ذوى الخمسائة بشل الأركونين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعينون من قبل مجلس الأريوبجوس ، وكان من حقها أن تستجوب هؤلاء الموظفين فى أى وقت ، وتتهمهم ، وتعاقبهم ؛ وإذا ما انقضت مدة توليهم مناصبهم ، كانت تبحث فى مسلكهم فى السنة التى تولوا العمل فيها ، وكان لها إذا شاءت أن تحرمهم حقهم فى أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأهم من هذا الحق ، وإن لم يبد وقتئذ كذلك ، مساواة الطبقات الدنيا للطبقات العليا فى حق الاختيار بالقرعة إلى الهيلىايا heliaca ، وهى هيئة من خمسة آلاف

من المحلفين تتألف منهم أنواع المحاكم التي تنظر في جميع القضايا عدا قضايا القتل والخيانة ، والتي يصح أن ترفع إليها الشكاوى من أعمال الحكام على اختلاف أنواعها . ويقول أرسطاطاليس في هذا : « يظن البعض أن صولون قد تعمد إدخال الغموض على قوانينه ليتمكن العامة من استخدام سلطتهم القضائية لتقوية نفوذهم السياسى » ؛ ذلك أنه « لما كان الخلاف بينهم وبين الحكام لا يمكن تسويته بتطبيق حرفية القانون ، فقد كان عليهم أن يعرضوا جميع منازعاتهم على القضاة ، وكان هؤلاء إلى حد ما سادة القوانين^(٦٧) » كما يقول أفلوطرخس نفسه . وقد كان حق الاستئناف إلى المحاكم الشعبية الإسفين الذى وسع نطاق الديمقراطية الأثينية ، كما كان حصنها الحصين فى مستقبل الأيام .

وأضاف صولون إلى هذا التشريع الأساسى ، وهو أهم ما فى تاريخ أثينة من تشريعات ، طائفة أخرى من الشرائع المختلفة يقصد بها معالجة مشاكل الوقت التى لم تكن لها مثل ما للمسائل الأساسية السابقة من خطر . وكان أول ما فعله أن جعل الثروة الفردية التى قررناها العادات قبل معترفاً بها قانوناً . وإذا كان للرجل أولاد كان عليه أن يقسم ثروته بينهم قبل وفاته ؛ فإذا لم يكن له أولاد كان له أن يوصى لأى إنسان بأملكه التى كانت تؤول حتى ذلك الوقت ومن تلقاء نفسها لقبيلته^(٦٨) . فقوانين صواون بدأ حق الوصية وقانونها . وإذا كان هو من رجال الأعمال فقد أراد أن يشجع التجارة والصناعة بمنح حق المواطنة لجميع الأجانب الذين يحذقون حرفة ما والذين يأتون مع أسرهم ليقيموا بصفة دائمة فى أثينة . وحرّم تصدير الغلات الزراعية عدا زيت الزيتون ، وكان يرجو بهذا أن يحول الناس من إنتاج المحصولات الزراعية الزائدة على الحاجة إلى الاشتغال بالصناعة . وسن قانوناً يقضى بأن الولد غير ملزم بمساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة^(٦٩) . ويرجع الفضل فيها نالته الصناعات من تشريف

عظيم ومكانة سامية إلى صولون - لا إلى من جاء بعده من الإثينيين .
ولم يحجم صولون عن انشريع في ذلك الميدان الخطر ميدان الأخلاق .
والآداب العامة . فقد كان يعد الإصرار على البطالة جريمة ، ولم يكن
يسمح للرجل الذى يعيش عيشة الدعارة والفجور أن يتقدم إلى الجمعية
بطلب^(٧٠) ، وجعل البغاء قانونياً وفرض على البغاء ضريبة ، وأنشأ مواخير
عامة ، مرخصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها . وشاد هيكلًا لأفرديتي
بندموس من إيراد هذه المواخير . وقد تغنى بمدحه رجل من معاصريه
يدين بما يدين به لكى Lecky المؤرخ الأيرلندى المعروف فقال :
« مرحباً بك يا صولون ! لقد ابتعت المومسات لحير المدنية ، ولوقاية أخلاق
المدينة الغاصة بالشبان الأشداء ، ولولا تشريعك الحكيم ، لضايق هؤلاء
الشبان فضليات النساء ونشروا في المدينة الفساد والاضطراب^(٧١) » .
وفرض غرامة قدرها مائة درخمة على من يعتدى على عرض امرأة حرة ،
وهى عقوبة أقل كثيراً مما في قوانين دراكون ، ولكنه أباح لمن يمسك
برجل زان متلبس بجريمته أن يقتله لساعته . وحدد بائئات العرائس
ومهورهن لرغبته في أن يكون الباعث على الزواج هو الحب المتبادل
بين الزوجين والرغبة في النسل وتربية الأولاد ، ونهى النساء عن أن
يكون لهن من الملابس أكثر من ثلاث حلى ، وكان في ثقته بقدرته
على تنفيذ قانونه شبيهاً بالأطفال في ثقتهم بقدرتهم على تنفيذ أوامره
ونواهيهم . ولقد طلب إليه أن يسن قانوناً يضيق به على العزاب ، ولكنه
لم يجب هذا الطلب وقال في تبرير عدم إجابته إن « الزوجة عبء ثقيل
الحمل^(٧٢) » . وقد جعل اغتياب الموتى جريمة ، وكذلك كان اغتياب الأحياء
في الهياكل والمحاكم ، ومكاتب الموظفين العموميين ، وفي ساحات الألعاب ؛
ولكنه حتى هو نفسه لم يستطع أن يمسك السنة الناس في أثينة حيث كانت
الغسة والشممة تبدوان كما تبدوان عندنا الآن من مستلزمات الديمقراطية

وقد قرر أن الذين يبقون على الحياء في أوقات الفتن يفقدون حقهم بوصف كونهم مواطنين ، وذلك لأنه كان يرى أن عدم اهتمام الجمهور بالشئون العامة يؤدي إلى خراب الدولة . وحرّم الاحتفالات النخمة ، والقرايبن الكثيرة النفقة ، والندب الطويل في الجنائز ؛ وحدد مقدار ما يدفع مع الأموال من متاع ، وسن ذلك القانون العادل الذي ظل مصدراً لبسالة الأثنيين أجيالاً طويلة وهو القانون الذي فرض على الحكومة تربية أبناء من يقتلون في الحرب وتعليمهم على نفقتها .

وأضاف صولون إلى كل شريعة من شرائعه عقوبات كانت أخف من عقوبات دراكون ولكنها مع ذلك صارمة ، وجعل من حق كل مواطن أن يقاضى أى شخص يرى أنه ارتكب جريمة ما . وأراد أن يعرف الناس قوانينه حق المعرفة وأن يطيعوها ويلتزموا العمل بها فكتبها في ساحة الأركون الدينى (أركون باسليوس) على ملفات أو منشورات خشبية تدار وتقرأ . ولم يدع كما ادعى ليقورغ ومينوس ، وحمورابى ، ونحوما ، أن إلها ما قد أنزل عليه هذه الشرائع ؛ وهذا العمل في حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه . ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكماً بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية « مقام جميل حقاً ، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه »^(٧٢) . وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسو بين الناس في الملك وفي السلطان ، والمحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء ؛ بل إن صديقه أنكركسيس Anachrsis ، الحكيم السكودى صاحب الأطوار الشاذة ، قد سخر من دستورهِ الجليد وقال في ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون ، والحقى يحكمون ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن في وسع الأقوياء والمهرة أن يحوروا أى قانون يسن لكى يتفق مع مصلحتهم الخاصة ؛ ولأن القانون أشبه بيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير . وكان صولون

يتقبل كل هذا النقد بقبول حسن ، ويعترف بما فى شرائعه من نقص ؛ ولما سئل هل سن للأثنيين أحسن الشرائع أجاب « لا ، بل » سنت لهم « خير ما يستطيعون أن يُعطوه » — أى خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتصاربة فى أثينة بأن تقبله كلها فى ذلك الوقت بالذات . وقد اتبع الطريق الأوسط وأبقى بذلك على الدولة ؛ وكان تلميذاً ناجحاً من تلاميذ أرسطاطاليس قبل أن يولد هذا الفيلسوف الاستجيري Stagirite . وتزرو إليه الرواية الشعار الذى نقش على هيكل أبلو فى دلفى وهو metenagan أى لا إفراط فى شىء (٧٥) ، وقد أجمع اليونان على وضعه بين السبعة الحكماء .

وخير شاهد على حكمته هو ما كان لتشريعته من أثر خالد ، فقد استطاع شيشرون ، على الرغم مما حدث فى أثينة من آلاف التغيرات والتطورات ، وبالرغم مما قام فيها من دكتاتوريات وانقلابات سطحية ، استطاع على الرغم من هذا أن يقول بعد خمسة قرون من عهد صولون إن شرائعة كانت لا تزال نافذة فى أثينة (٧٦) . ولقد كان عمله من الوجهة القضائية الحد الفاصل بين حكم المراسيم المتغيرة التى لا عداد لها وبين بداية حكم الشرائع المدونة الدائمة . ولما سأله سائل متى تكون الدولة حسنة النظام ثابتة البنيان أجاب بقوله : « حين يطيع المحكومون الحكم ، ويطيع الحكام القوانين (٧٧) » . وبفضل قوانينه تحرر زراع أتكا من الاسترقاق الإقطاعى ، وقامت فيها طبقة من الزراع الملاك ، كان امتلاكهم الأرض هو الذى جعل الجيوش الأينية الصغيرة قادرة على الاحتفاظ بحرية المدينة أجيالاً طويلة ، ولما اقترح فى نهاية حرب الهلوبيونيز قصر الحقوق السياسية على الملاك الأحرار لم يوجد من الأحرار الراشدين فى أتكا كلها من لا ينطبق على هذا الشرط إلا خمسة آلاف لا أكثر (٧٨) . هذا إلى أن التجارة والصناعة قد تحررتا فى الوقت نفسه من القيود السياسية التى كانت مفروضة عليهما ، ومن العوائق المالية ، وبذلك بدأ فيهما ذلك التطور القوى النشط

الذى أصبحت أثينة بفضلها الزعيمة التجارية في بلاد البحر المتوسط وكانت أرستقراطية الثراء الجديدة ترفع من شأن الذكاء لا من شأن المولد ، وتشجع العلم والتعليم ، وتمهيد السبيل مادياً وعقلياً للأعمال الثقافية العظيمة التى تمت في العصر الذهبي .

ولما بلغ صولون في عام ٥٧٢ سن السادسة والستين أثر الحياة الخاصة ، فاعتزل منصبه بعد أن ظل أركونا خمسة وعشرين عاماً ، وبعد أن أخذ العهد على أثينة ، بأيمان أقسمها . وظفوها ، أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين^(٧٩) ؛ وسافر بعدئذ ليطالع على حضارة مصر والشرق ، ويأرجح أن ذلك الوقت هو الذى قال فيه قائلة الذائعة الصيت - « إلى لتكبر سنى وما فتئت أتعلم »^(٨٠) . ويقول أفلوطرخس إنه درس التاريخ في عين شمس (هليوبوليس) على الكهنة ، ويقال إنه سمع منهم عن أطلنطيس Atlantis القارة الغارقة ، التى قص قصتها في ملحمة لم يسمها ، افتن بها أفلاطون الواسع الخيال بعد مائتى عام من عصره . وسافر من مصر إلى قبرص ووضع القوانين لتلك المدينة التى غيرت اسمها من قبرص إلى Soli تكريماً له^(٨١) . ويصف هيرودوت^(٨٢) أفلوطرخس حديثه مع كروسس ملك ليديا في سرديس - وما أقوى ذاكرتهما التى أمكنتهما من أن يقصا هذا الحديث - فيرويا كيف خرج هذا الرجل صاحب الثروة المنقطعة النظر مزداناً بكل ما عنده ، وسأل صولون ألا يرى أنه ، كروسس ، رجل سعيد ، وكيف أجابه صولون بصفاقته اليونانية قائلاً : « إن الآلهة أيها الملك قد وهبت اليونان كل ما وهبتهم من النعم بقسط معتدل ؛ وكذلك حكمتنا فهى حكمة مريحة معتدلة ، لا حكمة نبيلة ملكية ؛ وإذا ما قلبنا النظر في البلايا الكثيرة التى تكتنف الناس في جميع الظروف فإن هذا الاعتدال

(*) يقص ديوجنيز ليرتييس هذه القصة عن صول في قليقية - وهى البلدة التى كان احتفاظها باللغة اليونانية القديمة إلى أيام الإسكندر سبباً في وجود لفظ *solecism* ومعناه الخطأ في الكلام أو خرق حرمة الآداب .

يتأى بنا عن أن نصطنع الصغار فيما تتمتع به في وقتنا الحاضر ، أو أن نعجب بما يتقلب فيه أى إنسان من سعادة ، قد تبدل إلى نقيضها على مر الأيام . ذلك أن المستقبل المجهول قد يأتي بما لا يحصى من مختلف الحظوظ ؛ ونحن لا نسمى إنساناً سعيداً إلا إذا وهبته الآلهة السعادة إلى آخر أيامه . وإن في وصف الرجل الذى لا يزال في منتصف حياته وأخطارها بأنه سعيد من الخطأ والمخاطرة مثل ما في تنويع المصارع بتاج النصر وإعلان فوزه وهو لا يزال في حلبة الصراع^(٨٢) .

وهذا العرض الشائق لما يطلق عليه كتاب المسرحيات اليونان اسم هيريس hybris - أى الرخاء الوقح - لينم عن حكمة أفلاطون الشاملة . وكل ما نستطيع أن نقوله فيها إنها قد صيغت في ألفاظ أجمل من الألفاظ التى صاغها فيها هيرودوت ، وإن كلا النصين في أغلب الظن من نسج الخيال . وما من شك في أن الطريقة التى مات بها صولون وكروسس تبرر ما في هذه العظة من تشكك . فقد خلع قورش كروسس في عام ٥٤٦ ، وعرف الرجل (إذا صح لنا أن نعيد صياغة عظة هيرودوت في ألفاظ دانتى) وهو في بؤسه مرارة تذكر أيام مجده السعيدة وما كان في تحذير الحكيم اليونانى من صرامة . أما صولون فإنه بعد أن عاد إلى أثينة لياق في الموت ، شهد في آخر أيامه القضاء على دستورهِ ، وإقامة حكم دكتاتورى على أنقاضه ، وإخفاق كل ما بذله من جهود وإن كان إخفاقاً في ظاهر الأمر فحسب .

٤ - دكتاتورية بيسستراتس

لما غادر صولون أثينة - عادت الجماعات المتنازعة التى سيطر عليها مدى جيل كامل إلى ما كانت عليه من دسائس ومشاحنات سياسية متأصلة في طبيعتها . وكان فيها ، كما كان في أيام الانفعالات الشديدة في الثورة الفرنسية ، ثلاثة أحزاب تسعى جاهدة ليكون منها صاحب السلطان الأقوى : « الشاطئ » وبتزعمه تجار الثغور الذين يميلون إلى صولون ؛ و « السهل »

ويترجمه ملاك الأراضي الذين يكرهون صولون ؛ و « الجبل » ويتألف من خليط من الفلاحين وعمال المدن ، وكانوا لا يزالون يطالبون بإعادة توزيع الأراضي . ورضى بيسستراتس ، كما رضى بركليز بعد مائة عام من ذلك الوقت ، أن يتزعم حزب العامة ، وإن كان هو من الأشراف مولداً ، وثروة ، وأخلاقاً ، وميولاً . وكشف في إحدى جلسات الجمعية عن جرح قال إزاء أصابه به أعداء الشعب ، وطلب أن يعين له حرس خاص ؛ واحتج صولون على هذا الطلب ، لأنه كان يعرف ما عليه قريه من دهاء ، وظن أن الجرح قد أحدثه هو في جسمه ، وأن الحرس الخاص سيمهد السبيل إلى الدكتاتورية ، وقال محذراً الأثينيين : « يا رجال أثينة ! إنى أكثر من بعضكم حكمة ، وأكثر من البعض الآخر شجاعة : أكثر حكمة ممن لا يدركون غدر بيسستراتس ، وأكثر شجاعة ممن يدركونها ولكنهم يخوفهم يسكتون عنها^(٨٢) » . ولكن الجمعية رغم هذا التحذير وافقت على أن يكون له حرس مؤلف من خمسين رجلاً ، غير أن بيسستراتس لم يكف بخمسين - بل جمع أربعمائة ، واستولى على الأكروبول ، وأعلن نفسه حاكماً بأمره . ونشر صولون على الأثينيين رأيه فيهم فقال إن « كل واحد منكم يمشي وهو منفرد بخطى الثعلب فإذا اجتمعتم كنتم إوزاً^(٨٣) » ، ثم وضع أسلحته ودرعه على باب بيته إشارة إلى أنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وخص أيامه الباقية بقرض الشعر .

وانحدت قوات أصحاب المال من حزبى الشاطئ والسهل زمناً ما ، وطردت الطاغية من البلاد (٥٥٦) ، ولكن بيسستراتس اصطاح مع حزب الشاطئ سراً ، وعاد إلى أثينة في ظروف يلوح أنها تؤيد رأى صولون في عقلية الجماعة . وأكبر الظن أن حزب الشاطئ قد غص الطرف عن هذه العودة . وأقبلت امرأة طويلة حسناء ملرعة بدرع أثينا إلهة المدينة وعليها ثيابها ، تجلس في مركبة جلسة العظمة والكبرياء ، وتقود جيش بيسستراتس إلى المدينة ، بينما كان المبشرون ينادون أن ربة المدينة وحاميها أخذت تعيد

إليه بنفسها سلطته (٦٥٠) . ويقول هيرودوت في هذا : « ولم يكن لدى أهل المدينة أقل شك في أن هذه المرأة هي الإلهة نفسها ، فخروا سجداً أمامها ، ورضوا بعودة بيسستراتس^(٨٥) » . وانقلب زعماء الشاطئ عليه مرة أخرى ، وأخرجوه من المدينة مرة ثانية (٥٤٩) ، ولكنه عاد إليها من جديد في عام ٥٤٦ . وهزم الجنود الذين سبروا لقتاله ، وبقي في هذه المرة حاكماً بأمره تسعة عشر عاماً ، كادت سياسته وخططه الحكيمه في خلالها أن تكفر عن الأساليب الروائية غير الشريفة التي استولى بها على أزمة الحكم .

وكانت أخلاق بيسستراتس مزيجاً نادراً من الثقافة ، وقوة العقل ، ومن الكفاية الإدارية ، والحادية الشخصية . وكان في وسعه أن يقاتل دون أن تأخذه بأعدائه رحمة ، وأن يعفو عنهم دون ما تردد ؛ وكان في مقدوره أن يعيش في أكثر التيارات الفكرية تقدماً في أيامه ، وأن يحكم دون أن يتأثر بما يتأثر به الرجل المفكر من تردد في الهدف وإحجام عن البت في الأمور . وكان دمث الأخلاق ، رحيماً في أحكامه ، كريماً في معاملته جميع الناس . ويقول فيه أرسطاطاليس : « وكان حكمه معتدلاً ، وسار فيه سيرة السياسي لاسيرة الرجل الظالم المستبد »^(٨٦) . ولم ينتقم إلا من عدد قليل من أعدائه الجدد ؛ ولكنه نفى من البلاد من لم يستطع استرضاءهم من معارضيهم ، وقسم ضياعهم على الفقراء . وأصلح الجيش ، وأنشأ الأسطول ، ليصد بهما الاعتداء من خارج البلاد ؛ وجعل أثينة بمنجاة من الحرب ، ونشر في المدينة التي لم تخرج من غمار المنازعات الطائفية إلا من عهد قريب لواء الأمن والنظام والرضا والطمأنينة ، حتى أصبح من الأقوال التي تألف الأذن سماعها أنه أعاد إليها عصر كرونوس الذهبي .

وأدهش الناس كلهم باحتفاظه بدستور صولون وعدم إدخاله شيئاً على تفاصيله إلا القليل الذي لا يستحق الذكر . ذلك أنه كان يعرف ، كما عرف أغسطس من بعده ، كيف يرين الدكتاتورية ويؤيدها بالمنح والأشكال

الديمقراطية . لقد ظل الأركونون يختارون كما كانوا يختارون من قبل ، وظلت الجمعية ، والمحاكم الشعبية ، ومجلس الأربعائة ، ومجلس شيوخ الأربوبجوس تجتمع وتقوم بواجباتها كما كانت تفعل قبل أيامه ، وكل ما وجد أن اقتراحات پيسستراتس كانت تلقى فيها كلها أذناً واعية . ولما أن اتهمه أحد المواطنين بالقتل مثل أمام مجلس الشيوخ وعرض عليه أن يتقدم للمحاكمة ، فما كان من الشاكى إلا أن قرر أنه لا يستمسك بالتهمة . ورضى الناس بحكمه على مر السنين ، وكان أكثرهم رضا أقلمهم ثراء ، وما لبثوا أن تفاخروا به ، وفى آخر الأمر أحبوه وأولعوا به ، وأكبر الظن أن أثينة كانت بعد صولون فى حاجة إلى رجل مثل پيسستراتس أوفى من الشدة ما يستطيع به أن يستبدل بما كان فى الحياة الأثينية من اضطراب نظاماً واستقراراً ، وأن يعود الناس بالإكراه فى يادى الأمر عادات النظام وطاعة القانون ، وهما للمجتمع البشرى كالهيكل العظمى للحيوان يكسبانه الشكل والقوة وإن لم يكسباه الحياة المبدعة الخلاقة . ولما زالت الدكتاتورية بعد جيل من ذلك الوقت ، بقيت عادات النظام ، وبقي معها الإطار الخارجى لدستور صولون ، لترثهما الديمقراطية . فكان پيسستراتس لم يأت يمحو القانون بل ليوطد أركانه ، وربما كان قد فعل ذلك على غير علم منه .

أما خططه الاقتصادية فقد واصل بها تحرير الشعب ، وهو التحرير الذى بدأه صولون . وقد حل المشكلة الزراعية بأن وزع على الفقراء ما كانت تمتلكه الدولة من الأراضى ، وما كان يمتلكه منها الأشراف الذين نفوا من البلاد ، وهكذا استقر فى الأرض الزراعية آلاف من الأثينيين الذين كانت بطالتهم خطراً على البلاد ، وظلت أنكا بعدئذ قروناً طوالاً لا نسمع فيها عن تدمير بين الزراع^(٨٧) . وأوجد عملاً للمحتاجين فيما شرع فيه من منشآت متسعة النطاق ، فقد أنشأ سلسلة من المجارى لنقل ماء الشرب إلى المدينة ، ومن الطرق المعبدة ، وشاد هياكل عظيمة للآفة ، وشجع استخراج الفضة من مناجم لوريوم Laurium ، وسك

للبلاد عملة جديدة خاصة بها . وجاء بالمال اللازم لهذه الأعمال بأن فرض ضريبة قدرها عشرة في المائة على جميع المحصولات الزراعية ، ويبدو أنه خفض هذه الضريبة فيما بعد إلى خمسة في المائة (٨٨) . ووضع مشروعا لإقامة مستعمرات في النقط الحربية الهامة على الدردنيل ، وعقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول . وراجت التجارة في أيامه رواجاً عظيماً ، وازدادت الثروة ، ولم تكن زيادتها بين عدد قليل من الناس بل شملت الأهلين بوجه عام ؛ فقد أصبح الفقراء أقل فقراً ، ولم يعد الأغنياء أقل غنى ؛ مما كانوا ؛ وامتنع تركيز الثروة الذي كاد يقذف بالمدينة في أتون الحرب الأهلية ؛ وانتشر الرخاء وسنحت له الفرص فوضعت بذلك الأسس الاقتصادية للديمقراطية الأثينية .

وتبدلت أحوال أثينة جسماً وعقلاً في أيام بيسستراتس وولده فقد كانت إلى ما قبل أيامهما بلدة في المرتبة الثانية بين بلاد العالم اليوناني ، تسبقها ميليتس وإفسوس ، وميتليني ، وسرقوسة ، في الثروة والثقافة ، والحيوية والنتاج العقلي . أما في أيامهما فقد قامت فيها أبنية من الحجر والرخام شاهدة بما كانت فيه وقتئذ من بهجة ونعيم ، وزين معبد أثينا القديم القائم على الأكروبول بأن ضم إليه رواق دوري الطراز ، وبنى العمل في هيكل زيوس الأولمبي الذي تزين أعمدته الكورنتية الفخمة ، حتى وهى محطة ، الطريق الممتد بين أثينة ومرفأها . وأقام الألعاب الأثينية الجامعة ، وخلع عليها الصبغة اليونانية العامة ، فأولى المدينة بذلك شرفاً عظيماً ، فضلاً عما بعثه فيها من النشاط روّبتها وجوها أجنبية ، ومباريات وأساليب غير أساليبها ، وفي أيامه أصبح عيد أثينة الجامع عيداً قومياً عاماً للشعب اليوناني كله ، ولا يزال موكبه العظيم يتحياه أماننا على إلفيز البارثون . وقد أقبل على بلاطه ، بفعل منشآته العامة وحياته الخاصة ، المثالون والمهندسون ، والشعراء ، وجمع في قصره مكتبة من أولى المكتبات التي أنشئت في بلاد اليونان . وقد عين لجنة أعطت للإلياذة والأوديسة الصورتين اللتين

نعرفهما بهما الآن . وبفضل إدارته الرشيدة وتشجيعه العظيم ارتقى تسبيس وغيره من الكتاب بالتمثيل من تقليد هزلى ساخر إلى عمل فنى قابل لأن يصل إلى ذروة الكمال فى العهد الثلاثى العظيم من عهود المسرح الأثينى .

ولم يكن « استبداد » بيسستراتس إلا جزءاً من حركة عامة فى المدن التجارية النشيطة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان فى القرن السادس ، والتى كانت تسعى لكى تستبدل بالحكم الإقطاعى على أبدى الملوك الأشراف السلطان السياسى للطبقة الوسطى المتحالفة مؤقتاً مع الطبقات الفقيرة (*) . وكانت أهم الظروف التى مهدت لهذه الدكتاتوريات هى تركيز الثروة فى أيد قليلة تركيزاً وخيم العاقبة ، وعجز الأغنياء عن الاتفاق على وسيلة للتوفيق بينهم وبين غيرهم من الطبقات . ولما لم يكن للفقراء بد من أن يثوروا بين المال والحرية السياسية ، فإنهم كالأغنياء سواء بسواء يؤثرون المال على الحرية ، والحرية السياسية التى تستطيع البقاء وهى التى تشذب بحيث تمنع الأغنياء أن يستخدموا ما عندهم من مقدرة أو دهاء فى تجريد الفقراء مما عندهم ، وتمنع الفقراء أن ينهبوا الأغنياء بعنفهم أو بأصواتهم . ومن ثم كانت لسييل إلى السلطة فى المدن التجارية اليونانية ممهدة سهلة : فاعلى من يريد لها إلا أن يهاجم الأشراف ، ويدافع عن الفقراء ، ويتفاهم مع الطبقات الوسطى (٨٩) . فإذا وصل الطاغية إلى ما يرجوه من سلطان ألقى الديون ، أو صادر الضياع الواسعة ، وفرض الضرائب على الأغنياء ليجول بحصيلتها ما ينشئه من الأشغال العامة ، أو أعاد توزيع الثروة المركزة فى أيد قليلة بوسيلة أخرى غير هذه الوسيلة . وفى الوقت الذى يضم فيه اجهاير إلى جانبه

(*) والكلمة الإنجليزية tyrant أى المستبد أو طاغية كلمة ليدية ، ولعلها مشتقة من اسم قريها Tyrha المدينة الليدية . ومعنى هذا اللفظ هو قلة ، ولله ذملة بعيدة بالنظر Tower الإنجليزية (ولفظه يتربص اليونانى) . ويبدو أن أول من وضعه هو جيجيس Gyges ملك ليديا .

بهذه الوسائل وأشباهاها ، يحصل على معونة رجال الأعمال بتشجيع التجارة عن طريق العملة الرسمية وعقد المعاهدات التجارية الأجنبية ، ورفع منزلة الاجتماعية للطبقات الوسطى . وإذا كان الحاكم بأمره مضطراً إلى الاعتماد على حب الشعب له لا على حقه الموروث في السلطان ، فإن الدكتاتوريات كانت في الأغلب الأعم تتجنب الحروب وتناصر الدين ، وتحفظ النظام ، وتحت على الأخلاق الفاضلة ، وترفع منزلة النساء في المجتمع ، وتشجع الفنون ، وتنفق المال بسخاء في تجميل مدائنها . والطغاة يفعلون هذا كله في كثير من الأحيان وهم محتفظون بصور الحكومة الشعبية وأساليبها في العمل ، ومن ثم كان الناس حتى في عهود الاستبداد يتعلمون طرائق الحرية . وبعد أن تنتهى الدكتاتورية من تحطيم الأرستقراطية كان الشعب يحطم الدكتاتورية ، ولم يكن يحتاج إلى تغييرات كثيرة لجعل ديمقراطية الأحرار قائمة شكلاً وعملاً .

٥ - قيام الديمقراطية

لما توفي بيسستراتس في عام ٥٢٧ ورث أبناؤه السلطة من بعده ، وكانت حكمته قد اجتازت بنجاح كل اختبار إلا اختباراً واحداً ، فقد أخفق في كسب حب أبنائه له . وقد وعد هيباس أن يكون عادلاً عاقلاً في حكمه ، وظل ثلاثة عشر عاماً يسير على نهج أبيه . وكان أخوه الأصغر مولعاً بالحب والشعر ؛ ولم يكن في هذا من الضرر أكثر من تبديد المال في هاتين الهوايتين ؛ وكان هو الذي استقدم أنكريون Anacreon وسميندس Simonides إلى أثينة . غير أن الأثينيين لم يكونوا راضين كل الرضا عن أن يروا أزمة الحكم تنتقل بغير رضاهم إلى ابني بيسستراتس ، وأخذوا يدركون أن الدكتاتورية قد مكنتهم في كل شيء إلا حافز الحرية . على أن أثينة رغم هذا كانت تتمتع بالرفاهية ورغد العيش ، ولولا أن الحب اليوناني الحقيقي يسير في طريق وعرشائك لاستطال

حكم هيباس الهادئ حتى يصل إلى خاتمة السلمية الطبيعية . وكان أرسوجيتون Aristogeiton وهو رجل كهل قد كسب حب الفتي هرمديوس Harmodius وهو وقتئذ في ريعان الشباب ونضارته ، كما يقول توكيديدس^(٩٠) ، ولكن هباركس ، وهو أيضاً ممن لا يستحون أن يحبوا الغلمان ، كان يسعى هو الآخر ليتحب إلى هذا الشاب ؛ فلما سمع أرسوجيتون بهذا اعتزم أن يقتل هباركس ويعمل في الوقت ذاته على حماية نفسه بقلب الحكومة الاستبدادية ، وانضم إليه في هذه المؤامرة هرمودوس وغيره من الأثينيين (٥١٤) واغتالوا هباركس وهو يعد العدة لمكب الألعاب الأثينية الجامعة ؛ ولكن هيباس أفلت منهم ودبر قتلهم . ومما زاد الأمور تعقيداً أن لينا Leana عشيقة هرمديوس ماتت ميتة الشجعان أثناء تعذيبهم إياها ، لأنها أبت أن تغدر بالباقيين من المتآمرين ؛ وإذا كان لنا أن نصدق الرواية اليونانية فلإنها قطعت طرف لسانها وبصقته في وجه معذبيها لتؤكد لهم أنها لن تجيب عن أسئلتهم^(٩١) .

وارتاع هيباس لهذه الثورة ، وإن كان الأهلون لم يؤيدوها تأييداً ظاهراً ، ودفعه هذا الروع إلى أن يستبدل بحكمه الرحيم حكماً طابعه القمع ، والتجسس والإرهاب . وكان في مقدور الأثينيين ، بعد أن نعموا بالرخاء جيلاً كاملاً ، أن يطلبوا الآن ترف الحرية ، وزادت صرخة المطالبة بها دويّاً كلما زاد الطغيان قسوة ؛ واستحال هرمديوس وأرسوجيتون في خيال الشعب شهيدين من شهداء الحرية بعد أن لم يكونا إلا متآمرين يهيكان مؤامرة مبعثها الحب والهيام لا الديمقراطية^(*) . ورأى الألكيونيون في دلفي الذين نفاهم بيسستراتس من البلاد الفرصة سانحة لهم ، فجمعوا جيشاً ، وزحفوا به على أثينة ،

(•) ليس من حق الإنسان أن يعجب من أنهما يمثلان طبقة الأشراف الناصبة ، كما كان بروتس وكاسيس يمثلان هذه الطبقة في رومة . وقد صار بروتس أيضاً بطل ثورة ، بعد أن طمس تاريخه ، مدى ثمانية عشر قرناً .

وأعلنوا أنهم لا يقصدون إلا خلع هيلاس . ورشوا في الوقت نفسه الناطق بلسان الوحى في پيثيا لكى يعلن لكل من يستشيرُه من الاسبارطيين أن من واجب اسبارطة أن تقضى على حكومة الطغيان في أثينة . وقاوم هيلاس قوى الألكميونيين مقاومة عنيفة موفقة ، حتى انضم إليهم جيش لسديمونى ، فانسحب من الميدان واعتصم بالأريوبوجوس . وأراد أن يؤمن أبناءه على حياتهم إذا ما قُتل هو ، فأخرجهم سراً من أثينة ، ولكن الغزاة ألقوا القبض عليهم ، واقتداهم هيلاس بأن قبل النزول عن الحكم والنفى (٥١٠) . ودخل الألكميونيون وعلى رأسهم كليستينز الباسل (*) ، أثينة ظافرين ، وفي أعقابهم الأشراف المنفيون يستعدون للاحتفال باسترجاع أملاكهم وسلطانهم .

واختبر إسجوراس Isagoras فى الانتخابات التى أعقبت هذه الحوادث ليكون كبير الأركونين ، ولكن كليستينز أحد المرشحين المهزمين حرض الشعب على العصيان ، وأسقط إسجوراس ، وأقام دكتاتورية شعبية . وغزا الاسبارطيون أثينة مرة أخرى ، يريدون إعادة إسجوراس إلى منصبه ، ولكن الأثينيين قاوموا الغزو مقاومة عنيفة اضطرت الاسبارطيين إلى الارتداد ، فلما تم ذلك شرع كليستينز ، الشريف الألكيمونى ، ينشئ حكومة ديمقراطية (٥٠٧) .

وكان أول إصلاح له بمثابة معول دك به قواعد الارستقراطية الأتيكية - ونعنى بها القبائل الأربع والبطون الثلاثمائة والستين التى كانت تتولى زعامتها ، جرياً على التقاليد التى دامت مئات السنين ، أقدمُ الأسر وأوفرها ثراء : فقد ألغى كليستينز هذا التقسيم القائم على صلات القرابة واستبدل به تقسيماً آخر إقليميًّا جعل الأهلين بمقتضاه عشر قبائل تتألف كل

(•) وهو حفيد كليستينز طاغية سكيون .

منها من عدد من المراكز يختلف باختلاف القبائل . وأراد أن يمنع التكتلات الجغرافية أو المهنية الشبيهة بأحزاب الجبل ، والشاطئ ، والسهل ، فألف كل قبيلة من عدد متساو من أقسام المدينة وسواحل البحر وداخلية البلاد . وعوض كل الأقسام الجديدة عن القداسة التي كان يخلعها على الأقسام القديمة فأوجد لكل قسم أو قبيلة حفلات دينية واختار أحد الأبطال القدماء وجعله إلهاً أو قديساً راعياً للقسم أو القبيلة . وأصبح الأحرار الذين ولدوا من أصل أجنبي مواطنين من تلقاء أنفسهم في القسم الذي يقيمون فيه ، وقلما كان هؤلاء يتمتعون بحق الانتخاب في العهود الأرستقراطية التي كان حق المواطن فيها يعتمد على حسبه ونسبه ، وبهذا العمل وحده تضاعف عدد الناخبين ، وأصبحوا عوناً جديداً للديمقراطية التي أضحت من ذلك الوقت أقوى أساساً من ذي قبل .

وخولت كل قبيلة جديدة حق ترشيح أحد الاستراتيجي (القواد) العشرة الذين اشتركوا من ذلك الوقت مع القائد الأعلى في قيادة الجيش ، كما خولت أيضاً حق اختيار خمسين عضواً من أعضاء المجلس الجديد المؤلف من خمسمائة عضو وعضو والذي حل الآن مجلس صولون المؤلف من أربعمائة ، وجعلت له السلطات الهامة التي كانت لمجلس الأريونيموس . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون مدة عام واحد بالقرعة لا بالانتخاب ، من قوائم تحوى أسماء جميع المواطنين الذين بلغوا سن الثلاثين ، والذين لم يكونوا قد قضوا في المجلس القديم دورتين . وفي هذا النوع الجديد العجيب من أنواع النظام النبائي استبدل بالمبدأ الأرستقراطي القائم على شرف المحتد ، وبالمبدأ البلوتقراطي القائم على الثراء ، مبدأ الانتخاب بالقرعة ، فأتيح لكل مواطن فرص متكافئة للاقتراع ، ولشغل منصب في أهم فرع من فروع الحكومة وأعظمها سلطاناً . ذلك أن المجلس الذي كان يختار بهذه الطريقة كان يعين جميع المسائل والاقتراحات التي تعرض على الجمعية لإقرارها أو رفضها ، (١٧ - ج ١ - مجلد ٢)

كما كان يحتفظ لنفسه ببعض السلطات القضائية المختلفة الأنواع ، ويصرف كثيراً من الشئون الإدارية ، ويشرف على جميع موظفى الدولة .

وزيد عدد أعضاء الجمعية بمن دخلها من المواطنين الجدد ، وبهذا كانت جلستها التى يحضرها الأعضاء جميعاً تضم ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، وكان من حق هؤلاء جميعاً أن يختاروا للعمل فى البليا أو المحاكم ، أما الطبقة الرابعة أو الثيتيس فقد بقيت كما كانت فى عهد صولون لا يختار منها أحد للمناصب التى يشغلها فرد واحد . وزادت سلطات الجمعية بإنشاء نظام « الحرمان » من عضوية الهيئة الاجتماعية والطرده من البلاد ، وهو الحق الذى أضافه كليستينز الى حقوقها على ما يبدو ليحمى به الجمهورية الناشئة . وبمقتضى هذا الحق الجديد كان فى استطاعة الجمعية ، بناء على اقتراح تقدمه أغلبية أعضائها مكتوب بطريقة سرية على قطع من الفخار ، كان فى استطاعة الجمعية إذا حضرها العدد القانونى وهو ستة آلاف من أعضائها أن تنفى من البلاد مدة عشر سنين أى إنسان ترى هى أنه أصبح خطراً على الدولة . وبهذه الطريقة كان الزعماء الطموحون يضطرون إلى أن يسلكوا مسلك الحذر والاعتدال ، وكان فى استطاعة الجمعية أن تتخلص ممن تظنهم يتآمرون عليها من غير الإبطاء الذى تستلزمه الإجراءات القضائية . وكان كل ما يتطلبه هذا العمل من إجراء أن يسأل أعضاء الجمعية : « هل من بينكم رجل تظنونه شديد الخطر على الدولة ؟ وإذا كان فمن هو هذا الرجل ؟ » وكان فى وسع الجمعية حينئذ أن تقرع على نفى أى مواطن دون أن يستثنى من ذلك صاحب السؤال نفسه(*) . ولم يكن هذا النفى يتضمن مصادرة الملك كما أن المنفى لم يكن يلحقه من جرائمه عار ؛ ولم يكن إلا الطريقة التى تلجأ إليها الديمقراطية لقطع « أطول السنايل »(١٢) . ولم تسمى الجمعية استخدام سلطانها هذا ، ذلك أنها

(*) وقد أنشئ نظام كهذا فى أرجوس ، وبجارسا ، وسرقوسة .

لم تستخدم حقها طوال التسعين عاماً التي مضت بين تقريره وبين إبطال العمل به في أثينة إلا في إخراج عشرة أشخاص من أنكا .

ويقال إن كليسثينز نفسه كان من بين هؤلاء العشرة ؛ ولكننا في واقع الأمر لا نعرف تاريخه في آخر أيامه ، فقد اختفى وضاع في لآلاء أعماله . بدأ عمله بثورة تتعارض كل المعارضة مع الأصول الدستورية ، ولكنه وضع بها رغم معارضة أقوى الأسر في أثينة دستوراً ديمقراطياً ظل نافذاً ، مع بعض تغييرات قليلة ، إلى آخر عهود الحرية الأثينية . على أن الديمقراطية لم تكن كاملة ، لأنها لم تكن تطبق إلا على الأحرار ، وظلت تضع قيداً خفيفاً من الملكية على حق الانتخاب للمناصب الفردية(*) . غير أنها أعطت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية إلى جمعية وإلى محكمة تتكونان من المواطنين ، وإلى حكام كبار تعينهم الجمعية ويكونون مسئولين أمامها ، وإلى مجلس يختار أعضاؤه بأصوات كل من يريد الاقتراع من المواطنين ، ويشترك بالفعل في ممارسة سلطانه الأعلى ثلثهم مدة سنة من حياتهم على الأقل . إن العالم لم يرق قط في تاريخه كله قبل ذلك العهد نظاماً انتخابياً أكثر من هذا النظام حرية ، ولا سلطة سياسية شعبية أوسع من هذه السلطة .

واغتبط الأثينيون أنفسهم أشد الاغتياب بهذه المغامرة التي تستهدف سيادة الشعب . لقد أدركوا أنهم كانوا مقدمين على مغامرة شاقة خطيرة ، ولكنهم أقدموا عليها بشجاعة وأنفة ، وباعتدال وضبط للنفس داما بعض الوقت . ولقد عرفوا من ذلك الوقت لذة الحرية في العمل والقول والتفكير ، وبدأوا يترعمون بلاد اليونان كلها في الآداب والفنون ، بل في السياسة والحرب أيضاً ، وتعلموا أن يطيعوا من جديد قانوناً يعبر عن إرادتهم

(*) اشترط قدر من الملك لممارسة حق الانتخاب في المراحل الأولى من الديمقراطية الأمريكية والفرنسية .

هم أنفسهم ، وأن يحبوا حباً لا يعادله حب من قبله الدولة التي كانت تمثل وحدتهم وسلطانهم ، والتي تعمل لإكمال هذه الوحدة وهذا السلطان : ولما همت أعظم إمبراطورية في ذلك العهد أن تدمر هذه المدن المتفرقة المسماة ببلاد اليونان ، وأن تفرض عليها الجزية تؤديها عن يد إلى الملك العظيم ، نسيت أنها سيقاومها في أتكأ رجال يمتلكون الأرض التي يفلحونها ، وسيطرون على الدولة التي تحكمهم . وكان من حسن حظ بلاد اليونان ومن حسن حظ أوروبا أن كليستينز قد أتم عمله وعمل صولون قبل مرثون باثني عشر عاماً .

الباب السادس

الهجرة الكبرى

الفصل الأول

أسبابها ووسائلها

بقدر ضحينا في سبيل استكمال قصة اسبارطة وأثينة إلى قبيل واقعة مرثون بوحدة الزمان من أجل وحدة المكان . نعم إن مدن بلاد اليونان الأصلية كانت أقدم من المستعمرات اليونانية في بحر إيجه وفي جزائر أيونيان ، وإن هذه هي التي أنشأت في كثير من الحالات المستعمرات التي سنصف حياتها في هذه الفصول ، ولكن عدداً من هذه المستعمرات أضحي بما حدث من انقلاب مريبك في سياق الحوادث السوى أعظم شأنًا من المدن التي أنشأتها وسبقها في ثروتها وفنونها ، وبذلك لم يكن الذين أوجدوا الثقافة اليونانية بحق هم اليونان أهل البلاد التي نسميها الآن بلاد اليونان ، بل كانوا هم الذين فروا أمام الدوربين الفاتحين وحاربوا حرب المستيئين ليثبتوا أقدامهم على السواحل الأجنبية ، وأنشأوا بفضل ذكرياتهم الميسينية وجهودهم العجيبة العلوم والفنون ، والفلسفة والشعر ، التي جعلت لهم قبل مرثون بزمان طويل المقام الأول في العالم الغربي ؛ ثم أورثت المستعمرات أمهاتها من المدائن الأصلية الحضارة اليونانية .

وليس شيء في تاريخ اليونان أدل على حيويتهم من انتشارهم السريع

في جميع بلاد البحر المتوسط (*) . لقد كانوا قبل أيام هومر شعباً بدوياً متتلاً ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم ، ولكن أهم العوامل التي أثارت الموجات اليونانية المتتابعة التي طغت على جزائر بحر إيجه وعلى السواحل الغربية للقارة الآسيوية كانت غزوات الدورين . فقد خرج الناس على أثرها من جميع أنحاء هيلاس يبحثون عن الوطن وينشدون الحرية بعيدين عن قبضة الفاتحين المستعبدين ؛ وكان من العوامل الأخرى التي بعثت على هذه الهجرة ما في الدول القديمة من انقسامات سياسية ومنازعات بين الأسر ، فكان المغلوبون يختارون النفي من البلاد أحياناً ، وكان الغالبون يشجعونهم على الخروج منها أعظم تشجيع ؛ يضاف إلى هذا أن بعض من بقى على قيد الحياة من اليونان الذين اشتركوا في حرب طروادة فضلوا البقاء في آسية ؛ واستقر غيرهم في جزائر بحر إيجه حباً في المغامرات أو عجزاً عن العودة إلى وطنهم بعد أن تحطمت بهم السفن التي كانت تقلهم ، ووجد غيرهم حين عادوا إلى أوطانهم بعد أسفارهم الطويلة التي تعرضوا فيها لأشد الأخطار ، أن عروشهم قد تلت وأن زوجاتهم قد احتضنن غيرهم ، فعادوا إلى سفنهم لينشئوا لهم أوطاناً جديدة ويجمعوا ثروات جديدة في خارج بلادهم (٢) . وعاد الاستعمار على بلاد اليونان الأصيلية ، كما عاد صنوه على أوروبا الحديثة ، بمزايا عظيمة من عدة وجوه . فلقد كان منفذاً للزائدين على طاقة الأرض من السكان وللمغامرين منهم ، وكان بمثابة صمام الأمان من التذمر الزراعى ، وبفضله نشأت أسواق أجنبية لغلات البلاد الأصيلية ، ومستودعات حصينة في مراكز منيعة للواردات من الطعام والمعادن . وأوجد الاستعمار في آخر الأمر إمبراطورية تجارية كان ما فيها من تبادل السلع ،

(*) قارن هذا بقول Plater : « لعل أروع حوادث التاريخ اليوناني كله وأشدها إثارة للنفس هو استعمارهم في بداية أمره ! » .

والفنون ، وأساليب الحياة ، والأفكار ؛ من أقوى العوامل في نشأة حضارة اليونان المعقدة .

وسارت الهجرات في خمسة خطوط رئيسية — إيولية ، أيونية ، دورية ، يكسينية Euxine ، إيطالية . . وبدأت أقدمها في الدويلات الشمالية من أرض اليونان الأصيلة ، وهي التي لاقت أولى الغزوات من الشمال والغرب . فقد سارت على مهل جحافل من المهاجرين من تساليا ، وثيوتس . وبووتية ، وإيتوليا ، لم تنقطع طوال القرنين الثاني عشر والحادي عشر ، مخترقة بحر إيجه ، وزحفت على الأصقاع المحيطة بطروادة ، وأنشأت فيها المدائن الاثنتي عشرة التي تألف منها الحلف الإيولي . وبدأ الخط الثاني من خطوط الهجرة في البلوبونيز حيث فر آلاف من الميسينيين والآخيين على أثر « عودة الهرقليين » ، واستقر بعضهم في أنكا والبعض الآخر في عوبية ، وخرج الكثيرون منهم إلى جزائر سككليس ، وجازفوا باختراق بحر إيجه ، وأسسوا في غربي آسية الصغرى المدائن الاثنتي عشرة التي تألف منها الحلف الأيوني الاثني عشرى Ionian Dodecapolis . وسار في الخط الثالث من خطوط الهجرة الدوريون الذين فاضت بهم أرض البلوبونيز ، فاستقروا في جزائر سككليس ، وفتحوا كريت وسيريني ، وأنشأوا حافلاً من ست مدن دورية Dorian Hexapolis حول جزيرة رودس . وبدأ الخط الرابع في مكان ما من بلاد اليونان واستقر من ساروا فيه على سواحل تراقية ، وأنشأوا مائة مدينة على شواطئ الدردنيل ، والبروبونتس (بحر مرمرة) والبحر اليكسيني (البحر الأسود) . واتجه الخط الخامس نحو الغرب إلى الجزائر التي أسماها اليونان الجزائر الأيونية ، ثم اخترق إيطاليا وصقلية حتى بلغ آخر الأمر غالة وأسبانيا .

وليس في وسع إنسان ما أن يتصور ما قام من العقبات في سبيل هذه الهجرة الطويلة المدى التي دامت مائة عام ، أو كيف ذلت ، إلا إذا كان عَظُوفاً واسع الخيال أو كان قوى الذاكرة لم ينس ما لقيناه نحن الأمريكيين

فى تاريخنا الاستعمارى . لقد كان فى مغادرة الأرض التى خلعت عليها شعائر
القداسة قبور الآباء والأجداد ، والتى يحرسها الأرباب القدامى ، والخروج
إلى أصقاع غربية لا تحمىها فى أكبر الظن آلهة بلاد اليونان ، لقد كان فى
هذا وذلك مغامرة خطيرة الشأن ، ومن أجل هذا أخذ المستعمرون معهم
حفنات التراب من بلادهم الأصلية لينثروها فوق أرض الأقاليم الأجنبية ،
وحملوا فى جد ووقار قبساً من النار من المذابح العامة فى مدافنهم الأولى ليشعلوا
به النار فى مواقع المدن التى أنشأوها فى مستعمراتهم الجديدة . وكانوا يختارون
مواقع هذه المدن على شاطئ البحر أو قريبة منه ، حيث يمكن أن تكون
السفن - وهى الموطن الثانى لنصف اليونان - ملجأ يعصمهم من هجمات
الأعداء براً ؛ وكان خيراً من هذا الوضع عندهم أن تقام فوق سهل ساحلى
تحميها الجبال التى تصد المغيرين من ورائها ، أو على تلى يكون حصناً منيعاً
فى داخل المدينة نفسها ، أو أن تكون ذات ميناء فى البحر يحميه لسان بارز
منه ؛ وخير من هذا وذلك أن يكون هذا الميناء الأمين على طريق تجارى
أو قريباً من مصب نهر تصل إليه السفن حاملة الغلات من داخل البلاد
لتصدر أو يستبدل بها غيرها من الغلات ، فتنتعش ويعمها الرخاء عاجلاً
كان ذلك أو آجلاً . وكانوا لا يكادون يجدون موقعاً صالحاً إلا احتلوه ،
واستولوا عليه بالحيلة إن أفلحت ، فإن لم تفلح سلكوا إليه سبيل القوة . ولم
يكن اليونان فى هذه الظروف يرعون مبادئ أخلاقية أرقى مما نرعاه نحن
الآن(*) ، فكان الفاتحون فى بعض الأحيان يستعبدون السكان الأولين بنفس
الدعوى المضحكة الباطلة التى ادعاها الحجاج المهاجرون طلباً للحرية .
وكان أكثر من هذا حدوثاً أن يتوود المهاجرون الجدد إلى السكان
الأوليين بما يحملونه إليهم من الهدايا ، ويخلبوا لبهم بثقاتهم الراقية ،
ومغازلة نسايتهم ، وعبادة آلهتهم . ولم يكن اليونان المستعمرون يعنون ببقاء
الدم(٣) . وكان فى وسعهم على الدوام أن يجدوا فى مجتمع آلهتهم الكثيرة

إلهاً شبيهاً بإله الوطن الجديد شبيهاً ييسر لهم التوفيق بين الإلهين : ولهم من هذا كله أن المستعمرين كانوا يعرضون ما صنعتهم أيديهم من سلع يونانية على السكان الأصليين ، ويستبدلون بها الحبوب والماشية أو المعادن ، ويصدرون هذه الغلات إلى بلاد البحر المتوسط ، ويفضلون من هذه البلاد أهمهم التي هاجروا منها ، والتي لا تنفك قلوبهم تنطوي لها مدى القرون على حب وولاء يبلغ حد التقديس .

وأخذت هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى تتشكل وتتخذ صورة المدائن اليونانية حتى لم تعد بلاد اليونان مقصورة على شبه الجزيرة البضيقة التي كان يطلق عليها هذا الاسم في أيام هومر ، بل أضحت طائفة من المدن المستقلة مرتبطة بعضها مع بعض برباط غير متين ، ومنتشرة من إفريقية إلى ثراقية ، ومن جبل طارق إلى الطرف الشرقي من البحر الأسود . وكان هذا العهد من أهم العهود في تاريخ نساء اليونان ، فلسنا نجدهن على الدوام أكثر استعداداً مما كن في ذلك الوقت لإنجاب الأبناء . وبفضل هذه المراكز التي تفيض جديداً وحيوية وذكاء نشر اليونان في جميع أنحاء أوروبا الجنوبية منور ذلك الترف المزروع الدال على الخلق والدهاء الذي يطلق عليه اسم الحضارة ، والذي لولاه لما كان للحياة جمال ولا للتاريخ معنى .

الفصل الثاني

السيكلديس الأيونية

إذا سار السائح بحراً من پيريس (پيرية) ، متجهاً نحو الجنوب ، مصاقباً ساحل أتكا ، ثم انحرف نحو الشرق وحول لسان سنيوم ذى الهيكل ، وصل إلى جزيرة كيوس Ceos الصغيرة حيث « كان في يوم من الأيام قانون يحتم على من بلغو الستين من عمرهم أن يشربوا عصير الشكران السام حتى يكفى الطعام من يبقى حياً من الناس^(٤) » إذا قلنا ما لا يقبله العقل اعتماداً على قول استرابون وأفلوטרخس .

وربما كان هذا هو الذى جعل شاعرها العظيم ينثى نفسه مختاراً من كيوس بعد أن جاوز سن الكهولة ؛ ولعله قد وجد أن من العسير عليه أن يبلغ فى موطنه الأصل السابعة والثمانين من العمر التى تقول الرواية اليونانية المتواترة إنه قد بلغها . وقد كان جميع العالم اليونانى يعرف سمندس وهو فى سن الثلاثين ، ولما مات فى عام ٤٦٩ أجمع الناس كلهم على أنه أنبه كتاب زمانه ذكراً . كانت شهرته فى الشعر والغناء هى التى جعلت هپاركس Hipparchus ، وهو ثانى اثنين من الحاكين بأمرهما معاً فى أثينة ، يدعوه إليها ، وقد استطاع فى بلاطها أن يعقد أواصر الصداقة مع شاعر آخر . وبقي حياً بعد الحروب الفارسية واختير عدة مرار ليكتب قبريات الأنصاب التى تقام على قبور المكرمين من الأموات . وعاش فى شبخوخته فى بلاط هيرون Hieron الأول طاغية سرقوسة ، وبلغ من الشهرة وقتئذ حداً أمكنه به أن يعقد الصلح فى ميدان القتال عام ٤٧٥ بين هيرون وثيرون Theron طاغية أكرجاس ، وكان القتال قد أوشك أن ينشب بينهما^(٥) . ويحدثنا أفلوטרخس فى مقاله الشديد الصلة بهذا الموضوع نفسه وعنوانه « هل يجب أن يحكم الناس الشيخوخة » أن سمندس ظل يكسب جائزة

الشعر القنأى والغناء الجماعى حتى بلغ سن الشيخوخة . ولما رضى آخر الأمر
أن يموت دفن فى أكرجاس بمظاهر التكريم الخليفة بالملوك .

ولم يكن سمنيدس شاعراً فحسب ، بل كان فوق ذلك رجلاً ذا شخصية
عجيبة ، وكان اليونان ينددون به ويحبونه لرذائله وشذوذه . وكان مغرمًا بالمال
فلذا غاب عنه الذهب لم يلهم الشعر ؛ وكان أول من كتب الشعر ليؤجر عليه ،
وحجته فى هذا أن من حق الشاعر أن يأكل كما يأكل سائر الناس ؛ ولكن هذه
العادة كانت جديدة فى بلاد اليونان ، وكان أرسطينز يردد غضب الشعب منها ،
ويقول إن سمنيدس « لا يستكف أن يذهب إلى البحر فى محفة ليكسب فيه
فلساً^(١) » . وكان يفخر بأنه اخترع طريقة لمساعدة الذاكرة على الاستظهار
أخذها عنه شيشرون واعترف بفضلها عليه^(٢) . والمبدأ الجوهرى الذى تقوم
عليه هذه الطريقة هو ترتيب الأشياء التى يريد أن يتذكرها متتابعة فى ترتيب
منطقى من نوع ما بحيث يؤدى كل قسم منها بطبيعته إلى القسم الذى يليه . وكان
رجلاً فكها ، انتشرت أجوبته الفكهة المسكتة فى جميع مدن اليونان وتداولها
الناس فيما بينهم تداول النقود ، ولكنه قال فى شيخوخته إنه كثيراً ما ندم
على الكلام وإن لم يندم قط على السكوت^(٣) .

وإننا ليدهشنا أن نجد فى القليل الباقى لدينا من أقوال هذا الشاعر الذى
نال كثيراً من الثناء والعطاء تلك الكتابة التى كانت طابع الكثير من أدب
اليونان بعد هومر - ونقول بعد هومر لأن الناس فى أيامه كانوا أنشط من أن
يكتبوا ، وكانوا أعنف من أن يتضايقوا ويملوا :

« ألا ما أقل أيام الحياة وما أكثر ما فيها من شرور ، ولكن نومنا تحت
أطباق الرى سيكون نوماً سرمدياً ... وما أضعف الإنسان وما أقوى أغلاطه ؛
إن الأحزان تأتى فى أعقاب الأحزان طوال حياته القصيرة ثم يدركه آخر الأمر
الموت الذى لا ينجو منه إنسان ، والذى يرد حوضه الأخبار والأشرا على

السواء ... ما من أحد من الناس وما من شيء من صنعهم خالده ؛ وما أصدق قول شاعر طشيوز Chjos : إن حياة الإنسان كحياة ورقة الشجر الخضراء . لكن الذين يسمعون هذا لا يكاد يذكر منهم أحد ، لأن الأمل قوى في صدور الشبان ؛ فإذا كان الإنسان في نضرة الشباب ، وكان فارغ القلب من المتاعب ، امتلأ عقله بالأفكار الباطلة وظن أنه لن تدركه الشيخوخة ، ولا الموت ؛ وهو لا يفكر في المرض إذا كان صحيح الجسم.. ألا ما أشد حق من يفكرون هذا التفكير ومن لا يعرفون أن أيام شبابنا وأيام حياتنا قصيرة^(٩) . ولم يكن يجيش في صدر سمندس أمل في جزيرة مباركة تخفف عنه آلامه ؛ كما أن أرباب أولبس قد أصبحت كأرباب المسيحية في بعض الشعر الحديث أدوات لقرض الشعر لا وسائل لتخفيف أحزان النفوس . ولما تحده هيرون وطلب إليه أن يحدد طبيعة الله وصفاته ، استمهله يوماً واحداً يعد فيه جوابه ، وفي اليوم الثاني استمهله يومين آخرين ، وكان في كل مرة يضاعف المهلة التي يطلبها ليعده فيها الجواب . ولما طلب إليه هيرون أن يوضح له معنى مسلكه هذا ، أجابه أن هذا الأمر يزاد غموضاً كلما طال تفكيره فيه^(١٠) .

ولم تنجب كيوس سمندس وحده بل أنجبت أيضاً بكليدس Bacchylides ابن أخيه وخليفته في الشعر الغنائي ، وأنجبت في أيام الإسكندر الأكبر إراستراتس Erasistratus العالم الكبير في تشريح الأجسام . ولبس في مقدورنا أن نقول هذا القول نفسه عن جزائر سريفوس Siriphos ، أو أندروس Andros أو تينوس Tenos أو ميكونوس Myconos أو سيكنوس Sicinos أو إيوس Ios . وفي سيروس Syros عاش فرسيديز Pherecydes (حوالي ٥٥٠) ، وقد اشتهر بأنه علم فيثاغورس ، وبأنه أول من كتب من الفلاسفة نثراً . أما ديلوس فكانت مسقط رأس أبلو نفسه ، على حد قول القصة اليونانية . ولقد بلغ من تقديس الناس لهذه الجزيرة ، لأن فيها مزاره ، أن حرموا الموت والولادة داخل

حلودها . فكانت كل امرأة مقبلة على الوضع تنقل منها ، وكان كل إنسان دنت مئنته يبعد عنها ، إلى غيرها من البلاد ، وأخرجت أجسام من كان فيها قبل مولد أبلو من قبورها المعروفة حتى تصبح الجزيرة طاهرة نقية^(١١) . وفي هذه الجزيرة احتفظت أثينة هي وحليفاتها من المدن الأيونية بكنوز حلف ديلوس بعد هزيمة الفرس ؛ وفيها كان الأيونيون يجتمعون كل أربع سنين اجتماعاً يختلط فيه الثنى بالمرح للاحتفال بعيد الإله الجميل . وتصف إحدى ترانيم القرن السابع قبل الميلاد « النساء ذوات المناطق الجميلة^(١٢) » ، والتجار الحريصين الدائنين على العمل في حوانيتهم ؛ والجاهل المصطفة على جوانب الطرق ترقب الموكب المقدس ، وما يقام في المعبد من شعائر وطقوس مهية ، وما يقرب فيه من قربان مقدس ؛ وتصف كذلك الرقص المرح والترانيم الجماعية التي تنشدها عذارى من ديلوس وأثينة اختاروهن للجاهل وحسن أصواتهن ؛ والمباريات الرياضية والموسيقية ، والمسرحيات التي كانت تمثل في الملامى في الهواء الطلق . وكان الأثينيون يرسلون في كل عام بعثة إلى ديلوس تحتفل فيها بمولد أبلو ، فإذا سافرت إليها لا يعدم مجرم في أثينة حتى تعود . وهذا هو سبب الفترة الطويلة التي انقضت بين الحكم على سقراط وبين إعدامه والتي أفاد منها الأدب والفلسفة أعظم فائدة .

ونكسوس Naxos أكبر جوائز السكلديس كما أن ديلوس تكاد تكون أصغرها . واشتهرت في الزمن القديم بخمرها وورخامها ، وأثرت في القرن السادس ثراء أمكنها أن تبني لها أسطولا خاصاً بها ، وأن تكون لها مدرسة خاصة للنحت . وإلى الجنوب الشرقى من نكسوس جزيرة أمرجوس Amorgos موطن سمنيدس Semonides البغيض الذي هجا النساء

هجاء لاذعاً حرص التاريخ الذى كتبه الرجال على الاحتفاظ به إلى هذه الأيام(*) . وإلى الغرب منها تقع جزيرة پاروس وتكاد كلها أن تكون من الرخام ، وأهلها يشيدون منه بيوتهم ، وقد وجد فيها پرکستيلز الحجر النصف الشفاف الذى نحته وصقله وصور فيه الجسم الآدمى صورة يكاد يعتقد الناظر إليها أنها من لحم ودم . وفى هذه الجزيرة ولد فى أواخر القرن الثامن أركلوكوس Archilochus من جارية مشتراة بالمال ولكنه كان أعظم الشعراء المغنين فى بلاد اليونان . وقد قاده حظ الجنود شبالاً إلى ثاسيوس Thasos حيث اشتبك فى حرب مع أهلها ، ولكنه فى أثناء المعركة ألقى بدرعه وأطلق ساقيه للريح لأنه وجدها أعود عليه بالفائدة من الدروع ، وعاش ليسخر من هذا الحرب فيما بعد سخريات مرحة كثيرة . ولما عاد إلى پاروس أحب فيها نيوبولى Neobule ابنة الثرى ليكمبىز Lycambes . وهو يصفها بأنها فتاة متواضعة ، لها صغيرتان تنوسان على كتفها ، ويتحسر كما يتحسر أمثاله فى كل الأزمان ويقول إن كل ما يتمناه أن يلمس يدها(١٤) . ولكن ليكمبىز كان يعجب بشعر الشاعر أكثر من إعجابه بماله ، فقضى على آماله ، فما كان من أركلوكوس إلا أن حمل عليه وعلى نيوبولى وأختها حلة من الهجاء شعواء آثر معها ثلاثهم كما تقول القصة أن يشنقوا أنفسهم . وامتلاً قلب أركلوكوس حقداً على پاروس فترك « نينها وسمكها » وأصبح مرة أخرى جندياً يبحث عن حظه فى ميادين القتال . ولما أن عجزت ساقاه فى آخر الأمر عن أن تسعفاه فى الحرب قتل وهو يحارب النكسين(١٥) .

وتدلنا قصائده على أنه كان يغلظ فى القول لأعدائه وأصدقائه على السواء ، وأنه كان شديد الولع بالزنا يدفعه إلى هذا خيبة آماله فى الحب(١٦) .

(١٤) يشبه صمنيدس النساء فى أيامه بالنماليب والحدير والخنازير ، والبحر المنقلب ، ويقسم أن زوجاً من الأزواج لا يمر عليه يوم واحد فى حياته دون أن توجه إليه زوجته كلمة تأنيب

(١٥) أهل جزيرة نكسوس Naxos .

والصورة التي ترسم له في غيلتنا هي صورة القرصان الملهم والبحار الرخيم الصوت ، ذى اللفظ الحسن في نثره المصقول في شعره ، يعمد إلى البحر العميق(*) من بحور الشعر ، وهو الذى كانت تصاغ فيه الأغاني الشعبية وقتئذ ، فيؤلف به أبياتاً قصيرة لازمة من ثلاثة أوتاد . وهذا البحر العميق ذو الثلاثة الأوتاد هو الذى كتبت به المأسى اليونانية الشهيرة . لكنه لم يقتصر على هذا الوزن بل أخذ يجرب بحوراً أخرى كالبحر الدقييل(٥٩) السداسى الأوتاد والرتوق(+) الرباعى الأوتاد ، وبحوراً أخرى تجاوز العشرة عدا(++) . وهو الذى أدخل في الشعر اليونانى الأوزان التى احتفظ بها إلى آخر الأيام . ولم يبق من قصائده إلا بضعة أسطر قليلة غير كاملة ، ولسنا نجد بداً من قبول قول الأقدمين إنه كان أحب الشعراء اليونان إلى بللى وطنه بعد هومر . وكان هوراس يحب أن يقلد أوزانه المتغيرة ، ولما مثل أرسطينز البيزنطى الناقد المتأغرق العظيم أى قصائد أركلوكوس أحبا إليه ، أجاب عن ذلك السؤال بكلمتين اثنتين عبر بهما عن شعور بلاد اليونان كلها فقال : « أطول القصائد(١٦) » .

وعلى مسيرة باجورة اليوم بالسفينة من ياروس تقع جزيرة سفنوس Siphnos الشهيرة بمناجم الفضة والذهب . وكان الشعب يمتلك هذه المناجم عن طريق حكومته . وكان نتاجها عظيماً استطاعت الجزيرة به أن تعتمد

(٥) البحر العميق Iambic هو المؤلف من فاصلة قصيرة تليها فاصلة طويلة ؛ أو من مقطع لا ذبرة صوتية عليه يليه مقطع ذو ذبرة صوتية . (المترجم)
(٥٥) البحر الدقييل هو الذى يتألف كل وتد من أوتاده من ثلاثة مقاطع أولها قصير ويليه مقطعان طويلان . (المترجم)

(+) والرتوق يتألف كل وتد من أوتاده من مقطعين أولها طويل والآخر قصير . (المترجم)

(++) إذا شاء القارئ أمثلة لهذه البحور فإنه يجدها في قصيدتى Evangeline

Hiawtha لنج فلر Lengfellow ، وفي مقطوعة Biwo blow, thou winter wind لشكسبير ، فالأولى من البحر الدقييل السداسى الأوتاد والثانية من الرتوق الرباعى الأوتاد والثالثة من العميق الثلاثى الأوتاد .

عليه في إقامة الخزانة السفينة في دلي ، وما فيها من تماثيل النسوة اللاتي يحملن على رؤوسهن مواد البناء وهن هادئات مطمئنات ، وأن تقيم آثاراً غيرها كثيرة ، وأن توزع مع ذلك مقداراً كبيراً من المعدن النفيس على الأهلين في آخر كل عام (١٧) . وفي عام ٥٢٤ جاء جماعة من اللصوص من ساموس ونزلوا في هذه الجزيرة وفرضوا عليها جزية تبلغ مائة وزنة — أى ما يساوى ٦٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام . وقبلت بلاد اليونان الأخرى هذه السرقة الجريئة بالاطمئنان والجلد اللذين يقبل بهما الناس في العادة مصائب أصدقائهم .

الفصل الثالث

الفيض الدورى

واستعمر الدوريون أيضاً جزائر سككليس وروضوا طباعهم العسكرية بتلريج جوانب الجبال وتسويتها على مهل حتى تمسك الأمطار الشحيحة فتروى نباتهم وكرومهم . وفى ميلوس ورثوا عن أسلافهم من أهل العصر البرنزى استخراج الحجر الزجاجى الطبيعى ، وبفضلهم أثرت الجزيرة ثراء جعل الأثينيين يبدلون قصارى جهدهم لكسب معونتها فى كفاحهم مع اسبارطة . وسرى هذا فى الفصول التالية من هذا الكتاب . وفى هذه الجزيرة عثر المنقبون على « أفرديتى ميلوس(*) » وهو الآن أشهر نمثال فى العالم الغربى كله .

واتجه الدوريون شرقاً ثم جنوباً وفتحوا ثيرا Thera وكريت ؛ ومن ثيرا أرسلوا بجالية منهم استعمرت سيرينى . واستقر عدد قليل منهم فى قبرص ، وكان فيها منذ القرن الحادى عشر جالية قليلة العدد من اليونان الأركاديين تنازع الأسر الفينيقية القديمة السيادة على الجزيرة . وكان من هؤلاء الملوك الصغار بجمليون الذى تروى عنه القصص أنه أعجب بتمثال من العاج لأفرديتى نحتة هو بنفسه فشغفه حباً ورجا الآلهة أن تهيه الحياة ، فلما أجاب رجاءه تزوج الفتاة التى صنعها بيده^(١٨) . والراجع أن كشف الحديد قد قلل طلب الناس لنحاس قبرص فتخلفت الجزيرة عن ركب التقدم الاقتصادى اليونانى . وكان من أثر تقطيع الأهلىن الأشجار ليصهروا بها فلذ النحاس ، وتقطيع الفينيقيين لهاها لصنع سفنهم ، وتقطيع اليونان الكثير منها لإعداد الأرض للزراعة ، كان من أثر هذا التقطيع أن استحالت الجزيرة

(*) أو ثينوس (زهرة) مملوكا يعرفها الفرييون باسمها المشتق من اسم الإلهة الرومانى واسم الجزيرة الإيطالى .

شيئاً فشيئاً إلى تلك الأرض المهجورة نصف المجذبة كما نراها اليوم . وكان فن الجزيرة ، كما كان أهلها ، في العصر اليوناني خليطاً من آثار الفن المصري والفينيقي واليوناني ، ولم يكن له في يوم من الأيام طابع واحد خاص به (*) .

ولم يكن اللوريون إلا أقلية من سكان قبرص اليونان ؛ أما في رودس ، وجزائر اسبرديس Sporades الجنوبية وما جاورها من أرض القارة الأوربية فقد أصبحوا هم الطبقة الحاكمة . وازدهرت رودس وعمها الرخاء في القرون التي بين هومر ومرثون ، وإن لم يبلغ هذا الازدهار ذروته إلا في العصر الذي اضطبغت فيه تلك البلاد بالصبغة اليونانية . وأنشأ المستعمرون اللوريون على لسان في البحر بارز من قارة آسية مدينة نيلوس Cnidus ؛ وبفضل موقعها هذا أضحت ثغراً صالحاً للتجارة الساحلية . وفي هذه المدينة ولد في مستقبل الأيام بودكسس Eudoxus الفلكي ونياس Ctesias المؤرخ (أو كاتب الخرافات) وسستراتس Sostratus الذي بنى في مستقبل الأيام منارة الإسكندرية . وهنا أيضاً وجد بين أنقاض المعابد القديمة تمثال دمر الأم الحزينة المحفوظ في المتحف البريطاني .

وتقع أمام نيدوس جزيرة كوس موطن أبقرط ، وقد كانت مركزاً لعلم الطب اليوناني ينافس فيه نيدوس . وفيها ولد أبلير Apelles الرسام وثيريكتوس Theocritus الشاعر . وكان على بعد قليل منها وعلى الساحل نفسه مدينة هليكرنسس Halicarnassus مسقط رأس هيرودوت . وقد كانت في أيام انتشار الحضارة اليونانية مقر حكم موسولوس Mausolus الملك الكاري وحبيته أرميزيا . وقد تكون من هذه المدينة ومن كوس ونيدوس ومن مدائن رودس الشهيرة (لندس ، وكبرس ، وبليس) المدائن الست الدورية في آسية الصغرى وهي التي قامت تنافس إلى جبين مدائن أيونيا الاثنتي عشرة منافسة ضعيفة .

(*) انظر الصندوق رقم ١٢ من مجموعة الماديات القبرصية لسنولا Cassola في المتحف الفني بمتروبولك . وقد كشف علماء الآثار الإنجليز في عام ١٨٦٨ لوحة عليها كتابة بفنيتين استطاعوا بفضلها أن يحلوا رموز الكتابة القبرصية ، وتبين لهم وللعالم أنها لغة من اللغات اليونانية تكتب برموز مقطوعة . ولكن نتيجة هذا الكشف لم تفض شيئاً ذا قيمة لتاريخ العالم .

الفصل الرابع

الاثنتا عشرة مدينة الأيونية

١ - ميليتس والموطن الأول للفلسفة اليونانية

كان يمتد إلى الشمال الغربي من كاريا مسافة تسعين ميلا شريط ساحلي جبلي يختلف عرضه بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهو المعروف في الزمن القديم باسم أيونيا . ويصفه هيرودوت بقوله « إن هواه ومناخه أجمل هواه ومناخ في العالم كله » (١٩) . وكانت كثرة مدائنه عند مصاب الأنهار أو عند منتهى الطرق ، وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع مما وراءها من الإقليم إلى شاطئ البحر المتوسط . منه تنقل على ظهور السفن إلى كافة الأنحاء .

وكانت ميليتس ، وهي أبعد المدن الاثنتي عشرة الأيونية جهة الجنوب ، أغنى مدائن العالم اليوناني كله في القرن السادس قبل الميلاد . وقد قامت هذه المدينة في موضع كان يسكنه الكاريون من العهد المينوي ، فلما أقبل الأيونيون من أتكا على هذا المكان حوالي ١٠٠٠ ق . م ، وجلوا فيه الثقافة الإيجية وإن كانت في صورة مضمحلة ، تنتظرهم ليتخلوها بداية متقدمة لحضارتهم . ولم يأتوا معهم بنساء إلى ميليتس فاكثفوا بأن قتلوا الذكران من أهلها وتزوجوا الأرامل (٢٠) . وبدأ امتزاج الثقافتين بامتزاج دماء الأهلين والوافدين . وخضعت ميليتس ، كما خضعت كثرة المدن الأيونية ، في أول الأمر لحكم الملوك الذين يقودون جيوشها في الحرب ، ثم خصعت بعدئذ لحكم الأشراف الذين يملكون الأرض ، ثم لحكم « المستبدين » الذين يمثلون الطبقة الوسطى . ووصلت الصناعة والتجارة إلى فروتتهما في عهد الطاغية ثراسيبولوس Thrasybulus في بداية القرن

السادس قبل الميلاد ، وأثر رخاؤها المطرد أدباً وفلسفة وفناً . وكان الصوف يحمل إليها من أرض الكلا الغنية في الداخل وينسج ملابس في مصانع النسيج القائمة في المدينة . وتعلم التجار الأيونيون عن الفينيقين إقامة المستعمرات لتكون مراكز تجارية ، فأنشأوا العدد الكبير منها في مصر وإيطاليا وعلى شواطئ بحر البروبنتس واليوكسين ، ثم تفوقوا شيئاً فشيئاً على معلمهم في هذا المجال فكان ميليتس وحدها ثمانون مستعمرة من هذه المستعمرات التجارية ، ستون منها في الشمال . وكانت ميليتس تستورد من أيلدوس ، وسيزيكوس Cyzicus ، وسينوب ، وألبيا Olbia ، وتراپيزوس Trapezus ، وديوسكورياس Dioscurias ، الكتان ، والخشب ، والفاكهة ، والمعادن ، وتصدر إليها بدلا منها مصنوعات اليدوية . وأصبح ثراء المدينة وترفها تضرب بهما الأمثال وتعب بهما المدينة في بلاد اليونان بأجمعها . وفاضت خزائن تجارها بالأموال فأخذوا يمولون المشروعات في طول البلاد وعرضها وفي المدينة نفسها ، فكانوا هم آل ميديتشي في عصر النهضة الأيونية .

وفي هذه البيئة المنعشة الباعثة على النشاط الذهني أثمرت بلاد اليونان الثمرتين الأوليين من الثمار التي امتازت بها على غيرها ، وأهدتهما إلى العالم كله — نقصد العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ ذلك أنه حيث تتلاقى الطرق تتلاقى كذلك الآراء والعادات والعقائد المتباينة ؛ وينشأ من اختلافها احتكاك ، فتنازع ، ففاضلة ، فتفكير ؛ فتمحو انحرافات بعضها بعضاً ، ويبدأ التفكير المنطقي السليم . وقد تلاقى في ميليتس كما تلاقى في أثينة رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة ، ذوو نشاط عقلي بعثه التنافس التجاري ، وقد تحرروا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم ، وهياكلهم ، ومذابح آلهتهم . وكان أهل ميليتس أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا ، وبابل ، وفينيقية ، ومصر . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق دخل علم الهندسة المصرية

وعلم الفلك البابلي العقل اليوناني ، ونمت التجارة الداخلية . والعلوم الرياضية ، والتجارة الخارجية ، وعلوم الجغرافية ، والملاحة ، والفلك ، كلها في وقت واحد . وكان الثراء في هذه الأثناء قد أوجد للناس الفراغ ، ونشأت في البلدة أرستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكري لأن من يستطيعون القراءة كانوا أقلية صغيرة في المدينة . ولم يكن يُضَيَّق على عقول الناس وتفكيرهم قيود يفرضها رجال دين أقوياء ، ولا نصوص قديمة منزلة موحى بها ، وحتى القصائد المومرية التي أمست فيها بعد كتاب اليونان المقدس إلى حد ما لم تكن قد اتخذت بعد شكلها النهائي المحدد المعروف ، ولما اتخذته كان ما فيها من أساطير دينية مطبوعاً بطابع التشكك الأيوني والمرح المحوي . ومن ثم أصبح التفكير في هذه المدينة لأول مرة تفكيراً دنيوياً غير ديني يسمى وراء الأجوبة العقلية المنسقة غير المتنافرة لما يحير العقول من مسائل العالم والناس^(٥) .

على أن الفرس الجديد ، وإن كان قد حل محل الفرس القديم ، كانت له أصوله وكان له آباؤه وأجداده ، فقد امتزجت بالفلسفة الواقعية الطيبة التي كانت من خصائص التجار الفيزيقيين واليونان حكمة الكهنة المصريين والمجوس الفرس الأقدمين ، بل لعلها قد امتزج بها أيضاً حكمة المتنبيين الهنود وعلم الكهنة الكلدان وبداية الخليفة المجسدة التي صاغها هزبود شعراً . وقد مهد الدين نفسه السبيل إلى هذا المزج حين تحدث عن موربا moria أو القدر ، وقال إنه هو المتحكم في الآلهة والبشر . وكان هذا بداية فكرة القانون الذي يعلو على الإرادة الشخصية مهما عظمت ، وهي الفكرة التي تدل على الفرق الجوهرى بين العلم والأساطير ؛ وبين الاستبداد والديمقراطية . ولقد تحرر الإنسان من يوم أن اعترف أنه خاضع لحكم القانون ، وأكبر الأسباب التي جعلت اليونان ذوى خطر في

(٥) وقد ظهرت حركات شبيهة بهذه الحركة في الهند والصين في هذا القرن السادس قبل الميلاد .

التاريخ ورفعتهم فيه إلى أعلى مكانة ، هي أنهم ، على قدر ما وصل إليه علمنا ، كانوا أول من اعترف بخضوع الإنسان لحكم القانون وبحقه في البحث الفلسفي وفي اختيار الحكم الذي يرتضيه .

وإذ كانت الحياة تتطور متأثرة بعاملين هما الوراثة والتجديد ، أى بتثبيت العادات وإقرارها وبالتجديد التجريبي ، فقد كان من المنتظر أن تكون الأصول الدينية للفلسفة هي التي تغذيها ، وأن يبقى فيها إلى آخر أيامها عنصر ديني قوى . وقد كان في الفلسفة اليونانية تياران يجريان جنباً إلى جنب : أحدهما تيار طبيعي النزعة ظاهر والثاني تيار صوفي غامض . وقد نشأ الثاني من عهد فيثاغورس ، وشمل پرمنديس وهرقليطس ، وأفلاطون وكلنتيس Cleanthes وانتهى ببلنتينوس Blontinus والقديس بولس ؛ وأما الثاني فقد كان أول رجاله العالمين طاليس وشمل أنكسمندر ، وكرنوفانيس Xenophanes ، وپروتجراس ، وهبقراطس ، ودمقريطس ، وانتهى بأبيقور ولكرتيتوس Lucretius . وكان يحدث من حين إلى حين أن يقوم رجل عظيم - كسقراط وأرسطاطاليس ، وماركس أورليوس - فيمزج التيارين في مجرى واحد يحاول به أن يوضح نظم الحياة المعقدة التي لا تنطبق على قانون . على أن النغمة الغالبة في هؤلاء الرجال أنفسهم كانت هي حب اتباع العقل ، وهي النغمة التي يمتاز بها التفكير اليوناني .

ولد طاليس حوالي ٦٤٠ ق . م وأكبر الظن أنه ولد في ميليتس وكان الدائر على ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين^(٢١) ، وتلقى معظم تعليمه في مصر والشرق الأدنى . وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب . ويبدو أنه لم يشتغل بالأعمال التجارية والمالية إلا بالقدر الذي أمكنه أن يحصل به على طيبات الحياة العادية . وليس من يجهل قصة مضارباته في معاصر الزيت^(٢٢) . ثم صرف باقي

(٢١) وهامى ذي القصة على لسان أرسطو نفسه ؛ يقولون إن طاليس أدرك ب مهارته في علم النجوم (انلك) أن محصول الزيتون سيكون موفوراً في ذلك العام فاستأجر في الشتاء =

وقته في الدرس وانهمك فيه انهماكا توحى به قصة سقوطه في حفرة وهو يرقب النجوم . وكان رغم عزلته يهتم بشئون المدنية ، يعرف الطاغية ثراسيبولوس معرفة وثيقة ، ويدعو إلى تكوين حلف من الدول الأيونية للدفاع عن نفسها ضد ليديا وفارس (٢٣)

وتعزو إليه الروايات المتواترة كلها إدخال العلوم الرياضية والملكية إلى بلاد اليونان . وتروى إحدى القصص القديمة أنه وهو في مصر قدر ارتفاع الأهرام بقياس ظلها في الساعة التي يكون فيها ظل الإنسان مساوياً لطول قامته . ولما عاد إلى أيونيا واصل دراسة الهندسة النظرية التي خلبت له بمنطقها السليم ، وما فيها من استدلال علمي ، وشرح كثير من النظريات التي جمعها إقليدس فيها بعد (*) . وكما أن هذه النظريات كانت الأساس الذي قام عليه علم الهندسة النظرية اليونانية ، كذلك كانت دراسته لعلم الفلك الأساس الذي قام عليه هذا العلم في الحضارة الغربية ، بعد أن خلاصه من التنجيم الذي أدخله فيه الشرقيون . وكانت له بعض الأرصاد الصغرى ، وقد دهشت بلاد أيونيا بأجمعها حين أفلح في التنبؤ بخسوف الشمس في الثامن والعشرين من شهر مايو عام ٥٨٥ ق . م ٢٥ ، والراجع أنه قد بنى هذا التنبؤ على أساس السجلات المصرية وعلى حساب البابليين . أما فيما عدا هذا فإن نظريته في نظام الكون لا ترقى كثيراً على ما كان

قبل أن يحزن موعد جنهيه جميع معاصر الزيت في ميليتس وطشيوز بإيجار منخفص لأنه لم يجد وقتئذ أحداً يذاقه . ولما حل موعد عمر الزيت وتقدم الكثيرون من الناس يطلبون هذه المعاصر أجراها لهم بالشروط التي يرتضيها ، وجمع بهذه الطريقة أموالاً طائلة وأثبت لهم أن من اليسر حل الفلاسفة أن يفتنوا إذا شاءوا .

(*) وهي : أن قطر الدائرة يقسمها قسمين متساويين ، وأن الزاويتين المجاورتين لقاعدة المثلث المتساوي الساقين متشابهتان (يقصد متساويتين) ، وأن الزاوية المقابلة لربع الدائرة زاوية قائمة ؛ وأن الزاويتين المتقابلتين بالرأس الناشئتين من تقاطع خطين مستقيمين متساويتان ؛ وأن المثلثين المتساويين إذا تساوت في أحدهما زاويتان و ضلع بينهما في المثلث الثاني (٢٤) .

شائعاً عن هذا النظام عند المصريين واليهود ، فقد ظن أن العالم يتكون من نصف كرة يتركز على منبسط من الماء لا نهاية له ، وأن الأرض قرص مستو طاف على السطح المستوي في داخل هذا الجسم النصف الكروي . وبذلك رنا هذا بقول جيته Goethe إن الإنسان يشترك في رذائله (أو أخطائه) مع أهل زمانه ، أما فضائله (أو فراسته) فإنه يتفرد بها دون سائر الناس .

وكما أن بعض الأساطير اليونانية قد جعلت أقيانوس Oceanus والد الخلائق بأجمعها ، فكذلك جعل طاليس الماء المبدأ الأول لجميع الأشياء ، وشكلها الأصلي ومصيرها النهائي . ويقول أرسطو إنه ربما جاء بهذا الرأي بعد أن شاهد أن غذاء كل شيء رطب وأن ... بدور كل شيء ذات طبيعة رطبة ؛ .. وأن ما يتولد منه كل شيء هو دائماً مبدؤها الأساسي^(٢٧) . أو لعله كان يعتقد أن الماء هو الصورة الأولى أو الأساسية من صور المادة الثلاث - الغازية والسائلة والصلبة - التي يمكن أن تتحول إليها المواد كلها من الوجهة النظرية ؛ وليس أهم ما في آرائه قوله إن الماء أصل كل شيء ، بل أهمها إرجاعه الأشياء جميعها إلى أصل واحد ؛ ولقد كان ذلك أول قول بوحدة المادة في التاريخ المدون كله . ويصف أرسطو آراء طاليس بأنها آراء مادية ؛ ولكن طاليس يضيف إلى أقواله السابقة أن كل جزء في العالم حي ، وأن المادة والحياة وحدة لا ينفصل أحد جزأها عن الآخر ، وأن في النباتات والمعادن « نفساً » خالدة كما في الحيوان والإنسان ، وأن القوة الحيوية تتغير صورتها ولكنها لا تموت أبداً^(٢٨) . وكان من عادة طاليس أن يقول إنه لا يوجد فرق جوهري بين الأحياء والأموات . ولما أراد بعض الناس أن يضايقه بسؤال إياه لم إذن يؤثر الحياة على الموت أجابه بقوله : « ذلك لأنه لا فرق بينهما »^(٢٩) .

ولما بلغ سن الشيخوخة أجمع مواطنوه على تلقيبه بلقب الحكيم Sophos ، ولما اعترمت بلاد اليونان أن تخلد أسماء حكمائها السبعة ، وضعت اسم طاليس

على رأسهم . وسئل طالبس عن أصعب الأشياء ، فأجاب بقوله الحكيم الذي جرى مجرى الأمثال : « أن تعرف نفسك » . ولما سئل عن أسهل الأشياء قال : « أن تسدى النصح » وسئل ما هو الله ؟ فأجاب « هو ما ليس له بداية ولا نهاية » . وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب : « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله »^(٢٠) . ويقول ديوجينيز ليرتيوس Diogenes Laertius^(٢١) : إنه مات « وهو يشاهد مباراة في الألعاب الرياضية . بعد أن أضناه الحر والظما والتعب لأنه بلغ سن الشيخوخة » .

ويقول استرابون^(٢٢) . إن طالبس كان من كتب في الفيزيولوجيا أى علم الطبيعة (physics) أو مبدأ وجود الأشياء وتطورها . وقد تقدم علمه تقدماً عظيماً على يد تلميذه أنكسندر ؛ وقد عاش بين عامى ٦١١ ، ٥٤٩ ق . م ولكنه نشر على الناس فلسفة تشبه شهاً عجيباً الفلسفة التى نشرها هربرت اسبنسر Herbert Spencer فى عام ١٨٦٠ م وهو يهتز طرباً من قوة ابتكاره الفطين . ويقول أنكسندر إن المبدأ الأول كان لانهاية غير محددة واسعة الأرجاء (Apeiron) ، أى كتلة غير محددة ليست لها صفات خاصة ، ولكنها تنمو وتتطور بما فيها من قوى ذاتية ، حتى نشأت منها جميع حقائق الكون المختلفة^(*) . وهذه اللانهائية الحية السرمدية التى لا صلة لها بالشخصية ولا بالأخلاق هى الإله الذى لا إله غيره فى نظام أنكسندر ؛ هى الواحد السرمدى الذى لا يحول ، والذى يختلف كل الاختلاف عن الكثرة الفانية المتغيرة التى فى عالم الأشياء . وهنا تلتقى هذه الفلسفة بآراء المدرسة الإليتيّة Elastic فيما وراء الطبيعة — وهى أن الواحد السرمدى دون غيره هو الحقيقة . ومن هذه اللانهائية التى لا خواص لها تولد العوالم الجديدة فى تتابع لا ينقطع أبداً ، وإلها تعود هذه العوالم فى تتابع

(*) قارن هذا بما عرف به اسبنسر التطور إذ قال إنه قبل كل شئ، تحول من التجانس غير المترابط غير المحدد ، إلى التباين المترابط المحدد^(٢٣) .

لا ينقطع أبداً ، بعد أن تتطور وتموت . وتحتوى اللانهاية الأزلية على جميع الأضداد — الحر والبرد ، والرطوبة والجفاف ، والسيولة والصلابة والغازية . . . ، وهذه الصفات الإمكانية تصبح فى حالة التطور حقائق واقعية ، وتنشأ منها أشياء محددة مختلفة ؛ وفى حالة الانحلال تعود الصفات المتضادة مرة ثانية إلى اللانهاية (ومن هذه الآراء استمد هرقليطس واسينسر آراءهما) . وفى قيام العوالم وسقوطها على هذا النحو تصطرع العناصر المختلفة بعضها مع بعض ، ويعتدى بعضها على بعضها اصطراع الأضداد المتعادية ، ويكون جزاؤها على هذا التضاد هو الانحلال ؛ « فتفنى الأشياء فى الأشياء التى ولدت منها » .

ولا يسلم أنكسمندر هو الآخر من الأوهام الفلكية التى يمكن أن تغتفر فى عصر لا توجد فيه آلات ، ولكنه تفوق على طاليس بقوله إن الأرض اسطوانة معلقة بغير شئ فى وسط الكون لا يمسكها غير وجودها على أبعاد متساوية من جميع الأشياء^(٢٤) . وهو يرى أن الشمس والقمر والنجوم تتحرك فى دوائر حول الأرض . وأراد أنكسمندر أن يوضح هذا كله فصنع فى اسبارطة مزولة (gnomon) — وأكبر الظن أنه قلدها فيها نماذج بابلية — أظهر فيها حركة الكواكب ، وميل الفلك^(*) وتعاقب الانقلابين والاعتدالين والفصول^(٢٥) . وقد استطاع بمعاونة زميله ومواطنه هكياتيوس Hecataeus أن يجعل الجغرافية علماً ، وذلك برسمه أول خريطة معروفة للعالم المعمور^(**) .

ويقول أنكسمندر إن الدنيا فى أول صورة لها كانت فى حالة الميوعة ، ولكن الحرارة الخارجية جففت بعضها فكان أرضاً ، وبخرت بعضها فكان سحاباً ؛

(*) ودائرة فلك البروج هى الدائرة الكبرى التى تدور فيها الشمس فى حركتها الظاهرية السنوية فى السماء . وإذا كان مستوى الفلك هو أيضاً مستوى مدار الأرض ، فإن ميل دائرة البروج هو زاوية الميل (٢٣°) بين مستوى دائرة خط الاستواء الأرضى ومستوى مدارها حول الشمس .

(**) لقد رسم المصريون قبله خرائط ولكنها كانت خرائط لأقاليم قليلة محدودة .

وإن اختلاف الحرارة في جوها الذي تكون به هذه الطريقة قد نشأت عنه حركة الرياح . ونشأت الكائنات الحية بمراحل تدريجية من الرطوبة الأولى ، وكانت الحيوانات الأرضية في بادئ الأمر سمكاً ، ولم تتشكل بأشكالها الحالية إلا بعد أن جفت الأرض . وقد كان الإنسان هو الآخر سمكة ولا يمكن أن يكون من أول ما ظهر على الأرض قد ولد بالصورة التي هو عليها الآن وإلا لكان عاجزاً عن الحصول على طعامه ، ولهلك^(٣٦)

وكان أنكسيمينز Anaximenes تلميذ أنكسمندر أقل منه شأناً ، والمبدأ الأول عنده هو الهواء . ومن الهواء تنشأ جميع العناصر الأخرى بالتلطيف (تقليل الكثافة) وبه تحدث النار ، وبالتكثيف وبه تحدث على التوالي الرياح والسحب والماء والأرض والحجارة . وكما أن الروح وهى هواء ، تمسك أجسامنا فكذلك يكون هواء العالم (النوما pneuma) هو روحه السارية فيه كله أو نفسه أو الإله^(٣٧) تلك فكرة لا تنال منها جميع أعاصير الفلسفة اليونانية ، وتجدها عاصماً في الرواقية والمسيحية .

ولم تنتج هذه الأيام أيام مجد ميليتس وعزتها أقدم ما أنتجته الفلسفة اليونانية فحسب ، بل أنتجت أيضاً أقدم النثر وأقدم التاريخ المدون في بلاد اليونان كلها^(*) . ويبدو أن قول الشعر أمر طبيعي في شباب الأمة حين يكون الخيال فيها أعظم من المعرفة وحين يجسد الإيمان القوى قوى الطبيعة في الحقل ، والغابة ، والبحر ، والجو . وإن من أصعب الأشياء على الشعر تجنب تجسيد القوى ومنحها روحاً ، كما أن أصعب الأشياء على هذا التجسيد وذلك المنح أن يتجنبنا الشعر . أما النثر فهو صورة المعرفة التي تخلصت من الخيال ومن الإيمان ، وهو لغة الشئون العادية الدنيوية غير الدينية ، وهو رمز نضوج الأمة والشاهد على انقضاء عهد

(*) على القارئ الحكيم أن يضع لفظ المعروف بعد كلمتي أقدم وأول وأشأها .

شبابها . وقد ظل الأدب اليوناني كله تقريباً إلى العصر الذي نتحدث عنه (٦٠٠ ق . م) ، ونقل التعليم أخلاق اليونان وقصصهم شعراً لا نثراً ، بل إن الفلاسفة الأولين أمثال زنوفانيز ، وهرميدس ، وأنبدقليز قد ألبسوا نظامهم الفلسفي ثوباً شعرياً ؛ وكما أن العلم كان في بداية الأمر صورة من صور الفلسفة تكافح لتحرر نفسها من الصور العامة النظرية غير القابلة للتحقيق ، كذلك كانت الفلسفة في أول عهدها صورة من صور الشعر ، تحاول أن تتحرر من الأساطير ، وتجسّد القوى ومنحها روحاً ، ومن التشايب والاستعارات (*) .

ولذلك كان من الحوادث الهامة في تاريخ العلم أن يشرح فرسيدس Pherecydes وانكسمندر آراءهما نثراً . وقد بدأ رجال غيرهما في ذلك العصر نفسه يسميهم اليونان لوجوجرافوى أى الكتاب العقليين أو كتاب النثر ، بدعوا يسجلون بهذه الوسيلة الجديدة تواريخ دولهم ؛ فكتب كدموس Cadmus (٥٥٠) تاريخاً لميليتس ، وكتب يوجايون Eugaeon تاريخاً لباموس ، وكتب زانثوس Xanthus تاريخاً لليديا . وفي أواخر ذلك القرن ارتقى هكتيوس Hecataeus الميليقي بالتاريخ والجغرافية رقباً عظيماً في كتابين يعدان فتحاً جديداً في هذين العلمين هما *Historiai* أو البحوث والجلس *Periodos* أو دورة الأرض . وقد قسم الكتاب الثاني الكوكب الأرضي قارتين هما أوروبا وآسية وضم مصر إلى آسية . وإذا كانت الأجزاء الباقية من هذا الكتاب حقيقية ؛ فإن فيها معلومات قيمة عن مصر سطا هيروdot على الكثير منها دون أن يعترف بهذا . وقد بدأ كتاب البحوث بهذه العبارة القوية الدالة على تشككه : « إني أكتب ما أرى أنه حق ؛ لأن روايات اليونان في نظري كثيرة وسخيفة » . وكان هكتيوس يعد أقوال هومر تاريخاً وأخذ منها

(*) للكاتب الإنجليزي لورد سكول بحث طريف في هذا الموضوع تضمنت مقالته من ملتن وقد ترجمنا هذا المقال إلى العربية . (المترجم)

عدة قصص وهو مغمض العينين ، على أنه قد حاول محاولة شريفة أن يميز الحقائق من الأساطير ، وأن يتعقب الأنساب الحققة ، وأن يحاول الوصول إلى تاريخ اليونان يمكن الركون إليه . وجلة القول أن كتابة التاريخ اليوناني كانت قديمة العهد حين ولد « أبو التاريخ » .

وكان هكتيوس وغيره من الكتاب العقليين الذين ظهرُوا في هذا العصر في معظم مدن اليونان ومستعمراتهم يفهمون من كلمة هستوريا(*) بحث الحقائق المتصلة بأية مادة من المواد العلمية ، سواء كانت متصلة بالعلوم الطبيعية أو بالفلسفة أو بكتابة التاريخ بمعناه الحديث . وكان لهذا اللفظ في أبونيا معنى يثير الريبة في نفوس أهلها ؛ فقد كانوا يفهمون منه أنه يراد به أن يستبدل بقصص المعجزات الخاصة بالآلهة وبالأبطال أنصاف الآلهة ، سجلات للحوادث الدنيوية وتفسير عقلية لعلل هذه الحوادث ونتائجها . وقد بدأت هذه العملية بهكتيوس ، وتقدمت على يد هيرودوت ، وبلغت غايتها على يد توكيديدس .

ويرتبط فقر النثر اليوناني قبل هيرودوت بهزيمة ميليتس وتغلب المغيرين عليها وفقرها في العصر الذي بدأ فيه النثر . ذلك أن الاضمحلال الداخلى قد عهد السبيل للفاتحين كما جرت العادة في مختلف العصور ، وقد كان ازدياد الثراء وانتشار الثرف سبباً في انغماس الناس في الملاذ ، وبدت الرواقية والوطنية في نظر الناس من المبادئ العتيقة السخيفة ؛ وجرت على ألسنة اليونان تلك العبارة التي يسخرون بها من أهل ميليتس : « لقد كان الميليديون شجعاناً في يوم من الأيام » (٢٨) . واشتدت المنافسة بين الأهلين للحصول على طبيبات الحياة حين فقد الإيمان القديم قدرته على تخفيف النزاع بين الطبقات بين مبادئ الرحمة والعدالة في

(*) وهى مشتقة من *histor* أو *istor* ومعناها عارف ، وهى تشير في النطق لكلمة *id-ter* المأخوذة من *id* في *eidenaei* بمعنى يعرف . قارن هذا أيضاً بكلمة *wit* الإنجليزية في *wisdom* . وكلمة *Story* اختصا لكلمة *history* .

نفوس الأقوياء والسلوى في نفوس الضعفاء ؛ وأصبح الأغنياء وهم عماد الدكتاتورية الأبخاركية حزباً متحداً يقف في وجه الفقراء المطالبين بالديمقراطية ؛ ولكن الفقراء استولوا على زمام الحكم ، وطرّدوا الأغنياء من البلاد ، وجعّوا من بقي من أبناء الأغنياء في أماكن الدّراس ، وأطلقوا عليهم الثيران فداسّتهم بأقدامها وقضت عليهم جميعاً . ثم عاد الأغنياء وقبضوا على أزمة الحكم وطلّوا جلود زعماء الديمقراطية بالقار وأحرقوهم . أحياء^(٣٩) ؛ وستقال هنا هذه القصة في مستقبل الأيام . ولما شرع كروميس في عام ٥٦٠ يخضع إلى حكم ليديا ساحل آسية الصغرى اليوناني الممتد من نيدس إلى الهلسينث (الدردنيل) حافظت ميليتس على استقلالها بامتناعها عن مساعدة أخواتها من الدول اليونانية . ولكن قورش فتح ليديا في عام ٥٤٦ ولم يجد صعوبة كبيرة في الاستيلاء على مدن أيونيا التي مزقتها الانقسامات الداخلية ، وضمها إلى الدولة الفارسية ، وانقضى بذلك عصر ميليتس المجيد . إن العلم والفلسفة في تاريخ الدول يصلان إلى غايتهما بعد أن يبدأ فيها الانحلال ، ذلك أن الحكمة نذير الموت .

٢ - بوليكراتيز الساموسى

على شاطئ الخليج في مقابل ميليتس ، بالقرب من منافذ نهر الميندر Maender كانت تقوم بلدة مبوس المتواضعة أشهر مدائن البرينى Priene ، وكان يسكنها في القرن السادس يياس Bias أحد الحكماء السبعة ، ونقول سبعة وإن كان هرمبوس Hermippus يقول إنهم سبعة عشر ، لأن اليونان اختلفوا في أسمائهم فوضع كل منهم أسماء غير التي وضعها الآخر . ولكن معظمهم متفقون على طاليس ، وصولون ؛ ويياس ، وبتكوس Pittacus الميليئى ، وهريندر الكورنثى ، وشيلون Chilon الأسبارطى ، وكليوبولوس Cleobolus اللندى (Lindus) من أعمال رودس . وكانت بلاد اليونان تعظم الحكمة كما

تعظم الهند الدين، وكما عظمت إيطاليا في عهد النهضة العبقريّة الفنيّة ، وكما تعظم أمريكا الناشئة بطبيعة الحال المشروعات الاقتصادية . فأبطال اليونان لم يكونوا قديسين أو فنانين أو من أصحاب الملايين ، بل كانوا حكماء ، ولم يكن أجل حكمائهم هم أصحاب النظريات العلميّة ، بل كانوا رجالاً جعلوا لحكمهم عملاً جدياً نشيطاً في العالم . وأصبحت أقوال هؤلاء الرجال حكماً وأمثالاً يتناقلها اليونان ، وكانت في بعض الأحيان تنقش على جدران معبد أبلو في دلفي . فقد كان الناس مثلاً مولعين بتريديد قول بياس ، إن أبأس الناس من لم يعرف كيف يصبر على البؤس ، وإن على الناس أن ينظموا حياتهم كما لو كانوا قد قدر عليهم أن يعيشوا طويلاً أو قصيراً ، وإن الحكمة يجب أن يعتز بها وأن تكون وسيلة للانتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، لأنها أبهى من كل ما عداها مما يملكه الإنسان (١٠) .

وإلى غرب يريفي تقوم جزيرة ساموس ثانية جزائر أيونيا في الاتساع . وكانت حاضرتها تقوم على ساحلها الجنوبي الشرقي ، وكان الإنسان إذا ما دخل مرفأها الأمين ، ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التي يتألف منها أسطول الجزيرة ، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل . وكان أول ما يشهده الأرصفة والحوانيت ، ثم يرى بعدئذ البيوت ، ثم حصنها القائم على الرتبة ، ثم هيكل هيرا العظيم ، ومنهم وراء هذه كلها سلاسل متتابعة من الجبال والقلل تعلو إلى خمسة آلاف قدم . لقد كان ذلك بلا ريب منظرأً يثير الحماسة الوطنية في قلب كل ساموسي .

ووصلت ساموس إلى أوج عظمتها في الربع الثالث من القرن السادس تحت حكم بوليكراتيز Polycrates . وقد استطاع هذا الطاغية بفضل المال الذي تدره عليه رسوم الميناء أن يقضى فترة من البطالة كانت تنذر الجزيرة بأوخم العواقب ، فوضع خطة لإقامة منشآت عامة أثارت إعجاب هيرودوت . وكان أعظم مشروعاته نفق في جبل ينقل الماء إلى المدينة مسافة ٤٥٠٠ قدم . وفي

وسعنا أن نستدل بعض الاستدلال على مهارة اليونان في الرياضة والهندسة إذا عرفنا أن التقين الذين بدأ من اتجاهين متضادين التقيا في وسط النفق ، وأن الخطأ في تقديرهم عند التقائهما لم يزد على ثمانى عشرة قدماً في الاتجاه وعلى تسع أقدام في الارتفاع (١٠) (١١) .

وكانت ساموس مركزاً من مراكز الثقافة قبل بوليكراتيز بزم طويل . ففيها عاش إيسوب صاحب الخرافات المشهورة ، وكان عبداً فرنجياً للادمون Lodmon اليونانى . ونقول إحدى الروايات التى لم تؤيد بعد إن لادمون أعتقه وإن إيسوب سافر كثيراً والتقى بصولون ، وعاش في بلاط كروسس ، واستولى على الأموال التى كلفه كروسس بتوزيعها في دلتى ، وإنه لقي حظه على يد الدلفيين الذين اغتصب مالم (١٢) . وكانت خرافاته التى أخذ معظمها من مصادر شرقية منشورة بين الأثينيين في عصر بلادم الأدي . ويقول أفلوطرخس إن سقراط قد نظمها شعراً (١٣) ، وإن ما فيها من فلسفة فلسفة يونانية خالصة ، وإن كانت الخرافات نفسها مصوغة في قالب شرقى : « ما أحلى جمال الطبيعة ، والأرض والبحر ، والنجوم وقرصى الشمس والقمر ، وأما ما عدا هذه فخوف وألم » (١٤) ، وخاصة إذا اغتصب الإنسان مال غيره ! ولا نزال حتى الآن نلتقى به في الثابيكان حيث نراه على كوب من عصر بركابر ذى رأس أصاب الصلع نصفه ولحية كلحية فاندليك Vandyke ، يستمع إلى ثعلب مرح يروى له قصة ذات فائدة له (١٥)

وفى ساموس ولد فيثاغورس العظيم ، ولكنه غادرها في عام ٥٢٩ ليعيش في كروثونا بإيطاليا . وجاء أنكريوس من تيوس Teos إلى ساموس ليتغنى بمحاسن بوليكراتيز ويربى له ابنه ، وكانت أعظم شخصية في بلاد بوليكراتيز هى شخصية الفنان ثيودورس Theodorus ليوناردو ساموس ، الذى يعرف

(*) ولا يزد الخطأ عند التقاء التقين في هذه الايام على بضعة بوضات ، وقد لا يكدين تمة خطأ على الإطلاق .

طرفاً من كل شيء ويجيد معظم ما يعرف . ويعزو إليه اليونان - ولعلمهم فعلوا هذا بعد بحث وتنقيب - اختراع ميزان الماء ، وزاوية النجار ، والمخرطة^(٤٦) . وكان ماهراً في الحفر على الجواهر ، كما كان يحترف صنع الأدوات المعدنية والحجرية والخشبية ؛ وكان مثالا ومهندسا معمارياً ، اشترك في تصميم المعبد الثاني لأرتيميس في إفسوس ، وشاد قبة عظيمة للجمعيات العامة في اسبارطة ، وساعد على إدخال التماثيل والنماذج الطينية إلى بلاد اليونان ، وشارك ريكوس Rhoecus شرف إدخال صناعة صب البرنز المخوف من مصر أو من آشور إلى ساموس^(٤٧) . وكان اليونان قبل ثيودورس يصنعون تماثيل برنزية غير متقنة بنثيت ألواح من المعدن على « قنطرة » من الخشب^(٤٨) ، أما في أيامه فقد استطاعوا أن يخرجوا من روائع الصناعة البرنزية أمثال راكب العربية في دلفي وقاذف القرص في ميرون . واشتهرت ساموس فضلاً عن هذا بفخارها ؛ ويثنى بلاني على هذا الفخار بقوله إن كهنة سيبل لم يكرنوا يستخدمون غير شقافة ساموس في حرمان أنفسهم من رجولتهم^(٤٩) .

٣ - هرقليطس الإفسوسي

وعلى الجانب الثاني المقابل لساموس من خليج كايسترا كانت تقوم إفسوس أشهر مدائن أبونيا ، وقد أنشأها حوالي عام ١٠٠٠ ق . م مستعمرون من أثينة . وكان اجتماع تجارة نهري كايشتر ومينلر سبباً في رخاء المدينة . وكان في أصلها ، وفي دينها ، وفنها ، عنصر شرقي واضح . وكانت أرتيمز التي تعبد فيها من بداية أمرها إلى نهايته إلهة شرقية للأمم والحصوبة . وقد حدثت في هيكلها العظيم وفيات كثيرة وعاد فيه إلى الحياة خلق لا يقلون في عددهم عن ماتو فيه . وقد شيد هيكلها الأول حوالي عام ٦٠٠ ق . م في موضع كان فيه من قبل هيكل قديم ، وأعيد بناؤه مرتين ودمر مرتين ، ولعله كان أول صرح

عظيم شيد على الطراز الأيرنى . وشيد الهيكل الثانى حوالى عام ٥٤٠ وقدم كروسس جزءاً كبيراً من المال الذى أنفق فى تشييده ، واشترك فى تصميمه بيونيوس الإفسوسى وثيودورس الساموسى ، ودمتريوس أحد كهنة الضريح . وكان أكبر هيكل يونانى أقيم حتى ذلك الوقت ، وكان بعد بلا نزاع من بين عجائب الدنيا السبع^(٥٠) . ولم تشتهر المدينة بهياكلها وحدها ، بل اشتهرت أيضاً بشعرائها ، وفلاسفتها ، وبنسائها ذوات الجلايب الغالية^(٥١) . وعاش فيها فى ذلك الزمن البعيد أى حوالى ٦٩٠ ق . م كلنوس Callinus أول من نعرف من شعراء المراتى فى بلاد اليونان . وكان أعظم منه قدراً وأقبح منه منظرأ هبوناكس Hipponax الذى ألف عام ٥٥٠ قصائد قبيحة فى موضوعها ، غامضة فى ألفاظها ، لاذعة فى فكاهتها ، دقيقة فى وزنها الشعرى ، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه ، وإفسوس كلها تحقد عليه . وكان قصير القامة نحيل الجسم ، أعرج ، مشوها ، غاية فى قبح المنظر . ويقول فى بعض ما بقى من إحدى قصائده إن المرأة تسبب السعادة للرجل فى يومين - أحدهما يوم يتزوجها ، والثانى يوم ينفقها^(٥٢) . وكان هجاء قاسياً هجا كل عظيم فى إفسوس من أحقر المجرمين إلى أعظم كهنة الهيكل ، ولما عرض المثلان بوبالوس Bupalus وأثينيس Athenis رسماً له مضحكاً لطيفاً ، هجأهما فى شعره هجوا قاذعاً بلغ من القذارة حداً جعله أبقى على الدهر من حجارتهم وأحد من أسنان الزمان .

وكان أعظم أبناء إفسوس كلهم هو هرقليطس الغامض Heracleitus the Obscure

(٥٠) وكانت العجائب الست الأخرى هى حدائق بابل المعلقة ، ومنارة الإسكندرية ، وتمثال رودس الضخم ، وزیوس فيدياس فى أولمبيا ، وقبر موسولس فى هليكرنيس ، وأهرام مصر . ويصف بائى الهيكل الثانى بقوله إنه يبلغ ٤١٥ قدماً فى الطول ، ٢٢٥ قدماً فى العرض ، وإن به ١٢٧ عموداً يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدماً - وكان بعضها مزداناً أوشوهاً بالنقوش^(٥١) . وقد تم بناء هذا الهيكل فى عام ٥٢٠ ق . م بعد كنج دام قرناً كاملاً ، ثم احترق وتهدم فى عام ٣٥٦ ق . م .

وقد ولد في عام ٥٣٠ من أسرة نبيلة ، ولذلك كان يرى أن الديمقراطية نظام خاطئ . ومن أقواله في هذا المعنى (١١١*) : « إن الفاسدين كثيرون والصالحين قلائل » ، و « عندى أن رجلا واحداً خير من عشرة آلاف إذا كان هو أحسنهم » (١١٣) . ولكن الأشراف أنفسهم لم يعجبه ، كما لم يعجبه العلماء والنساء . وقد كتب في هذا المعنى خاصة بعبارة طريفة هي : « إن العلم الكثير لا يكون العقل ، ولو كان يكونه لأناد هزبود ، وفيثاغورس ، وزنوفانيز ، وهكاتبوس » . (١٦) « لأن الحكمة الحققة الوحيدة هي معرفة الفكرة التي تسيطر بنفسها على كل شيء في جميع الأحوال » (١٩) . ثم خرج ، كما كان يخرج حكماء الصين ، ليعيش في شعاب الجبال ، ويجعل العقل في الفكرة الوحيدة التي يستطيع بها أن يفسر كل شيء . وترفع عن شرح ما هداه إليه تفكيره في ألفاظ يفهمها عامة الناس ، وأخذ يطلب في غموض الحياة وغموض الأقوال ملجأ يعصمه من متابعة الأحزاب والعامة الذين يقتلون الفردية ، ولذلك أخذ يعبر عن آرائه في أمثال جامعة غامضة في الطبيعة ، أودعها هيكل أرنيمز لتحرير عقول الخلف .

وقد صُوِّر هرقليطس في الأدب الحديث بأنه يقيم فلسفته حول فكرة التغير ، ولكن من الصعب علينا أن نجد القليل الباقي من هذه الفلسفة ، ما يؤيد هذا التفسير . وقد كان يتوق كما يتوق معظم الفلاسفة للكشف عن الروايد المستتر وراء الكثرة ، وعن وحدة تثبيت العقول ، ونظام بين ما في العالم من زحام وفوضى وكثرة . وقد قال في هذا المعنى قولاً لا يقل قوة وحماسة عن قول برميندز Parmenidez (١) « إن الأشياء كلها وحدة » ، والمشكلة التي تواجهها الفلسفة هي أن تعرف ما هي هذه الوحدة . وقد أجاب هرقليطس عن هذا السؤال بأنها

(*) تشير الأعداد التي بين الأقواس إل الباقي من أقوال هرقليطس كما رتبها هاى ووتر

هى النار . ولعله كان فى هذا الجواب متأثراً بعبادة الفرس للنار . وأكبر الظن أنه كان يستعمل هذا اللفظ استعمالاً رمزياً وحرافياً معاً ، ويقصده به الطاقة كما يقصد به النار نفسها ، كما نستدل على هذا من جمعه بين النار والنفس والله فى معنى واحد . على أننا ليس فى وسعنا أن نقطع برأى فى هذا بالاستناد إلى القليل الباقى من فلسفته . انظر مثلاً إلى قوله : « إن هذا العالم ... لم يصنعه إله ولا إنسان ، ولكنه كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون ، ناراً حية أزلية ، توقد بقدر ، وتنطفئ بقدر » . (٢٠) وكل شيء صورة من صور النار ، فهو إما فى « طريق » النار « إلى أسفل » فى تكشفها المتتابع إلى رطوبة ، فناء ، فأرض ؛ أو إلى « طريقها إلى أعلى » من الأرض ، إلى الماء ، إلى الرطوبة (*) ، إلى النار (٥٤) .

ومما يضايق هرقليطس فى النار الخالدة أنها تتبدل تبديلاً لا يقف عند حد وإن كان يجد فيها ثباتاً يخفف عنه ما يسببه هذا التبدل من ضيق ؛ والمحور الثانى الذى يدور حوله تفكيره هو أبدية « هذا التبدل ووجوده فى كل شيء » ، فهو لا يجد قط شيئاً جامداً فى الكون أو فى العقل أو فى النفس ؛ فلا شيء كائن بل

(٥) وربما كان فى عقل هرقليطس شيء يشبه نظرية السديم ، على النحو الآتى : يبدأ العالم فاراً ، (أو حرارة أو طاقة) ، ثم تستحيل غازاً أو أبخرة ، تتكثف وتسقط ماء ، وتتكون من رواسبها الكيميائية بعد أن تتبخر المواد الصلبة التى فى الأرض (٥٥) ، والماء والأرض (أى السوائل والأجسام الصلبة) مرحلتان من عملية واحدة وصورتان من حقيقة واحدة (٢٥) . « الأشياء جميعها تتحول إلى نار ، ونار تتحول إلى جميع الأشياء » (٢٢) . وكل التغيرات « طريق إلى أسفل أو إلى أعلى » أى انتقال من إحدى صور الطاقة أو النار إلى صورة أخرى منها ، تارة أكثر منها تكثفاً وطوراً أقل - . والطريق إلى أعلى أو إلى أسفل واحد لا يتغير (٦٩) . والتلطيف والتكثيف حركتان فى دورة دائية من التغير ؛ والأشياء كلها تتكون فى طريق الحقيقة إلى أسفل وهو طريق للتكثف أو طريقها إلى أعلى وهو طريق التلطيف من النار ثم تعود مرة أخرى إلى النار ، والأشكال جميعها صور من طاقة واحدة كامنة ورواحها . وقد هيراسهونزا عن هذا بقوله : إن النار أو الطاقة هى المادة الخالدة الموجودة فى كل مكان أو هى المبدأ الأساسى . والتكثيف والتلطيف (الطريق إلى أسفل أو إلى أعلى) هما خاصتان . وصورها الخاصة أو أساليبها هى الأحياء الظاهرة فى العالم .

كل شيء صائر ، وليس ثمة حالة تبقى على حالها دون أن تتغير ، حتى في أقصر اللحظات ؛ فكل شيء دائم على الخروج عن حاله التي هو عليها ، صائر إلى ما سيكون عليه . وتلك حال جديدة من حالات الفلسفة تلقى من هرقليطس عناية وتوكيداً ، فهو لا يقتصر (كما يقتصر طاليس) على السؤال عن مادية الأشياء في حاضرها ، ولكنه يسأل كما يسأل أنكسمندر ، ولكريشيوس ، واسينسر عن الطريقة التي أدت بها إلى ما هي عليه . وهو يشير ، كما يشير أرسطو ، إلى أن دراسة الحالة الثانية هي خير طريقة تعرف بها الأولى . ولنا نجد فيما بقي لدينا من أمثاله المثل القائل : « كل شيء يسير ، ولا شيء يسكن » (Panta rei.ouden menei) ، ولكن الأقدمين على بكرة أبيهم يعزون هذا المثل إلى هرقليطس^(٥٦) : « إنك لا تستطيع أن تخطو خطوتين في نهر واحد ، لأن مياهها أخرى لا تنفك تجري إليك (٤١) » . « نحن كائنون ونحن غير كائنين » (٨١) ؛ والكون عنده كما هو عند هيجل صيرورة كبرى . والتضاعف ، والاختلاف ، والتغير حقائق لا تقل في ذلك عن الوحدة ، والذاتية ، والكيونة ؛ والتعدد حقيقة لا تقل في ذلك عن الوحدة^(٥٧) . فالكثرة هي الوحدة ؛ وكل تغير ما هو إلا انتقال الأشياء نحو حالة النار أو منها إن الوحدة هي الكثرة ، وفي قلب النار نفسها يتحقق التغير الذي لا يستقر أبداً^(٥٨) .

ومن هنا ينتقل هرقليطس إلى العنصر الثالث من عناصر فلسفته - وهو وحدة الأضداد ، واعتماد المتناقضات بعضها على بعض ، واتلاف الزمان . « الله هو الليل والنهار ، والشتاء والصيف ، والحرب والسلام ، والتخمة والجوع » (٣٦) . والخير والشرير واحد ، وكذلك الخير والشر ، (٥٧-٥٨) « والحياة والموت شيء واحد ، وكذلك اليقظة والنوم ، والشباب والشيخوخة » (٧٨) لأن هذه

(٥) هل القارئ أن يذكر هل الدوام أن هرقليطس هو الفيلسوف المتأخر !

الأضداد كلها مراحل في حركة متقلبة ، ولحظات في النار الدائمة التغير ؛ وكل فرد في الزوجين المتضادين لا غنى عنه لمعنى الآخر ووجود ، والحقيقة هي توتر الأضداد وتفاعلها وتبادلها وتغيرها ووحدةها وانسجامها . « وهم لا يفهمون كيف يتفق مع نفسه ما يختلف مع نفسه . وهنا يكون تطابق التوترات المتضادة ، كتطابق قوس الرأى ووتر القيثارة » . (٤٥) فكما أن وتر الآلة الموسيقية إذا أرخيته أو شددته أحدث التآلف في الذبذبة الذى نسميه موسيقى أو نغمة ، فكذلك تبادل الأضداد وتنازعها يخلق جوهر تألف الحياة والتغير ومعناها . وفي النزاع القائم بين كائن حى وكائن حى ، بين رجل ورجل ، وبين رجل وامرأة ، وبين جيل وجيل ، وبين طبقة وطبقة ، وبين أمة وأمة ، وبين فكرة وفكرة ، وبين عقيدة وعقيدة ، تكون الأضداد المحتربة هي اللحمة والسدى على نول الحياة ، تعمل كل منها لغاية تناقض التي تعمل لها الأخرى ، لتنتج وحدة الكل غير المنظورة وانفاقه الخبوء . وأجل التطابق ما كان بين الأشياء التي تختلف » (٤٦) ؛ وليس هذا المعنى بخاف على كل عاشق

وهذه المبادئ الثلاثة جميعها - النار والتغير ووحدة التوتر في الأضداد - تدخل كلها في فكرة هرقلitus عن الروح والله . وهو يسخر من انذين « يسعون عبثاً ليظهروا أنفسهم من خفايا الدم بتنديس أنفسهم بالدم » (١٣٠) ، ومن الذين يُصَلُّون إلى التماثيل القائمة هنا - ولا فرق بين من يفعل هذا وبين من يخاطب البيوت ؛ إن هؤلاء الناس لا يعرفون قط شيئاً عن طبيعة الآلهة الحققة » (١٢٦) . وهو لا يوافق فكرة الخلود الشخصية ، ويقول إن الإنسان أيضاً ، ككل شيء آخر ، لهب كثير التغير كثير التقلب ، « يشتعل ثم ينطفئ كالضوء في الليل » (٧٧) . والإنسان في هذه الحالة نفسها ، نار ، والنفس ، أو المبدأ الحيوى في الإنسان ، جزء من الطاقة الخالدة في الأشياء جميعها ؛ وهي بهذا الوصف لا تموت أبداً ، والموت والميلاد تمتطتان حددهما العمل البشرى المحلل

للأشياء تحديداً تعسفياً ، ولكنهما من وجهة نظر الكون الزبينة الحالية من التحيزات لا تعدوان أن تكونا صورتين من صور تغير الأشكال التي لا تقف عند حد ؛ ففي كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ، ويميش الكل ، وفي كل ثانية يموت واحد منا وتبقى الحياة . والموت بداية كما هو نهاية ؛ والمولد نهاية كما هو بداية . وأفلاطنا ، وأفكارنا ، وحتى أخلاقتنا نفسها ، نزعات وأهواء ، ونمثيل لمصالحنا مجزأة أو مجتمعة ؛ ومن واجب الفلاسفة أن تنظر إلى الأشياء الفردية في ضوء المجموع . « والأشياء كلها عند الله جميلة طيبة ، حقة ؛ ولكن الناس يرون بعض الأشياء خطأ ويرون بعضها صواباً » (٦١)

وكما أن الروح لسان عابر من لب الحياة المتغير إلى أبد الدهر ، فكذلك الله هو النار الخالدة الأبدية ، هو طاقة العالم التي لا تنفنى أبداً . وهو الوحدة التي تربط جميع الأضداد ، وهو الانسجام الكائن بين جميع التفاعلات ، وهو جماع المعاني في كل المشاحنات . وهذه النار المقدسة كالحياة (لأن كليهما توجد في كل مكان ، وهما شيء واحد) تغير شكلها على الدوام ولا تنفك تنقل إلى أعلى أو أسفل على سأم التغير ، ولا تقتأ تبيد الأشياء وتعيد صنعها ؛ والحق أن سيأتي يوم بعيد « تحكم فيه النار على جميع الأشياء وتدينها » ، (٢٦) تهلكها وتمهد السبيل لأشكال جديدة ، في يوم الحساب الأخير ، أو يوم الكارثة الكونية . بيد أن أعمال النار الخالدة ليست خالية من المعنى أو مجردة من النظام ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم العالم مجتمعاً ، لرأينا فيه حكمة عظيمة غير شخصية ، علماً أو عقلاً أو كلمة (٦٥) ؛ ومن واجبنا أن نحاول تشكيل حياتنا بحيث تتفق مع هذه السنة من سنن الطبيعة ، وهذا القانون العالمى ، هذه الحكمة أو الطاقة المنظمة التي هي الله (٩١) . « إن من الحكمة ألا تستمعوا إلىَّ بل إلى الكلمة » (١) ، وأن تبحثوا عن العقل اللانهائى للكل وتبعوه .

وحين يطبق هرقلطس على الأخلاق هذه القواعد الأربع الأساسية من أفكاره - الطاقة ، والتغير ، ووحدة الأضداد - وعقل الكل - ينير بعمله هذا سبيل الحياة كلها والسلوك كله . فالطاقة إذا سيطر عليها العقل ، واقرنت بالنظام ، نشأ عنها أعظم الخير . وليس التغير شرا بل هو خير وبركة ؛ « وفي التغير يجد الإنسان الراحة » ، والإنسان يمل الكدح الدائم في الأشياء نفسها والبدء دائماً من جديد » (٧٢ - ٧٣) . وحاجة الأضداد بعضها إلى بعض تجعل نزاع الحياة وآلامها شيئاً معقولاً يمكن فهمه وغفرانه . « ليس حصول الناس على كل ما يرغبون فيه هو أحسن الأشياء ؛ فالمرض هو الذى يجعل الصحة سارة حاوة ؛ والشر هو الذى يفهم به الإنسان الخير ، والجوع هو الذى يفهم به الشبع ، والكدح هو الذى يفهم به الراحة » (١٠٤) . وهو يأم الذين يرغبون في القضاء على ما في العالم من نزاع (٤٣) ؛ فبغير تشاد الأضداد لا يكون هناك تألف ، ولا ينسج نسج حى ولا يحدث تطور . وليس الانسجام هو القضاء على النزاع وإنما هو تشاد لا ينتهى بانتصار عنصر على عنصر ، بل يعمل فيه العنصران دون أن يستغنى كلاهما عن الآخر (كتطرف الشباب وتحفظ المشيب) ، وتنازع البقاء ضرورى لكى يفصل الأطيب عن الأخبث ، وينشأ الأعلى . والنزاع والد كل شئ ومليك كل شئ ، وقد اختار البعض ليكونوا آلهة ، والبعض ليكونوا رجالاً ؛ وجعل البعض عبيداً ، والبعض أحراراً (٤٤) . وفي النهاية يكون التنازع هو « العدالة » (٦٢) . وتنافس الأفراد ، والجماعات ، والأنواع ، والأنظمة ، والإمبراطوريات يكون محكمة الطبيعة العليا ، التى لا يستأنف حكمها ولا ينقض .

وفلسفة هرقلطس في جملتها ، كما تجمعها لنا الآن مائة وثلاثون جملَةً متفرقة ، تعد من أعظم نتاج العقل اليونانى . وقد انتقلت نظرية النار المقدسة إلى الرواقية ؛ كما انتقلت منها فكرة النار الأخيرة إلى المسيحية بطريق الرواقية

وكما صارت الكلمة أو عقل الطبيعة في اللاهوت المسيحي هي الكلمة الإلهية ،
أو الحكمة المجسدة التي يخلق الله بها الأشياء كلها ويحكمها . وقد مهدت هذه
الفلسفة إلى حد ما لفكرة القانون الطبيعي في الفلسفة الحديثة ؛ وأصبحت
الفضيلة بوصفها إطاعة الطبيعة شعار الرواقية ؛ وانتعشت وحدة الأضداد
انتعاشاً قوياً في فلسفة هيجل ، واستردت فكرة التغير في فلسفة برجسز
Bergson ما كان لها من قوة ، وعادت إلى الظهور فكرة التنازع والكفاح
المحددة لجميع الأشياء ، في فلسفة دارون ، واسبنسر ، وتنشه - وقد واصل
أنحرم حرب هرقليطس ضد الديمقراطية بعد أربعة وعشرين قرناً .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هرقليطس ؛ ولا نعرف عن موته
إلا قصة لا سند لها رواها ديوجنيس ليرتس توضح لنا ما قد تنتهي إليه حياة
النواذب الأفذاذ . ذلك أنه أصبح أخيراً شديد الكره للإنسانية ، فكان يقضى
وقته يضرب في الجبال يقات بالمشب والنبات ، فأصابه بسبب هذا داء
الاستسقاء ، وعاد إلى المدينة يسأل الأطباء ويحاورهم هل يستطيعون أن
يحدثوا الخفاف بعد الجح الرطب ؟ ولما لم يفهموه حبس نفسه في حظيرة
ثيران ، وغطى نفسه بروث البقر ، لعل الرطوبة تبخر منه بما يحدثه هذا
الروث من دفء ، ولكن عمله هذا لم يفده شيئاً ، ومات بعد أن عاش من
العمر سبعين عاماً ٥٨ .

٤ - أنكريون التثوصى

تقوم كاوفون Colophon على مسيرة بقعة أميال من إفسوس ، ولعل اسمها
مأخوذ من اسم التل الذي تقوم على جانبه (*) وقد ولد فيها حوالى ٥٧٦ ق.م .

(*) من لفظ Kolophon اليوناني ومعناه تل ويقابل باللاتينية collis وبالإنجليزية hill
لما كان فرسان المدينة قد اشتهروا بإجهازهم على قوى العدو المنهزم ، فقد أصبحت كلمة =

زنوفانيز الذى كان يبعض الكهنة ، وقد وصف مواطنيه بأنهم « يلبسون الثياب الأرجوانية الفاخرة ، ويعجبون بشعورهم المصفقة المضمخة بالزيت العطرة الغالية » ، إن للزهو بلا شك تاريخاً طويلاً^(٦٠) . وكان الشاعر ميمرموس Mimnermus (٦١٠) يغنى فى هذه المدينة . ولعله كان يغنى أيضاً فى أزمير ، لأقوام سرى فيهم تشاؤم الشرق الواهن بأغانيه الحزينة عن الشاب والحب القصيرى الأجل . وشغف حباً بنانو Nanno الفتاة التى كانت توقع أغانيه على نغمت الناي الحزينة ، ولما لم تستجب إلى حبه (ولعل سبب امتناعها اعتقادها أن الشاعر إذا تزوج مات) خلد اسمها فى قصيدة من الشعر الرثائى العذب الرقيق .

« نحن نزهر كأوراق الربيع ، حين تبدأ الشمس تتوهج وتلهب ، وفى مسرات الشباب القصيرة الأجل لا نعرف من الآلهة خيراً ولا شراً ، ولكن الأرواح السوداء تقف دائماً عند الهدف ، تمسك فى يدها عمراً واحداً محزناً وموتاً واحداً^(٦١) » .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت كان شاعر آخر أعظم شهرة من أنكريون يعيش فى مدينة تتوس القرية من كلوفون ، ذلك هو أنكريون . وكان هذا الشاعر كثير الأسفار ولكنه ولد فى أنكريون (٥٦٣) وتوفى فيها (٤٧٨) . وقد دعاه كثير من الملوك ليعيش فى بلاطهم لأنه لم يكن ينافسه فى بعد الصيت أحد من معاصريه إلا سمنيلس وحده . ونشده منضمّاً إلى جماعة من المهاجرين إلى أبдера Abdera فى تراقية ، وينخرط فى سلك الجندية ، ويحارب فى سلسلة أو سلسلتين من المعارك . ثم يترك درعه فى الميدان كما كان يفعل الشعراء فى زمانه ، ولا يستل بعدئذ إلا قلمه ، ثم يقضى بضع سنين فى بلاط پوليكراتيس فى ساموس ؛ وجيء به من هناك فى موكب رسمى فخيم ، ليزدان به قصر هيباركس فى أثينة ، ثم عاد آخر

— Kolophon فى اللغة اليونانية مرادفة لعبارة الضربة القاضية ؛ ولما انتقلت إلى اللغة الإنجليزية أصبحت رمزاً للناشرين كانوا يضعونها أولاً فى نهاية الكتاب .

الأمر إلى تنوس بعد الحرب الفارسية ليخفف عن نفسه القناء في شيخوخته وضعفه بالغناء والشراب . وكان جزاؤه على إفراطه في ملذاته أن عمر طويلا حتى بلغ الخامسة والثمانين من عمره ، وكان سبب موته على ما نقل إلينا الرواة أن وقفت بذرة عنب في حلقه (٦٢) .

وقد عرفت الإسكندرية خمسة من كتب أنكربون ولكن لم يبق من أشعاره إلا بضعة أبيات مزدوجة . وكانت موضوعات شعره هي الخمر ، والنساء ، والغلمان ، وكان يلجأ فيه إلى المزاح اللطيف يصوغه في البحر العميق (iambic) الخفيف ، وأيا كان الموضوع الذي يطرقه فإنه لا يبدو للقارئ بذنباً أو غليظاً لأنه يصوغه في ألفاظ عفة وشعر رقيق . ولم يكن أنكربون مثل هوناكس ذا ألفاظ بذينة حادة ، أو مثل سافو في شدتها ، بل كان شاعر بلاط يعرض ثرائره المهدبة الرقيقة على من يشترها ، ويمتدح كل ملك يعجبه ويتنازع له خمره . ويظن أنديوس أن أغانيه الحمرية ، وتقلبه في عشقه ، كانت كلها تصنعاً (٦٣) ، ولعل أنكربون كان يخفي وفاءه لكي يحظى بإعجاب النساء به ، كما كان يخفي اعتداله في الشراب ليزيد بذلك شهرته . وثمة قصة لطيفة تروى كيف صدمت قدمه وهو تحمل طفلاً صغيراً فأنهال عليه سباً بأقذع الألفاظ ، ثم أحب في شيخوخته هذا الغلام نفسه وكفر عن ذنبه بأن أخذ يكيل له المدح (٦٤) . وكان لا يفرق في عشقه بين الذكور والإناث ، بل يحب الحسنين على السواء ، ولكنه لما كبر دفعته شهامته إلى تفضيل الإناث على الذكور . وقد جاء في بعض ما بقي لنا من شعره : « أنظر الآن ، إن الحب ذا الشعر الذهبي يضربني بكرته الأرجوانية ، ويدعوني لكي ألعب مع فتاة ذات حذاءين متعددي الألوان ، ولكنها تسكن لسبوس الشائخة ، ولا يعجبها شعري الأبيض وتذهب لتبحث لها عن ضحية أخرى (٦٥) » . وقد كتب أحد الكتاب الفكهين الذي عاش بعد عصره قبرة تكشف عن حقيقة أمره قال فيها :

« الشجرة الساحرة يا ربيبة الخمر ، يا كرمة ، أبني وطولي فوق قبر أنكريون حتى يستطيع الصاحب التمل صديق الشراب الصافي ، الذي كان يقضى الليل الطويل يقصف ويطرب وينشد على نفثات العود أغاني حب الغلمان ، حتى يستطيع ذلك الصاحب التمل أن يعث بما فوق رأسه المدفون من عناقيد غصن ملء مثقل ، وحتى لا ينفك يبتل برضاب الندى الذى لم يكن شذاه الذكى إلا أنفاساً تخرج من فم الرقيق حين كبر^(٦٦) .

٥ - طشيوز ، أزمير ، فوسيا

تمتد أرض اليونان الأصلية من تنوس نحو الغرب في خلجان ونتوءات أرضية متتالية ، حتى إذا قطع المسافر في البحر عشرة أميال وصل إلى طشيوز Chios^(*) . وليس بعيد أن يكون هومر قد قضى شبابه في هذه الجزيرة بين غياض الثين والزيتون والكروم الأنكرونية . وكان عصر لخم من الصناعات الكبرى في طشيوز ، وكان يشغل به عدد كبير من الرقيق ؛ فقد كانت الجزيرة في عام ٤٣١ تضم ٣٠.٠٠٠ من الأحرار ، ١٠٠.٠٠٠ من الأرقاء^(٦٧) ، وأصبحت على مر الزمن سوقاً كبرى للنخاسة ، فكان النخاسون يتناعون من الدائنين أبناء من عجزوا عن للوفاء بديونهم ، ويتناعون الغلمان ليجعلوهم خصياناً يخدمون في قصور ليديا وفارس^(٦٨) .

وفي القرن السادس تار الأرقاء بزعامة زميلهم درمكوس Drimachus وهزموا جميع الجيوش التي أرسلت للقضاء عليهم ، واعتصم قائدهم ؛ كان منبع في الجبال وفرض الإتاوات على الأغنياء من أهل الجزيرة ، ونهب أموال من يرى أن أموالهم خليقة بأن تنهب ، وعرض عليهم « حمايته » نظير جعل معين كما يحدث

(٥) هنا هو الاسم التركي لهذه الجزيرة ولا تزال تعرف به الآن . (المترجم)

عندنا (٥) في هذه الأيام ، وأرغمهم يجبروته على أن يعاملوا عبيدهم معاملة أقرب إلى العدل من معاملتهم السابقة ، وقُطع رأسه باختياره وأوصى بأن يعطى للجماعة من أصدقائه حتى يحق لهم أن يطالبوا بالمكافأة التي وعد بها من يأتي به ، وظل مئات من الستين بعد موته يعد نصير الأرقاء والإله الحامي لهم (٦) ، وتلك حياة ما أجدرها أن تكون ملحمة طيبة يتغنى بها كاتب ثورى مثل حياة اسبارتكوس . وازدهرت الآداب والفنون بين أحضان الثروة والرق في طشيوز . وكانت الجزيرة مركز الهومريين وهم رابطة من الشعراء المتتابعين ، وفيها ولد أيون الكاتب المسرحي ، وتيوبودوس Theopompus المؤرخ . وهنا كشف جلوكوس Glaucus (كما تقول الرواية المتواترة) حوالى ٥٦٠ صناعة طرق الحديد المحمى ، وهنا صنع أركرموس Archermus وولدها بوبالوس وأثنيس أجمل ما صنع من التماثيل في القرن السادس في بلاد اليونان .

وإذا عاد المسافر بعدئذ إلى أرض اليونان الأصلية مر بمواقع لإريثرا Erythra وكلازوميني Clazomenae — مسقط رأس أنكسجراس Anaxagoras معلم بركليز وصديقه . وبعدها من جهة الشرق على خليج صغير أمين تقع مدينة أزمير التي استقر فيها الإيوليون من زمن بعيد يرجع إلى عام ١٠١٥ ق . م (٧) ، ثم استحال بالهجرة والفتح مدينة أيونية . وكانت مدينة واسعة الشهرة في أيام أنجيل ، وقد بهبها ألياتس Alyattes الليدى حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، ودمرت بعد ذلك مراراً ، كان آخرها في عام ١٩٢٤ م على أيلى اليونان أنفسهم . وتنافس أزمير دمشق في قدم عهدها وطول حياتها ، وقد ذاعت صروف الزمان حلوها ومرها على السواء (٨) . ويدل ما بقى من مباني المدينة القديمة على ثرائها

(٥) يريد في أم يكا .

(٥٥) إن اسم المدينة القديم أزميرنا Smyrna واسمها الحديث أزمير يرتبطان في أغلب الظن بتجارة القطن . وهي ثاني مدينة في تركيا من حيث تعداد السكان وأكبر مدينة في سية الصغرى .

وتنوع الحياة فيها ، فقد كشف في أرضها عن ملعب رياضي ، وحصن ، ومضمار للركض ، ودار للتمثيل . وكانت طرقها واسعة جيدة الرصف تزينا الهياكل والقصور ، وكان شارعها الرئيسي ، المعروف بالذهبي ، مشهوراً ذائع الصيت في بلاد اليونان بأجمعها .

وكانت أبعد المدن اليونانية شمالاً مدينة فوقية ، Phocaea ولا تزال قائمة إلى اليوم يطلق عليها اسم فوقية Fokia ؛ وكان نهر هرمس يكاد يصلها بسرديس نفسها فأكسبها هذا الاتصال مزية عظيمة في تجارة اليونان مع ليديا ، وكان التجار الفوقيون يسافرون أسفاراً بعيدة بحثاً عن الأسواق ، وهم الذين حملوا الثقافة اليونانية إلى قورسقة Corsica وأسسوا مرسيليا .

تلك هي مدائن أيونيا الاثنتا عشرة ألقينا عليها نظرة عاجلة كأننا نطوف بها في رحلة جوية خلال الزمان والفضاء . لقد كان ما بين هذه المدائن من تنافس وتحاسد مانعاً لها من أن تكون فيما بينها وحدة تعينها على الدفاع المشترك ، ولكن أهلها مع ذلك كانوا يعترفون بما بينهم من تضامن واتفاق في المصالح ، وكانوا يجتمعون في مراسم معينة في ميكالى Mycale ، الأكمة الممتدة في البحر عند پرين Prien ، في عيد جميع الأيونيين Panionium العظيم . وقد طلب إليهم طاليس أن يؤلفوا منهم جامعة يكون فيها كل ذكر رشيد مواطناً في مدينته وفي الاتحاد الأيوني ، ولكن التنافس التجاري كان أقوى من أن يسمح بقيام هذه الجامعة ، بل إنه يدل أن يودى إلى الوحدة السياسية أدى إلى التقاتل والتطاحن ، ولما أن أقبل الفرس غازين فاتحين (٥٤٦ — ٥٤٥) واتحدت تلك المدائن اتحاداً مرتجلاً للدفاع عن نفسها ، كان هذا الاتحاد ضعيفاً واهى الأساس ، فلم تلبث المدن الأيونية أن

الأهلين من نزعة الاستقلال والتطاحن قد بعث في نفوس الجماعات
الأيونية حب التنافس والحرص الشديد على الحرية .

وتلك هي الظروف التي نمت فيها في أيونيا العلوم ، والفلسفة ،
والتاريخ ، ونشأت فيها العاصمة الأيونية ، ووجد فيها في الوقت نفسه
الشعراء الكثيرون العدد الذين جعلوا القرن السادس في هيلاس يبدو خصيصاً
كالقرن الخامس . ولما أن سقطت أيونيا خلفت وراءها ثقافتها فورثتها أثينة
التي حاربت الدفاع عنها ، كما انتقلت إليها الزعامة العقلية لبلاد اليونان
جميعها .

الفصل الخامس

سافو اللسبوسية

وفى أعلى المدن الأيونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الإيولية الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الإيوليون والآخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسية الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة . وكانت كثرة هذه المدن صغيرة ، وكان شأنها فى التاريخ صغيراً كذلك . غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الأيونية فى الثروة ، والرقى ، والعبقرية الأدبية . وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم ؛ وكانت متلبنى أكبر مدائن الخمس ، وكانت تجارتها سبباً فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميلينس ، وساموس ، وإفسوس . وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع ، وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس Bitacus الشجاع الفظ حاكماً بأمره مدة عشر سنين ، ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صديقه وزميله الحكيم صولون . وأخذ الأشراف ياتعمرون ليستعيدوا سلطانهم ، ولكن بتاكوس رد كيدهم فى نحرهم ، ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس Alcaeus وسافو ، فأخرجهم أولاً من متلبنى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألفيوس ثائراً صخاباً ، خلط السياسة بالشعر ، فكانت كل قصيدة من قصائده مثاراً للفتنة والثورة . وكان شريف المحدث ، وهاجم بتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفي من البلاد . وقد صططع هو بحوره الشعرية التى أسماها من جاءوا بعده « ألفيوس » ؛ ويقال لنا إن كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها . وقد غنى بعض الوقت فى الحرب ،

ووصف بيته بأنه مزدان بالغنائم الحربية والدروع العسكرية . غير أنه لما
سئحت له الفرصة التي كان يستطيع أن يظهر فيها بطولته ، ألقى بدرعه ،
وفر كما فر أركلوكس من قبله ، وأخذ يمتدح نفسه لحصافته الباسلة .
وقد غنى أحياناً في الحب ، ولكن أحب الموضوعات التي كتب فيها إلى
نفسه كان موضوع الخمر التي اشتهرت بها لسبوس شهرتها في الشعر . وهو
يتصحنا بأن نعب الخمر عاً ، وأن ننقع بها غليلنا في الصيف ، وأن
نستقبل بها الموت بلا رهبة في الخريف ، وأن ندق بها دماءنا في الشتاء ،
ونحتفل بها يبعث الطبيعة في الربيع .

يزل مطر زيوس ، وفي السموات العلا تثور العاصفة ،
ويعسك البرد بقبضته الثلجية مجارى الماء .
إذن فقم ! وتغلب على الشتاء ، وأشعل النار عالية ، عالية —
وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل ؛
ثم اشربها ولقاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك .
إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضنى أجساماً بكثرة
المشاغل التي تذهب بقوانا ؛
لأن الحزن يا صاح لا يعود علينا بأقل نفع ،
ولا يصلح حالاً " بأي حال ؛
أما خبر دواء لنا
فهو الخمر نظرد بها لأفكار (٧٧) (*)

ولقد كان من سوء حظه — وإن كان قد تحمل هذه الكارثة بصلبر
وحب ولم يلق بالآ إليها — أن كان بين معاصريه امرأة هي أشهر نساء اليونان
أجمعين ، ونعنى بها سافور . وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن

تموت ، ومن أقوال استبايوس Stobaeus فيها : « وحدث مرة في مجلس شراب أن أخذ إجزستيديس Excestidez ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغاني سافو ، أعجب بها عمه إعجاباً لم يسهه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها ، ولما سأله أحد الحاضرين : « لم يطلب هذا الطلب ؟ » أجاب بقوله : « إنى أريد أن أتعلّمها ثم أموت » (٧٣) . وكان سقراط — ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه — يسميها « الحميلة » ، وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون إن ربّات الشعر تسع ، ألا ما أكثر غباءهم

فليعلموا أن سافو اللسبوسية هي العاشرة ! (٧٤) .

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة ، لأنى لا أعرف أن قد وجدت في جميع العصور التي وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ في قرض الشعر » (٧٥) . وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ « الشاعر » فإنما يعنون بهذا اللفظ هومر ، كذلك كان العالم اليوناني كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم .

وقد ولدت بسافا Psappha كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الإيولية الرقيقة ، في إرسوس Eresus من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق . م ، ولكن أسرتها انتقلت إلى مثلينى وهي لا تزال في المهد . وكانت في عام ٥٩٣ بين الأشراف الذين انضموا ببشاكوس والذين نفاهم إلى مدينة پيرا Pyrrha ، ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن في الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة ، ويقول الشعر . ولم تشتهر بجيالتها ، فقد كانت صغيرة الجسم ، ضعيفة البنية ، وكان شعرها وعيناها ، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان (٧٦) ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ، ورقتها ، ودماثة أخلاقها ، وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تحق رقبتها وحنانها . ومما قاله هى عن نفسها : « إن قلبى كقلب الطفل » (٧٧) ، ويستدل من شعرها

على أنها كانت ذات عواطف جياشة، وأن ألفاظها كما يقول أفلوطرخس
« كانت تمزج باللهب » (٧٨) ؛ وكانت مرهقة الحس إلى حد ما ، وكان هذا
سبباً في الحد من حماسة عقلها . وقد وصفها أئيس تلميذها المقرب إليها
بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والأرجوانية ، وتتوج رأسها
بالزهر ؛ وما من شك في أن قوامها التحيل قد أكسبها ملاحه وجاذبية ،
وشاهد ذلك أن لفيوس الذى ننى معها إلى پرا أرسل إليها مسرعاً رسالة
عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ! يا ذات التاج القرنفل ، يا طاهرة ،
يا ذات الابتسامة الحلوة ، أريد أن أحدثك في أمر ولكن الحياء يمنعني أن
أنطق به » . وكان جوابها أقل غموضاً من اقتراحه « لو كانت رغباتك
طيبة نبيلة ، ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو دنيء ، لما أسدل
الحياء على عينيك غشاوة ، ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة » (٧٩) .
وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها في قصائده وأناشيده ، ولكننا لا نعرف أن صلة
غير هذه الصلة قد عقدت أواصرها بينهما ، ولعلهما قد افترقا حين نفيت
سافو للمرة الثانية ، وكان سبب نفيا أن پتاكوس قد خشي قلمها بعد
نضوجه فنفاها في هذه المرة إلى صقلية ، وكان ذلك في أغلب الظن عام
٥٩١ ، وهى في سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذى إنساناً .
وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من أندروس Anodros ،
وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة
بالزهرة الذهبية ، هى كليس Cleis قرة عيني ، التى لا أفرط فيها ولو
أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة » (٨٠) . وما من شك في أنها كان في
وسعها أن ترفض ما في ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته
المبكرة ، وعادت إلى لسبوس بعد أن أقامت في منفاهها خمس سنين ، وأضحت
زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية في الجزيرة . وإنا لنلمح بهرج الترف في
إحدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن في علمكم أنى
أحب الحياة اللينة ، وأرى أن النور والجمال مما تشبه الشمس » (٨١) . وأضحت وثيقة

الصلة بأخيها الأصغر كركسوس Charaxus ، شديدة التعليق به ، وغضبت
أشد الغضب حين شغف في إحدى سفراته التجارية إلى مصر بحب محظية تدعى
دريكا Doricha ثم تزوجها ، ضارباً بتوسلات أخته عرض الحائط (٨٢) .
وفي هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل في قلبها . ذلك أن
نفسها تاقّت إلى الحياة النشيطة ، فأنشأت مدرسة للفتيات ، تعلمن فيها
الشعر والموسيقى والرقص ، كانت هي أولى « مدارس صقل » الفتيات في
التاريخ كله . ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسمين
الرفيقات (hetairai) ، ولم تكن هذه الكلمة قد أصبح لها بعد معنى الاختلاط
الجنسى الشاذ . وأحبّت سافو - وكانت وقتئذ أرملة - هاته الفتيات واحدة
بعد واحدة . وقد قالت في إحدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز
الحب قلبي كما تهز الريح القوية أشجار البلوط (٨٣) » . وتقول في إحدى
القطع الأخرى : « لقد أحبتك يا أثيس من زمن بعيد ، حين كانت
أنوثتي كلها أزهاراً ، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن
تقبلت أثيس حب شاب من مثليتي ، عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو
فيها قوة العاطفة في قصيدة احتفظ بها إلينا لنجينس وترجمها ترجمة عرجاء
جون أدنجن مهندس في شعر من البحر السافي :

إنه ليبدو لي هو والآلهة سواء ، ذلك الرجل السعيد الذي يجلس
ويراك بعينه أمامه . فهو يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود
اللسان يتحدثين حديثك الفضي وتضحكين ضحك الحبيب في غير صوت
عال . إن هذا ، هذا وحده ، ليكفي لأن يثير قلبي المكسوم في صدى
ويبعثه على الاضطراب ! لأنني إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتي من
فوري ، وانعقد لساني ، وسرت في ضلوعي نار قلبي يسمع من حولي
حسيسها ، ولا تبصر عيناى منها شيئاً ، وتطن في أذني أمواج من
الصوت عالية ، ويتصبب جسمي عرقاً فيجري أنهاراً ، وترتجف جميع
أعضائي ، ويصبح لوني أكثر اصفراراً من لون الكلا في الخريف ، وتتناهى

آلام الموت المترصد لي فأضطرب وأضل في سكرات (*) الحب (٨٤) .
وأخرج والدنا أثيس ابنتهما من المدرسة ، ولدنا رسالة تعزى إلى سافو
نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أثيس ؟) بكاء مرأ لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أنسى
حقلنا ، وأقسم لك يا سافا أن فراقى لياك كان على الرغم منى » ، فأجبتها :
« سبرى فى طريقك منشحة الصدر ، ولكن اذكرينى لأنك تعرفين هيامى
بك . فإذا لم تذكرينى ، فإنى سأذكرك بما تنسين ، ألا ما أعز وأجل الأيام
التي قضيناها معاً ! لقد كنت تزينين غداثك المتهاوجة بتيجان القرفل
والورد الجميل وأنت إلى جانبي ، وتزينين جيلك الرقيق بعقود مجذولة من
مئات الأزهار ، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليفة بالملوك دهنت لإهابك
الأيض النضر وأنت بين ذراعى . ولم يكن فى المكان كله تل ، أو موضع
مقدس ، أو غدير ماء لم تذهب إليه ، ولم تملأ الأصوات الكثيرة فى بواكير
الربيع غابة من الغابات بسجع العندليب إلا ذهبت إليه معى (٨٥) . »

وتأتى بعد هذه الأغنية فى نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن
أرى أثيس بعد اليوم ولا فرق عندى بين هذا وبين الموت » . إن هذا
بلا ريب هو صوت الحب الصادق ، الذى يعلو ذروة الوفاء والجمال
ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم
واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقاً عن « الحب اللبوسى » أو أنها لم تكن
إلا تلرياً للخيال الشعرى ولتجسيد المعانى المجردة . ولكننا لا شأن لنا بهذا

(*) ولقد ترك لاسونيرن مثلاً من هذا البحر غيراً ما تركه جون أدنجن سنلس
ووصف حب سافو فى قصيدة رائعة سماها « السافيات » فى كتابه Poems and Ballads
مظلمها : لم يطرق جفونى التكرى طول الليل .

الجلد ، وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالعاطفة ، قوى الخيال ، يبلغ حد الكمال في لفظه ومبناه . وفي قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهرة » ، وفي قطعة أخرى حديث عن « الحب الذى يفكك الأعضاء ، والعداب المر - الحلو » وتُشبَّه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التى تحمر على طرف الغصن ، على الطرف الأعلى للغصن ، والتي سها عنها الجاني ، لا لم ينسها بل إنه لم يستطع لعلوها أن يصل إليها^(٨٦) » . وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب ، واستخدمت فيها بحوراً من الشعر بلغ عدد ما بقى لنا منها خمسين بحراً . وقد لحت هى بنفسها أغانيها ووقعتها على العود . وجُمع شعرها فى خمسة دواوين تحتوى نحو ألف بيت ومائتين ، بقى منها ستائة يندر أن تكون متتالية . وحدث فى عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة فى القسطنطينية ورومة بإحراق جميع أشعار سافو وألفيوس علناً^(٨٧) ، وفى عام ١٨٩٧ كشف جرنفل Grenfel وهنت Hunt فى أكسرنكوس Oxyrhynchus بمديرية الفيوم توابيت مصنوعة من طبقات من الورق استخدمت فى صناعتهم نطع من كتب قديمة ؛ وجدت عليها بعض قصائد سافو^(٨٨) .

وقد ثار ذكور الأجيال التالية لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها ، أو اخترعوا من عندهم ، قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب . وثمة فقرة فى معجم سويداس Suidas^(٨٩) تروى كيف قفزت « العاهر سافو » - وهو الوصف الذى توصف به الشاعرة عادة - من فوق صخرة فى جزيرة لوкас Leucas قفزة قضت بها على نفسها ، لأن البحار قاوون لم يستجب لحبها . ويشير مناندر ، واسترابون . وغيرهما من الكتاب إلى هذه القصة ، ويروونها أوفد فى تفاصيل جميلة^(٩٠) . ولكننا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال ، ونخلق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بين الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال . ونجد فى القطع الصغيرة التى

كشفت أشعارها في مصر جواباً لها مؤثراً ردت به على اقتراح عرضه عليها بعضهم بأن تتوجه فقالت « لو أن ثديي قد بقيا قادرين على إرضاع الأطفال ، ولو أن رحي قد بقي قادراً على حملهم ، لبحثت إلى فراش الزوجية بقدمي ترتيجان ، ولكن الزمان قد خط على جسدي خطوطاً كثيرة ، والحب لا يسرع إلى بما يحمله من هدايا الآلام » ، ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سناً^(٩١) . وفي الحق أننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها ، وكل الذي نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية ، والشعر الرائع ، واللفظ والدعة ، وأنها يزت الفيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتاً . وتراها في آخر قطعة لها تلوم في غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« إنكم يا أطفالى مجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون :
« سنتوجك يا سافر الحبيبة ، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغاني
وأشجها ، ألا تعرفون أن إهابي كله قد تجعد من طول العمر ، وأن
شعري قد استحال من أسود إلى أبيض ؟ . . وكما أن الليل ذا النجوم يخلف
حتماً الفجر ذا الذراع الوردية وينشر الظلام في طول الأرض وعرضها ،
كذلك يقتني الموت آثار كل حي ويمسك بتلابيبه آخر الأمر »^(٩٢) .

الفصل السادس

الإمبراطورية الشمالية

في شمال لسبوس تقع تندوس Tenedos الصغيرة التي يقول بعض الرحالة الأقدمين إن نساءها أجمل النساء في بلاد اليونان جميعها^(٩٣) ، ومنها يسير الإنسان في أثر اليونان المغامرين إلى جزائر اسبرديس الشمالية ؛ إلى إمبروس ، ولنوس ، وسمثريس . وأنشأ الميليزيون حولي عام ٥٦٠ في سعيهم للإشراف على الهلسينت (الدردنيل) بلدة أبيدوس Abydos على شاطئته الجنوبي ، ولا تزال هذه البلدة قائمة حتى الآن^(*) . ومن هذا المكان قطع ليندر Leander وبيرون Byron المضيق سباحة ، ومنه عبر جيش خشيارشاي البحر إلى أوربا على جسر من القوارب ، وإلى شرق هذه البلدة استعمر الفوقيون لمپاكوس Lampacus مسقط رأس أبيقور . وفي داخل البرونتس مجموعات من الجزائر ، أولاهما مجموعة الفقونيسوس Phoconnesus ، وهي غنية بالرخام الذي أكسب البرونتس اسمه المعروف به في هذه الأيام (بحر مرمره - أي بحر الرخام) وثانيتهما مجموعة الأركتنيوسوس Arctonnesus . وفي أقصى طرفها الجنوبي أنشأ الميليزيون في عام ٧٥٧ ثغر سيزكوس Cyzicus العظيم . وقامت على طول الساحل مدينة في إثر مدينة : پنورموس Panormus ، ودسيلوم Dascylium ، وأپاميا Apameia ، وكبوس Cius ، وأستكوس Astacus ؛ وخلقدون Chalcedon . وتقدم اليونان مجتازين مضيق البسفور ، طلباً للمعادن والحبوب والتجارة ، وأنشأوا كرسپوليس .

(*) كل المدن المذكورة في هذا الباب تقريباً لا تزال قائمة حتى اليوم ، وإن سميت بأسماء غير أسمائها القديمة .

Chrysopolis (اشقودار الحالية) نتقوبوليس Ncopolis ، و مدينة النصر ، ثم شقوا طريقهم على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود ، وأقاموا مدائن في هرقلية ، وبنتيكا Tieum ، وتوم Pontica ، وسينوب Sinope — التي يصفها استرابون بأنها مدينة مزدانة أفخم زينة^(٩١) ، بها ملعب رياضي عظيم ، وساحة كبرى ، وأروقة مظلة ذات عمد ، وكانت خليقة بأن يولد فيها ديوجين الكلي Diogenes the Cynic ؛ ثم تلبا أميسس Amisus ، وإينوى Oenoe ، وتربوليس Tripolis ، وتراپيزوس Trapezus (تربزند أوطريزون) ، والتي صاح فيها رجال زنوفون العشرة الآلاف من فرط السرور حين أبصروا البحر الذي طالما تآقت نفوسهم لرؤيته . وقد كان افتتاح هذا الإقليم للاستعمار ، على يد جيسن في أكبر الظن ، ثم على أيدي الأيونيين فيما بعد ، مصرفاً ينزح إليه من تفيض بهم المدائن الأصلية من السكان ، وتنصرف إليه تجارتها ، كما جعلها هذا الفتح مورداً للطعام والفضة والذهب ، شأنها في ذلك شأن أمريكا بالنسبة لبلاد أوروبا في بداية العصر الحديث^(٩٢) . واتجه اليونان نحو الشمال بإزاء الساحل الشرقى لبحر اليوكسين حتى وصلوا إلى كلكير Colchis الميضية وأسسوا فاميس Phasis ، وديوسكورياس Diosturias ، وثيودوسيا Theodasia ، وبنتيكيوم Panticapaeum في شبه جزيرة القرم . وأنشأوا عند مصبى نهري البوج Bug والدنيير مدينة ألبيا Olbia (نيقولايف الحالية) وعند مصب الدنيستر أسسوا مدينة تيراس Tyras ، وأقاموا على نهر الدانوب مدينة ترسميس Troesnis . ثم اتجهوا جنوباً على طول الشاطئ الغربى وشادوا مدائن إسترّوس Istrus (قنسطنطة أوتسطيج) ، وتومى Tomi (التي مات فيها أوفد) ؛ وأدِسُوس (وارنة) ، وأبولونيا Apollonia (برجاس) . وإن الرحالة الذى يدرك طول الأعصر التاريخية لهذه المدن قدم هذه المدائن التي لا تزال باقية حتى الآن ،

ولكن سكانها الحاليين المنهمكين في أعمالهم الحاضرة لا يشغلون أنفسهم بالقرون الطوال المستقرة في بطون الثرى تحت أقدامهم .

وأنشأ المجاريون أيضاً على البسفور حوالى عام ٦٦٠ مدينة بيزنطيوم (بيزنطية Byzantium (*)) التى كانت إلى عهد قريب تسمى القسطنطينية والتي تسمى الآن اسطنبول . وقد كان هذا الشجر ذو الموقع الحربى المنيع حتى قبل أيام بركليز مفتاح أوربا كما سماه ناپليون في معاهدة تليز Tilsit . وقد وصف پوليبوس في القرن الثالث قبل الميلاد موقعه البحرى بأنه « من حيث السلامة والرخاء خير من موقع أية مدينة أخرى في العالم المعروف لنا » (٩٧) . وازدادت ثروة بيزنطية بما كانت تفرضه من المكوس على السفن المارة بها ، وبما كانت تصدره إلى العالم اليونانى من حبوب روسيا الجنوبية (« سكوديا » Scythia) والبلقان ، وبما كان يصاد بلا أدنى عناء من السمك الذى يتجمع في المضائق الضيقة . وقد كان التواؤمها ، وما تفيضه عليها صناعة الصيد من ثرائهما اللذين خلعا على المدينة اسم « القرن الذهبى » ، وكانت أثينة في عصر بركليز هى المسيطرة على سياسة بيزنطية ، وكانت تفرض المكوس على السفن المارة لتملأ بها خزائنها في أوقات الشدائد ، وتعامل لإصدار الحبوب من موانئ البحر الأسود معاملة مهربات الحرب (٩٨) .

وأنشأ اليونان على الشاطئ الشمالى أو الترائى للبروپنتس مدائن عند سلمبريا Selymbria . وپرنثوس Perinthus (لإرجلى Eregli الحديثة) وبيزنثى Bisanthe ، وكاليوبيس Callipolis (غاليبولى) ، وسستوس Sestus . ثم أقاموا فيها بعد مدناً أخرى على ساحل تراقية الجنوبي الغربى عند أفروديسياس Aphrodisias ، وإينوس Oenus ، وأبدرا Abdera — حيث قام ليوسپوس

(*) ونراجع أن اسمها مشتق من لفظ بيزاس Byzas أى الملك الوطنى .

Leucippus ودمقريطوس Democritus بعد ذلك العصر بنشر الفلسفة المادية الذرية(*) وأمام ساحل تراقية في البحر تقع جزيرة ثاسوس Thasos ، و الجرداء القبيحة المنظر كأنها ظهر حمار في البحر ، كما وصفها أركلوكوس^(٩٩) ، ولكنها كانت غنية بمناجم الذهب غنى جعل منتجاتها منه تقي بنفقات الأداة الحكومية كلها . وأنشأ الباحثون عن الذهب من اليونان وخاصة الأثينيون على ساحل مقلونية الشرق أوبالقرب منه مدينتي نيوبوليس Neapolis وأمفيبوليس Amphipolis — وكان استيلاء فليب على هاتين المدينتين سبباً في اشتعال نار الحرب التي خسرت فيها أثينة حريتها . واستولى يونان آخرون معظمهم من كلسيس ولارتريا على شبه جزيرة كلسدس Chalcidice ذات الأصابع الثلاث وسموها بهذا الاسم . وما وافى عام ٧٠٠ ق . م حتى كانوا قد أنشأوا فيها ثلاثين بلدة قنر للكثير منها أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ اليونان : استاجيروس Stageirus (مسقط رأس أرسطاطاليس) وسيوني Scione ، ومندي Mende ، وپونديا ، وأكتوس Acanthus ، وكليوني Cleonae ، وتوروني Torone ، وأولثوس Olynthus التي استولى عليها فليب في عام ٣٤٨ والتي تشتهر عندنا لصلتها بخطب دموستين . وقد كشفت أعمال الحفر الحديثة في أولثوس عن مدينة واسعة الرقعة ذات بيوت كثيرة من طابقين يحتوي بعضها لحسا وعشرين حجرة . ويبدو أن هذه المدينة كان يسكنها في أيام فليب نحو ستين ألف نسمة . وفي وسعنا أن نستدل من هذا العدد الكبير الذي كان يقيم في مدينة صغيرة على سرعة تناسل اليونان قبل عصر بركليز ونشاطهم وسرعة انتشارهم

وآخر ما نذكره عن انتشار اليونان أن المهاجرين الأيونيين استقروا في الجزائر العويية الواقعة بين كلسدس وجزيرة عويية الكبيرة ، وهي جيرونيا Geronia ،

(*) هي الفلسفة المتأثلة بأن العالم يتكون من ذرات ترتب نفسها فيه في صور مختلفة (الترجم)

وبولييجوس Polyaeos ، ، وإيكوس Icos ، وبيارثوس Peparethos ،
واسكانديل Scandile ، واسكيروس Scyros ؛ وهكذا انطبق محيط
الإمبراطورية في الشرق والشمال انطباقا تاما والتي طرفاه . وبفضل نشاط
اليونان ومغامراتهم استحال جزائر بحر إيجه وسواحل آسية الصغرى ،
وشواطئ الهلسينت ، والبحر الأسود ، وسواحل مقدونية وتراقية معششا
من المدائن المصطوفة بالصبغة اليونانية ، تفيض بالأعمال الزراعية والصناعية ،
والتجارية ، وبالنشاط السياسى ، والأدبى ، والدينى ، والفلسفى ، والعلمى ،
والفنى ، وبالبلاغة ، وبالسفسطة ، والمحاكاة . ولم يبق أمام اليونان في
ذلك الوقت إلا أن يفتحوا بلادا يونانية أخرى في غرب بلاهم ، وبقيموا
قنطرة بين هيلاس القديمة والعالم الحديث .

الباب السابع

اليونان في الغرب

الفصل الأول

السياريون

بعد أن نمر سفينتنا الخيالية بسنيوم Sunium وتوجه نحو الغرب تصل إلى سثرا Cythera مقر أفرديتي الجتزري ، والتي كانت من أجل هذا مقصد وتو Watteau (*) . وفيها شاهد بوزنياس في عام ١٦٠ م (أقدم وأقدم ما شاهده اليونان من الهياكل لأفرديتي ^(١)) ، وفيها كشف شليان في عام ١٨٨٧ م عن أنقاض هذا الهيكل ^(٢) . وكانت في أقصى الجنوب من الجزائر الأيونية التي تجاور ساحل بلاد اليونان الغربي وقد سميت أيونية لأن مهاجرين أيونيين استقروا فيها ، وبقية هذه الجزائر هي زاسنثوس Zacynthos ، وكيفالينا Cephalenia ، وإثكا Ithaca ، ولوكاس Leucas ، وباكوس Paxos ، وكورسيرا Corcyra . وحسب شليان أن إثكا هي جزيرة أديسيوس ، وحاول عبثاً أن يجد تحت ثراها ما يؤيد قصة هومر ^(٣) . غير أن دورفيلد Dörpfeld كان يعتقد أن موطن أديسيوس هو جزيرة لوكاس الصخرية . ويقول استرابون إن أهل هذه الجزيرة القدامى كانوا يلقون من فوق صخورها ضحية بشرية يقدمونها في كل عام قرباناً لأبلو ؛

(*) كانت صورة Embarkation for Cythera (السفر إلى سثرا) التي صورها وتو تمثل روح الطليقات العليا في فرنسا خلال القرن الثامن عشر بعد أن تخلت عن الدين القدر الذي يسمح لها بأن تكون أبيقورية .

(٢١ - ج ١ - مجلد ٢)

ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا رجال دين فحسب بل كانوا فوق ذلك بشراً ، ولهذا كانوا يربطون في الضحية طيوراً قوية شفقة بها ورحمة ، حتى تخفف أجنتها من شدة الصدمة عند سقوط الضحية على الأرض^(٤) .

والراجع أن قفزة سافو نفسها ذات اتصال بذكريات هذه العادة الدينية . واحتل كرسيرا (كورفو Corfu) مستعمرون كورنتية حوالي ٧٣٤ ق . م ، ولم يلبثوا أن أصبح لهم من القوة ما أمكنهم بها أن يهزموا أسطول كورنتية ويقرروا استقلالهم . وسافر بعض المغامرين اليونان من كرسيرا في البحر الأدرياتي متجهين نحو الشمال حتى وصلوا إلى البندقية ، واستقر بعضهم في مستعمرات صغيرة على ساحل دلماشيا ، وفي وادي نهر الپو Po^(٥) ، وعبر بعضهم آخر الأمر مياه البحر الهائجة وقطعوا فيها خمسين ميلا حتى استقروا في كعب إيطاليا . ووجدوا في ذلك المكان شاطئاً جميلاً ينحني فتكون من انحنائه مرافئ طبيعة آمنة ، ومن ورائه أرض خصبة أهلها السكان الأصليون إهمالا يكاد أن يكون تاماً^(٦) . واستولى الغزاة اليونان على هذا الإقليم الساحلي بمقتضى قانون التوسع الاستعماري الذي لا يعرف للرحمة معنى ، وهو القانون القائل إن الموارد الطبيعية التي لا يستغلها أهل الإقليم تجذب ، بنوع من الجاذبية الكيميائية ، غيرهم من الناس ليستغلوها ويدفعوا بها إلى تجارة العالم ومنفعته . واخترق الوافدون الجدد — وأكثرهم من الدورين — كعب شبه الجزيرة مبتدئين من برنتيزيوم (برنديزي) وأنشأوا مدينة كبيرة في تاراس Taras — تارتم الرومانية (تارنتو الحديثة)^(*) وفيها غرسوا أشجار الزيتون وربوا الخيول ، وصنعوا الفخار ، وبنوا السفن ، وصادوا

(٥) ذكرنا في جدول الحوادث التاريخية المتصلة التواريخ المتواترة لإنشاء هذه المدن في غرب بلاد اليونان وقد أخذ ثوكيديدس هذه التواريخ عن المؤرخ القديم أنتيكوس السرقوسي Antiochus of Syracuse . ومظنة الخطأ فيها كبيرة ، ويعتقد مهني Mahaffy أن المدن التي أنشئت في صقلية قد أنشئت في عهد متأخرة من العهد الذي أنشئت فيه المدن الإيطالية . غير أن تواريخ ثوكيديدس لا يزال يؤيدها كثيرون من المؤرخين^(٧) .

السماك بالشباك ، وجمعوا بعض القواقع البحرية ليستخرجوا منها الصبغة الأرجوانية التي كانت أغلى قيمة من نظيرتها الفينيقية^(٨) . وبدأت الحكومة كما بدأت معظم المستعمرات اليونانية بأن كانت أبحارية يتولاها ملاك الأرض ، ثم انتقلت إلى أيدي طبقة المال الطبقة الوسطى ، واستمعت بفترات من الحكم الديمقراطي القوى المضطرب . وفي هذا المكان نزل بـرس صاحب الشخصية الروائية في عام ٢٨١ ، وأراد أن يقوم في الغرب بالبور الذي قام به الإسكندر في الشرق .

وأُسست موجة أخرى من المهاجرين معظمهم من الآخيين مدينتي سيبارس وكروتونا على الجانب الآخر من خليج تارنتم . وتدل الغيرة القاتلة التي نشاهدها بين هذه الدول ، وكلها من أصل واحد ، على ما كان يتصف به اليونان من نشاط قوى مبدع ، وعواطف جياشة مدمرة . وكان للتجارة بين بلاد اليونان الشرقية وإيطاليا الغربية طريقان أحدهما بحري والثاني برى في بعض أجزائه . وكانت السفن التي تسير في الطريق البحري تمر بكروتونا وتبادل فيها بالكثير من بضائعها ، وتمر بعدها برجيوم Rhegium وتؤدي فيها المكوس ، ثم تجتاز في حذر بحاراً موبوءة بالقراصنة ، ومضيق مسينا الكثير الدوامات ، حتى تقبل إلى إلباوكوى ، أقصى المستعمرات اليونانية في إيطاليا شمالاً . وكان التجار الذين يختارون الطريق الآخر يفرغون بضائعهم في سيبارس ليفروا من هذه المكوس والأخطار ، وليوفروا على أنفسهم عناء السير بحراً بالمجازيف والشرع ، ثم ينقلونها بطريق البر نحو ثلاثين ميلاً إلى ساحل لوس Laus الغربي ، ثم يحملونها مرة أخرى على ظهور السفن إلى بوسيدونيا ، ومنها تنتقل إلى الأسواق في داخل إيطاليا .

وكانت سيبارس ذات موقع حسن على هذا الطريق التجاري ، فأثرت وعمها الرخاء حتى بلغ عامرها (إذا جاز لنا أن نصدق أقوال د يودور الصقلي^(٩))

ثلاثمائة ألف نسمة ، وأثرت ثراء لا يضارعها فيه إلا القليل من مدن اليونان ، حيث أضحت كلمة سيارى مرادفة لكلمة أبيقورى . وكان العمل الجثمانى كله يقوم به العبيد ورقيق الأرض ، أما المواطنون الأحرار فكانوا يرتدون الثياب الغالية ، ويسكنون بيوتاً مترفة مريحة ، ويطعمون الأطعمة الشهية الواردة من خارج البلاد(*) . وكان يحزم على من يشتغلون بأعمال ذات جلبة أن يمارسوا صناعتهم فى داخل حدود المدينة . وكانت بعض الطرقات فى الأحياء الغنية من المدينة تغطىها خيام ومظلات لتقى الناس شر الحر والمطر^(١١) . ويقول أرسطو إنه كان لألسنيز السيارى ثوب من نسيج بلغ من عظيم قيمته أن باعه ديونيسيوس الأول السرقوسى فيما بعد بمائة وعشرين وزنة (٧٢٠ ر ١٠٠٠ رىال أمريكى^(١٢)) . ولما جاء اسمندريدز Smyndyrides السيارى فى زيارة لسكيون ليخطب ابنة كليسنيز ، كان معه ألف خادم^(١٣) .

وسارت الأمور على أذلالها فى سيارس حتى انزلت إلى الحرب مع كروتونا المجاورة لها (٥١٠) . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن السياريين سارو إلى الحرب بجيش تبلغ عدته ثلاثمائة ألف^(١٥) . وتؤكد لنا هذه الرواية نفسها أن الكروتين أحدثوا الاضطراب فى صفوف هذا الجيش بأن عزفوا النغفات التى علم السياريون خيولهم أن يرقصوا عليها^(١٦) . فلما سمعتها الخيل رقصت ، وأعمل الأعداء فيهم القتل ، ونهبوا مدينتهم ، وخربوها ، وأشعلوا فيها النيران ، حتى اختفت من التاريخ فى يوم واحد . ولما أن قام هيرودوت وغيره من الأثينيين بعد خمس وستين سنة من ذلك الوقت بالقرب من موقعها مستعمرة تورلى Thurli الجديدة ، لم يكادوا يجدون فى هذا الموضع أثراً لهذه الجالية التى كانت فى يوم من الأيام أكثر الجاليات اليونانية زهواً .

(*) ويقول أنثيوس إن الطهارة أو صانمى الحلوى الذين كانوا يبتدعون أصنافاً جديدة كان يسمح لهم بأن يسجلوها باسمهم ويحتكروها مدى عام^(١٠) . وربما كان أثينى س يخلط فى هذا القول بين المزل والتاريخ .

الفصل الثاني

فيثاغورس الكروتوني

كان عمر كروتونا أطول من عمر سيارس ؛ فقد أنشئت في عام ٧١٠ ق . م ولا تزال حتى الآن تعج بالصناعة والتجارة بعد أن تغير اسمها إلى كروتون . وقد كان مرفؤها المرفأ الطبيعي الوحيد بين تاراس وصقلية ، ولم تكن تعفو عن السفن التي تفرغ بضائعها في سيارس . وقد بقي فيها من التجارة ما يكفي لكي يعيش أهلها عيشة هنيئة ليئة ، كما أن هزيمتهم الموفقة في الحرب ، وكساد تجارتهم زمناً طويلاً ، وجو بلادهم المنعش ، ومزاجهم اللورى المزمّت بعض الشيء ، كل هذه الظروف مجتمعة قد جعلتهم يحتفظون بنشاطهم وقوتهم رغم ثرائهم العظيم . وفي هذه المدينة نشأ الرياضيون المشهورون أمثال ميلو Mito ، كما نشأت أعظم مدرسة طبية في بلاد اليونان الكبرى (Magna Greca) (*) .

ولعل اشتهار كروتونا بأنها ملجأ صهي هو الذي حبيب إلى فيثاغورس المحيي إليها . ومعنى فيثاغورس هو « الناطق القيثي » بلسان مهبط الوحي في دلفي ، وكان كثيرون من أتباعه يرون أنه هو أبلو نفسه ، ويدعى بعضهم أنه أبصر وميض فخذة الذهبية (١٧) . وتقول الروايات المتواترة إنه ولد في ساموس حوالي عام ٥٨٠ ، وتحدث عن جده في صباه . وتغزو إليه أنه صرف ثلاثين عاماً في الأسفار . ويقول عنه هرقلطس ، وهو الرجل الشديد الاقتصاد في مدحه إن « فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة (١٨) » . ويروى عنه أنه زار بلاد العرب ، وسوريا ، وفينيقية ، وكلديا ، والهند ، وغالة ، وعاد بلى على الرجالة حكمة عالية جديرة بالإعجاب هي قوله : إذا كنت مسافراً في خارج بلادك فلا

(٥) هذا هو الاسم الذي كان الرومان يطلقونه على المدن اليونانية في جنوبي إيطاليا . (الترجم)

تلتفت وراءك إلى حدودها^(١٩) ، ويجب أن تكبح جماح نزواتك عند كل ثغر تدخل فيه . وما من شك في أنه زار مصر حيث درس مع الكهنة ، وتعلم الكثير من علم الفلك والهندسة النظرية ، وربما تعلم أيضاً قليلاً من السخف^(٢٠) . ولما عاد إلى ساموس ووجد أن طغيان بوليكراتيز يحد من طغيانه هو هجرها إلى كروتونا وكان قد جاوز الخمسين من العمر^(٢١) .

وهنا اشتغل بالتدريس ، وكانت هيئته ، وغزارة علمه ، واستعداده لقبول النساء والرجال في مدرسته ، سبباً في إقبال الناس عليها حتى بلغ عدد من فيها بضع مئتين في زمن قصير . وقد قال بمبدأ تكافؤ الفرص للذكور والإناث على السواء قبل أن ينادى بذلك أفلاطون بماتتي عام ، ولم يناد به فحسب بل نفذه عملياً . على أنه مع ذلك لم يكن ينكر أن بين الجنسين فوارق طبيعية من حيث وظائف كل منهما . وكان يعلم تلميذاته الشيء الكثير من الفلسفة والآداب ، ولكنه كان يعلمهن أيضاً فن الأمومة والتدبير المنزلي ، ومن أجل ذلك اشتهرت النساء الفيثاغوريات في الزمن القديم بأنهن « أعلى نموذج في الأنوثة أخرجته بلاد اليونان في جميع العصور » .

وقد وضع فيثاغورس لطلابه بصفة عامة قواعد تكاد تحول مدرسته إلى دير للراهبات . فقد كان من يدخلونها يقسمون يمين الولاء للأستاذ ولبعضهم بعضاً . وتجمع الروايات المأثورة على أنهم كانوا يشتركون على قدم المساواة في جميع طبيبات الحياة ما داموا يعيشون في هذه الجماعة الفيثاغورية^(٢٢) . وكان اللحم والسّمك والفول محرمة عليهم ، أما الخمر فلم تكن محرمة ، ولكنه كان يوصيهم بشرب الماء ، وتلك وصية شديدة الخطورة في جنوبي إيطاليا في هذه الأيام . وربما كان تحريم اللحم لسبب ديني ذي صلة بعقيدة تقمص الأرواح ، فإن على الناس أن يحذروا أن يأكلوا أجدادهم . والراجع أنه كان يباح للطلاب أن يخرجوا على حرفية هذه القواعد من حين إلى حين . ويرى المؤرخون الإنجليز

بنوع خاص أن من غير المعقول أن يصبح المصارع ميلو الفيشاغورى أقوى رجل في بلاد اليونان كلها دون أن يأكل لحم العجول^(٢٤) ، — وإن كان العجل الذى أصبح بين ذراعيه ثوراً^(*) قد شب على أكل الكأ . وكان يحرم على أفراد هذه الجماعة أن يقتلوا أى حيوان لا يؤذى الإنسان أو أن يتلفوا شجرة مزروعة . وكان يطلب إليهم أن يلبسوا الثياب البسيطة وأن يطرحوا الكبرياء ، وألا « يندفعوا فى الضحك ، وألا يكونوا مع ذلك عابسين » . ولم يكن بياح لهم أن يقسموا بالآلهة لأن « من الواجب على كل إنسان أن يعيش عيشة تجعله خليقاً بأن يصدقته الناس دون أن يلجأ إلى القسم » . وكان محرماً عليهم أن يقدموا الضحايا قرباناً ، وكان فى وسعهم أن يتعبدوا أمام المذابح التى لم تلوثها الدماء . وكان عليهم أن يسألوا أنفسهم فى آخر كل يوم عما ارتكبه من الذنوب ، وعما أهملوه من الواجبات ، وعما فعلوه من الخير^(٢٥) .

وقد أخذ فيشاغورس نفسه بهذه القواعد وراعاها أشد مما راعاها أى تلميذ من تلاميذه اللهم إلا إن كان هو ممثلاً من أبرع الممثلين . وما من شك فى أن أسلوب حياته قد أكسبه من احترام طلابه وسلطانه عليهم ما جعلهم كلهم يتحملون طغيانه بلا تدمير ، وما جعل الكلمة الفاصلة فى كل جدال أو نظرية هى : لقد قالها هو نفسه Autos epha-ipsi dixit . وقد نقل إلينا فى عبارة تم عن التعظيم وتستثير الإعجاب أن المعلم نفسه لم يشرب الخمر بالنهار أبداً ، وأنه كان يعيش معظم أيامه على الخبز والعسل ، وأن حلواه كانت هى الخضر ، وأن ثوبه كان على الدوام ناصع البياض ، وأنه لم يُعرف عنه قط أنه أفرط فى الأكل ، أو عشق ، وأنه لم يفرق فى الضحك ، أو المزاح ، أو القصص ، ولم يعاقب إنساناً مطلقاً وواو كان عبداً^(٢٦) . وكان تيمن الأثينى يظنه « مشعوذاً يخادع بقول الجذ ، ويعمل على اصطياد الناس^(٢٧) » ، ويتنقض هذا القول أن زوجته ثيانو Theano وابنته

دامو Damo كانتا ن أشد أتباعه إخلاصاً له ، وقد كان في وسعهما أن توازنا بين فلسفته وحياته . ويقول ديوجينز ليرتس إنه « عهد بتعليقاته إلى دامو وأمرها ألا تذيعها لأى إنسان في خارج البيت ، وإنها لم تفرط قط في أحاديثه مع أنه كان في وسعها أن تبيعها بالمال الكثير ، لأنها كانت ترى أن طاعة أوامر والدها أثمن من الذهب ، ويزيد في فضلها أنها امرأة (٢٨) » .

وكان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغورى يتطلب ، فضلاً عن تطهير احسم بالعفة وكبح الشهوات ، تطهير العقل بدراسة العلم . وكان ينتظر من الطالب الجديد أن يلتزم « الصمت الفيثاغورى » مدى خمس سنين - ولعل المقصود بالصمت الفيثاغورى أن يتقبل الأوامر من غير سؤال أو مناقشة - قبل أن يعترف به عضواً كاملاً في الجماعة ، وقبل أن يسمح له بأن « يرى » فيثاغورس (٢٩) أى أن يدرس عليه . وتنفيذاً لهذا النظام كان التلاميذ يقسمون إلى طلاب خارجيين وطلاب داخليين ، وكان الداخليون هم الذين يحق لهم أن يعرفوا الحكمة السرية للمعلم نفسه . وكان منهج الدراسة يتألف من أربعة موضوعات : الهندسة النظرية ، والحساب ، والفلك ، والموسيقى . وكان يبدأ بالرياضيات (*) ، ولكنها لم تكن العلم العمل الذى استحوطت إليه على أبدي المصريين القدامى ، بل كانت علماً مجرداً نظرياً يبحث في الكميات ، ومثلاً أعلى في التدريب المنطقي يجعل التفكير منظماً واضحاً بعرضه على محك الاستدلال الصارم والبرهان الواضح الملموس . وأوضحت الهندسة النظرية من ذلك الوقت مجموعة من البديهيات ، والنظريات ، والبراهين . وكانت كل خطوة في القضايا المنطقية المتتالية ترفع الطالب إلى مستوى أعلى من مستواه السابق - على حد قول الفيثاغوريين - يستطيع منه أن يطلع أكثر من ذى قبل على بناء العالم (٣١) . وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن

(*) ويلوح أن الفيثاغوريين كانوا أول من استعمل كلمة ماثماتيكا Mathematike ، بمعنى الرياضيات ، فقد كانت قبل أيامهم تستخدم للدلالة على تعلم أى شئ (٣٠) . هما يكن نوعه !

فيثاغورس نفسه كشف كثيراً من النظريات الهندسية : وأهمها كلها أن مجموع الزوايا الداخلة في أى مثلث يساوى قائمتين ، وأن المربع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة في المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين . ويقول أبلودورس Appollodorus إنه لما كشف المعلم هذه النظرية ضحى بمائة ذبيحة شكراً على هذا الكشف العظيم (٣٢) . فإن كان قد فعل ذلك حقاً فقد ناقض المبادئ الفيثاغورية مناقضة يندى لها الجبين . وانتقل فيثاغورس من الهندسة إلى الحساب — على عكس النظام المتبع في هذه الأيام . ولم يكن يقصد بالحساب وقتئذ أن يكون فناً عملياً للتعداد والإحصاء ، بل كان نظرية مجردة للأعداد . ويلوح أن المدرسة الفيثاغورية هي أول من قسم الأعداد إلى فردية وزوجية ، وإلى أعداد صماء وأخرى قابلة للقسمة (٣٣) ، وقد صاغت نظرية النسبة ، واستطاعت بها و « بتطبيق المساحات » أن توجد الجبر الهندسى (٣٤) . ولعل دراسة النسبة هي التي أمكنت الفيثاغوريين من أن يحولوا الموسيقى إلى أعداد . ويروى أن فيثاغورس كان في يوم من الأيام ماراً بمخاتوت حداد ، فاسترعت سمعه الفترات الصوتية الخارجة من ضربات السندان ، والتي بدت له كأنها فترات موسيقية منتظمة . ولما عرف أن المطارق ذات أوزان مختلفة استنتج من ذلك أن النغمات تتوقف على نسب عددية . وتقول إحدى التجارب القلائل التي سمعنا بها في علوم القدماء إنه أتى بوترين متساويين في السمك وفي التوتر ، وتبين له أنه إذا كان طول أحدهما ضعف طول الآخر أخرجاً إذا جذبهما نغمة من الدرجة الأولى ، وإذا كان أحدهما ثلث طول الآخر مرة ونصف مرة أخرجاً نغمة (دو — صول) ؛ وإذا كان أحدهما ثلث طول الآخر مرة وثلاث مرة ، أخرجاً نغمة (دو ، فا) (٣٥) ؛ وبهذه الطريقة يمكن أن تقدر كل نغمة موسيقية تقديراً رياضياً ، وأن يعبر عنها تعبيراً رياضياً كذلك . وإذا كانت كل الأجسام التي تتحرك في الفضاء تخرج أصواتاً ، تتوقف درجة ارتفاعها على حجم الجسم وسرعة

حركته ، فإن كل كوكب في فلكه حول الأرض (كما يقول فيثاغورس) يحدث صوتاً يتناسب مع سرعة انتقاله ، وهذا الصوت يعلو أيضاً كلما بعد الكوكب عن الأرض ، ويتكون من هذه النغمات المختلفة اثتلاف في الأصوات أو «موسيقى الأفلاك» وهي موسيقى لا نسمعها قط لأننا نسمعها على الدوام^(٣٦) .

ويقول فيثاغورس إن العالم جرم كرى حتى مركزه الأرض ، وإن الأرض هي الأخرى جرم كرى تدور ، كما تدور الكواكب ، من الغرب إلى الشرق . وقد قسم الأرض ، والعالم كله في الحقيقة ، خمس مناطق - المنطقة الباردة الشمالية ، والباردة الجنوبية ، ومنطقة الصيف ، ومنطقة الشتاء ، والمنطقة الاستوائية ، وقال إن الجزء الذى نراه من القمر يكبر حجمه أو يصغر تبعاً للزاوية التى يواجه بها الأرض نصفه المتجه نحو الشمس ، وإن خسوف القمر ينشأ من وجود الأرض أو أى جرم آخر بينه وبين الشمس^(٣٧) . ويقول ديوجينيز ليرتس إن فيثاغورس كان أول من قال إن الأرض مستديرة ، وأول من سمى العالم كونا Kosmos^(٣٨) .

وقد عمل فيثاغورس بفضل بحوثه في الرياضيات والفلك أكثر مما عمله أى عالم آخر لوضع أسس العلوم الطبيعية في أوربا ، ولما أن تم له ذلك انتقل إلى الفلسفة . ويبدو أن لفظ الفلسفة نفسه من وضعه هو . وقد رفض أن يستخدم كلمة سوفيا Sophia أى الحكمة لأنها ادعاء عريض لا يرضاه ، ووصف سعيه لإدراك الحقائق بأنها فلسفة Philosophia أى حجة الحكمة^(٣٩) . وقد صارت كلمة فيلسوف وفيثاغورى في القرن السادس كلمتين مترادفتين^(٤٠) . وبينما كان طاليس وغيره من الميلينيين يبحثون عن أصل الأشياء جميعها في المادة ، كان فيثاغورس يبحث عنه في الشكل ، وبعد أن كشف ما في الموسيقى من علاقات ونتائج متتالية عددية منتظمة ، وبعد أن افترض وجود هذه العلاقات والنتائج المتتالية في الكواكب نفسها ، قفز قفزة الفلاسفة نحو الوحدة ، وأعلن أن هذه العلاقات والنتائج المتتالية العددية المنتظمة توجد في كل مكان ، وأن العامل الجوهرى

الأساسى فى كل شىء هو العدد . وكما أن اسبنوزا قد قال فيها بعد(*) إن
ثمة عالمين - أحدهما عالم الأشياء أو عالم الناس الذى يدركونه بالحواس
والآخر عالم الفلاسفة ، أو عالم القوانين والثوابت الذى يدركه العقل -
وإن العالم الثانى وحده هو العالم الحقيقى الدائم ، كذلك شعر فيثاغورس
أن النواحي الأساسية الخالدة لأى شىء هى ما بين أجزائه من علاقة
عددية(**) ، ولعله كان يرى أيضاً أن الصحة نفسها علاقة رياضية أو نسبة
صالحة بين أجزاء الجسم أو عناصره ؛ أو أن النفس كانت هى الأخرى
عدداً . وعند هذه النقطة انطلقت صوفية فيثاغورس التى استقاها من
مصر وبلاد الشرق الأدنى حرة لا تلوى على شىء . فقال إن النفس
تنقسم أقساماً ثلاثة : الشعور واللقانة والعقل ؛ فالشعور مركزه القلب ،
واللقانة والعقل مركزهما المخ ؛ وإن الشعور واللقانة من صفات الحيوان
والإنسان على السواء(+) ، أما العقل فيختص به الإنسان وحده ، وهو
خالد لا يفنى(٤٢) . وتمر النفس بعد الموت بفترة من التطهير فى الجحيم
Hades ، تعود بعدها إلى الأرض وتدخل فى جسم جديد ، ثم فى جسم
آخر ، وتمر فى سلسلة من التناسخ لا تنتهى إلا إذا كان صاحبها قد حَسِبَ
حياة فاضلة منزهة عن الرذائل أجمعها .

وكان فيثاغورس يدخل السرور على أتباعه ، أولعله كان يقوى عقيدتهم ، بقوله
لهم إن روحه قد تقمصت مرة جسم عاهر ، ومرة أخرى جسم البطل يوفوربوس

(*) فى مقاله عن « تحمين الدم » .

(**) يحاول العلم أن يرجع الظواهر كلها إلى تقديرات كمية رياضية قابلة للتحقيق .
والكيمياء يتحدثون عن الأشياء بلغة الرموز والأرقام ، وترتب العناصر ترتيباً رياضياً فى
توئين دورية ، وترجعها إلى حساب ذرى داخل من الكهارب ؛ وعلم الفلك رياضيات
سمائية ، وعلماء الطبيعة يحدون فى البحث عن قانون رياضى ينطبق على الكهرومغناطيسية ،
والجاذبية ؛ ولقد حاول بعض مفكرى هذه الأيام أن يعبروا عن الفلسفة نفسها فى صورة
رياضية .

(+) ومن واجبتنا أن نلاحظ فى هذه المقام أن فيثاغورس قد سبق باستيعاب بعض السبق فى
إنكاره التوالد التلقائى ، وقال إن الحيوانات كلها تولد من حيوانات أخرى عن طريق
« البذور » أو « الأصول » .

Euphorbus ؛ وإنه يذكر بوضوح مغامراته في حصار طروادة ، وإنه قد تعرف في هيكلها في أرجوس على الدرع الذي كان يابس في تلك الحياة القديمة^(٤٣) . وسمع مرة عواء كلب مضروب فقام من فوره لإنقاذه ، وقال إنه قد عرف في عوائه صوت صديق له ميت^(٤٤) . وفي وسعنا أن ننبئ شيئاً من الصلات الفكرية التي كانت تربط بلاد اليونان وأفريقية وآسية في القرن السادس ، إذا ذكرنا أن فكرة التناسخ هذه كانت مستحوذة في وقت واحد على خيال الهنود وعلى طقوس أورفيوس في بلاد اليونان وعلى إحدى الطوائف الفلسفية في إيطاليا .

ونحن نستشف نزعة التشاؤم الهندية تبرز في فلسفة فيثاغورس الأخلاقية بروح أفلاطون النيرة الصافية . والقصد من الحياة في النظام الفيثاغورى أن تخلص من التقمص ، والسبيل إلى ذلك هي الفضيلة ، والفضيلة هي ائتلاف الروح مع نفسها ومع الله . ومن المستطاع كسب هذا التآلف بطريقة اصطناعية . وكان الفيثاغوريون يستخدمون الموسيقى كما كان يستخدمها كهنة اليونان وأطباؤهم لشفاء الاضطرابات العصبية . وكانوا يعتقدون أن أكثر ما تحصل به النفس على التآلف هو الحكمة ، وهي فهم الحقائق التي يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئا ؛ وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال ، والطريقة الوسطى الذهبية . أما الطريقة المضادة لهذه - أي طريقة التنازع والتطرف ، والخطيئة - فتؤدي حتماً إلى المآسى والعقاب والعدالة « عدد مربع » ، وكل خطأ « سيريع » إن عاجلاً أو آجلاً بالعقوبة المكافئة له^(٤٥) . هذا هو جوهر فلسفة أفلاطون وأرسطو الأخلاقية .

أما سياسة فيثاغورس فهي فلسفة أفلاطون حقةها من قبل أن يدركها . ولقد كانت مدرسة فيثاغورس ، حسب ما نفهمه من الروايات القديمة المتواترة ، أرستقراطية شيوعية : تطلب إلى الرجال والنساء أن يجمعوا كل ما لديهم من الطيبات ، وأن يتعلموا مجتمعين ، وأن يدربوا على الفضيلة والتفكير الراقى بطريق

العلوم الرياضية والموسيقى ، والفلسفة ، وأن يتقدموا من تلقاء أنفسهم ليكونوا حكام الدولة الحارسين لها . والحق أن الجهد الذى كان يبذله فيثاغورس ليجعل مجتمعه هو نفسه حكومة مدينته العقلية ، هو الذى أهلكه وأهلك أتباعه . فقد اندفع المبتدئون من أتباعه فى تيار السياسة . وانحازوا إلى جانب الأشراف انحيازاً أثار عليهم حزب الشعب فى كروتونا ، فاندفع أفراده فى ثورات غضبهم ، وأحرقوا البيت الذى كان الفيثاغوريون مجتمعين منه ، وقتلوا طائفة منهم ، وأخرجوا الباقين من المدينة . وتقول إحدى الروايات إن فيثاغورس نفسه قد قبض عليه وقتل حين أبى فى فراره أن يطأ بقدمه حقلاً من القول ؛ وتقول رواية أخرى إنه فر إلى متابنتم Metapontum حيث امتنع عن الطعام أربعين يوماً - ولعله كان يحس أنه يجب أن يكتب من العمر بثمانين عاماً - وأما نفسه جوعاً^(٤٦) .

أما أثره فهو أثر خالد على مدى الأيام ، ولا يزال اسمه حتى اليوم طناناً رناناً ، كما عاش مجتمعه ثلاثمائة عام فى صورة جماعات منتشرة فى بلاد اليونان ، يخرج منها علماء طبيعيون أمثال فيلولوس Philolaus الطبيي ، وحكام أمثال أركيتاس Archytas طاغية تاتاس Tatas وصديق أفلاطون . ولقد كان وردسورث Wordsworth فى أشهر قصائده كلها فيثاغوريا من غير أن يشعر . وكان أفلاطون نفسه يهيم بصورة فيثاغورس الغامضة ، وهو يأخذ عنه فى جميع نواحي نشاط الذهن - فى سخريته من الديمقراطية ، وفى تلهفه على وجود أرسقراطية شيوعية من الحكام الفلاسفة ، وفى اعتقاده أن الفضيلة تألف ، وفى نظرياته عن الطبيعة والنفس ، وفى شغفه بالهندسة ، وفى إيمانه بقوة الأعداد الخفية . وقصارى القول أن فيثاغورس - على قدر ما وصل إليه علمنا - هو واضع أساس العلوم الطبيعية والفلسفة فى أوروبا ؛ وذلك عمل يكفى لتخليد اسم أى إنسان .

الفصل الثالث

زنوفانيز الإيلاني

في غرب كروتونا مكانٌ لكري Locri القديمة ، ويقول أرسطو إن هذه المستعمرة قد أسسها العبيد والزانون واللصوص الفارون من بلدة لكري في أرض اليونان القارية ؛ ولكن لعل الذي أنطق أرسطو بهذا القول هو احتقار العالم القديم للجديد . وساد بين المستعمرين الاضطراب الناشئ من أصلهم الأول ، فلجأوا إلى مهبط الوحي في دلفي يطلبون النصيحة فقبل لهم إن عليهم أن يسئروا لأنفسهم قوانين . وربما كان زلوكوس هو الذي أنطق الوحي بما نطق به ، لأنه وضع للكري في عام ٦٦٤ قوانين قال إن أثينة أملتأ عليه في المنام . وكانت هذه أول قوانين مكتوبة في بلاد اليونان كلها ، وإن لم تكن أولى القوانين التي هبطت من عند الآلهة . وبلغ من حب اللكريين إياها أن حتموا على كل من يريد أن يقترح قانوناً جديداً أن يتكلم وفي جيده حب ، حتى إذا رفض اقتراحه شفقوه بأقل كلفة من الأموال العامة(*) (٧١) .

وبعد أن يطوف المسافر حول إصبع قدم إيطاليا ويتجه نحو الشمال يصل إلى رجيو Reggio ، وكانت مدينة مزدهرة أسسها أهل مسينا حوالي عام ٧٣٠ ق . م وسموها رجيون Rhegion وعرفها الرومان باسم رجيوم Rhegium ، فإذا اجتاز مضيق مسينا — ولعله هو الذي سمته الأوديسة « سلاو كربينيس » Scylla and Charybdis — وصل إلى المكان الذي وقف فيه لوس Laus ؛

(*) كان اليونان مولين بهذه الخرافة ولما حلهم على أن يذكروها أيضاً عن قوانين كاتانا Catana وثورديا Thurii ، وشغف ميشيل ده منتاى Michel de Montaigne بهذه الخطة ، ولعلها لم تبق بعد أن استنفدت غرضها .

ثم جاء بعدئذ إلى هيلي^(١١) Hylee القديمة وهي فليا Velia الرومانية ،
المعروفة في التاريخ باسم إلبيا Elea لأن أفلاطون كتبها بهذه الصورة ، ولأن
فلاسفتها وحدهم هم الذين بقى ذكرهم . وهنا جاء زنوفانيز الكلوفوني حوالى
٥١٠ وأنشأ المدرسة الإليائية .

وكان ذا شخصية فذة لا تقبل في ذلك عن عدوه فيثاغورس المحبوب
من أهل بلده . ذلك أنه كان جم النشاط لا بكل من العمل ، مبتكراً لإيهاب
الابتداع ، ظل ستة وسبعين عاماً - على حد قوله هو نفسه - يطوف « في
أرض هيلاس من أقصاها إلى أقصاها » يجمع منها مشاهداته ويخلق لنفسه
فيها أعداء أينما حل . وكان يكتب قصائد فلسفية ويتلوها على الناس ،
ويندد بهومر ويعيب عليه سفاهته وعدم تقواه ، ويسخر من الخرافات ؛
وقد أنشأ مينا في إلبيا وأتم من العمر قرناً كاملاً قبل أن يموت^(٢٩) . ومن
أقواله أن هومر وهزيود « يعزوان إلى الآلهة كل الأعمال التي تحط من قدر
الآدميين وتجللهم بالعار - كالتلصص ، والزنا والغش^(٥٠) . ولكنه هو لم
يبلغ شأواً بعيداً في التقى والصلاح كما يدل على ذلك قوله :

« لم يوجد في العالم كله ، ولن يوجد فيه ، رجل ذو علم أكيد
عن الآلهة . . . فالآدميون يتصورون أن الآلهة يولدون ، ويلبسون
الثياب ، وأن لهم أصواتاً وصوراً كأصوات الآدميين وصورهم . ولو كان
للثيران والآساد أيد مثلاً ، وكان في وسعها أن ترسم وتصنع صوراً
كما يفعل الآدميون ، لرسمت لآلهتها صوراً وصنعت لها تماثيل على صورتها
هي ؛ ولو استطاعت الخيل لصورت آلهتها في صورتها ، ولصورت الثيران
آلهتها في صورة الثيران . والأجباش يصورون آلهتهم سوداً فطس الأنوف ؛
والتراقيون يصورون آلهتهم زرق العيون حمر الشعر . . . ألا إن ثمة إلهاً
واحداً يعلو على الآلهة والبشر ، لا يشبه الآدميين في صورته ولا في عقله .

فهو كله يرى ، وكله يفكر ، وكله يسمع . وهو يسيطر من غير نصب على الأشياء كلها بقوة عقله^(٥١) .

ويقول ديوجينيز ليرتس^(٥٢) إن زنوفانيز قد وحد بين هذا الإله والكون . وكان هذا الفيلسوف يعلم الناس أن الأشياء كلها ، بل والناس أيضاً ، مخلوقون من الطين والماء حسب قوانين طبيعية^(٥٣) ، وأن الماء كان في يوم من الأيام يغطي الأرض بأجمعها لأننا نرى الحفريات البحرية في الأرض بعيدة عن شواطئ البحار وعلى رؤوس الجبال ، وأكبر الظن أن الماء سيغطي الأرض كلها يوماً ما في المستقبل^(٥٤) . بيد أن كل ما يحدث في التاريخ من تغير ، وكل ما يحدث في الأشياء من فرقة وانقسام ، ليس إلا ظواهر سطحية ، وأن من تحت هذا الزحام ومن وراء ذلك الاختلاف في الصور والأشكال وحدة لا تتبدل أبداً هي حقيقة العلم الباطنة الداخلية .

ومن هذه البداية سار برميندس الإلياني تلميذ زنوفانيز إلى الفلسفة المثالية التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل تفكير أفلاطون والأفلاطونيين طوال العصر القديم ، وتفكير أوربا الذي دام إلى يومنا هذا .

الفضل الرابع

من إيطاليا إلى أسبانيا

على بعد عشرين ميلاً إلى شمال إلبا كانت تقوم مدينة بسلونيا - بسم Paestum الرومانية - التي أنشأها مستعمرون من سيياريس لتكون آخر محطة برية إيطالية لتجارة ميليتس . وفي وسع الإنسان أن يصل إليها اليوم بعد سفرة لطيفة من نابلي مغترباً سالرنو Salerno ، وتظهر أمامه على حين غفلة ، على جانب الطريق ، وسط حقول مهجور ، ثلاثة تماثيل ، عظيمة حتى في عزلتها . فلقد سد النهر في هذا المكان مصبه بما يحمله من الغرين طوال القرون الماضية ، فاستحال هذا الوادي الذي كان من قبل وادياً خصياً طيباً منافع ضارة بالصحة ؛ وحتى الأقوام الذين يحرثون سفوح جبل فيزوف ، والذين لا يبالون بما يصيبهم في سبيل ذلك من أذى ، حتى هؤلاء قد فروا يائسين من هذه السهول الموبوءة بالملاريا . وقد أبقي الزمان على أجزاء من الجدران القديمة ، وأبقى كذلك بحالة أجود من حالة هذه الجدران - وكأن العزلة كانت من أسباب هذا البقاء - على الأضرحة التي شادها اليونان من حجر الجير المتوسط الصلابة ، ولكنها كاملة لم تكد تنال منها يد الزمان شيئاً . وقد أقام اليونان هذه الأضرحة لآلهة الحب والبحر وأغلب الظن أن أقدم هذه المباني ، وهو البناء الذي سمي فيما بعد هالباسليكا Basilika ، كان هيكلأپوسيدن . وقد شاهده له الأقوام الذين يعتمدون في طعامهم على فاكهة البحر المتوسط وتجارته حوالى منتصف هذا القرن السادس العجيب ، الذي خلق كل عظيم في الفن والأدب والفلسفة بين إيطاليا وشانتنج Shantung . وقد بقيت من هذا الهيكل أعمدته الداخلية والخارجية شاهدة على شغف اليونان بإقامة العمد . وأقام الجليل الذي تلاه

هيكلا أصغر من هذا الهيكل شبيهاً به في بساطته وقوته الدوريتين . ونحن نسميه « هيكل سيريز Ceres » ولكننا لا نعرف أى الآلهة كان يشم رائحة قرايئه . وشاد جيل بعد هذا الجيل أيضاً ؛ قبيل الحرب الفارسية أوبعدها^(٥١) ؛ أعظم الهياكل الثلاثة وأحسنها تناسباً ؛ وأكبر الظن أنه شيد لبوميدن أيضاً - وهو من أجدر الهياكل بهذا الإله لأن في وسع الإنسان أن يطل من أروقه على صفحة البحر الغدار الذى يغرى المطل عليه بركوبه . وأينا ولى الإنسان وجهه في هذا الهيكل رأى عمداً : ففي الخارج رواق دورى قوى كامل البناء ، وفي الداخل رواق من العمود ذو طابقيين كان يحمل أعلاها فيما مضى سقفاً . وذلك منظر من أعظم المناظر الإيطالية تأثيراً في النفس ؛ ولا يكاد الإنسان يصدق أن هذا الهيكل الذى احتفظ بكيانه أحسن مما احتفظ به أى هيكل شاده الرومان ، كان من عمل اليونان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون لا تكاد تنقص شيئاً . وفي وسعنا أن نستدل منه على ما كان الأتوام الذين شادوا أمثال هذا المركز لحياتهم الدينية من حبوبة وولع بالجمال ، وما كانوا يستمتعون به من موارد ثراء ومن حسن ذوق . وفي وسعنا أن نتصور من بعد هذا صورة وواضحة جلية لما كانت عليه المدن الكبرى مثل ميليتس ، وساموس ، وإفسوس ، وكروتونا ، وسيفاريس وسرقوسة من أبهة وثراء .

وعلى مسافة قليلة من الموضع الذى تقوم عليه نابلي الحديثة ، وإلى شمالها ، أقام بعض المغامرين من كولسيس ، وإترى ، وكيجي Cyme العوية ، وجرايا Graia ، حوالي عام ٧٥٠ ثغر كومية العظيم أقدم المدائن اليونانية في غرب بلادهم ، وسرعان ما أثرت كومية من استيرادها غلات بلاد اليونان الشرقية وبيعها في أواسط إيطاليا ، وأعانت ذلك على استعمار جيوم والسيطرة عليها ، كما سيطرت على مضيق مسينا وحرمت عبوره على سفن المدائن التى لم تعقد معها حلفاً تجارياً أو سمحت لها بالمرور بعد أداء رسوم باهظة قرضتها عليها^(٥٢) . وانتشر الكومبود

جنوباً وأسسوا ديسآركيا Dicaearchia — وهى التى أصبحت فيما بعد ثغر
پتيولى Puteoli (پتسيولى Pozzuoli) الرومانى — ونيپوليس Neapolis
أو المدينة الجديدة وهى مدينة نابلى الحالية . ومن هذه المستعمرات انتقلت
الأفكار اليونانية كما انتقلت المتاجر اليونانية إلى مدينة رومة الناشئة التى
لم يكن لها وقتئذ شأن كبير بين المدن ، كما انتقلت شمالاً إلى إتروريا .
واختار الرومان من كومية عدداً من الآلهة اليونانية — وبخاصة أبلو ،
وهركليز ، وابتاعوا الملفات التى تنبأت فيها سيبيل الكومية — كاهنة أبلو
العجوز — بمستقبل رومة بأكثر مما تستحقه من الثمن .

وقبل أوائل القرن السادس بقليل نزل فوقيو أبونيا على سواحل
فرنسا الجنوبية وأسسوا مساليا (مرسيليا) ، ونقلوا غلات بلاد اليونان فى
نهر الرون وروانده حتى أريس Arles ونيمز Nimes . واتخذوا من
الأهلين أصدقاء وأزواجاً ، وأدخلوا زراعة الزيتون والكروم هدية منهم
إلى فرنسا ، كما أدخلوا الحضارة اليونانية إلى غالة الجنوبية ، ونشروها بين
ربوعها إلى حد يسر لرومة فيما بعد أن تنشر فيها هى الأخرى فى أيام قيصر
حضارتها الوثيقة الصلة بالحضارة اليونانية . وأسس الفوقيون فى اتجاه
الشرق على طول الساحل مدن أنتپوليس Antipolis (أنتيب Antibes
الحديثة) ، ونيسية Nicaea (نيس الحالية) ومنوكوس Monoecus
(موناكو) . أما فى الغرب فقد وصلوا إلى أسبانيا وأسسوا مدينة رودية
Rhodae (روساس Rosas) ولإپوريوم (أمپورياس) وهمروسكويوم
Hemeroscopium وميناكا Maenaca بالقرب من مالقة Malaga ، وأثرى
اليونان فى أسبانيا وقتناً باستغلالهم مناجم الفضة فى تارتسوس Tartessus ؛
ولكن القرطاجيين والإترويين نالوا عليهم فى عام ٥٣٥ ودمروا الأسطول
الفوقى ، ومن ذلك الوقت أخذت قوة اليونان فى غرب البحر المتوسط
تنضال ولم تقم لهم فيه بعدئذ قاعة .

الفصل الخامس

صقلية

لقد تركنا إلى آخر المطاف ، أو على الأصح إلى قبيل آخره ، أغنى الأَصْنَمِاعِ التي استعمرها اليونان . ونقول أغناها لأن الطبيعة وهبت صقلية ما حرمت منه بلاد اليونان في القارة الأوربية — ونعني بذلك تربتها التي لا يكاد ينفد خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها — ، ولذلك كانت تنتج من القمح والحبوب الأخرى ما جعل أهلها يمتدنون أنها إن لم تكن مسقط رأس ديمتر نفسها فلا أقل من أن تكون ملجأها المفضل المحبوب . لقد كان فيها يساتين وكروم ، وآجام من أشجار الزيتون مثقلة كلها بالثمار ، وكان فيها شهد لا يقل حلاوة ولذة عن جنى همتوس Hymettus ، وأزهار تفتتح طائفة بعد طائفة من بداية العام إلى نهايته . كان فيها سهول كثلة ترعى فيها الماشية والفضأن ، وتنمو على منحدرات نلالها أشجار لا يحصها عد ، وسمك البحار المحيطة بها يتوالد وينمو أسرع مما يستطيع أهل صقلية أن يأكلوه .

وازدهرت في هذه الجزيرة ثقافة من ثقافات العصر الحجري الحديد في الألف الثالث من السنين التي قبل ميلاد المسيح ، وأخرى من ثقافات العصر البرنزي في الألف الثاني منها ؛ وحتى في الأيام المنيوية كانت التجارة الخارجية تربط الجزيرة بكريت وبلاد اليونان^(٥٧) . وفي أواخر الألف الثاني من السنين تكسرت ثلاث أمواج من الهجرة على سواحل صقلية : وهى موجة السكانين Sicans من أسبانيا ، وموجة الإليميين Elymi من آسية الصغرى ، وموجة الصقليين Sicels من إيطاليا^(٥٨) . واستقر الفينيقيون حوالى عام ٨٠٠ ق . م في متيا Motya وبنورموس Panormus (بالرمو) في غرب الجزيرة . ثم ندفع

اليونان عليها من سنة ٧٣٥ وما بعدها(*) ، وسرعان ما أسسوا ناكسوس ،
وسرقوسة ، وليونتيني Leontini ، ومسانا (مسينا) ، وقطانا Catana ،
وجيلا ، وهيرا Himera ، وسلينس ، وأكروجاس . وكان أهل الجزيرة
الأصليون في جميع هذه المحجرات يُطردون من السواحل نحو الداخل بقوة
السلاح . وقد انسحبت كثرتهم إلى الأصقاع الجبلية الداخلية تفلحها
وتستغلها ، ومنهم أقلية أصبحت عبيداً للغزاة . وتزواج عدد منهم مع
الفاثحين بلغ من الكثرة حداً أصبح معه للدم والعادات والأخلاق اليونانية
في صقلية الغلبة على طباع الأهليين ، فاتصفوا بما كان يتصف به اليونان
من ثورة عاطفية وانهمالك في العلاقات الجنسية^(٥٩) . ولم يفتح اليونان
الجزيرة في وقت من الأوقات بالمعنى الصحيح للفظ التفتح ، بل بقي
الفينيقيون والقرطاجنيون أصحاب السلطة العليا على ساحلها الغربي ، ودامت
الحرب بينهم وبين اليونان خمسمائة عام ، رمزاً للكفاح بين اليونان
والساميين ، وبين أوروبا وأفريقية ، للاستيلاء على صقلية وبدأ هذا النزاع
من جديد في العصور الوسطى بين أهل الشمال (النورمان) والعرب بعد أن
ظلت رومة مهيمنة على الجزيرة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

وامتازت قطانا بشرائعها ، كما اشتهرت جزائر لباري Lipari
بشيوعيتها ، وميرا بشاعرها سيجستا Segesta وسلينس وأكروجاس
بهاكلهما ، وسرقوسة بقوتها وراثتها . وأضحت الشرائع التي سنّها
كارنداس Charondas لقطانا قبل صولون بجيل كامل أعوذجاً تحتذيه
كثير من المدن في صقلية وإيطاليا ، وكانت عاملاً قوياً في استتباب النظام
العام وكبح الشهوات الجنسية في مجتمعات لا تحميها التقاليد القديمة ولا السوابق
المقدسة المرعية . ومن أقوال كارنداس في هذا المعنى أن في وسع الرجل
أن يطلق زوجته ، كما أن في مقدور الزوجة أن تطلق زوجها ،
ولكن ينبغي للرجل ألا يتزوج أصغر من مطلّقه كما أن عليها هي الأخرى

(*) أول دليل ذلك كان بعد جيل من ذلك الوقت . انظر هامش ص ٢٩٠ .

ألا تزوج برجل أصغر من طلقها^(١٠) وتروى قصة يونانية الطابع نصادفها كثيراً في القصص اليوناني أن كرننداس حرم على المواطنين أن يدخلوا الجمعية مسلحين . على أنه حدث في يوم من الأيام أن جاء هو إلى اجتماع عام يحمل سيفه سهواً منه ، ولما أن لأمه أحد الناخبين على مخالفته لشريعته أجاب بقوله : « سأؤيد هذا القانون » ثم قتل نفسه^(١١) .

وإذا شئنا أن نتصور ما كان يكتنف الحياة من صعاب في هذه المستعمرات التي نشأت عن طريق الفتح العنيف ، فاعلمنا إلا أن نستعرض النزعة الشيوعية العجيبة التي كانت تسود جزائر ليايزي (أى المحيدة) الواقعة إلى الشمال من شرق صقلية . فقد أقام فيها حوالى عام ٥٨٠ ق . م جماعة من المغامرين جاءوا من نيدس Cnidus جنة القراصنة . وكان هؤلاء يهاجمون المتاجر المارة حول المضيق ، ويأتون بغنائمهم إلى أوكارهم في الجزيرة ويقتسمونها فيما بينهم قسماً تعد مضرب المثل في العدالة . وكانت الأرض ملكاً للأهلين مجتمعين ، يخصصون عدداً منهم لفلحها ، ويوزعون غلتها على المواطنين توزيعاً عادلاً خالياً من الظلم والإجحاف . بيد أن النزعة الفردية عادت إلى الظهور على مدى الأيام ، فقسمت الأرض أقساماً امتلكها الأفراد ، وعادت تجرى في مجراها المألوف خالية من المساواة ، مليئة بالتنافس والتطاحن

وعلى ساحل صقلية الشمالى كانت تقوم مدينة هيارا ، وقد شاءت الأقدار أن تجعل منها بلاتية في الغرب ، وفيها صاغ استسكورس Stecichorus « صانع الأنشيد الجماعية » خرافات بنى جنسه في صورة أغان جماعية في الوقت الذي أخذ فيه اليونان يملون الملاحم الطوال ، وحتى هلن وأخيل نفسيهما لم ينجوا من هذا التجديد القصير الأجل بل اكتسبا على يديهما بهذا « الثواب الجديد » . وكأنما أراد استسيكورس أن يسد الثغرة بين الملحمة الميتة ، والرواية القصصية المقبلة ، فألف قصصاً شعرية ، روى في إحداها كيف ماتت فتاة طاهرة لأن من أحبته لم

يستجيب لحبها ، وكان الأسلوب الذى روى به هذه القصة شديداً بأسلوب أغاني الحب البروفنسالية Provençal فى فرنسا أو قصص العصر الفكتورى فى إنجلترا . هذا إلى أنه قد مهد فى الوقت نفسه الطريق أمام ثيوقريطس Theocritus بأن كتب قصيدة فى حياة الرعاة روى فيها موت الراعى دفينيس Daphnis الذى كان حبه لكلو Chloe موضوع الروايات اليونانية فى العصر الرومانى . وقد كتب استسيكوروس نفسه رواية غرامية كانت بطلتها هلى نفسها . ولما فقد ستسيكوروس بصره اعتقد أن هذه الكارثة لم تحل به إلا لأنه نقل إلى الخلف قصة خيانة هلى ، وأراد أن يكفر لها عن ذنبه (لأنها أصبحت وقتئذ إلهة) فألف قصيدة أخرى أنكر فيها ما قاله فى أغنيته الأولى ، وأكد للعالم أن هلى اختطفت من بيتها قوة واقتداراً ، وأنها لم تسلم نفسها قط لباريس ، ولم تذهب إلى طروادة ، بل بقيت سالمة فى مصر حتى جاء منلوس لينقذها من محنتها . وقد حظر الشاعر فى شيخوخته هيمرا من سلطة فلارس Phalaris الأكرجامى المطلقة(*) ، فلما أصم فلارس أذنيه عن سماع نصحه انتقل إلى قطانا ، حيث كان قبره الأثرى من المناظر الرائعة فى صقلية فى العصر الرومانى .

وإلى غرب هيمرا كانت سيجستا Segestia ، التى لم يبق منها إلا رواق ذو عمد دورية ناقصة تقوم الآن وسط ما يحيط بها من الأعشاب البرية . وإذا شئنا أن نتبين طراز فن العمارة الصقلية فى أحسن صوره ، كان علينا أن نخترق الجزيرة إلى الجنوب حيث كانت المدينتان العظيمتان سلىنس وأكروجاس . فأما سلىنس فقد شادت للآلهة الصامته ، فى أثناء حياتها المحزنة منذ تأسيسها فى

(*) وقد صاغ هذا التمثيل فى قالب خرافة فقال إن حصاناً قد ضايقه اقتحام وحل مرهه ، فطلب إلى رجل أن يعينه على عقاب المعتدى ووعد الرجل أن يجرب طلبه إذا سمح له أن يركبه وسحرته فى يده . فوافق الحصان على ذلك ، وهرب الرجل من المصطفى مذهباً ، ولكن الحصان وجد أنه قد أصبح عبداً للرجل .

عام ٦٥١ إلى أن دمرها القرطاجنيون عام ٤٠٩ ، سبعة هياكل دورية الطراز ، ضخمة ولكنها تعوزها الدقة وحسن الصناعة ، يغطيها الحصن المزين بالرسوم وعليها نقوش بارزة فجأة . وقد دمر شيطان الزلازل هذه الهياكل في وقت غير معروف ، ولم يبق منها سوى أعمدة محطة وتيجان ملقاة على الأرض .

وأما أكروجاس - أكرجتم الرومانية - فقد كانت في القرن السادس أكبر مدائن صقلية وأعظمها ثروة . وفي وسعنا أن نتخيلها ممتدة من أرصفتها الشديدة الحركة ، إلى سوقها الصاخبة ، وإلى بيوتها القائمة على جانب التل ، ثم إلى قلعتها الحصينة الفخمة التي تكاد أضرحتها لعلوها الشاهق أن ترفع المتعبدين فيها إلى السماء . وفي هذه المدينة رضى الأشراف ملاك الأراضي أن يسلموا زمام الحكم إلى دكتاتورية تمثل الطبقة الوسطى بنوع خاص ، شأنها في هذا شأن معظم المدن اليونانية . وفي عام ٥٧٠ اغتصب فلاس زمام الحكم ، وخلد اسمه على مر الأزمان بأن شوى أعداءه في داخل ثور من النحاس الأصفر ؛ ولقد سره بنوع خاص أن استطاع صانعو هذا الثور أن يستحدثوا فيه طريقة تجعل عويل الضحايا يخرج من طائفة من الأنايب كأنه خوار الثور نفسه^(١٢) . لكنه رغم هذا كان هو وطاغية آخر من بعده يدعى ثرون Theron الرجلين الذين تمتعت المدينة في عهدها بالنظام السيامي والاستقرار ، وبفضلهما قطعت شوطا بعيداً في سبيل تقدمها الاقتصادي ، حتى أصبح تجار أكروجاس كما أصبح تجار سلينس ، وكروتونا ، وسيبارس أصحاب الملايين في تلك الأيام ، وكان ذوو المال الأقل منهم شأنًا في بلاد اليونان القديمة ، يحسدونهم شرا على ثرائهم العظيم ، وينقمون لأنفسهم منهم بازدرائهم ، ويقولون إن الأثرياء الجدد مولعون بالفخامة والمظهر ، ولكنهم يعوزهم الذوق وجمال الفن . وما من شك في أن هيكل زيوس في أكروجاس كان يمتاز بضخامته ، فقد وصفه پوليبوس بأنه لا يعلو عليه هيكل آخر في حجمه أو تصميمه^(١٣) ، وليس في مقدورنا أن نقدر ما كان عليه من

جمال ، لأن الحروب والزلازل دمرته تدميراً ، ثم سادت أكروجاس بعد جيل من ذلك الوقت ؛ أى فى عصر بركليز ، هياكل أخرى أقل من هذا حجماً . وقد بقى أحدها وهو هيكل الوفاق Concord بكامل أجزائه تقريباً ، كما بقى من هيكل هيرا طائفة من العمد تؤثر فى النفس بروعتها . ويكنى ما بقى من المعبدين للدلالة على أن اللوق اليونانى لم يكن مقصوراً على أثينة وحدها ، وعلى أن الغرب التجارى نفسه قد أدرك أن الرقى ليس فى الضخامة . وفى أكروجاس ولد إله دقليز العظيم ، ولا يبعد أن يكون قد مات فيها أيضاً لا فى فوهة بركان إتنا Etna .

وبدأت سرقوسة بالصورة التى هى عليها اليوم - قرية محتشة على لسان أرتيجيا Ortygia الجبل الممتد فى البحر . وكانت كورنثة قد أرسلت فى القرن الثامن جماعة من المستعمرين مسلحين بأخلاق قديمة وأسلحة متفوقة للاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة . ولعلها كانت وقتئذ جزيرة ، فبنوا أو وسعوا الطريق الذى يصلها بأرض صقلية ، وطردها معظم الصقليين إلى داخل الجزيرة . وازداد أبنائهم كما يزداد أبناء الشعب القوى فى الأرض الكثيرة الموارد ، حتى أصبحت مدينتهم على مر الأيام أكبر المدن فى بلاد اليونان كلها ، فكان طول محيطها أربعة عشر ميلاً ، وسكانها نصف مليون . وقام العامة من سكانها الذين لم يكن لهم ما لساائر الأهلى من حقوق سياسية ، ومعهم الصقليون المسترقون بثورة على الأشراف ملاك الأراضى واستولوا منهم على أزمة الحكم فى عام ٤٩٥ . ولكن الديمقراطية الجديدة - إذا جاز لنا أن نصدق أرسطاطاليس^(٦) ، عجزت عن أن تقيم مجتمعاً منظماً ، وما زالت كذلك حتى قام جيلون الجبلى Gelon of Gela فى عام ٤٨٥ واستبدل بها دكتاتورية مستعينة على ذلك بنخطة من الغدر المستنير . وكان كالكثيرين من أمثاله حاكماً قديراً لا يرعى عهداً ولا فمة ، يسخر من جميع المبادئ الأخلاقية والقيود السياسية ، جعل من أرتيجيا حصناً منيعاً لحكومته ، وفتح نكسوس ،

وليونتينى ؛ ومسانا ؛ وفرض الضرائب على شرقى صقلية كله ليستعين بها على جعل سرقوسة أجمل العواصم اليونانية . ويقول عنه هيرودوت متحسراً : « وهذه الطريقة أصبح جيلون ملكاً (*) عظيماً » (٦٥) .

ثم صلح حاله وصار بابايون صقلية المعبود ، حين بعث خشيارشائ أسطوله ليهاجم أثينة ، فسير القرطاجنيون عمارة بحرية يكاد عدد سفنها أن يساوى عدد مراكب الأسطول الفارسى ؛ لتنتزع جنة الجزائر كلها من أيدي اليونان . وكان مصير الجزيرة هو نفس المصير الذى لاقته بلاد اليونان حين واجه جيلون هملكار فى هيمرا فى نفس الشهر - أو فى نفس اليوم كما تقول الرواية المتواترة - الذى واجه فيه ثمستكليز خشيارشائ فى سلاميس .

(*) ويقول لوشيان Lucian : « لقد كان جيلون السرقوسى أبحر ، ولكنه لم يعرف ذلك عن نفسه إلا بعد زمن طويل ، لأن أحداً من الناس لم يجرؤ على أن يطلع الطافية المستبد على هذه الحقيقة حتى جرات امرأة أجنبية كانت ذات صلة به على أن تطلعه عليها . فإكان منه إلا أن ذهب إلى زوجته وأنها على سكوتها عن ذلك رغم ما لديها من القهر والكبرياء التى كانت تمنحها من الإفشاء إليه بهذا السر . وكان دفاعها أنها كانت تظن أن الرجال كلهم على شاكلته لأنها لم تعرف الرجال عن قرب طوال حياتها ولم تقرب منهم قط » (٦٦) . وبذلك لم يجد لنفسه حيلة معها .

الفصل السادس

اليونان في أفريقية

وكان من حق القرطاجنيين أن يوجسوا في أنفسهم خيفة ، لأن اليونان شيدوا مدناً عامرة على ساحل أفريقية الشمالى نفسه وأخذوا يستولون على تجارتها . فقد أرسل الدوريون أهل ثيرا منذ عام ٦٣٠ جالية كبيرة إلى قورين في منتصف الطريق بين قرطاجنة ومصر . ووجدوا فيها على حافة الصحراء تربة خصبة ومطراً بلغ من غزارته أن قال عنه أهل البلاد إن في السماء من فوقهم فرجة تنصب منها الأمطار . واستخدم اليونان بعض الأرض للرعى ، وأصدروا منها إلى الخارج الأصواف والجلود واستنبتوا من نبات الأنجدان تابلاً كانت بلاد اليونان بأجمعها تحرص على شرائه ، وكانوا يبيعون غلات بلادهم إلى أفريقية ، وارتقوا بحرفهم البدوية إلى حد جعل المزهريات القورينية من أحسن مزهريات العالم .

وانتفعت المدينة بثروتها على خير وجه وأحكمه ، وازدانت بالحدائق الغناء ، وبأعظم الهياكل والتمائيل وحلبات الألعاب . وفيها ولد أرسنطوس Aristippus أول فيلسوف أبيقورى ذائع للصيت ، وإليها عاد بعد تجوال طويل ليؤسس المدرسة القورينية .

وحط اليونان رحالهم في مصر نفسها وهى المعروفة بكراهيتها لاستيطان الأجانب بها (*) ؛ وأنشأوا لهم فيها آخر الأمر إمبراطورية . فقد أنشأ المليونون حوالى عام ٦٥٠ محطة تجارية عند نقراطيس على فرع النيل الكانوبى . وسمح

(*) هذا ما يزيد التاريخ نقيضه فقد كانت مصر على الدوام كريمة مضيفة لزلاتها الأجانب الصالحين ينعمون بخيراتها كما ينعم بها أبناءها . (المترجم)

لهم أسمانيك الأول فرعون مصر بإنشائها لأنهم يصلحون لأن يكونوا جنوداً مرتزقين ، ولأن تجارتهم كانت غنية طيبة له يحصل منها جبايته على ضرائب بحرية عالية^(١٧) . ووجههم أحسن الثاني قسطاً كبيراً من الحكم الذاتي ؛ وأصبحت نقراتيس مدينة صناعية أو كادت ، تنتج انفخار ، والقرميد ، والخزف الرقيق ؛ وأهم من هذا أنها أصبحت مستودعاً تجارياً عظيماً ، يأتى إليها زيت بلاد اليونان وخرها ، وترسل قمح مصر وتيلها ، وصفوها وعاج أفريقيا وعطورها وذهبها . وانتقلت مع هذه المتاجر معارف مصر ، وطقوسها الدينية ، وعمارتها ، ونحتها ، وعلومها الطبيعية إلى بلاد اليونان ، كما دخلت مصر مع غلات اليونان الفاظهم وأساليبهم فى الحياة ، فهدت السبيل إلى سيطرة اليونان على مصر فى العصر الإسكندرى .

وإذا تصورنا مركباً يونانيا يسير من نقراتيس إلى أثينة ؛ أتمننا بذلك طوافنا حول العالم اليونانى . ولقد كان واجباً علينا أن نطوف هذا الطواف الطويل لكى ندرك مدى الحضارة الهلينية ونشعر باختلاف مظاهرها . ولقد قص علينا أرسطاطاليس تاريخ النظام الدستورى فى ١٥٨ دولة من دول المدن اليونانية ، ولكنه أغفل تاريخ ألف مدينة غيرها . لقد كانت كل واحدة منها تضطلع بنصيبها فى تجارة البلاد التى نطلق عليها اسم بلاد اليونان ، وصناعتها ، وتفكيرها . وفى المستعمرات لا فى أرض اليونان الأصلية ولد فنا الشعر والنثر اليونانيان ونشأت علوم الرياضة وعلوم ما وراء الطبيعة ، والخطابة والتاريخ ، اليونانية . ولولا هذه المستعمرات وعشرات المئات من اللوامس الماصة التى بثتها فى العالم القديم تمتص بها ما فيه من علم وفن وثقافة ، ولولا هذه وتلك لما وجدت الحضارة اليونانية وهى أئمن نتاج التاريخ بأجمعه ، وعن طريق هذه المستعمرات واللوامس انتقلت حضارة مصر والشرق إلى بلاد اليونان ، وانتشرت الثقافة اليونانية انتشاراً بطيئاً فى آسيا وأفريقية وأوروبا .

الباب الثامن

آلهة اليونان

الفصل الأول

أصل الشرك

إذا بحثنا عن العناصر الموحدة في حضارة هذه المدائن المتفرقة وجدنا منها خمسة عناصر جوهرية : لغة مشتركة ذات لهجات محلية ؛ وحياة ذهنية مشتركة لا يعرف من رجالها في الأدب والفلسفة والعلوم خارج حدود بلادهم السياسية إلا كبارهم ، وشغف مشترك بالألعاب الرياضية ينفسون به في المباريات التي تقام بين الأفراد في المدن نفسها أو بين الدول بعضها وبعض ، وحب للجمال تعبر عنه المدن بأشكال من الفن عامة بين الجماعات اليونانية كلها ، وطقوس وعقائد دينية موحدة بعض التوحيد .

وكان الدين عاملا في التفرقة بين اليونان بقدر ما كان عاملا في وحدتهم . فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمبس العامة البعيدة ، وهي العبادة التي كان فيها قسط كبير من الأدب والمجاملة ، عبادة أقوى منها للآلهة وللأقوى التي تدين بالطاعة لزيوس . وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذى الشرك وتجعل التوحيد مستحيلا . فقد كان لكل أسرة في أيام اليونان القديمة إلهها الخاص ، توقد له في البيت النار التي لا تنطفئ أبداً ، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة . وكان هذا الاقسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التي تعمل في البيت . وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها حالة

من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة ، وبهذه الطريقة كان الدين عاملاً في خلق الشعر الصوفي وفي إكساب الحادثات الرئيسية في الحياة البشرية مسحة من الوقاء أعانت على استقرارها وثباتها . وكذلك كان لكل جماعة بطناً كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص بها ، فكانت مدينة أثينة تعبد الإله أثينا ؛ وإلوسيس تعبد ديمتر ، وساموس تعبد هيرا ، وإفسوس تعبد أرتميز ، وبوسدونيا تعبد بوسيدن . وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها ، وكان الاشتراك في عبادة إلهها رمز مواطنيتها وميزتهم والواجب المفروض عليهم . وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها في مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره ، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يخبئه الغيب لها . وكان لها عليه في نظير هذا أن يحارب في صفها ، وكان يبلو لأهلها أحياناً أنه قد يتجلى لهم في مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود . ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله . وكانت المدينة ، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة ، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام في بهو المدينة ، ترمز لحياة منشئها وأبطالها القوية الخالدة ؛ وكان مواطنوها يجتمعون في مواسم معينة ليطلعوا جميعاً أمام هذه النار . وكلما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها ، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركانها كبير كهنة في دين الدولة ، وكان الإله يخضع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة . وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر .

وحرر الاستقلال المحلي خيال اليونان الديني من القيود فأخرج للعالم أساطير دينية موفورة ومجموعة كبيرة من الآلهة . فكان كل شيء وكل قوة في الأرض أو السماء ، وكل نعمة أو نقمة ، وكل صفة — واو كانت رذيلة — من صفات الإنسان ، تمثل إلهاً في صورة بشرية عادة . وليس ثمة دين يقرب آلهته من

الآدميين قرب آلهة اليونان . وكان لكل حرقة ، ولكل مهنة ، ولكل فن ، إله خاص أوراخ حارس ؛ بلغة هذه الأيام . وكان عند اليونان فضلاً عن هذا شياطين ، ونساء مجنحة ، وآلهة انتقام ، وجن ، وأرباب بشعة المنظر ، وإلهات ذوات صوت شجي يسلب العقول ، وحور عين في البحار والغاب لا يقل عديدهن عن سكان الأرض من الآدميين . وفي هذه البلاد بنوع خاص لا تبقى حاجة للسؤال القديم « هل الدين من وضع الكهنة ؟ » . ذلك أن من غير المعقول أن أية مؤامرة يدبرها رجال الدين الأولون تستطيع أن تخرج هذه الكثرة من الآلهة . وما من شك في أن من أكبر النعم التي ينعم بها هؤلاء الأقوام أن يكون لهم كل أولئك الآلهة ، وكل هاته القصص الفثانة الساحرة ، وكل هذه الأضرحة المقدسة والحفلات المهيبة المرحية . لقد فطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فطر على الزواج من نساء متعدّدات ، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية ، لأنها توأم كل الموامة ما في العالم من تيارات متعارضة . وإن مسيحية البحر المتوسط في هذه الأيام لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون . ذلك أن الشرك هو الذي يوحى إلى حياة السذج بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى ؛ وهيب النفس الذليلة المعونة والراحة والتين لا تجروا على انتظارهما من كائن أعلى رهيب بعيد لا تستطيع الوصول إليه (*) .

وكان لكل إله من الآلهة أسطورة (Mythos) أى قصة ، متصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدينة ، أو تفسر الطقوس التي تقام تكريماً له .

(*) لا نوافق المؤلف على قوله إن الشرك فطرة فطر الناس عليها إلا إذا كان يقصد بالفطرة صفة الإنسان الجاهل الساذج صاحب العقل غير المستنير . ودليلنا على هذا نزعة الإنسان إلى الإيمان بوحدة الله واقترابه من هذه الوحدة بقدر استنارة عقله . كذلك لا تراه من أن النفس البشرية لا تجد المعونة والراحة إلا في الأساطير وفي الشرك ، بل نفتقه أن في وسعها أن تجد في رعايته الله الرحمن الرحيم القريب من عباده المحبب للمعونة الداعي إذا دعاه .
(المترجم)

وقد أصبحت هذه الأساطير التي نشأت نشأة تلقائية مما في المكان وما لدى الناس من معارف ، أو كانت من وضع الشعراء الدوارين وزخرفهم ، أصبحت هذه الأساطير عقيدة اليونان الأولين ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، جميعاً . فنها استمدوا الموضوعات التي زينوا بها مزهرياتهم ، وهي التي أوحى إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسوم ، والتماثيل ، والنقوش . وقد ظل الناس إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير ، بل يخلقون الآلهة أنفسهم ، رغم ما أنتجت بحوثهم الفلسفية ، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد . لقد كان في وسع رجال من أمثال هرقليس أن يعدلوا أمثال هذه الأساطير مجرد مجازات وتشايبه ، وفي وسع آخرين أمثال أفلاطون أن يعدلوها ويوفقوا بينها وبين ما تقبله العقول ، وفي مقلود رجال من أمثال زنونافيز أن ينددوا بها وينبذوها ؛ غير أن هوزنياس ، حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ، وجد الخرافات والأساطير التي كانت تثير الحمية في قلوب الأهلين في عصر هومر لا تزال حية قوية . ذلك أن عملية تشعير الأساطير ، وتشعير(*) الدين عملية طبيعية ، تحدث في هذه الأيام كما كانت تحدث على الدوام في العصور الحالية ؛ ونعمة نسبة للوفيات ونسبة للمواليد بين الآلهة . فالألوهية كالطاقة تبقى كينها مهما تغيرت صورتها لا تكاد تنقص أو تزيد خلال الأجيال المتعاقبة(**).

(*) صياغتها شعراً . (المترجم)

(**) للآراء التي يعرضها المؤلف في هذا الفصل مؤيدون ومعارضون . وقد أثرتنا

أن نفسها أمام القراء وترك لهم معارضتها أو تأييدها . (المترجم)

الفصل الثاني

سجل الآلهة

في وسعنا أن نلقى شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيماً مصطنعاً إلى سبع مجموعات : آلهة السماء ، وآلهة الأرض ، وآلهة الخصب ، والآلهة الحيوانية ، وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطال ، والآلهة الأولمبية . وأما « أسماؤها جميعاً فما يشق على الإنسان ذكرها » كما يقول هزيبود^(١) .

(١) وكان إله الغزاة اليونان في بادئ الأمر ، على ما نستطيع أن نتبينه من الأساطير ، هو إله السماء العظيم المختلف الصور . وبشبه اليونان في هذا الهنود القديين . ثم تطور هذا الإله شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو أورانوس أو السماء نفسها ، ثم أضحي « مرسل السحاب » ، مسقط المطر ، جامع الرعد ، زبوس . وإذا كانت تلك البلاد تنال فوق كفايتها من ضوء الشمس ، ولكنها ظمأى للمطر ، فإن إله الشمس هليوس لم يكن له فيها شأن كبير ، ولذلك كان من الآلهة الصغرى . وقد صلي له أبحرمنون ودعاه لمعونته^(٢) ، وكان الاسبارطيون يضحون له بانجيل لتجر عربته الملتفة في قبة السماء^(*) ، وكان أهل رودس حين اضطبغت بلادهم بالصيغة اليونانية يعظمون هليوس ، ويعبدونه كبير آلهتهم ، ويلقون في البحر كل عام أربعة جياذ وعربة ليستخدمها في تجواله ، وأقاموا الهيكل الضخم الذائع

(*) وطلب فيتون Phaéton (المتأدلى) ابن هليوس أن يسوق عربة الشمس في عرض السماء . ولكنه اندفع يسوقها بهور ، وكاد يشعل النار في العالم كله فصفه البرق ، وسقط في البحر . ولعل اليونان ساقوا هذه القصة ، كما ساقوا قصة إكاروس Icarus ، ليعطروا بها الشباب .

الصيت ، وكاد أنكسجرس يفقد حياته في أثينة بركليز نفسها ، لأنه قال إن الشمس ليست إلها وإنما هي كرة من النار لا أكثر . ثم زالت عبادة الشمس شيئاً فشيئاً حتى لم يكذب لها أثر في تاريخ اليونان القديم ، وكان القمر أقل من الشمس شأنًا ، والكواكب والنجوم أقل منه ومنها .

(٢) وكانت الأرض ، لا السماء ، موطن معظم الآلهة اليونانية . فكانت الأرض نفسها في بادئ الأمر هي الإلهة جى Ge أو جيا Gaea الأم الصابرة السمحة الجزيلة العطاء ، التي حملت حين عانقها أورانوس - السماء - فنزل المطر . وكان يسكن الأرض نحو ألف إله آخر أقل من جى شأنًا ، في مائها وفي الهواء المحيط بها : منها أرواح الأشجار المقدسة ، وخاصة شجرة البلوط ، ومنها الزيريدات Nereids ، والنيادات Naiads ، والأوقيانوسيات في الأنهار والبحيرات والبحار ، وكانت الآلهة تتفجّر من الأرض عيونًا ، أو تجري جداول عظيمة مثل المينلر أو الاسبركيوس Spicrheus ؛ وكان للريح آلهة مثل بورياس Boreas ، وزفر Zephyr ونوتس Notus ، ويوروس Eurus ، وسيدها إايوس ؛ وكان من آلهة الأرض بان العظيم ، ذو القرنين ، المشقوق القدمين ، الشبق ، المغذى ، البسام ، إله الرعاة والقطعان ، والغابات والحياة البرية ، الكامن فيها ، والذي تُسمع صفارته في كل جدول وواد ، والذي تبعث صبيحته الفزع (*) في كل قطع لا يعنى به ، والذي يقوم على خدمته جنيات الغاب والحراج ، وتلك الجنيات المعروفة بالسليبي Sileni وهي مخلوقات نصف جسمها معز ونصفه بشر . وكان في كل مكان في الطبيعة آلهة ، وكان الهواء غاصا بالأرواح الطيبة أو الخبيثة لا تكاد « تجذ فيه شقا فارغا تستطيع أن تدفع فيه طرف ورقة نبات » كما قال شاعر غير معروف (٥) .

(٣) وإذا كانت أعجب قوى الطبيعة وأقواها هي قوة التكاثر ، فقد كان

(*) إن كلمة Panle أى المر مشتقة من الإله بان . (المترجم)

طبيعياً أن يعبد اليونان ، كما كان يعبد غيرهم من القدامى ، رمزي الإخصاب الرئيسيين في الرجل والمرأة إلى جانب عبادتهم خصب الله . ولهذا كان قضيب الرجل وهو رمز الإنتاج يظهر في طقوس ديمتر ، وديونيسس ، وهرمس ، وحتى في طقوس أرتميس الطاهرة^(١) . ويتكرر ظهور هذا الرمز في النحت والتصوير في أهم عصر من عصورها : تكراراً فاضحاً ، بل إن عيد ديونيشيا العظيم ، وهو الاحتفال الديني الذي كانت تمثل فيه المسرحيات اليونانية ، كان يفتتح بموكب تحمل فيه رموز قضبان الرجال ترسل الكثير منها المستعمرات الأثينية شاهداً على صلاحها وتقواها^(٢) . وما من شك في أن هذه الحفلات كانت تثير الكثير من الفكاهات الجنسية البذيئة ، كما تدلنا على ذلك كتابات أرسطوفان^(٣) ، ولكن كثرتها كانت خالية من هذه البذاءة ، ولعلها كانت تثير الشهوة الجنسية في الرجال والنساء وتساعد على كثرة النسل^(٤)

وكانت أحط ناحية من نواحي مراسم الإخصاب تظهر في العهود التي انتشرت فيها الحضارة اليونانية الصبغة والحضارة اليونانية ، والتي كان يعبد فيها بريابوس Priapus الذي ولد نتيجة لاتصال ديونيسس وأفرديتي ، والذي كان الفنانون يزينون بصورته المزهريات وجدران المباني في بومبي Pompeii . وكان أطرف من هذه المراسم وأعف في موضوع التناسل نفسه لإجلال الإلهات التي ترمز إلى الأمومة . فقد كانت أركاديا ، وأرجوس ، ولوميسس ، وأثينة ، وإفسوس ، وغيرها من الأماكن تجعل أعظم الإجلال لإلهات معظمهن لا أزواج لهن ، كنّ في أغلب الظن أثراً من آثار عصر ينسب الأبناء فيه إلى الأمهات قبل أن يحل عصر الزواج^(٥) ؛ ولقد كان الاعتراف بسلطان زيوس الإله الأب على سائر الآلهة رمزاً لانتصار مبدأ سيطرة الآباء على الأمهات^(٦) . ولعل سبق النساء على

(٥) حل القارئ أن يلاحظ عدم وجود إلهات أمهات في المجمعات ذات السهنة الأبرية القوية كالمجمعات اليهودية والإسلامية والمسيحية والبروتستنتية (المؤلف) . يصعب علينا أن =

الاشتغال بالزراعة ، وهو السبق الذى يرجحه الكثيرون ، قد ساعد على إيجاد أعظم إلهة من هاته الإلهات الأمهات ، وهى ديمتر إلهة الحنطة أو الأرض المزروعة . ومن أجل الأساطير اليونانية التى تقصها فى أحسن عبارة ترنيمة ديمتر وهى الترنيمة التى كانت تغنى فى وقت من الأوقات إلى هومر نفسه ، نقول إن من أجل هذه الأساطير أسطورة تصف كيف اختطف بلوتو Pluto إله العالم السفلى پرسفونى ابنة ديمتر ونزل بها إلى الجحيم ، وكيف أخذت أمها الحزينة تبحث عنها فى كل مكان حتى عثرت عليها وأقنعت بلوتو أن يسمح لابنتها بأن تعيش على ظهر الأرض تسعة أشهر فى كل عام - وذلك رمز ظريف لموات التربة السنوى وتجدها . وإذ كان أدل إلوسيس قد عطفوا على ديمتر المنتكرة وهى « جالسة فى الطريق فى أشد حالات الحزن والكرب » ، فقد علمتهم هم وأهل أتكاسر الزراعة ، وأرسلت ترينولوس Triptolemus ابن ملك إلوسيس لينشر هذا الفن بين بنى الإنسان . وهذه الأسطورة تفتق فى جوهرها وأسطورة إيزيس Isis وأوزيريس Osiris فى مصر ، وأسطورة تموز وإشثار فى بابل ، وأسطورة عشتروب وأدنيس فى سوريا ، وسبيل وأتيس فى فريجيا . وقد بقيت طقوش الأوممة طوال عصر اليونان العظيم ، ثم عادت إلى الحياة من جديد فى صورة تقديس مريم أم الإله .

(٤) وكانت بعض الحيوانات فى تاريخ اليونان المبكر تعظم وتنخذ أنصاف آلهة - إذا جاز هذا التعبير . وكان السبب فى أنها لم ترق إلى مرتبة الآلهة الكاملة أن الدين اليونانى كان فى العصر الذى ازدهر فيه فن النحت ديناً آدمياً إلى حد لا يسمح بوجود آلهة حيوانية كثيرة بالصورة التى نجدها فى مصر والهند ، ولكن أثراً من آثار ما قبل هذا العصر الزاهر يبدو لنا فى كثرة الجمع بين الحيوان والإله فى بعض التماثيل . ولقد كان الثور حيواناً مقدساً لقوته وقدرته ، وكثيراً

= ننهم ما يرى اليه المؤلف بقوله عدم وجود إلهاب فى الإسلام وهو دين اتوحيد الذى لا يعترف بالآلوهية إلا لله وحده . (المترجم)

ما كان يوصف بأنه رفيق لزيوس وديونيسس ، أو صورة لها تنكرا فيها ، أو رمزاً لها ، وربما كان إلها قبلهما^(١٠) ولعل « هيرا ذات العين البقرية » ، كانت هي أيضاً بقرة مقدسة^(١١) . وكان الخنزير أيضاً مقدساً لكثرة تناسله ، وكان يجمع بينه وبين دمر الظريقة . وكان القربان الظاهر الذى يقدم لها هي في أحد أعيادها المعروف بعيد التسموفوريا Thesmophoria خنزيراً ، أو لعل القربان كان يقدم إلى الخنزير نفسه^(١٢) . وفي عيد الديازيا Diasia كان هذا القربان يقرب لزيوس في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة كان يقرب إلى أفعى تسكن في باطن الأرض تسمى وقتئذ باسمه تكريماً لها^(١٣) . وسواء أكان تقديس الأفعى لأنها في ظنهم لا تموت ، أم لأنها ترمز إلى القدرة على التناسل والإنتاج ، فلما نراها تنتقل في صورة إلهة من أفعى كريت إلى أثينة القرن الخامس ؛ فقد كانت أفعى مقلدة تقيم في هيكل أثينة على الأكروبوليس ، وكان يقدم إليها في كل شهر كعكة مقدسة زلنى إليها واستدراراً لعطفها . وكثيراً ما ترى الأفعى في الفن اليوناني حول تماثيل هرمس ، وأبلو ، وأسكليبيوس^(١٤) ؛ وقد صوّر فيدياس أفعى ضخمة محاطة بياكليل من الزهر في درع « أثيني برثنوس » ، وتغطي الأفاعى الجزء الأكبر من تماثيل أثينا الفرنيزية^(١٥) . وكثيراً ما كانت الأفعى تتخذ رمزاً للإله الحارس للهيكل والمنازل أو صورة لهذا الإله^(١٦) ، وربما كانت كثرة وجودها حول المقابر سبباً في اعتقاد الناس أنها روح الموتى^(١٧) . ويعتقد بعضهم أن الألعاب الدلفية قد احتفل بها في بادئ الأمر تكريماً لأفعى دلفي الميتة .

(٥) وكانت أكثر الآلهة رهبة تعيش تحت الأرض . ففي المغارات والشقوق وأمثالها من الفتحات السفلى ، كانت تعيش تلك الآلهة الأرضية التي لم يكن اليونان يعبدونها بالنهار عبادة تنطوي على الحب والإجلال ، بل كانوا يعبدونها ليلاً عبادة مصحوبة بأناشيد وطقوس تتم عن التوبة والملح . وكانت هذه القوى غير البشرية هي المعبودات الحقيقية الأولى لبلاد اليونان ، وكانت أقدم من

معبودات الهيلينيين ، بل لعلها أقدم من معبودات المسيحيين الذين نقلوها في أغلب الظن إلى بلاد اليونان نفسها . ولو أننا استطعنا أن نتبعها إلى أصلها الأول لكان في وسعنا أن نصل إلى أنها كانت في بدايتها الأرواح المستتمة للحيوانات التي طردها بنو الإنسان إلى الغابات أو إلى ما تحت الأرض في أثناء تقدمهم وتكاثرهم . وكان أعظم هذه الآلهة الأرضية هو زيوس الأرضي ؛ وزيوس هنا اسم نكرة لا يعنى أكثر من إله^(١٩) . وكان يسمى أحيانا زيوس ميليكوس Meilichios أى زيوس الخير ؛ ولكن الوصف هنا أيضاً وصف خادع يقصد به استرضاء هذا الإله الذي كان يصور في صورة أفعى رهيبة . وكان هاديز Hades رباً ما تحت الأرض أخا لزيوس وعند أخذ اسمه . وأراد اليونان أن يسكنوا غضبه فسموه پلوتو أى واهب الوفرة ، لأنه كان في مقدوره أن يبارك أو يبيد جنود كل ما ينبت على سطح الأرض^(*) . وكان أشد من پلوتو روعة ورهبة الإلهة هكتي Hecate ، وهى روح خبيثة تخرج من العالم السفلى وتسبب البؤس والشقاء بعينها الحاسدة الشريرة لكل من تزوره من الخلائق . وكان القليلو العلم من اليونان يقربون لها الجراء ليعلموها عنهم^(٢١) .

(٦) وكان الموتى قبل عصر اليونان المحيد يعدون أرواحاً قادرة على أن تفعل للناس الخير والشر ، وتسترضى بالقرايين والصلاة . ولم تكن هذه الأرواح آلهة بالمعنى الصحيح ، ولكن الأسرة اليونانية البدائية كانت تعظم موتاها تعظيماً يفوق تعظيمها أى إله من الآلهة ، شأنها في هذا شأن الأسرة الصينية^(٢٢) . وكان اليونان في عصرهم الزاهر يربون هذه الأشباح الغامضة أكثر مما يحبونها ، وكانوا يسترضونها بطقوس ومراسم يقصد بها إبعادها واتقاء شرها ، كما كانوا يفعلون

(*) وكان پلوتس Plutus إله الثروة صورة من پلوتو . وكانت الثروة عند اليونان الأولين تتخذ في أكثر الأحيان صورة المحبوب منزوعة في الأرض أو مخبوءة في جوار ، وكانت في كلتا الحالتين تحت حماية پلوتو .

فى عيد أنثستريا Anthesteria . وكانت عبادة الأبطال امتداداً لعبادة الموتى ؛ فكان فى وسع الآلهة أن تهب العظم أو الشريف ، أو الرجل الجميل أو المرأة الجميلة ؛ الحياة الخالدة فتجعله أو تجعلها من بين الآلهة الصغرى . وكذلك كان سكان أولمبيا يقربون القرابين فى كل عام إلى هوداميا Hippodameia ؛ وكانت كستلرا Cassandra تعبد فى لوكترا Leuctra اللكونية Laconian ، وهلم فى اسبارطه ، وأوديب فى كولونوس Colonus وكان يحدث أحياناً أن ينزل الإله ويتقمص جسم إنسان ، فيستحيل هذا الإنسان إلهاً ، وقد يتصل الإله اتصالاً جنسياً مع امرأة من الآدميين فتلد بطلاً — إلهاً كما فعل زيوس مع أكمينا فولدت هرقل . وكان كثير من المدن والجماعات ، وأبناء الحرف أنفسهم ، يصلون أنسابهم ببطل من أبناء الآلهة ؛ فكان أطباء اليونان مثلاً يصلون نسبهم إلى أسكليبيوس . وكان الإله فى أول الأمر من الأسلاف أو الأبطال الموتى ، كما كان المعبود فى الأصل قبراً ، ولا تزال الكنيسة حتى الآن فى معظم البلاد مكاناً تحفظ فيه آثار الموتى القديسين .

ويمكن القول بوجه عام إن اليونان لم يكونوا يفرقون بين الآدميين والآلهة بقدر ما نفرق نحن بينهم ؛ فقد كان كثير من آلهتهم لا يقلون فى آدميتهم عن القديسين عندنا ، اللهم إلا فى مولدهم ، وكانوا قريبين إلى عبادهم قرب القديسين إلينا ؛ وكان بعضهم مثل ديونيسس يموتون وإن سموا بالخالدين .

٢ — الآلهة الأولمبية

كانت هذه الآلهة كلها فى المرتبة الثانية من الشهرة بين آلهة اليونان وإن لم تكن حتماً فى المرتبة الثانية من التعظيم . ترى لأى سبب لا نسمع فى شعر هومر عن هذه الآلهة إلا القليل ، ولأى سبب نسمع عن الآلهة الأولمبية الشيء الكثير ؟ أكبر الظن أن مرد هذا إلى أن آلهة أولمبس قد جاءت إلى البلاد مع الآخيين

والدورين وزلزلت عروش الآلهة الميسينية والأرضية ، وغلبتها كما غلبت من كانوا يعبدونها . وفي وسعنا أن نشاهد ما حدث للآلهة الأولى في دودونا Dodona ودلفي حيث حل زيوس في المدينة الأولى محل جيا وحل أبلو محلها في الحالة الثانية . على أن الآلهة المغلوبة لم تمنح من الوجود محوا تاما بل بقيت خاضعة للآلهة الجديدة تأتمر بأمرها إذا صح أن نتحدث عن شئون الآلهة بمثل هذا الحديث ، فانزوت ذليلة تحت الأرض ولكنها ظلت موضع التبجيل من عامة الشعب ؛ بينما كانت الآلهة الأولمبية المنتصرة تتقبل وهى مستوية على عروشها في أعلى الجبل صلوات عبادها الأشراف . وهذا هو السبب في أن هومر الذى كان يكتب للصفوة المختارة لا يكاد يحدّثنا بشيء عن آلهة الأرض . وهكذا أعان هومر وهزيبود والمثالون الفاتحين أصحاب السلطة السياسية العليا على نشر عبادة الآلهة الأولمبية . وقد حدث في بعض الحالات أن اتحدت الآلهة الصغرى أو امتزجت بالكبرى ، وأصبحت من حاشيتها أو أتباعها ، كما كانت الدول الصغرى تنضم من حين إلى حين إلى الدول الأكبر منها أو تخضع لحكمها . وهكذا خضعت جنيات الآجام صغارها وكبارها لديونيس ، وخضعت حور البحار لپوسيدن كما خضعت الأرواح التي تقطن الغابات لأرتميس ، واختفت الطقوس والأساطير الممجية شيئا فشيئا على مر الأيام ؛ وحلت محل الأساطير المضطربة التي كانت تصور الأرض ملأى بالشياطين حكومة للآلهة على شيء من النظام كانت في واقع أمرها مرآة ينعكس عليها ما طرأ على العالم اليوناني من استقرار سياسى آخذ في النماء .

وكان على رأس هذا النظام الإلهي الحديد رب الأرباب زيوس العظيم ؛ ولم يكن زيوس أول من وجد من الآلهة ، فقد سبقه كما رأينا من قبل أورانوس وكرونوس ، ولكنهما ماوالجبابرة Titans قد ثلث عروشهم كما ثلث عروش جيش الشيطان Lucifer (*) . وقسم زيوس وإخوته العالم وزعوه فيما بينهم بطريق

(*) لقد أصبح النزاع الذى قام بين زيوس وأموانه من جهة وبين الجبابرة من جهة -

القرعة ؛ فكانت السماء من نصيب زيوس ، وكسب بوسيدن البحار ، وكسب هيديز باطن الأرض . وليس في أساطير اليونان ذكر لخلق العالم ؛ فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ بل خلقت من تزاوج الذكور منها بالإناث ، أو بتزاوجها بأنثائها غير الخالدين ؛ والله في دين اليونان ليس إلا والدآ ، كما أن الآلهة الأولمبية ليست قادرة على كل شيء عارفة بكل شيء ، بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً ، وكلها بما فيها زيوس نفسه يمكن أن يخدع ؛ غير أنها على بكرة أبيها تقر له بالسيادة عليها ، وتحشد في بلاطه كما يحشد الأتباع في ساحة أمير إقطاعي ؛ وهو وإن استشارها في بعض الشئون ، وعمل برأيها في بعضها وإن خالفت رأيه (٢٣) ، كثيراً ما يزجرها ويلزمها أن تعرف قدر نفسها (٢٤) . وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ، ومنزل المطر الذي لا غنى للناس عنه (٢٥) ، وهو في بعض صورته الأولى إله حرب كيهوه ، يجادل نفسه هل ينهى حصار طروادة أو « يجعل الحرب أكثر مما كانت وحشية وإراقة للدماء » ويأخذ بالرأى الثاني (٢٦) . ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر ، المادئ القوى الجالس فوق أولمبس ، الملتحي الوقور ، رأس النظام الأخلاقي ومصدره في العالم كله ، يعاقب غير البررة من الأبناء ، ويحمي أملاك الأسرة ، ويوثق الأيمان ، يعاقب الخائنين ، ويحفظ الحدود ، والمساكن ، والمتضرعين ، والأضياف ، وهو أخيراً المصدر الأعلى للأحكام الذي نحت فدياس تمثاله لأولمبيا .

= أخرى في نظر اليونان رمزاً لتغلب الحضارة والمقل على الحمجية والقوة الوحشية وقد استمد الفن منه كثيراً من موضوعاته .

(*) أكبر الفن أن لفظ زيوس ذو صلة بكلمة *dies* اللاتينية التي اشتقت منها كلمة *day* الإنجليزية ، وقد تكون مأخوذة من أصل هند - أوروبي هو *id* ومعناه يلمع . وچوثير عند الرومان هو ريو - *Zeu-pater* أي زيوس الأب ، ومنه اشتقت كلمة *dios* . وفي هذه الأيام سميت الأماكن وقسم الجبال التي كان يأوي إليها زيوس أو كانت حرماً مقدساً له باسم القديس إلياس من قديسي الكنيسة اليونانية ومنزل المطر البلاد ، أو أصبحت حرماً مقدساً لهذا القديس (٢٥) .

وعيه الوحيد هو ما يدفعه إليه نزع الشباب من استسلام سريع للحب ، وإذ لم يكن هو خالق النساء فإنه يعجب بهن ويراهن كائنات عجيبة تجد الآلهة نفسها فيهن موهبة الجمال والحنان ، وهما صفتان تسموان عن كل تقدير ؛ ويمجد نفسه عاجزاً عن مقاومة إغرائهن . ويذكر هزيود ثبناً طويلاً بمحوبات الإله ، وبما أنجب منه من أبناء عظام^(٢٧) . وكانت حبيته الأولى ديوني ، Dione ولكنه يغادرها في أفيروس حين يهاجر إلى أولمبس في تساليا ، وفيها تكون زوجته الأولى هي متيس Melis إلهة الكيل ، والعقل ، والحكمة ؛ ويترامى إليه أن أبناءها سينزلونه عن عرشه ، فيتلعها ، ويأخذ منها صفاتها ، ويصبح هو نفسه إله الحكمة ؛ وتلد متيس أثينا في جوفه ، وإذن فلا بد من قطع رأسه حتى تخرج إلى العالم ، ويحس هو بالوحدة والحاجة إلى المونس الجميل فيتزوج ثميس Themis وتلد له الساعات الاثنتي عشرة ؛ ثم يتزوج يورينوم وتلد له إلهات اللطف الثلاث ؛ ثم يتزوج نموسيني Mnemosyne وتلد له ربات الشعر التسع ؛ ثم ليتو وينجب منها ولديه أبلو وأرتميس ؛ ثم أخته ديمتر وينجب منها پرسفوني : فإذا ما صرف شبابه في الملاذ على هذا النحو تزوج آخر الأمر أخته هيرا وأجلسها ملكة على أولمبس فتلد له هبي Hebe ، وأريس Ares ، وهفستوف Hephaestus ، وأيليثيا Eileithyia ، ولكن الشقاق يقع بينه وبينها ، لأنها لا تقبل عنه سناً ؛ وهي تلقى أكثر مما يلقي من التكريم في كثير من الدول اليونانية ، وهي رعاية الزواج والأمومة ، وحامية الروابط الزوجية ؛ وهي ظريفة أنيقة ، وقورة ، فاضلة ، لا يعجبها عبته ومداعباته ؛ وهي إلى هذا كله سليطة إلى أبعد حد . ويهم بأن يضربها^(٢٨) ، ولكنه يرى أن أيسر من ضربها عنده أن يفرج عن كربه بزيجات جديدة . وكانت نيوبى أولى زوجاته من الآدميين ، وكانت آخرهن ألكينا وهي من نسل نيوبى في الجيل السادس

عشر(*) ، وهو يسير على سنة اليونان في عدم التفريق بين الذكور والإناث ، فيحب جنميد الوسم ، ويحتطفه لكي يجعله ساقيه فوق أولمبس ، وكان من الطبيعي أن يكون من بين أبناء هذا الأب المخصب بعض النجباء الممتازين . من ذلك أن أثينا حين ولدت كاملة النمو والسلاح من وأس زيوس ، أمدت أدب العالم بلحدي استعاراته التي ما زالت تتكرر حتى ملها الناس . وكانت أجدر الآلهات بأن تكون إلهة مدينة أثينة ، تفخر بأنها عنراء وتتخذ من هذا سبباً لمواسات فتياتها العذارى ، وتبعث في نفوس رجالها الحماسة الحربية ، وتمثل لبركليز الحكمة التي هي خليفة بها لأنها ابنة مينيوس وزيوس . ولما حاول الجبار پلاس Pallas أن يغارها قتلته وأضاف اسمها إلى اسمها ليكون ذلك نذيراً لغيره من خطاياها . وقد حصنها مدينة أثينة بأجل هياكلها وأفخم أعيادها .

وكانت عبادة أهلو الرسم أوسع انتشاراً من عبادة أخته أثينا ، وكان أهلو إله الشمس الثلاثي* ، راعي الموسيقى والشعر والفن ، منشئ المدن ، مشرع القوانين ، إله الشفاء ووالد أسكليپيوس ، إله الحرب الرامي بالنبال إلى أبعد مدى ، الذي خلف جيا وفوبي Phoebe(**) . في دلتى ، وكان أقدس من ينزل الوحي في بلاد اليونان ، وكان إله المحاصيل النامية ، وبهذه الصفة كان يتلقى العشور في أيام الحصاد ، وكان في نظير هذا يبعث بدفته وضوئه الذهبين من ديلوس ودلتى ليخصب التربة ويغنيها . وكان في كل مكان يقترن بالنظام والاعتدال والجمال ، وبينما كانت عبادة غيره من الآلهة ومراسمها تتضمن كثيراً من عناصر الخوف والخرافات الغريبة ، كانت النعمة السائدة في عبادة أهلو وفى أعياده العظيمة في

(*) من واجبتنا أن نضيف إلى هذا ، إنصافاً للموت ، أن معظم هذه المفامرات كانت في أغلب الظن من اختراع الشعراء أو القبائل التي كانت تمحرس على أن تصل أنسابها بأعظم الآلهة كلها .

(**) ومن فوبي اشتق اسم فيبوس أى • الملهم • .

دلفى وديلوس هى التعبير عن ابتهاج الشعب المستنير بإله الصحة والحكمة والعقل والغناء ، وكانت أخته أرتميس (ديانا) . سعيدة مثله . وكانت أرتميس إلهة الصيد العذراء ، المنهمكة فى شئون الحيوانات ، وفى ملذات الغابات ، انهماكا لا يترك لها وقتاً لحب الرجال ، وكانت إلهة الطبيعة البرية ، والمراعى والغابات واتلال ، والغصن المقدس . وكما كان أبلو المثل الأعلى للشباب اليونانى ، كذلك كانت أرتميس المثل الأعلى للفتيات اليونانيات — كانت قوية الجسم ، رياضية رشيقة عفيفة ، وهذا قد كانت راعية النساء فى الولادة ، وكن يدعونها لتخفف عنهن آلام الوضع . وكانت تحتفظ فى إفسوس بطبيعتها الأسوية ، فكانت إلهة الأمومة والإخصاب ؛ وبهذه الطريقة اختلطت فكرتا العذراء والأم فى عبادتها ، وقد وجدت الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس بعد الميلاد أن من الحكمة أن تضيف ما بقى من هذه الطقوس الدينية إلى مريم ، وأن تحول عيد الحصاد الذى كان يقام لأرتميس فى منتصف أغسطس إلى عيد انتقال العذراء إلى السماء^(٢٩) . وبهذه الطريقة وأمثالها يحتفظ الحديد بالقديم ويتبدل كل شئ عدا الجوهر ذلك أن التاريخ كالحياة يجب أن يستمر أو يموت ؛ فقد تبدل الأخلاق والأنظمة ولكنها تبدل ببطء ؛ وإذا حال حائل قوى بينها وبين نمائها وتطورها نسيت الأمم نفسها وجن جنونها .

وكان من بين تلك الآلهة إله أشبه ما يكون بالآدميين ، هو الصانع الأولي الماهر هفستس الأعرج المعروف عند الرومان باسم فلكان Vulcan . ويبدو أن هذا الإله المهيمن المظلوم ، إله السماء الأول كان إلهاً سخيلاً خليقاً بالرثاء ، ولكنه فى آخر الأمر يستدر عطفنا أكثر مما يستدره الآلهة الماكرة التى لا ضمير لها ، والتى تسمى معاملته ، ولعله كان فى أيامه الأولى ، قبل أن يصير قريب الشبه بالأناس ، روح النار والكبر . وهو فى قصص هومر الدينى ابن زيوس وهيرا ، ولكن أساطير غير أساطير هومر تؤكد لنا أن هيرا حسدت زيوس على مولده

لأننا بلا معونة ، فولدت هى الأخرى هفتس من غير حاجة إلى ذكر . ولما رأتها قبيح المنظر ضعيف الجسم ، ألقت به من فوق أولمبس ، ولكنه عرف طريق العودة إلى موطنه ، وشاد للآلهة القصور الكثيرة التى كانوا يسكنون فيها . وكان يكن لأمه كل شفقة وإجلال رغم ما لقيه على يديها من سوء المعاملة ، وقد دافع عنها دفاعا مجيداً فى نزاعها مع زيوس ، فإما كان من إله أولمبس العظيم إلا أن تمسك بساقه وقذف به إلى الأرض . واستغرق هفتس فى تروله يوماً كاملاً ، حتى استقر آخر الأمر على جزيرة لمنوس ، وجرح عقبه ، وبوكد العارفون أنه أصبح من ذلك الحين شديد العرج يتألم كلما مشى (وإن كان هومر يقول إنه كان أعرج قبل هذه الحادثة) . وعاد مرة أخرى إلى أولمبس ، وصنع فى حانوته الكثير الضوضاء سنداناً ضخماً وضع فيه عشرين متاعاً كبيراً ، وعمل دروع أخيل ، وتماثيل تنحرك من نفسها ، وعجائب أخرى كثيرة . وكان اليونان يعبدونه بوصفه إله جميع الصناعات المعدنية ، ثم أصبح عندهم إله جميع الصنائع البدوية ، وكانوا يعتقدون أن البراكين هى مداخن حوانيته التى تحت الأرض . وكان من سوء حظها أن تزوج أفرديتى ووجد أن من أصعب الأمور أن تجتمع الفضيلة والجمال فى شخص واحد . ولما عرف هفتس بما كان بينها وبين أريس ، صنع للمحبين شركاً وقع عليهما فى أثناء اجتماعهما . وهكذا انتقم الإله الأعرج لعرجه بأن عرض على زملائه الآلهة إلهى الحب والحرب مكبلين فى الأغلال ، وكان منظراً أثار ضحك الآلهة . وقال هرمس لأپلو — كما يحدثنا هومر :

« أى هرمس يابن زيوس ... هل يرضيك حقيقة أن تنام على فراش واحد بجانب الإلهة أفرديتى ، ولو كنت مكبلاً بالأغلال الثقال ؟ » فأجابه الرسول (*) يقول : أيها الإله أپلو ؛ ليت هذا يكون ، ولينى أكبل بثلاثة أمثال هذه الأغلال التى لا أجد منها خلاصاً ، وأن تشاهدونى أنتم أيها الآلهة — نعم

والإلهات كلها أيضاً - إن استطعت أن أنام إلى جوار أفزدتي الذهبية (٣٠) .
حسبنا هذا عن هفستس ؛ أما إزيس (المريخ) فلم يكن يمتاز بالذكاء
أو الدهاء ؛ وكانت صناعته الحرب ، وحتى سحر أفزدتي ومفاتيها لم تكن
تثير فيه النشوة التي يثيرها التقبيل الذي كان شهوة وغريزة فيه . ويسميه
هومر « نقمة صبت على البشر » ، ويصف لنا وهو مغتبط كيف ألقته أثينا
على الأرض بضربة حجر ، ويقول إنه « وهوناًم قد غطى سبعة أفدنة (٣١) » .
هذا أريس أما هرمس (ميركرى أو عطارذ) فأكثر منه طرافة . فقد كان
في بادئ أمره حجراً ، وعبادته مستمدة من عبادة الحجارة المقدسة ؛ ولا
تزال المراحل التي مر بها ظاهرة واضحة ، فقد صار في المرحلة الثانية الحجر
الطويل الذي يوضع فوق المقابر ، أو الروح (الديمون) الكامنة في هذا
الحجر ؛ ثم صار بعدئذ حجر الحدود أو إلهها ، يحدد الحقول وبحرسها ،
وإذ كان عمله فيها فضلاً عن تجديدها وحراستها هو توفير الخصب لها ،
فقد صار قضيب الرجل رمزاً من رموزه . ثم أصبح فيما بعد العمود - ذا الرأس
المنحوت ، والجسم غير المنحوت ، وعضو التذكير البارز - الذي كان
يوضع أمام بيت كل أسرة ذات شأن في أثينة (٣٢) . وسرى كيف كان يتر
هذه الأعمدة عشية الحملة على سرقوسة السبب المباشر لهلاك ألقبيادس وخراب
أثينة . وهو إلى هذا كله إله المسافرين ، وحامى المتأدين ، وعصيم من أحب
شعائره إليه . وقد أصبح بوصفه إله المسافرين إله الحظ ، والتجارة ، والدهاء ،
والكسب ، ومن ثم أصبح مخترع المكاييل والموازين ، وحارسها ، كما أصبح
الملاك الراعى للحنانين والمختلسين واللصوص (٣٣) . وهو نفسه بشير ونذير يحمل
الرسائل والأوامر بين الآلهة الأولمبية أو بينها وبين البشر ، وهو يسير على خفين
مجتمعين بسرعة الريح العاصفة ، وتكسبه هرولته لئلا ورشاقة ،
وتنهته لأن يتخذ الصورة التي يظهر بها في تمثال بركستليز . وهو بوصفه شاباً
سريع العدو قوى الجسم ، راعى الرياضيين ونصيرهم ، ونجد صورته التي تظهر

فيها رجولته كاملة مكانا لها في كل مكان للتدريب العضلي^(٣٤) . وإذا كان هو المنذر والمبشر فقد كان إله الفصاحة ، وإذا كان الشارح السماوي فقد أصبح رأس عدد كبير من الشراح والمفسرين . وتصف إحدى الترانيم « الهومرية » كيف مد أوتاراً على صدفة سلحفاة واخترع بذلك قيثارة . ثم يحين الوقت الذي يسترضى فيه أفرديتي فيستولدها ، كما يخبرنا القصاصون ، نخشى (هرمفرديتي Hermaphrodite) ناعم الجسم يرث منهما مفاتهما ويشقى اسمه من اسميهما .

ومن الخصائص التي امتازت بها بلاد اليونان أن كان لها فضلاً عن إلهة العفة والبكورة والأمومة ، إلهة للجمال والحب ، وما من شك في أن أفرديتي كانت في مواطنها الأولى بالشرق الأدنى ، وفي قبرص موطنها نصف الشرق ، كانت في هذه المواطن أول الأمر إلهة أمّاً ، ولقد ظلت طوال عهدها ذات صلة وثيقة بالتوالد والإخصاب في الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها ، فلما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد ، تركت حاسة الجمال حرة طليقة نجد في النساء قيمياً غير قيم التناسل الكثير ، ومن ثم لا تقتصر أفرديتي على أن تكون المثل الأعلى للجمال بل تصبح إلهة اللذائذ الجنسية بجميع أنواعها . وعندها اليونان في صور مختلفة : فهي في صورة أفرديتي أورانيا - السماوية - ربة الحب العذري أو المقدس ، وفي صورة أفرديتي بندemos Pandemos - الشعبية - إلهة الحب للدنس بكافة أنواعه ، وفي صورة أفرديتي كليبيجوس Kallipygos فينوس ذات الردين الحملين . وقد أقامت المومسات في أثينة وكورنثة هياكل لها ، واتخذنها راعية لهن ونصيرة . وكانت بعض المدن في بلاد اليونان تحتفل بالأفرديسيا عيدها العظيم في أول شهر إبريل ، وفيه كانت تطلق حرية الاختلاط الجنسي لكل من شاء^(٣٥) . وكانت هي إلهة الحب لأهل الجنوب ذوى الشهوات الجنسية والعواطف الثائرة ، وهي المنافسة القديمة لأرتميس إلهة الحب عند أهل الشمال الباردة الصيادين ، وقد جعلتها الأساطير

— التي لا تكاد تقل سخريتها عن سخرية التاريخ — زوجة هفستوس المقعد ، ولكنها تروح عن نفسها بالاتصال بأريس ، وهرمس ، وبوسيدن ، وديونيسوس وبكثيرين من الآدميين مثل أنكيسيز وأدنيس^(٤٠) . وقد أهدى إليها باريس في مباراة بينها وبين هيرا التفاحة الذهبية جائزة الجمال ، ولكن بعلمها لم تكن جميلة بحق إلا بعد أن أعاد بركستليز تصويرها ، وخلع عليها ذلك الجمال الذي جعل بلاد اليونان تغفر لها جميع خطاياها .

ومن واجبتنا أن نضيف إلى كبار الآلهة الأولمبية من أبناء زيوس الشرعيين نهم وغير الشرعيين أخته هيرا إلهة البيت ، وأخاه بوسيدن المشاكس . وكان هذا الإله يماثل عند اليونان نبتون عند الرومان يرى وهو آمن على نفسه في مملكته المائية أنه ند زيوس وقربنه ، وحتى الأمم التي نعيش في داخل القارة بعيدة عن البحر كانت تعبده لأنه لم يكن الحاكم المسيطر على البحر فحسب ، بل كان المسيطر أيضاً على الأنهار والعيون ، وكان هو الذي يهدى المجارى العجيبة التي تسير تحت الأرض إلى طرفها ، والذي يحدث الزلازل بأمواج المد^(٤١) . وكان الملاحون اليونان يقيمون له الصلوات . ويشيدون الهياكل على السنة الأرض الخطرة الممتدة في البحار ليتقوا بها غضبه .

وبشيدون هناك آلهة أقل من هذه شأنها حتى على جبل أولمبس ، لأنه تجسيد المعاني المجردة لم يكن يقف عند حد . فمن هذه هستيا (وهي فستا عند الرومان) إلهة

(٤٠) ليست أسطورة أدنيس إلا صورة أخرى من موضوع الإنبات الكثير الصور ، ونقصد بالإنبات موت التربة وبعثها في كل عام . وقد شغفت بهذا الشاب الرسم كل من أفرديتي وپرسفوني إلهي الحب والموت . وحسد أريس أرتيمس على حظوته لدى أفرديتي ففتكر في صورة خنزير يرى وقته . وولدت من دم أدنيس شقائق النعمان ، ومن أحزان أفرديتي أنهار من الشعر ، ولأنع زيوس الإلهين أن تقعا بينهما وقت أدنيس والغاته ، فسق نصف العالم مع پرسفوني في هاديز (الجحيم) ، ثم يعيد إليه في النصف الثاني حياته الأرضية وحبه اللذيذ . وكان الفينيقيون والقبرصيون والأثينيون يحتفلون بموت أدنيس فيتييمون له عيد الأودونيا ، فكانت النساء يحملن صورة الرب (لأن هذا هو معنى لفظ أدنيس) . ويندين موته بأهل أصواتهن ثم يحتفلن احتفال النصر ببيت^(٤١) .

الموقد وناره المقدسة ، ومنها إيريس Iris (قوس قزح) ورسول زيوس
فى بعض الأحيان ، ومنها هيبى Hebe إلهة الشباب ، وإيليثيا التى تعين النساء
على الوضع ، ومنها ديكى Dike أو العدالة ، ومنها تيكي Tyche الفرصة ،
وإيروس Eros الحب الذى جعله هزبود خالق العالم والذى سمته سافو
« مذيبة الأضلاع ، الحلو - المر ، الوحش الضارى العنيد » (١٠) . وكان
هيمينيوس Hymeneus ، نشيد الزواج ؛ وهينوس Hypnos النوم ؛
وأنيروس Oneiros الأحلام ؛ وجيراس Geras الشيخوخة ؛ وليثى Lethe
النسيان ؛ وثناتوس Thanatos الموت وغيرها وغيرها مما يخطئه الحصر .
وكانت لهم تسع إلهات للفن تلهم الفنانين والشعراء : كليو Clio للتاريخ ،
ويوتربى Euterpe للشعر الغنائى الذى يوقع على المزمار ؛ وثاليا Thalia
للمسرحيات الهزلية وشعر الرعاة ؛ وملپومينى Melpomene للمآسى ؛
وترپسكورى Terpsichore للرقص المصحوب بالغناء وللغناء نفسه ، وإراتو
Erato للشعر الغزلى والمزلى ؛ وبولنیا Polymnia للترانيم ؛ وأورانيا
Urania للفلك ، وكليوبى Coliope للملاحم الشعرية . وكانت لهم ثلاث
إلهات للرحمة لها اثنا عشر تابعاً هى الساعات . وكان من هذه الآلهة الصغار
نميس الذى يوزع الخير والشر على الناس ، ويرسل الدمار إلى كل من
يرتكب جريمة الهبريس hybris - الزهو فى أيام الرخاء . وكان منها
الإرينيات Erinnyes إلهات الغضب الرهيبة التى لا تترك ظلماً إلا انتقمت
له . وكان اليونان يطلقون عليها اسم اليومنيدات Eumenides أى مريدات
الخير تجملاً منهم لها ودرءاً لشرها . وآخر ما نذكر من آلهتهم المويراى
Moirai أى ربات الأقدار والحظوظ اللاتى كن ينظمن شئون الحياة تنظيماً
لا مرد لحكمهن فيه ، ويتصرفن على حد قول البعض فى حظوظ الآلهة
والآدميين على السواء . وعند هذا الحد من التفكير يقف الدين اليونانى
ثم ينتقل بعده إلى العلم الطبيعى وإلى القانون .

ولقد أبقينا إلى آخر هذا السجل أكو' الآلهة اليونانية إثارة للتعب ،

وأجبا إلى الشعب ، وهو إله يصعب علينا كل الصعوبة أن نحدد مكانه بين هاته الآلهة . ذلك هو ديونيسس الذى لم يقبل بين آلهة أولمبس إلا فى أخريات أيامه . ذلك أنه كان فى أول الأمر من آلهة تراقية ، قبل أن تنبه تلك البلاد إلى اليونان . وكان فى موطنه الأصلي إله الشراب المعصور من الشعير ، وكان اسمه فيها سبزيوس Sabazius ، فلما جاء بلاد اليونان أصبح إله الخمر ، ومغذى الكروم وحارسها . وكان فى بادئ الأمر إلهاً للخصب ، ثم أصبح إله السُّكْر ، وانتهى أمره بأن صار ابن الله الذى مات لينجى البشر . واختلطت عدة صور وأفاصيص بعضها ببعض لتتكون منها أسطورته ، فكان اليونان يتخيلونه فى صورة زجربوس Zagreus أى « الطفل المرقن » ، الذى ولد لزربوس من أخته پرسفونى . وكان أحب أبناء زيوس إليه ، ويجلس إلى جواره على عرشه فى السماء . ولما حدثته هيرا على منزلته وأغرت الجبابرة بقتله ، بدله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار . ولكن الجبابرة قبضوا عليه وهو فى هذه الصورة الثانية ، وقطعوا جسمه إرباً ، سلقوها فى قدر . وفعلت به أثينا فعل ترلوني Trelownay ، فأنقذت قلبه وحملت إلى زيوس ، وأعطاه زيوس إلى سميلي Semele فحملت به وولدت الإله مرة أخرى وسمى بعد مولده ديونيسس(*) .

وكان الحزن على موت ديونيسس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونان . فقد كانت النساء اليونانيات يصعدن التلال

(*) وقد فسّر ديودور الصقل من زمن بعيد يرجع إلى عام ٥٠ ق. م إلهة تراقية ، أنها أسطورة من أساطير الإنبات فقال إن زجربوس ، الكرم ، هو ابن ديمتر ، الأرض ، بعد أن لقحها زيوس ، المطر . ويقام ، أى يشذب ، الكرم كما يتناع الإله ليحيى حياة جديدة ، ويفل عصار العنب ليكون نبيذاً . ويولد الكرم مرئداً جديداً فى كل عام ، بعد أن يستمد غذاءه من المطر (٤١) وقد وجد هيرودوت بين أسطورتى ديونيسس وأوزيريس من أوجه الشبه الكثيرة ما جعله يجمع بين الإلهين فى مثاله الذى يعد من أول ما كتب من المقالات فى مقارنة الأديان (٤٥)

في فصل الربيع حين تزهو الكروم ليقابلن الإله حين يولد من جديد . وكن يقضين يومين كاملين يحتسين فيهما الخمر بلا حساب وكن يرين كما يرى السكبرون غير المتدينين في هذه الأيام أن قليلة العقل من لا تفقد عقلها من الشراب ، وكن يسرن في موكب عجاج تقودهن ميندات Maends أو نساء ذاهلات العقل مشغوفات بديونيسس ؛ وكن يرهفن آذانهن لسماع قصته التي يعرفها حق المعرفة ، وما لقيه لإلهن من عذاب وموت وبعث ؛ وكن في أثناء احتسائهن الخمر ورقصهن يهتجن احتياجا بتحللن فيه من جميع القيود . وكان محور هذا الاحتفال وأهم ما فيه أن يمسك النساء بماعز أو ثور أو رجل في بعض الأحيان (يرين أن الإله قد تقمصه) ويمزقنه إربا وهو على قيد الحياة ، لإحياء لذكرى تمزيق ديونيسس ؛ ثم يشربن دمه ، ويأكلن لحمه يتخذنه عشاء ربانيا مقدسا ، معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن . وكن في هذه الحفاصة القدسية(*) يؤمن بأنهن سيبصحن هن والإله شيئا واحدا ، وأنهن سيففرن بالامتزاج معه امتزاجا صوفيا . ولهذا كن يتسمين باسمه فيطلقن على أنفسهن اسم البكوى Bacchoi ويعتقدن أنهن لن يمتن بعدئذ أبدا ، أو كن يسمين الحالة التي هن فيها الإكستيز ecstases (النشوة) أي خروجهن من أرواحهن ليلاقين ديونيسس ويتحدن معه . وبهذا كن يشعرن بأنهن قد تحررن من أجسامهن ؛ وحصلن على قوة اختراق حجب الغيب فأصبحن قادرات على التنبؤ ، وصرن في واقع الأمر لإلهات . تلك هي الطقوس الانفعالية التي انتقلت من تراقية إلى بلاد اليونان كأنها وباء ديني شبيه بأوبئة العصور الوسطى ، ينتزع اقلية في أثر إقليم من آلهة أولمبس الباردة الواضحة معبودات الدولة الرسمية ليُحل محلهما دناء طقوسا تشبع شهوة الاحتياج والتحرر من القيود ، والحنين إلى التحمس

(*) ولفظ الحفاصة الإنجليزي enthusiasm مشتق من إنيثوس Entheos ، إله في

الداعل ، وكان هذا اللفظ يعني في أول الأمر تملك إله جسم إنسان .

والاستحواذ والتصوف والغموض . وقد حاولت دلنى أن تبعد عنها هذه الطقوس الدينية ، وحاول ذلك حكام أثينة أيضا ، ولكن دلنى عجزت عن إبعادها عجز حكام أثينة . وكل ما كان فى مقدورها ومقدورهم هو إدخال ديونيسس فى زمرة أرباب أولمبس ، وصبغه بالصبغة اليونانية والإنسانية ، والاحتفال بعيدة احتفالا رسمياً ، وتبديل مريح عباده من نشوة الخمر الجنونية بين التلال إلى المواكب الفخمة والأغاني القوية والمسرحية ذات الروعة والجلال التى تمثل فى عيد ديونيزيا العظيم . وقد ضموا ديونيسس وقتاً ما إلى أهلو ، ولكن أهلو استسلم آخر الأمر لوارث ديونيسس وغالبه ألا وهو المسيح .

الفصل الثالث

أسرار خافية

لقد كان في دين اليونان ثلاثة عناصر وثلاث مراحل رئيسية : عنصر أرضي ومرحلة أرضية ، وعنصر أولمبي ومرحلة أولمبية ، وعنصر صوفي ومرحلة صوفية . وأكبر الظن أن أول العناصر وأولى المراحل من أصل بلاسجى - ميسينى ، وأن ثانيهما وثانيتها من أصل أخى - دورى ، وثالثهما وثالثتها من أصل مصرى - أسوى . وكانوا يعبدون في المرحلة الأولى آلهة تحت الأرض وفي الثانية آلهة سماوية وفي الثالثة آلهة بعثت بعد الموت . وكانت العبادة الأولى أكثر انتشاراً بين الفقراء ، والثانية بين الأغنياء ، والثالثة بين الطبقة المتوسطة - الدنيا . وسادت العبادة الأولى قبل العصر الهومرى والثانية في أثنائه والثالثة بعده . ولم يكده يحل عصر الاستنارة في أيام هركليز حتى كان التخفى أقوى العناصر في الدين اليونانى . والتخفى عند اليونان احتفال سرى يكشف فيه عن رموز مقدسة ، وتقام فيه طقوس رمزية ، لا يتعبد بها إلا المطلعون على أسرارها . وكانت هذه الطقوس في العادة تمثل عذاب إله من الآلهة وموته وبعثه ، أو تحيى ذكرى هذا العذاب والبعث والموت بطريقة شبه مسرحية ، وتشير إلى موضوعات زراعية قديمة وإلى ضروب من السحر ، وتعيد أولئك المطلعين حياة أبدية خالدة .

وكانت أماكن كثيرة في بلاد اليونان تمارس هذه الطقوس الخفية ، ولكن ما من مكان فيها كان يضارع إلويسيس من هذه الناحية . وكان ما فيها من الطقوس موروثاً من عهد ما قبل الآخين ، ويبدو أنها كانت في الأصل احتفالاً في الخريف بالحرق والزرع^(١٣) . فقد كان ثمة أسطورة تقول إن ديمتر أرادت أن تكافئ أهل أنكا لعطفهم عليها في نجواها فأقامت في إلويسيس أعظم هيكل من

هياكلها ، ثم هدم هذا الهيكل وأعيد بناؤه مراراً كثيرة خلال تاريخ اليونان . ودخل عيد دمر في أيام أثينة صولون وببستراتس وبركليز ، وازداد فيها عظمة وفخامة ، وكان طلاب الأسرار الصغرى التي تقام في فصل الربيع بالقرب من أثينة يتطهرون أولاً بأن يغمرُوا أنفسهم في ماء إلبس Illisus ، فقد كان الطلاب وغيرهم من الناس يحجون سيراً على الأقدام في وقار وجزل مدى أربعة عشر ميلاً في الطريق المقدس إلى إلويسيس ، يحملون فوق رؤوسهم صورة الإله الأرضي ياكوس Iacchus حتى إذا ما وصل الموكب إلى إلويسيس في ضوء المشاكل ووضع صورة الإله في الهيكل وسط مراسم التعظيم والإجلال ، قضوا ما بقي من اليوم في الرقص والغناء المقدسين .

تلك هي الأسرار الصغرى ، أما الأسرار الكبرى فكانت تدوم أربعة أيام أخرى ، وتبدأ بإدخال من تطهروا في الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم ، أما الذين مارسوا هذه الطقوس في مثل ذلك الموعد من العام الماضي فكانوا يؤخّلون إلى هو الاندماج في الجماعة السرية ، حيث يكون الاحتفال السري . وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاء ربانيا مقدساً لإحياء لذكرى دمر ، ويشربوا مزيجاً مقدساً من دقيق الخطة والماء ، ويأكلوا كمكاً مقدساً . ولسنا نعلم أى طقوس خفية كانت تحدث في ذلك المكان ، فذلك شر ظل خافياً خلال التاريخ القديم كله ، وكان محرماً على أى إنسان أن ييوح به وإلا تعرض للقتل . ولقد نجح إسكلس التقي نفسه من حكم الإعدام بأعجوبة لأنه كتب بضعة أسطر ظن أنها قد تكشف السر . وكل ما نستطيع أن نقوله أن الاحتفال كان عبارة عن مسرحية رمزية لها أثر في إحياء مسرحية ديونيسس ، وأكبر الظن أن موضوعها كان اختطاف بلوتو لپرسفوني ، وتجوّال دمر الحزينة وعودة الفتاة العذراء إلى الأرض ، والكشف لأنكا عن أسرار الزراعة . وكانت خلاصة الاحتفال هي زواج خفي بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل دمر ،

وكان هذا الزواج الرمزي يثمر ثمرته بسرعة سحرية عجيبة ، فقد كان يعقبه بعد قليل - على ما ينقله لنا المؤرخون - إعلان صريح بأن « سيدتنا قد وضعت غلاماً مقدساً » ، ثم تعرض على الناس سنبلة من الحب ترمز إلى الثمرة التي تمخضت عنها دمتر - نتاج الحمول ، ثم يؤخذ العابدون في ضوء المشاعل الشاحب إلى كهوف مظلمة تحت الأرض تمثل الجحيم ، يرفعون بعدها إلى حجرة عليا تتلألأ فيها الأنوار وتمثل ، على ما يظهر ، مسكن الصالحين ؛ وفيها تعرض عليهم وسط مظاهر التعظيم والتكريم الآثار أو الصور والتماثيل المقدسة التي ظلت إلى تلك الساعة مخفية عنهم ، ويؤكد العارفون أن هؤلاء المبتدئين كانوا وهم في نشوة هذا الإلهام المقدس يحسون بوحدتهم هم والإله ووحدته الإله والروح ، وأنهم قد انتشلوا من أوهام الفردية ، وأدركوا طمأنينة الاندماج في الألوهية^(٤٤) .

وفي عصر بيسسترناس دخلت أسرار ديونيسس في الطقوس الإلوسينية عن طريق عدوى دينية إذا صح هذا التعبير ، وذلك أن الإله ياكوس قد وحد هو وديونيسس ، وقيل إنه هو ابن پرسفوني ، وطفعت خرافة ديونيسس زجربوس على أسطورة دمتر^(٤٥) . ولكن الفكرة الرئيسية في هذه الطقوس نفسها ، وجوهر هذه الفكرة هو أن الموتى يمكن أن تتجدد حياتهم كما أن البذرة تولد مرة ثانية ، ولم يكن يقصد بحياتهم هذه حياة الأشباح النكدية في الجحيم ، بل يقصد بها حياة ملؤها السعادة والطمأنينة . ولما زال كل ما عدا هذه الفكرة من الدين اليوناني ، ظل هذا الأمل يعمر القلوب وامتزج في الإسكندرية بعقيدة الخلود المصرية التي هي أصل العقيدة اليونانية ، فكان هو السلاح الذي غزت به المسيحية العالم الغربي .

وجاءت إلى بلاد اليونان في القرن السابع طقوس دينية صوفية أخرى من مصر وتراقية ، وتساليا ، وكانت هذه الطقوس أجل خطراً في تاريخ اليونان من طقوس إلوسيس الخفية نفسها . ونجد في بداية هذه الطقوس في عصر ركاب

السفينة أرجوس شخصاً غامضاً ولكنه مع ذلك جذاب فتان ، ذلك هو أرفيوس التراقى الذى يصفه ديودور بأنه لم يكن يدايه أحد ممن نعرف أسماءهم من الرجال فى الثقافة والموسيقى والشعر^(٦) ، ونرجح كثيراً أن أرفيوس هذا كان شخصاً حقيقياً ، وإن كان كل ما نعرفه عنه يمت بسبب إلى الأساطير . فهم يصورونه لنا فى صورة الرجل الظريف ، الشفيق ، المفكر ، العطوف ، وهو تارة موسيقى ، وتارة كاهن زاهد من كهنة ديونيسس . وكان بارعا فى العزف على القيثارة وفى الغناء عليها براعة افتتن بها سامعوه حتى كادوا أن يتخذوه إلها يعبدونه .

وكانت الوحوش إذا سمعت صوته خرجت عن طبيعتها واستأنست ، بل إن الأشجار والصخور كانت تغادر مواضعها لتستمع إلى نغمات قيثارته . وتزوج أرفيوس من يريديس الحسناء ، وكاد يمين حين قضت نحبها . فما كان منه إلا أن قفز إلى الجحيم وسحر پرسفونى بقيثارته ، وسمح له أن يعيد يريديس إلى الحياة على شريطة ألا ينظر إليها حتى يصل إلى سطح الأرض . لكنه لم يطق صبرا على هذا وخشى ألا تكون من ورائه ، فنظر إلى الوراء عند آخر حاجز بينه وبين سطح الأرض ، فراها تختطف مرة أخرى ويقذف بها إلى العالم السفلى . وحقدت عليه نساء تراقية لأنه أبى أن يسلى نفسه معهن فزقته إربا فى نشوة من نشواتهن الديونيسية . وكفر زيوس عن ذنهن بأن جعل قيثارة أرفيوس كوكبة من نجوم السماء^(٧) . ودفن رأسه وهو لا يزال يغنى فى لسبوس فى شق صار فيها بعد مهبط وحى . ويقولون إن البلابل فى هذا المكان كانت أرق وأحلى صوتاً منها فى أى مكان آخر^(٧) .

وقيل فى العصور المتأخرة إنه خلف وراءه كثيراً من الأغانى الدينية ؛ وليس بعيد أن يكون هذا صحيحاً ، وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن عالماً يدعى أونومكريتوس Onomacritus نشر هذه الأغانى فى عام ٥٢٠ ، كما نشرت

(٥) هى المعروفة فى الفلك بكوكبة النسر الواقع . (المترجم) .

القصاصات المومرية قبل ذلك يجيل من الزمان ؛ وفي القرن السادس أو قبله كانت هذه الأغاني قد أصبحت ذات طابع مقدس ، وقيل إنها قد أوحيت إلى صاحبها كما أضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس ديونيسس ، ولكنها تعلو عليها كثيراً فيما تنطوي عليه من عقائد دينية وفي طقوسها وأثرها الخلقى . فأما العقائد الدينية فقد كانت في جوهرها توكيداً لعذاب ديونيسس زجريوس الابن المقدس وموته وبعثه ، كما كانت تؤكد أيضاً أن الناس جميعاً سوف يعيشون في حياة مستقبلية يثابون فيها على أعمالهم أو يعاقبون عليها . وإذا كان الاعتقاد السائد أن الجبابرة الذين قتلوا ديونيسس هم الذين تناسل منهم الآدميون ، فقد كانت البشرية كلها ملوثة بشيء من الخطيئة الأولى ، وكان عقابها على هذه الخطيئة أن الروح تسجن في الجسم كأنها في سجن أو قبر ، ولكن في وسع بني الإنسان أن يعزوا أنفسهم بأن يعرفوا أن الجبابرة قد أكلوا ديونيسس ، وأن كل إنسان ينطوي لهذا السبب في روحه على جزء من الألوهية الخالدة ، وكان عباد أرفيوس يتناولون في عشاء رباني جماعي لحم ثور نيئاً ، يمثل في اعتقادهم ديونيسس ، لإحياء لذكرى قتل الإله وأكل لحمه وامتصاصاً للجوهر المقدس من جديد^(٤٨) .

ويقول علم اللاهوت الأرفي إن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلى على أعمالها ، وكانت الترانيم والطقوس الأرفية ترشد المؤمنين إلى ما يجب أن يتبعوه في هذا الحساب النهائي الشامل ، شأنها في هذا شأن كتاب الموتى عند قدماء المصريين . فإذا حكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً . فن قول إن هذا العقاب أبدي^(٤٩) وهو الذي أخذت منه فكرة النار فيما بعد ، وهناك فكرة أخرى تقول بالتناسخ أي أن الروح تولد مرة بعد مرة لتحيي حياة أسعد من حياتها الأولى أو أشقى منها حسب طهارتها الأولى أو عدم طهارتها ، ويتكرر هذا المولد مرة بعد مرة حتى تتطهر الروح من ذنوبها تظهر تماماً فيسمع لها بالدخول في جزائر المنعمين^(٥٠) . وهناك قول

ثالث يبعث الأمل في قلوب الموتى وخلاصته أن العقاب الذى يلقاه الميت في
الحجم قد ينتهى إذا كفر الإنسان عن ذنبه قبل موته أو كفر عنه أصدقاؤه
بعد موته ، وهذه الطريقة نشأت عقيدة التطهير وصكوك الغفران ؛ ويصف
أفلاطون وهو مغضب غضباً لا يكاد يقل عن غضب لوثر Luther بيع هذه
الصكوك في أثينة في القرن الرابع قبل الميلاد فيقول :

« يقرع المتنبئون المنسولون أبواب الأغنياء ويدخلون في روعهم أنهم
قد وهبوا القدرة على أن يكفروا لهم خطاياهم أو خطايا آبائهم بضروب
من التضحية والرقى . . . ثم يخرجون من حقائبهم مجموعة ضخمة من
الكتب بخط موسيوس Musaeus أو أرفيوس . . . يمارسون منها طقوسهم ،
ويقنعون الأفراد ومدناً بأكملها أن التوبة من الذنوب والتكفير عنها يتأتى
بتقريب القرابين والقيام بضروب التسلية (الاحتفالات) التى يشغلون بها
ساعات الفراغ التى يتقدمون بها إلى الأحياء وإلى الموتى على السواء ،
وهم يسمون العمل الأخير (الاحتفالات) طقوساً خفية ، ويدعون أنها
تنجينا من عذاب النار ، فإذا أغفلناها فلا يعلم أحد ماذا يصيبنا
من عذاب (٥١) » .

على أن الأرفية كان فيها بالرغم من هذا اتجاهات مثالية هى التى
أدت إلى الفلسفة الأخلاقية والرهينة فى المسيحية . ذلك أن ما كان
يعزى إلى آلهة أولمبس من انحلال خلقى واستهتار قد حل محله قانون
صارم للسلوك ؛ وثل عرش زيوس الجبار شيئاً فشيئاً وحلت محله شخصية
أرفيوس الظرفية بنفس الطريقة التى ثل بها عرش يهوه ليحل محله المسيح
فيما بعد . ودخلت فى التفكير اليونانى فكرة الخطيئة والضمير والنظرة الثنائية
إلى الجسم والروح ، التى تقول إن الجسم خبيث وإن الروح مقدس ،
وصار إخضاع الجسم أهم أغراض الدين كما صار شرطاً لخلاص الروح .
ولم يكن لطائفة الإخوان الأرفيين نظام دينى أو حياة خاصة بمعزل عن حياة
الناس ، وكل ما كان يميزهم من غيرهم ثيابهم البيضاء وامتناعهم عن أكل

اللحم ، وتكشفهم إلى درجة لم تكن مما يتفق عادة مع الحياة اليونانية ، وملاك القول أنهم كانوا يمثلون في اليونان إصلاحاً كإصلاح المتطهرين من عدة وجوه .

وكان لهذه الطائفة أثر بعيد طويل ؛ ولعل الفيثاغوريين قد أخذوا منها طعامهم ولباسهم ونظريتهم في تقمص الأرواح . ومما هو جدير بالذكر أن أقدم ما لدينا من الوثائق الأرفية قد وجدت في جنوبي إيطاليا^(٥٢) . وكان أفلاطون يعتقد بنظريتها في تعارض الجسم والروح ، وبزعتها التزمية ، وبأملها في الخلود ، وفي وسعنا أن نرجع بعض ما في الرواقية من زهد ومن وحدة الله والكون إلى أصل أرفي ، وقد كان في حوزة رجال الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية مجموعة كبيرة من الكتابات الأرفية اتخذوها أساساً للاهوتهم وطقوسهم وتصوفهم . كذلك أثرت فكرة النار والمطهر واللجنة ، وتعارض الجسم والروح ، والابن المقدس الذي قتل ثم ولد من جديد ، والعشاء الرباني وهو أكل جسم الإله ودمه وقديسيته ، أثرت هذه كلها من قرب أو من بعد في المسيحية التي كانت هي نفسها ديناً ذا طقوس ومراسم خفية ، فيها الكفارة والأمل والوحدة التصوفية وتحرر الروح ، ولا تزال الأفكار والعبادات التي تشتمل عليها الديانة الأرفية منتشرة بيننا في هذه الأيام .

الفصل الرابع

العبادات

لم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقل تنوعاً واختلافاً من الآلهة التي كانت تحتفل بها وتعظمها : فقد كان للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُسَكَّن بها غضبها ويُنقَّى شرها ، وكان للآلهة الأولمبية طقوس سارة كلها ترحيب بها وثناء عليها . ولم تكن هذه أو تلك تحتاج إلى كهنة يقومون بها . فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن في الأسرة ، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه في الدولة . بيد أن الحياة في بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير في كل مكان ، وكانت كل حكومة ترعى الطقوس الدينية الرسمية وترى أنها لا بد منها للنظام الاجتماعي والاستقرار السياسي . على أنه بينما كان الكهنة في مصر وبلاد الشرق الأدنى يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة في بلاد اليونان هي التي تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة في الشؤون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار في الهياكل . كذلك كانت أملاك الكهنة ، عقاراً كانت أو نقوداً أو عبيداً ، يراجعها ويدير شؤونها موظفون من قبل الدولة^(٥٣) . ولم تكن هناك معاهد لتخريج الكهنة بل كان في استطاعة أى إنسان أن يختار أو يعين كاهناً بلا جلبة أو مشقة إذا كان يعرف المراسم الدينية التي تتطلبها الآلهة ، وكان هذا المنصب في كثير من الأحيان يتولاها من يؤدي له أكبر الأثمان^(٥٤) . ولم تكن هناك طبقة كهان خاصة ، أو هيئة لهم جامعة ، ولم يكن بين كهنة أحد المعابد أو إحدى الدول وزملائهم في معبد آخر أو دولة أخرى رابطة ما ؛ ولم يكن للدولة دين رسمي ، يستمسك به جميع أفرادها أو عقائدها

ثابتة مقررة ؛ ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة ؛ بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية^(٥٦) ، وكان في وسع أى إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بأله المدينة أو يسبها ، وملاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً في بلاد اليونان .

ما مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد الدار ، أو موقد البلدية القائم في قاعة المدينة العامة ، ويمكن أن يكون شقاً في الأرض يسكنه إله أرضي أو هيكل لإله أولمبي . وكان حرم الهيكل مكاناً مقدساً ، لا يعتدى عليه ، يجتمع فيه العابدون ، ويجد فيه اللاجئون مكاناً آمناً يحتمون فيه ولو كانوا ممن ارتكبوا أشنع الجرائم . ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلين بل كان بيت الإله ، ينصب فيه تمثاله ، ويوقد أمامه ضوء لا ينطفئ أبداً . وكثيراً ما كان الناس يعتقدون أن الإله هو التمثال نفسه ، ولذلك كانوا يعنون بغسله ، وكسوته ، وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية ، وكانوا أحياناً يؤنبونه إذا أهمل أمرهم ، وكانوا يتقصون على من يستمتع إليهم كيف تصيب التمثال عرفاً في بعض الأحيان أو كيف بكى أو أغمض عينه^(٥٧) . وكان يحفظ في سجلات الهيكل تاريخ أعياد الإله والحوادث الهامة في حياة المدينة أو الجماعة التي تعبد الإله صاحب الهيكل ، وكان هذا التاريخ أول التواريخ اليونانية والمنيع الذي استمدت منه أولى أشكال الكتابات التاريخية .

وكان الاحتفال يتألف من موكب ، وأنشيد، وقربان ، وأدعية ، يضاف إليها في بعض الأحيان وجبة مقدسة ؛ وقد يشمل الموكب سحراً ، ومقنعات ، وجواهر من الممثلين يعملون مجتمعين ، ومسرحية تمثيلية . وكانت أهم أجزاء الطقوس في معظم الأحيان تحددها العادات المألوفة ؛ وكانت كل حركة فيها ، وكل كلمة في الترانيم أو الصلوات ، مدونة في كتاب محفوظ عند الأسرة أو الدولة مقدس لديها ، لا يكاد يتغير فيه لفظ ، أو جزء من لفظ ، أو نغمة من النغمات

خشية ألا يحب الإله هذه البدعة أو ألا يفهمها . فقد تتغير اللهجات المحلية ولكن لغة الطقوس تظل على حالها ، وقد لا يستطيع المتعبدون على مر الزمان أن يفهموا الألفاظ التي ينطقون بها^(٥٨) ولكن النشوة التي يبعثها فيهم قدم العهد كانت تغنيهم عن الفهم . وكثيراً ما كان الاحتفال يبقى بعد أن ينمحي من ذاكرة المحتفلين كل شيء عنه ، ولا يبقى فيها حتى سبب هذا الاحتفال أو الباعث عليه . فإذا حدث هذا اخترعت أساطير جديدة تفسر قيامه ، فتتغير الأسطورة أو العقيدة وتبقى المراسم والطقوس ، وكانت الموسيقى عنصراً أساسياً لا غنى عنه في الاحتفال كله لأن الدين يشق على النفس من غير الموسيقى ، والموسيقى تنتج الدين كما ينتج الدين الموسيقى . ومن الهيكل وأناشيد الاحتفالات ، نشأ الشعر ، ونشأت القصائد التي ازدانت بها في الأيام الأخيرة عقائد أركلوكس القوية البديئة ، وعواطف سافو الثائرة المستهرة ، وأشعار أنكريون الرقيقة الفاجرة .

وإذا ما وصل العابدون إلى المذبح - وكان موضعه عادة أمام الهيكل عملوا على اتقاء غضب الله أو كسب معونته بالنضحيات والصاوت . وكان في وسعهم أفراداً أن يقربوا إليه كل ما له قيمة لا يكاد يستثنى من ذلك شيء قط : - تماثيل ، أو نقوشاً ، أو أثاثاً ، أو أسلحة ، أو آنية ، أو مناضد ، أو ثياباً ، أو فخاراً ؛ فإذا لم يستطع الإله أن يستخدم هذه القرابين استخدمها الكهنة . أما الجيوش فقد كان في وسعها أن تهب الإله جزءاً من غنائمها ، كما فعل جنود أكسوفون العشرة الآلاف في أثناء ارتدادهم^(٥٩) . وكان في مقدور الجماعات أن تهب تمار الحقول أو الكروم أو الأشجار ؛ أو حيواناً يشتهي الإله طعمه وهو الكثير الحدوث ؛ وعند مسيس الحاجة كان يضحي بالآدميين أنفسهم ، فقد ضحى أجمنون مثلاً بإفچينيا كي تهب الريح ؛ وذبح أخيل اثني عشر من شباب طروادة على كومة حريق پتركلوس^(٦٠) . وكان الضحايا الآدميون يقذف بهم من فوق صخور قبرص ولوكاس استرضاء لأپلو ، وآخرون يهلون إلى ديونيسس في

طشيوز وتندوس ؛ ويقال إن ثمستكلز ضحى ببعض أسرى الفرس يوم سلاميس^(٦١) ؛ وكان الأسبارطيون يحتفلون بعيد أرتميس أورثيا Artemis Orthia بجلبد بعض الشبان عند مذبجها جلدأ كان يلوم في بعض الأحيان حتى يقضى على المجلودين^(٦٢) . وظل زيوس في أركاديا يتقبل الضحايا البشرية حتى القرن الثاني بعد الميلاد^(٦٣) . وكان إذا انتشر الوباء في مساليا جرى بمواطن فقير وأطعم من بيت المال ، وألبس الثياب الكهنوتية ، وزين بالأغصان المقدسة ، وألقى من فوق صخرة ومن حوله يدعون أن يكفر بعقابه هذا عن سيئات مواطنيه^(٦٤) . وكان من عادة أهل أثينة إذا دامهم القحط ، أو الطاعون ، أو غيرهما من الأزمات أن يقدموا للإله ، إما حقيقة وإما تمثيلاً ، ضحية بشرية واحدة أو أكثر من واحدة تطهيراً للمدينة ؛ وكان يحدث مثل هذا في كل عام في عيد الثارجليا (*) Thargelia^(٦٥) . وقد خففت هذه التضحيات البشرية على مر الزمن بأن قصر الضحايا على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا فوق هذا يخدرون بالخمور ، ثم استعيض عنهم آخر الأمر بالحيوانات . ولما أن رأى بلييداس Belopidas القائد البثوني في الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق . م) حلمأ ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر ، نصحه بعض مشيريه أن يلبي الطلب ، وعارضه البعض الآخر وقالوا له : « إن هذا العمل الهمجي المجرى من كل معاني التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أيا كانت ؛ وإن الجبابرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض ، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة ، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عاليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين^(٦٦) » .

(*) وكان هؤلاء الضحايا يسمون فارمكوى Pharmakoi في أثينة وكان معنى هذا اللفظ في أول الأمر السحرة . ومعنى فارمكون Pharmakon رقية سحرية ، ثم أصبح معناها عقاراً شافياً^(٦٦) . والعلماء مخطفون دل كان الفارمكوى يقتلون في الواقع أو لا يقتلون ، غير أنا لا نكاد نشك في أن اقتل في أول الأمر كان يحدث فعلاً^(٦٧) .

وإذن فقد كانت التضحية بالحيوان خطوة كبرى في تطور الحضارة . وكانت الحيوانات التي سبقت غيرها في هذا التطور في بلاد اليونان هي الثيران والضأن والخنازير ؛ فكانت الجيوش المتحاربة تقدم قبل المعركة من الضحايا ما يتناسب مع رغبتها في النصر ؛ وكان مكان انعقاد أية جمعية يظهر قبل انعقادها بالتضحية بخنزير . غير أن تقوى الناس لم تكن تقوى على طبيعتهم إذا حزبهم أمر خطير ، ولم يكن يصل من الضحية إلى الإله إلا عظامها وقليل من لحمها ملفوف بالدهن ، أما ما بقى منها فكان يترك للكهنة والعابدين . وكان اليونان يبررون عملهم هذا بقولهم إن بزميثيوس Prometheus في عصر الجبابرة قد لف ما يصلح للأكل من جسم الضحية في جلدها ، ولف عظامها بالدهن وطلب إلى زيوس أن يختار ما يفضله منهما ، وإن زيوس اختار الدهن « بكلتا يديه » . نعم إن زيوس قد استشاط غضباً حين رأى أنه قد خدع ؛ ولكنه كان قد أتم الاختيار وكان عليه أن يرضى به ويصبر عليه إلى أبد الدهر^(٦٩) . ولم تكن الضحية تقدم كلها لحملها وشحمها إلا للآلهة الأرضية ، وكان الحيوان كله في هذه الحال يحرق في محرقة عامة حتى يصبر رمادا ؛ ذلك أن آلهة الأرض السفلى كان يخشى بأسها أكثر مما يخشى بأس الآلهة الأولمبية . ولم تكن وجبة عامة تعقب التضحية للإله الأرضي ، لأن هذا قد يغرى الإله بالخروج والاشتراك في الوليمة . أما بعد التضحية للآلهة الأولمبية فقد كان العباد يأتون على الضحية كلها ، ولم يكونوا يفعلون هذا خوفاً من الإله وتكفيراً عن ذنوبهم ، بل كانوا يفعلونه لأن من دواعى سرورهم أن يشتركوا في الطعام مع الإله ، ويرجون أن تكون الصيغ السحرية التي ينطقون بها وقت الطعام قد نفثت في الضحية حياة الإله وقوته ، وأن هاتين الحياة والقوة ستنتقلان بطريقة خفية إلى الآكلين معه .

وكذلك كان الأحمر يصب فوق الضحية ، ويصب بعدئذ في كؤوس العابدين ، حكائهم بهذا كانوا يشربون مع الآلهة^(٧٠) . وكانت فكرة الاشتراك المقدس

فى الوجبة الدينية هى الرابطة التى تربط هيئات الإخوان thiosol التى كان
كثير من أصحاب الحرف والهيئات الاجتماعية يؤلفونها فى أثينة (٧١) .

وقد ظلت التضحية بالحيوانات منتشرة فى جميع أنحاء بلاد اليونان حتى
قضت عليها المسيحية (٧٢) ، واستبدلت بها عن حكمة التضحية الروحية
والرمزية المعروفة بالقداس . وأصبحت الصلاة أيضاً إلى حد ما بديلاً من
التضحية حتى فى العصور الوثنية . وكان استبدال تسيبحات الحمد بالقرايين
الدموية إصلاحاً يشهد بالحذق لفاعليه ، فهذه الوسيلة الهينة الرحيمة كان
فى استطاعة الإنسان وهو المحوط بالمصادقات والمآسى فى كل خطواته أن
بتأسى ويتقوى باستعائته بما فى العالم من قوى خفية .

الفصل الخامس

الخرافات

وكان بين قطبي الدين اليوناني العلوى والسفلى ، الأولي والأرضى ، بحر يزخر بالسحر والخرافات ، والأباطيل ؛ وكان من وراء العباقرة الذين سنشيد بذكرهم فيما يلى من صحائف هذا الكتاب ، كما كان من ورائهم ، جمهرة الشعب من النقرء والسذج الذين لم يكن الدين فى نظرهم إلا شراكا من الخوف لا سلما للأمال ؛ ولم يكن اليونانى العادى يكتفى بتصديق القصص التى تروى المعجزات كصعود منسيوس من بين الموتى ليحارب فى مرثون ، أو تحويل الماء إلى خمر على يد ديونيسس^(٧٢) ، ذلك أن أمثال هاتين القصتين تظهر عند جميع الشعوب ، وهى جزء من الشعر المباح المغتفر الذى ينير به الخيال دياجير الحياة العادية . بل إن فى وسع الإنسان أن يذهب إلى أبعد من هذا فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوى فيها عظام ثيسوس ، وحرص اسپارطة على أن تسترد من تيجيا Tegio عظام أرسيتيز Orestes^(٧٣) ، فقد يكون ما يعزوه الحكام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات جزءا من فن الحكم وأساليبه . أما الذى كان ينبغ بكلكله على اليونانى الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التى يعتقد أنها متأهبة على الدوام لأن تعرف مخبأته ، وأن تتدخل فى شؤنه وتلحق به الأذى ، وأن فى مقدورها أن تفعل به هذا كاه . وكانت هذه الشياطين لا تنفك تعمل لأن تقمصه ، وكان عليه أن يحذرهما ويبتى أذاها على الدوام ، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها .

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علما من العلوم الطبيعية ، وكانت إلى حد ما سوابق لنظرية الجراثيم التى نعرفها اليوم . فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليونانى أن المريض قد حل فيه روح غريب ، وأن من يلمس الشخص

المريض يعدى بقذارته أو « يلبسه ذلك الروح الغريب نفسه » . وليست
المكروبات والبكتريا إلا صورا جديدة شائعة لما كان اليونان يسمونه
كريس Keres أو الجن الصغيرة^(٧٥) . ومن ثم كان الميت « نجسا » لأن
الجنى قد استحوذ عليه كل الاستحواذ ؛ وكان اليونانى إذا خرج من بيت
فيه ميت رش نفسه بالماء من إناء يوضع لهذا الغرض عند باب البيت ،
وذلك لكي يطرد من جسمه الروح الذى غلب الميت على أمره^(٧٦) . وقد
امتدت هذه الفكرة عند اليونان إلى ميادين كثيرة لم يمتد إليها علمنا الحديث
رغم ما ينتابنا من رهبة البكتريا وجزعنا منها . وكان الجماع من أسباب
النجاسة ، كولادة الطفل أو القتل (ولو كان غير متعمد) ، وكان الطفل
المولود نفسه نجسا . ولم يكن الجنون إلا حلول روح غريب فى جسم المصاب
به ، وكان يقال إن الجنون قد « خرج عن نفسه » ، وكان لابد فى هذه
الحالات من القيام باحتفال يظهر فيه الشخص النجس . وكانت المنازل ،
والهاكل ، والمدن بأجمعها فى بعض الأحيان ؛ تظهر بالمساء أو الدخان كما
نظهرها نحن الآن^(٧٧) ، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كل
هيكل ، حتى يطهر به نفسه كل قادم للتعبد ، أو لعل هذا الوعاء كان رمزاً
يوحى إلى الناس بضرورة التطهر . وكان الكاهن نفسه خبيراً بأصول
التطهير ، وكان فى مقدوره أن يطرد الأرواح الشريرة من الأجسام بالضرب على
إناء من البرنز ؛ أو بقراءة العزائم ، أو بالسحراً أو الصلاة ؛ وحتى قاتل النفس
عدواً كان يمكن تطهيره إذا أجريت له الطقوس والمراحم الملائمة . ولم تكن
التوبة ضرورة محتومة فى مثل هذه الأحوال ، بل كل ما كان يحتاجه المتطهر هو
أن يتخلص من الشيطان الشرير الذى تقمصه ؛ وذلك لأن الدين لم يكن أمر
أخلاق بقدر ما كان فناً لمعالجة أمور الأرواح . غير أن كثرة المحرمات ومراحم
التطهير قد أكسبت اليونانى المتدين مزاجاً عقلياً يشبه شهاباً عجيباً الشعور بالخطيئة
عند طائفة المتطهرين المتميزتين (البيورتان) من الإنجليز . وإن القول بأن اليونان

كانوا مجردين من فكرتي الضمير والخطيئة لا يكاد يبق له أثر عند من يقرأ كتب بندار وإسكلس ، وقد نشأت من اعتقاد اليونان بأنهم يعيشون في جو من الأرواح ماثات من الخرافات لخصها ثيوفراستوس Theophrastus خليفة أرسو ، في جزء من كتابه ~~الأخلاق~~ فقال :

يبدو أن الإيمان بالخرافات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوة الإلهية . . . إن الرجل المخرف لا يخرج من داره أول النهار إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسع ، ويضع في فمه قطعة من ورقة شجرة في معبد ، فإذا ما اعتزضت طريقه قطعة لم يواصل السير حتى يمر به إنسان آخر ، أو يقذف بثلاثة أحجار في الشارع . وإذا أبصر أفعى في بيته وكانت من النوع الأحمر استنجد بديونيسس ، أما إذا كانت أفعى مقدسة فإنه يقيم لها ضريحاً من فوره في البقعة التي أبصرها فيها ؛ وإذا مر بأحد الحجارة المساء المقامة في مفترق الطرق صب عليه الزيت من قنيتته ولم يواصل السير في طريقه إلا بعد أن ركع له ويتعبد ، وإذا قرص فأرجعة طعامه ، توجه إلى الساحر وسأله ماذا يفعل ، فإذا أشار عليه بأن « يرسل الجعبة إلى الإسكاف ليرقعها » ، عمل بهذه النصيحة ، وخلص من النذير المشؤم بطقوس تمنع عنه الشر المرتقب . وإذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ، ارتجف وبصق على صدره (٨٠) .

وكان اليونان السذج يؤمنون ، ويعلمون أطفالهم أن يؤمنوا ، بأنواع لا حصر لها من العقاريت . وكانت مدن بأكملها تروع بين الفينة والفينة بما تنذر به أحداث غريبة كمولد حيوانات مشوهة أو أناس مشوهين (٨١) . وكان الاعتقاد بوجود أيام مشؤمة منتشرة إلى درجة تجعل من يؤمنون بهذه العقيدة لا يقدمون في هذه الأيام على زواج ولا يعقدون فيها جمعية . ولا تجتمع فيها محكمة ، ولا يبدعون فيها مشروعاً خطيراً . وكانت عطسة ، أو عثرة قدم ، تكن في بعض الأحيان لحمل العاطس أو العاتر على العلول عن سفر أو عمل هام ، وكان خسوف جزئي يكفي

لوقف زحف الجيوش أو ردها على أعقابها ، وقد يؤدى إلى ختام الحرب بكارثة مدممة . يضاف إلى هذا الاعتقاد بأن بعض الناس قد وهبوا قدرة عجيبة على إنزال النعمة ممن يشاءون ، فالأب إذا أغضب قد يصب على من أغضبه ، والسائل إذا أهمل قد يصب على من أهمله ، لعنة لا تقوم لها بعدها قائمة . وكان بعض الناس مهرة في فنون السحر ، فكان في وسعهم أن يمزجوا شراباً للعشق أو دواء مقوياً للباه ، وكان في وسعهم أن يضعفوا ببعض العقاقير السرية قدرة الرجل على الجماع أو يعقموا المرأة فلا تحمل أبداً^(٨٢) . وقد رأى أفلاطون أن شرائعه لا تكمل إلا إذا تضمنت تشريعاً يعاقب من يؤذى الناس أو يقتلهم بسحره^(٨٣) . فليست الساحرات إذن من اختراع العصور الوسطى ، فهى ذى ميدبا في روايات يوربديز ، وسميثا Simactha في روايات ثيوكريتس وهما ساحرتان . وقصارى القول أن الخرافات من أقوى الظواهر الاجتماعية ، وأنها بقيت في خلال أحقاب المدنية لا تكاد تتغير في قواعدها وأصولها ولا في صورها وأشكالها .

الفصل السادس

المتنبئون والمتنبآت

لقد نخل إلى أهل ذلك الوقت الذين كانوا يعيشون في عالم مليء بالقوى العليا غير الطبيعية أن حوادث الحياة رهينة بإرادة الشياطين والآلهة ، ولم يكن أمام اليونان الذين يريدون معرفة هذه الإرادة إلا أن يلجئوا إلى العرافين والمتنبئين يستشيرونهم في أمرهم ، وكان هؤلاء ينبئون بالمستقبل بالنظر في النجوم : وتأويل الأحلام ، وبحث أحشاء الحيوان ، وزجر الطيور ، وكان العرافون المحترفون يؤجرون أنفسهم للأسر والجوش والدول (٨٤) ، من ذلك أن نسياس Nicias استخدم قبل أن يسير حملته على صقلية طائفة كبيرة من مقربي القرايين وزاجري الطيور وقارئ الغيب (٨٥) . ولسنا نقول إن القواد لم يبلغوا كلهم من التقي ما بلغه هذا القائد مالك العبيد ؛ ولكنهم كلهم تقريباً لم يكونوا يقلون عنه إيماناً بالخرافات . وكان يظهر في البلاد في أوقات مختلفة رجال ونساء يدعون أنهم ممن يوحى إليهم أو ممن كشف الغطاء عن أبصارهم ، وكان في أيونيا بنوع خاص نساء يسمين سييلات Sibyls (أى إرادة الله) يذعن نبوءات يصدقها ملايين اليونان (٨٦) ، ويقال إن واحدة من أولئك السييلات تدعى هرفيلا Herophila طافت ببلاد اليونان مبتدئة من إريثرا Erythra ثم استقرت في كومي بإيطاليا حيث أصبحت أشهر سييلات زمانها ، وعاشت كما تقول الرواية المتواترة ألف عام ، وكان في أثينة ، كما كان في رومة ، عدد كبير من المتنبئين والمتنبآت ، وكانت الحكومة تحتفظ في بهو البلدية الأكبر برجال يحذقون تأويل أقوالهم (٨٧) . وكان في كثير من الهياكل المنتشرة في جميع أنحاء اليونان متنبئون عمرميون ، ولكن أشهرهم وأجلهم قدراً في الأيام القديمة متنبئ زيوس في دودونا Dodone

كما كان أشهرهم في العصور التاريخية متنبئ أبلو في دلفي . وكان اليونان و « البرابرة » يستشيرون هذا المتنبئ ، وحتى رومة نفسها كانت ترسل الرسل ليعرفوا إرادة الإله أو يوحوا إليه بهذه الإرادة . وكانوا يظنون أن النساء أكثر استعداداً لتلقى الوحي من الرجال ، ولذلك كانت ثلاث كاهنات لا تقل سن كل منهن عن نصف قرن يدربن على تعرف إرادة أبلو وهن في غيبوبة ، وكان غاز عجيب يخرج من فتحة في الأرض تحت الميكل ويعزوه الناس إلى تحلل الأفعى التي قتلها أبلو في ذلك المكان . وكانت الكاهنة التي تستلقى الوحي تجلس على نضد عال ذي ثلاث قوائم موضوع فوق الشق ، وتستنشق الرائحة الكريهة المقدسة ، وتمضغ أوراقاً من تاج من أوراق الشجر المخدر ، فتغيب عن وعيها ويتقلص جسمها ، ثم ينزل عليها الوحي وهي في هذا الحال ، فتنتطق باللفاظ متقطعة يترجمها الكهنة للشعب المستمع وكثيراً ما كان الجواب النهائي يحتمل تأويلات مختلفة بل متناقضة ، وبذلك تكون المتنبئة صادقة على الدوام مهما وقع من الحوادث^(٨٨) . ولعل الكهنة هم والمتنبئة كانوا جميعاً ألعوبة في أيدي غيرهم ، وكانوا في بعض الأحيان يقبلون الرشا لينطقوا بما يجب الراشون أن ينطقوه به^(٨٩) ، وكان صوت المتنبئة ينفق في أكثر الحالات مع صاحب النفوذ الأكبر في بلاد اليونان^(٩٠) . أما إذا لم تكن هناك سلطة خارجية ترغب الكهنة على أن ينطقوا بما ترغب فيه ، فلأنهم كانوا يلقون على اليونان دروساً قيمة في الاعتدال والحكمة السياسية ، فقد أعانوا على استقرار القانون وتثبيت دعائمه ، وكان لهم أثر كبير في تحرير الرقيق ، وقد اشتروا عدداً كبيراً من الأرقاء لكي يحرروهم من الرق ، وإن كنا لا ننكر أنهم تفاوضوا عن التضحيات البشرية بعد أن أخذ ضمير اليونان يتفر منها ، ولم يرفعوا صوتهم بالاحتجاج على ما كان يحدث فوق جبل أولمبس من فساد خلقي . ذلك بأنهم لم يكونوا متقدمين على التفكير اليوناني ، ولكنهم مع ذلك لم يقفوا في سبيل هذا

التفكير ويعطلوه بالتعصب لمبادئ وآراء خاصة . وكانوا يخلعون على السياسة اليونانية التي تملها على الحكام الضرورات الملحة ستاراً من رضا القوى الإلهية ، وخلقوا شيئاً من الضمير الدولى والوحدة الأخلاقية بين مدن اليونان المبعثرة ، وبفضل هذا الأثر الموحد نشأ أقدم حلف بين الدويلات اليونانية ، وكانت جامعة المندوبين اليونان — الجامعة الأمفكتيونية Amphictyonic — فى أول أمرها حلفاً دينياً مؤلفاً من « المقيمين حول » هيكلى دمتى القريب من ممر ترموبلى . وكانت أهم الدول التى تتألف منها هذه الجامعة تساليا ، ومجنيزيا ، وفثيوتس Phthotis ، ودوريس ، وفوسيس ، وبوؤتية ، وعويية ، وآخية . وكان مندوبوها يجتمعون مرة كل ستة أشهر ، فى الربيع فى دلفى ، وفى الخريف فى ترموبلى ، وقد تعهدوا بالألا يخرب بعضهم مدن بعض ، وألا يسمحوا بأن يقطع الماء عن أية واحدة منها ، وألا يهبوا كنوز أهلوا فى دلفى أو يسمحوا بنهبها ، وأن يقاتلوا أية أمة لا تحترم هذه المواثيق . تلك مبادئ لعصبة أمم حال دون قيامها تغلب الثراء والسلطان بين الدول ، وما طبع عليه الأفراد والجماعات من تنافس وتحاسد ، فقد كونت تساليا جبهة من الدول الخاضعة لسلطانها ، وفرضت على هذه العصبة سيطرتها الدائمة (٩٢) . ونشأت عصب أخرى غيرها ، فكانت أثينة مثلاً عضواً فى عصبه كلوريا Calauria ؛ وكانت كل واحدة من هذه العصب المتنافسة تعمل لنشر السلام بين أعضائها . ولكنها أضحت على مر الزمن أداة لتدبير الدسائس وإثارة الحروب على غيرها من العصب .

الفصل السابع

الأعياد

إن لم يكن في مقدور الدين اليوناني أن يقضى على الحروب ، فإنه قد أفلح في تخفيف متاع الحياة الاقتصادية الرثية بما كان يقيمه من الأعياد الكثيرة التي قال فيها أرسطوفانيز : « ألا ما أكثر ما يقدم إلى الآلهة من ضحايا ، وما أكثر ما يقام لها من هياكل وتمائيل . . . ومواكب مقدسة ! إنا لنشهد في كل ساعة من ساعات العام أعياداً دينية وضحايا عليها أكاليل من الزهر ، تقرب للآلهة » (٩٣) . وكانت نفقات هذه الأعياد يقوم بها الأغنياء ، أما الدولة فكانت تقدم الأموال المقدسة *theorika* ، ومنها تُردى للشعب رسوم الدخول لمشاهدة الألعاب أو المسرحيات التي كانت تمتاز بها هذه الأيام المقدسة .

وكان التقويم الأثيني تقويمياً دينياً في جوهره ، وكانت شهور كثيرة تسمى بأسماء ما يقام فيها من أعياد دينية ، ففي الشهر الأول شهر هكتامبيون *Hecatombaion* (يولييه - أغسطس) يقام عيد الكرونيّا *Cronia* (المقابل لعيد السانورناليا الروماني) ، وفيه يجتمع السادة والعبيد في وليمة بهجة طرية . وكان يقام في هذا الشهر نفسه كل أربعة أعوام عيد الجامعة الأثينية ، وتُعقد فيه مباريات ، وتقوم فيه ألعاب مختلفة الأنواع ، تلوم أربعة أيام ، يسير الأهليون جميعاً بعدها في موكب عام وقور ، يحملون إلى كاهنة أثينة الثوب الفخم الموشى الذي كان يوضع فوق تمثال إلهة المدينة ، والعالم كله يعرف أن هذا هو الموضوع الذي اختاره فدياس ليزين به طنف البارثنون . وفي الشهر الثاني المتاجيتيون *Metageitnion* كان يقام المتاجيتيا وهو عيد صغير يقام تكريماً لأپلو . وفي الشهر الثالث شهر بوذرميون *Boedromion* كان سكان أثينة يخرجون إلى إلوسيس لإقامة الطقوس .

الكبرى الخفية . وفى الشهر الرابع شهر الهانيسيون Pyanepsion كان يحتفل بأعياد الهانيسيا والأسكوفوريا Oskophoria والشموفوريا Thesmophoria . وكانت نساء أثينة فى هذا الشهر يعظمن دمر ثسموروس (المشرعة) بإقامة طقوس أرضية عجيبة يعرضن فيها رموزا لقضيب الرجل ويتبادلن فحش القول ، ويمثلن الذهاب إلى الحميم والعودة منها ، ويبدو أن هذه الحفلات كانت رمزا للإخصاب فى الأرض وفى الآدميين^(٩٤) . وكان شهر ميمكتريون Maimakterion هو الشهر الوحيد الخالى من الأعياد .

وفى شهر پوسيديون Poseideon كانت أثينة تقيم عيد الإنالوا Italoa عيد بواكير الفاكهة ، وفى شهر جمليون Gamelion تحتفل بعيد اللينيا Lenaea تكريما لديونيسس . وفى شهر أنثسטרان Anthesterion كانت تقام ثلاثة احتفالات هامة ، الطقوس الخفية الصغرى أو التمهيدية ، والديازيا أو التضحية لزيوس ملكيوس ، والأنستريا أو عيد الزهور ، وهو أهم الأعياد الثلاثة . وفى هذا العيد الربيعى الذى يقام تكريما لديونيسس ويدوم ثلاثة أيام كاملة كانت الخمر تجرى كالأنهار ، ولم تكن ترى إلا سكارى على درجات متفاوتة من السكر^(٩٥) ؛ وكان الناس يتنافسون أيهم يفوق غيره فى كثرة الشراب ، والشوارع تعج بالحياة والمرح . وكانت زوجة كبير الأركونين تركب عربة بجوار تمثال ديونيسس وتتزوج به فى الهيكل رمزا إلى اتحاد الإله بأثينا . وكان يسرى فى هذه الطقوس المرحاة قليل من الرهبة والعمل على استرضاء الموتى وكف أذاهم ؛ وكان الأحياء يتناولون فى وقار وهذوء وجبة من الطعام لإحياء لذكرى آبائهم ، ويتركون لهم آنية مملأة بالطعام والشراب ، فإذا انقضى العيد أخذ الناس يطردون أرواح الموتى من الدور بصيغة يتلونونها ويقولون فيها : « أخرجى من الباب أيتها الأرواح ! لقد انتهى عيد أنثستريا » — وقد أصبحت هذه الألفاظ مثلا يقال عند ما يراد التخلص

من المتسولين الكثيرى الإلحاح (*) .

وفى الشهر التاسع شهر إلافبوليون Elaphebolion يقع عيد ديونيزيا الكبير الذى أوجده بيستراتس فى عام ٥٣٤ . وفى ذلك العام جعل ثيسبس المسرحية فى أثينة جزءاً من هذا الاحتفال . وكان ذلك فى أواخر شهر مايو والربيع مقبل والبحر هادئ صالح للملاحة ، فأقبل التجار والزائرون حتى ازدادت بهم المدينة وتضاعف عدد من يشاهدون الحفلات والمسرحيات . وأوقفت جميع الأعمال ، وأغلقت دور القضاء ، وأطلق سراح المسجونين ليستطيعوا الاشتراك فى الحفلات . وخرج الأثينيون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم فى أزهى الملابس ليشاركوا فى الركب الذى جاء بتمثال ديونيسس من إليويثزا لوضعه فى مقره . فركب الأغنياء العربات ، وسار الفقراء راجلين ، ومن ورائهم قافلة طويلة من الحيوانات تلهى إلى الآلهة . واشتركت فى هذا الموكب فرق من المغنين أقبلت من مدن أنكا تتبارى فى الغناء والرقص . وفى الشهر العاشر شهر منيكيون Munychion كانت أثينة تحتفل بعيد المنيكيا ، وكانت تحتفل كل خمسة سنين بعيد البرورونيا Brauronia تكريماً لأرتميس . وفى شهر ثراجليون يقع الثراجليا أى عيد حصاد الحب . وفى الشهر الثانى عشر شهر سكروفيرون Skirophorion كان يحتفل بأعياد اسكروفوريا ، وأرتوفوريا Arretophoria ، ودبوليا Dipolia وبوفنيا Boupbonia . ولم تكن هذه الأعياد كلها أعياداً سنوية ، ولكنها ، حتى ما لم يكن يحتفل به منها إلا كل أربع سنين ، كانت تخفف كثيراً من كدح الحياة اليومية .

وكان لغير أثينة أيام مقدسة شبيهة بهذه الأيام ، وكان كل موسم من مواسم الزرع أو الحصاد فى الربيع يستقبل بمظاهرة البهجة والمرح . وكان أعظم من هذه الأعياد كلها أعياد الجامعة الهيلينية ، والحفلات العامة الجامعة Panegyreis ،

(*) لا يزال الناس فى أنحاء كثيرة من أوروبا يعتقدون أن الأرواح تعود إلى الأرض كل عام ، وأن عليهم أن يولوا لها راحة فى « عيد جميع الأرواح » (٩٦) .

ومن هذه الأعياد عيد الجامعة الأيونية Panionia في ميكالي Mycale وعيد
أبلو في ديلوس ؛ والعيد الهيثي Plithian في دلفي ، وعيد البرزح Isthmiu في
كورنثة ، والعيد النميثي Nemean في أرجوس ، والعيد الأواي في إلبس .
وكانت تقام في هذه الأعياد مباريات رياضية بين الدول المختلفة ، ولكنها
كانت في أساسها أياها مقدسة . فقد كان من حسن حظ بلاد اليونان أن كان
دينها من العناصر البشرية — وأن كان فيها في آخر أيامها من العناصر الإنسانية
الرحيمة — ما يكفي لاقتراحه بالفن ، والشعر ، والموسيقى ، والألعاب ،
واقترانه آخر الأمر بالأخلاق اقتراناً جعله مصدر السرور والإبداع .

الفصل الثامن

الدين والأخلاق

يبدو لأول وهلة أن الدين اليوناني لم يكن ذا أثر كبير في الأخلاق ، فقد كان في أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة ، وبقى إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان . وكان لصحة المراسم والطقوس في هذا الدين شأن أكبر مما للسواك القويم ، ولم تكن الآلهة نفسها ، الأولمبية منها والأرضية ، مثلاً طيباً في الأمانة والعفاف ودماثة الأخلاق . وحتى الشعائر الإلوسينية الخفية ، كانت تجعل التطهير بالمراسم والطقوس لا طهارة النفس وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر في النجاة من العذاب وإن كنا لا ننكر أنها كانت تبعث في النفوس آمالاً كباراً . وفي ذلك يقول ديوجين الساخر : « سيكون اللص پتيكيون Pataikion بعد موته أسعد حالا من أجسلوس Agesilaus أو أپامينداس لأن پتيكيون قد كرس في إلوسيس » (٩٧) .

لكن الدين اليوناني ، رغم هذا ، كان عوناً خفياً للشعب وللدولة في أكثر الشئون الأخلاقية حيوية . من ذلك أن مراسم التطهير وإن كانت كلها مظاهر خارجية كانت ترمز إلى الأخلاق القويمة . كذلك كانت الآلهة تعين على الفضيلة وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة ، وغامضة ، وغير مطردة . ذلك أنها كانت تغضب على الشرير وتنتقم من المتكبر ، وتحمي الغريب ، وتستجيب لمن يتوسل إليها ، وتحمي بجهودها قدسية الأيمان . فهم يقولون لنا إن ديكى Dike كانت تعاقب على كل ظلم ، وإن يومينيدس Eumenides الرهيب كان يقنن

أثر القاتل ، كما يفعل أرسنيز ، حتى يمن أو يموت . وكان الدين يخلع القدسية والكرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها — كالمولد ، والزواج ، والأسرة ، والعشيرة ، والدولة — ، وينتشلها من فوضى الشهوات العاجلة . وكانت عبادة الموتى وتكريمهم يربطان الأجيال المتعاقبة برباط من الواجبات المستقرة المتصلة . وبفضلهما لا تقتصر الأسرة على أن تكون زوجا وزوجة معهما أطفال ، أو مجموعة أبوية من الآباء والأطفال والأحفاد ، بل تصبح فضلا عن هذا اتحاداً مقدساً وتتبعاً مستمراً للدم والنار ، ترجع أصولها إلى الماضي السحيق وتمتد أغصانها إلى المستقبل البعيد ، وتربط الموتى والأحياء ومن لم يخرجوا بعد إلى هذا العالم برباط مقدس أقوى من رباط الدولة مهما قويت . وكان إنجاب الأطفال واجباً مقدساً محوياً يفرضه الدين على الأحياء ، ثم لا يكتفى بهذا بل يشجع على النسل بأن يدخل في روع من لا أبناء له أنه قد لا يجد من يوارى جسمه التراب أو يعنى بقبْره بعد وفاته . وقد ظل اليونان يتناسلون بكثرة خيارهم وشرارهم على السواء طالما كان للدين أثر في حياتهم ، وكان من نتيجة هذه الكثرة مضافاً إليها الانتخاب الطبيعي الصارم أن احتفظ اليونان بقوتهم وميزاتهم . وكان الدين والوطنية تربطهما مئاث من الطقوس الرهيبة المؤثرة ، فكان أكثر الآلهة والإلهات احتراماً في الاحتفالات العامة بطل المدينة المؤله أو بطلتها المؤلهة ، وكان كل قانون وكل اجتماع للجمعية أو للدور القضاء ، وكل عمل خطير يقدم عليه الجيش أو الحكومة ، وكل مدرسة وجامعة ، وكل هيئة اقتصادية أو سياسية ، كانت هذه كلها تحيط بها الاحتفالات والتضرعات الدينية . وبهذه الوسائل كلها كان الدين اليوناني يستخدم لحماية المجتمع والشعب من أنانية الفرد الغريزية . وقوت الفنون والآداب والفلسفة هذا الأثر الديني في بادئ الأمر ، ثم عملت بعدئذ

على إضعافه ؛ فقد أخذ پندار ، وإسكلس ، وسفكليز ينفثون حماسهم الأخلاقية أو فطنهم في العقائد الأولمبية ؛ ورفع فدياس من مقام الآلهة بما خلعه عليها من جمال وجلال ؛ وجمع فيثاغورس وأفلاطون بين الفلسفة والدين ، وأيدا عقيدة الخلود ليجعلها باعثاً قوياً على حسن الخلق . لكن بروتجراس كان يشك في الآلهة ، وسقراط يتجاهلها ولا يأبه بها ، ومقريطس يحجدها ، ويورپديز يسخر منها ، وانتهى الأمر بأن دكت الفلسفة اليونانية ، عن غير قصد منها ، قواعد الدين الذي صاغ الحياة الأخلاقية في بلاد اليونان في القالب الذي وجدت فيه .

الباب التاسع

الثقافة المشتركة لبلاد اليونان

في عهدهما المبكر

الفصل الأول

فردية الدولة

بلغت الثقافة الأوربية قمة مجدها في بلدين : اليونان القديمة وإيطاليا في عهد النهضة . ولم تكن تعتمد في كلا العهدين على نظام سياسى أكبر من دويلات المدن : ويغلب على الظن أن الأحوال الجغرافية قد أعانت بلاد اليونان على أن تصل إلى هذه النتيجة . ذلك أن الجبال وبحار المياه تعرض السائر فيها أبنا ذهب ؛ وكانت القناطر فيها قليلة والطرق وعرة وغير معبدة . نعم إن البحر كان طريقا عاما مفتوح الأبواب ، ولكنه كان يربط المدينة بأخواتها من المدن التجارية لا بما يجاورها من المدن . على أن الأحوال الجغرافية لا تفسر وحدها قيام دول المدن ، فقد كان هناك من أسباب الانفصال بين طيبة وبلاتية القائمتين على نفس السهل البوئى بقدر ما كان بين طيبة واسبارطة ؛ وكان بين سيياريس وكروتونا القائمتين على نفس الساحل الإيطالى من دواعى الانفصال أكثر مما كان بين سيياريس وسرقوسة . إن علينا أن نضم إلى العوامل الجغرافية عوامل أخرى كثيرة ، فاختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية باعد بين المدن وجعلها يحارب بعضها بعضا

للحصول على الأسواق أو الجيوب ، أو تكون أحلافاً متنافسة للسيطرة على المسالك البحرية . ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على هذا الانفصال اختلاف أصول السكان . نعم إن اليونان كانوا يرون أنهم كلهم من عنصر واحد ، ولكنهم كانوا شديدي الإحساس باختلاف القبائل التي ينتمون إليها - الإيولية ، والأيونية ، والآخية ، والدورية - ومن أجل ذلك كانت أثينة واسبارطة تحقد كلتاها على الأخرى حقدا لا يقل عن حقد العناصر المختلفة في هذه الأيام . وقوى اختلاف الأديان الانقسامات السياسية ، كما زادت هذه الانقسامات ما بين الأديان من اختلاف ، فقد نشأ من الطقوس الدينية التي اختصت بها بعض الأماكن أو بعض القبائل أعياد خاصة ، وتقويم خاصة ، وعادات ، وشرائع ، ومحاكم تختلف باختلاف المدن ، بل إن هذه الطقوس قد أقامت في بعض الأحيان حدوداً بين المدن ، وذلك لأن أحجار التخوم كانت فاصلاً بين ممالك الإنة ، كما كانت فاصلاً بين المجتمعات البشرية لأن من الواجب المحتوم أن يكون دين الإقليم هو دين حاكمه *cujus regio, ejus religio* . وكانت هذه العوامل مجتمعة هي وعوامل أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هي التي أوجدت دول المدن اليونانية .

ولم يكن هذا طرازاً جديداً من النظم الإدارية ، فلقد رأينا أنه كانت في بلاد سومر ، وبابل ، وفينيقية ، وكريت ، دول مدن قبل هومر وهركليز بمئات السنين أو آلافها ، وكانت دولة المدينة من وجهة النظر التاريخية هي بعينها مجتمع القرية في مرحلة من الامتزاج أو التطور أعلى من مرحلته القروية - وكان لها سوقها المشتركة ، ومكان اجتماعها ، ومجلس قضائها للفصل في منازعات الأهاليين الذين يحرثون ما يجاورها من أرض زراعية ، وكان أهلها من أصل واحد يمدون إليها واحداً .

أما من الناحية السياسية فقد كانت دولة المدينة عند اليونان خير ما يستطيعون

الوصول إليه من وسائل التوفيق بين العنصرين المتناقضين اللذين يتألف منهما المجتمع الإنساني ، واللذين يتناوبان الغلبة عليه ، وتقصد بهما عنصر النظام ، وعنصر الحرية ، فالمجتمع الصغير لا يأمن على نفسه من الاعتداء ، والمجتمع الكبير يصبح مجتمعا استبداديا . وكانت أكبر أمنية للفلاسفة أن تتكون بلاد اليونان من دول - مدن مستقلة ذات سيادة تتعاون كلها داخل نظام فيثاغورى موثلف منسجم . وكانت فكرة أرسطو عن الدولة أنها جماعة من الأحرار يخضعون لحكومة واحدة ، ويستطيعون الالتقاء في جمعية واحدة ، وكان يرى أن الدولة إذا زاد عدد مواطنيها على عشرة آلاف تعجز عن إدارة شئونها . ومن أجل هذا كان لفظ واحد - پوليس Polis - يطلق على المدينة والدولة في بلاد اليونان .

وما من أحد يجهل أن هذا التفتت السيامى قد جر على بلاد اليونان كثيرا من المآسى بسبب ما قام بين أهلها وهم إخوة من نزاع . فقد خضعت أبونيا لسيطرة الفرس لأنها عجزت عن أن تتحد للدفاع عن نفسها ؛ وضاعت في آخر الأمر تلك الحرية التى كان اليونان يعتزون بها ويقدسونها لأن بلاد اليونان لم تستطع الثبات متحدة في وجه أعدائها رغم ما أقامته من أحلاف وعصب . ولكننا نعود فنقول إنه لولا دول - المدن لما كانت بلاد اليونان ؛ ولولا شعور اليونان بالفردية المدنية ، واعتزازهم الشديد باستقلالهم ، ولولا ما كان بين أنظمتهم وعاداتهم وفنونهم ، وآدابهم من تباين ، لما كان ما بينهم من تسابق وتنافس حافزا لهم على أن يحبوا حياة إنسانية كاملة فيها من الحماة والإبداع ما لا نظير له في أى مجتمع آخر . وهل في وقتنا الحاضر نفسه رغم ما فيه من حيوية وتنوع ، وما يمتاز به من آلات ضخمة وقوى جبارة ، مجتمع في حجم المجتمعات اليونانية أو في عدد سكانها يستطيع أن يهب المدينة من النعم قدر ما وهبتها حرية اليونان المضطربة التى كانت هى والفرصى سواء ؟

الفصل الثاني

الكتابة والقراءة

على أنه كان في حياة هذه الدول ، ذات النزعة الانفصالية القوية ، عدة عوامل مشتركة . منها أننا نجد في شبه جزيرة اليونان كلها منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد لغة واحدة تنتمي إلى مجموعة اللغات « الهند - أوروبية » التي تشمل الفارسية والسكسكريتية ، والسلافونية ، واللاتينية ، والألمانية ، والإنجليزية . ولما نجد لآلاف الكلمات التي تعبر عن العلاقات الأولية في حياة الناس ، أو عن الأدوات التي كانوا يستخدمونها ، أصولا مشتركة في هذه اللغات جميعها ، وهي لا تدل فقط على قدم مسميات هذه الكلمات وانتشارها في البلاد التي تنطق بهذه اللغات ، بل تدل كذلك على ما بين الشعوب التي كانت تستخدم المسميات في فجر التاريخ من قرابة أو رابطة(*) . نعم إن اللغة اليونانية قد تشعبت لهجات مختلفة - الإيولية ، والدورية ، والأيونية ، والأتيكية ؛ ولكن الناطقين بهذه اللهجات المختلفة كان يفهم بعضهم بعضا ؛ ثم خضعت كلها في القرنين الخامس والرابع إلى لهجة مشتركة koine dialektos انبثت معظمها من أثينة ، وكانت تنطق بها الطبقات المتعلمة كلها تقريبا في العالم اليوناني بأكمله . وكانت اللغة اليونانية الأتيكية لغة جزلة ، قوية مرنة ، حلوة النغم ، فيها من الشلوذ مثل ما في أي لغة حية ، ولكنها تقبل في سر كل التراكيب التي تجعلها صالحة للتعبير عن أغراضها ، وفيها التدرج والاختلاف الدقيق في المعاني ، وفيها المدركات الفلسفية الدقيقة ،

(*) قارن في هذه اللغات المختلطة الألفاظ الآتية damas (منزل) في السنسكريتية ، و domos في اليونانية و domus في اللاتينية ، و tim-ber الإنجليزية ؛ و thyra ، davaras ، و fores ؛ و akshas ، nave ، navis ، naus ؛ و urine ، vinum ، (f)umes ، venas ؛ و yoke ، fugum ، zygon ، iugum ؛ axis ، axls ، axon الخ .

وفيها جميع أنواع التعبيرات الأدبية السامية الرفيعة من شعر هومر الطنان الرنان إلى نثر أفلاطون الهادئ الواضح السلس (*) .

وتعزو الرواية اليونانية المتواترة إدخال الكتابة في بلاد اليونان إلى الفينيقيين في خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وليس لدينا ما ينقص هذه الرواية ، بل إن بين الكتابات اليونانية التي ترجع إلى القرنين الثامن والسابع وبين الحروف المنقوشة على حجر مؤاب في القرن التاسع تشابهاً كبيراً (٣) . من ذلك أن النقوش اليونانية كتبت على الطريقة السامية من اليمن إلى اليسار ؛ وفي القرن السادس كانت (كالنقش الذي وجد في جورتيثا Gortyna) تنقش من اليمن إلى اليسار في أحد السطور ثم من اليسار إلى اليمن في السطر الذي يليه وهكذا دواليك ، ثم أصبحت بعد هذا تنقش من اليسار إلى اليمن على الدوام ، واستلزم هذا قلب وضع الحروف فصار حرفا Β ، Ϝ يكتبان هكذا B ، E . كذلك سميت الحروف بأسمائها السامية مع تعديلات طفيفة (**) ، ولكن اليونان أدخلوا على هذه الأسماء تغيرات أساسية ، أهمها أنهم أضافوا إليها حروفاً للحركة لانجدها عند الساميين ، فاستخدموا بعض الحروف السامية الساكنة ، وحروف التنفس لتمثيل الحركات التي تدل عليها a ، e ، i ، o ، u وأضاف الأيونيون فيما بعد حروف المد إيتا eta (e الممدودة ، أو mega-o (تمثل o الممدودة أو o المزدوجة) . وأخذت - بشر أمجديات يونانية مختلفة ينازع بعضها بعضاً ، فكان هذا النزاع

(*) لسنا نعرف كيف كان نطق الألفاظ اليونانية القديمة . وتلما كان اليونان في عصرهم الزاهر يمتنون بالنبرات التي تضايقنا كثيراً في هذه الأيام ، ولكنها قد دخلت في النصوص القديمة حل يد أرسيفيز البيزنطي في القرن الثالث قبل الميلاد . ولهذا يجب أن نفعل هذه النبرات حين نقرأ للشعر اليوناني

(**) قارن مثلاً الحرف اليوناني ألفا والفينيقي ألف (الثور) ؛ وبينما اليونانية وبت (غيمة) الفينيقية ، ونما اليونانية ووجل (جل) الفينيقية ؛ ودلتا ودالت (باب) ؛ - بسلون ، وهي he (نافذة) ، وزيتا وزين (حربة) وهيتا وخت (سيلج وأيونتا ويد (يد) وهكذا .

جزءاً من الحروب القائمة بين دول — المدن ، وتغلبت الحروف الهجائية الأيونية في بلاد اليونان ثم انتقلت منها إلى أوروبا الشرقية وبقيت فيها إلى اليوم ، أما رومة فقد اتخذت الحروف الخلقيدية Chalcidian من كومي وهي التي أصبحت الحروف اللاتينية والحروف الإنجليزية . وكانت الأبجدية الخلقيدية ينقصها حرفا ال e وال o الممدودان ، ولكنها فعلت ما لم تفعله للأبجدية الأيونية فاستبقت vau الفينيقية حرفاً ساكناً (وهي ال v التي يقرب نطقها من نطق حرف w) ؛ ومن أجل هذا كان الأثينيون يسمون النبيذ oinos والخلقيدون يسمونه voinos والرومان يسمونه vinum والإنجليز يسمونه wine . كذلك استبقي الخلقيدون حرف koppa أو q وانتقل منهم إلى رومة ثم إلى اللغة الإنجليزية ، أما أبونيا فقد أهملته واكتفت بحرف k وكتبت أبونيا حرف l بهذه الصورة A ، أما كليز فقد كتبت l ؛ وعدلت رومة هذه الصورة الثانية فجعلتها معتدلة وانتقلت منها على هذا النحو إلى أوروبا . وكتب الأيونيون حرف R كما نكتب نحن حرف P أما إيطاليا اليونانية فقد أضافت إلى P ذيلاً فأصبحت R^(٤) .

والراجح أن أولى الأغراض التي استخدمت فيها الكتابة في بلاد اليونان كانت هي الأغراض التجارية أو الدينية ، ويبدو أن الرق والتعاويد التي كان يتلوها القساوسة هي مبدأ الشعر ، وأن ما يكتب في أوراق شحن السفن كان بداية النثر . ثم انقسمت الكتابة نوعين مختلفين أحدهما دقيق منتظم للنقوش وما إليها ، والثاني هو الكتابة الدارجة التي تستخدم في الأغراض اليومية العادية . ولم يكن في كلا النوعين نبرات ، ولم يكن يترك بين الكلمات فراغ ، ولم تكن فيهما علامات ترقيم^(٥) ؛ فإذا أريد الانتقال من موضوع إلى موضوع دلوا على ذلك بشرطة فاصلة أفقية يسمونها برجرافونه paragraphon أي علامة « تكتب إلى ناحية » ، وكانت المواد التي تكتب عليها متنوعة

فكانت في بادئ الأمر ، إذا جاز لنا أن نأخذ بقول بلني ، أوراق الأشجار أو لحاءها^(٦) ؛ فإذا أرادوا النقش استخدموا الحجارة أو البرنز أو الرصاص . وكانوا يستخدمون للكتابة العادية ألواح الطين كما كان يفعل أهل ما بين النهرين(*) ؛ ثم استخدموا ألواحاً من الخشب تغطيها طبقة من الشمع ، وكانت هذه شائعة بين التلاميذ قبل أيامهم^(٧) ؛ فإذا أرادوا أن يكتبوا شيئاً يبقى أمداً طويلاً استخدموا أوراقاً من البردي كان الفينيقيون يأتون بها من مصر ؛ وفي العهد الذي انتشرت فيه حضارة اليونان في خارج بلادهم ، وفي العهد الروماني ، استخدم الرق المصنوع من جلود المعز والضأن أو أغشيتها الرقيقة ، وكانوا يكتبون على ألواح الشمع بقلم معدني ، وعلى ورق البردي والرق بقلم من الغاب يغمس في الحبر ، وكانت الكتابة على الشمع تمحى بنهاية القلم المعدني السميك ، أما الحبر فكان يمحى بقطعة من الإسفنج ؛ ولذلك أرسل الشاعر ماريئال إلى صديق له قطعة من الإسفنج مع قصائده لكي يمحوها « بضربة واحدة^(٨) » . وإن كثيراً من النقاد في هذه الأيام ليحزنهم أن هذا الأدب الجم لم يبق له الآن وجود .

وليس ثمة ميدان وصلنا منه الألفاظ القديمة بالكثرة التي وصلنا من ميدان الكتابة . فكلمة ورق بالإنجليزية paper مأخوذة من اسم نبات البردي papyrus ، وقد أعادت دورة الفلك الطراز القديم لصنع هذه المادة من النبات المضغوط . وكان السطر من الكتابة يسمى باليونانية stichos أي صفا ، وكان اللاتين يسمونه versus أي عودة إلى الوراء ، ومنها اشتقت كلمة verse الإنجليزية . وكانوا يكتبون ما يريدون في صورة أعمدة على قطعة من ورق البردي أو الرق طولها من عشرين قدماً إلى ثلاثين تلف حول عصا . وكانوا يسمون هذا الملف (***) بيلوس biblos ، وقد أخذوا هذا الاسم من المدينة الفينيقية المعروفة بهذا الاسم والتي

(*) وكانت كلمة Grapheme التي نترجمها الآن بكلمة الكتابة تعني أولاً الحرف .

(**) وكان اللاتين يسمون الملف volumen - أي الملفوف .

كانت تمد بلاد اليونان بالورق المصنوع من نبات البردى . أما الملف الصغير فكان يسمى ببليون biblicon . وكان الكتاب المقدس (bible) يسمى في أول الأمر biblia أى الملفات . فإذا كان الملف جزءاً من كتاب أكبر منه سمي tomos أى مقطعاً . وكان الجزء الأول من الملف يسمى بروتوكولون protocollon : أى الشريحة الأولى الملفقة بالعصا . وكان طرفا العصا يصقلان بحجر الخفاف ويلونان أحياناً ؛ وكان الملف يوضع أحياناً في غشاء يسميه اليونان diphthera ويسميه اللاتين (*) vellum ، إذا استطاع مؤلفه أداء ما يلزم ذلك من النفقات ، أو كان ما كتب فيه ذا بال . وإذا كان من غير الميسور تداول الملف الكبير أو استخدامه في المراجعة فقد كانت المؤلفات الأدبية تقسم عادة إلى عدة مؤلفات ؛ وكانت كلمة biblos تطلق على كل ملف أو جزء من كتاب كبير . وقلما كان المؤلف نفسه هو الذى يقسم كتابه هذا التقسيم . فقد كان الناشرون المتأخرون هم الذين قسموا تواريخ هيرودوت إلى تسعة كتب ، وكتاب توكيديديس في حرب البلوينيز إلى ثمانية ، وجمهورية أفلاطون إلى عشرة ، والإلياذة والأوديسة إلى أربعة وعشرين جزءاً . وإذا كان نبات البردى غالى الثمن ، وكانت كل نسخة من الكتاب تكتب باليد ، فقد كان عدد الكتب قليلاً عند اليونان والرومان الأقدمين (**). وكان التعلم في تلك الأيام الخالية أيسر منه في هذه الأيام ، وإن يكن كسب الذكاء في الزمن القديم لا يقل صعوبة عن كسبه اليوم . ولم تكن معرفة القراءة ميزة عامة عند الأقدمين ، ولذلك كان معظم العلم يؤخذ بالتلقين من جيل إلى جيل أو من صانع إلى صانع ،

(*) واسمها باللاتينية frontes ومنها جاءت forispiece الإنجليزية ، ومعناها الصورة التى في أول الكتاب .

(**) لقد استطاع العرب رغم هذه الظرف نفسها أن يكتبوا آلاف الكتب التى امتلأت بها المكتبات في العواصم الإسلامية المختلفة ، وهى التى لم يفرغ العالم العرب والأوربي حتى الآن من طبعتها ، وإن كان عليها ألا تنقل في هذه المفاصلة فرق الزمن واتساع رقعة العالم الإسلامى . (العرب)

وكان معظم الأدب يتلوه بصوت جهورى قراء مدربون على أشخاص يتعلمونه بالسمع (*) . ولم يكن فى بلاد اليونان قبل القرن السابع جمهور كبير من القارئى ، ولم تكن فى البلاد دور كتب قبل أن يجمع پوليكراتس Polycrates ويسترانس مكتبيهما فى القرن السادس^(٩) . فلما كان القرن الخامس بدأنا نسمع عن وجود مكتبة خاصة ليورپديز وأخرى للأركون يوكليدز Eucleides ؛ ثم سمعنا فى القرن الرابع عن مكتبة أرسطاطاليس . ولم نسمع عن وجود مكتبة عامة قبل مكتبة الإسكندرية ، كما لم نسمع بوجود مكتبة فى أثينة قبل أيام هديران^(١٠) . ولعل عظمة اليونان فى أيام هركليز كان مرجعها إلى أن اليونان لم يكونوا يقرؤون كتباً كثيرة أو يقرؤون أى كتاب طويل .

(*) لا يزال الهدف المقصود من « الأسلوب » فى الكتابة ومن علامات الترقى هو تيسير التنفس للقارئ وحسن وقع الصوت على الأذن ، وإن كنا قد أصبحنا نلقى ثقافتنا وغذاءنا العقل بعد انتشار الطباعة عن طريق العين ، وإن كانت الكتابة قلما تقرأ جهرة . وأكبر الظن أن الأجيال القادمة ستعود إلى ما كان عليه الأقدمون فتلقى غذاءها العقل مرة أخرى عن طريق الأذن .

الفصل الثالث

الأدب

لقد كان الأدب من أسباب فرقة بلاد اليونان كما كان من أسباب وحدتها ، شأنه من هذا شأن الدين سواء بسواء . ذلك أن الشعراء كانوا يغنون بلهجاتهم المحلية ، وكثيراً ما كانوا يصفون مناظر أقاليمهم ، ولكن هلاس كلها كانت تستمع إلى أكثر الأصوات فصاحة ، وكانت من حين إلى حين تستحهم على أن يطرقوا موضوعات أعم وأوسع من تلك الموضوعات المحلية الضيقة . ولقد عدا الدهر كما عدت الأهواء الضيقة على هذا الشعر المبكر فأبادت أكثره حتى لم يعد في وسعنا أن نحس بما فيه من ثراء ، وبما كان بطرقه من موضوعات ، وبما يعزى إليه من جزالة اللفظ وجمال الشكل ، ولكننا حين نطوف بجزائر اليونان ومدنهم في القرن السادس قبل الميلاد لا يسعنا إلا أن نعجب بوفرة ما تطلعننا به هذه الجزائر والمدن من الأدب اليوناني قبل عصر پركليز ، وبجودة هذا الأدب . وإن الشعر الغنائي في ذلك القرن لنتعكس فيه صورة مجتمع أرستقراطي كانت فيه الشاعر والأفكار والأخلاق حرة ما دامت تراعى واجبات الأدب وحسن التربية . وقد أخذ هذا الأسلوب من الشعر الحضري المصقول يخنق شيئاً فشيئاً في عهد الديمقراطية . وكان مختلف المبنى متعدد الأوزان ، ولكنه قلما كان يقيد نفسه بقيود القافية . ذلك أن معنى الشعر عند اليونان أن يحس الإنسان ويتخيل ويعبر عن إحساسه وخياله في لغة موزونة(*) .

وبينا كان أصحاب الشعر الغنائي يتغنون بالحب وبالحرث ، كان الشعراء الجوالون يفسدون في مجالس العطاء الملاحم في وصف ما قام به اليونان من

(*) كان الشعر المقفى مقصوراً في الغالب على أقوال المتنبيين وعلى النبوءات الدينية .

جلائل الأعمال . ولقد أنشأت جماعات المغنين على توالى الأجيال طائفة من القصائد الغنائية تدور كلها حول حصار طيبة وطروادة وعودة المحاربين إلى أوطانهم . وكانت الأغاني شائعة مشتركة بين هؤلاء الشعراء ، وكان كل واحد منهم يؤلف قصته من قطع متفرقة أقدم منها عهداً ، ولم يكن منهم من يدعى أنه هو الذى ألف سلسلة متتابعة من هذه القصص . وقد وجدت فى طشيزو جماعة من أولئك الشعراء أطلقوا على أنفسهم الهومريدى Homeridae ، وادعوا أنهم من نسل شاعر يدعى هومر ، وهو فى زعمهم مؤلف الملاحم التى كانوا ينشدونها فى شرق بلاد اليونان بأجمعه^(١١) . وقد يكون هذا الشاعر الضرب لا وجود له فى الحقيقة بل كان أباً خيالياً لقبيلة أو طائفة من الناس ، شأنه فى هذا شأن هلن ، ودورس وأبون^(١٢) . ولم يكن اليونان فى القرن السادس يعزون إلى هومر الإلياذة والأوديسة فحسب ، بل كانوا يعزون إليه كذلك كل الملاحم المعروفة وقتئذ ، والقصائد الهومرية أقدم الملاحم المعروفة فى التاريخ ، لكن جودتها فى حد ذاتها وما فيها من إشارات كثيرة إلى شعراء سابقين ، لتوحيان إلينا بأن هذه الملاحم الباقية هى الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة بدأت بالقصائد البسيطة القصيرة ثم تطورت حتى وصلت إلى هذه الأغاني الطويلة « المحيطة » بعضها فى بعض . وألفت فى أثينة فى القرن السادس قبل الميلاد لجنة حكومية — قد نكون فى عهد صولون^(١٣) ، وقد تكون وهو الأرجح فى عهد بيسستراتس — ، فانتقت الإلياذة والأوديسة من بين الملاحم الأدبية الباقية من القرن الذى قبله ، أو لعلها جمعتما بعد مقابلة النسخ الموجودة منها وقتئذ بعضها على بعض ، ثم عزتهما إلى هومر ، ثم نشرتهما — أو لعلها صاغتهما — فى صورة فى جوهرها صورتها الحاضرة^(١٤) .

ومن المعجزات الأدبية أن تصل قصيدتان مستمدتان من أصول متعددة مختلفة إلى هذه الدرجة الفنية العالية . ولسنا ننكر أن الإلياذة تقصر دون الغاية

في مبناها وفي لغتها ، وأن الصور الإيولية والأيونية تختلط فيها اختلاطاً لا يقدر عليه إلا رجل من أهل أزمير يتكلم عدة لغات ، وأن أوزان شعرها مأخوذة من هذه اللهجة تارة ومن تلك اللهجة تارة أخرى ، وأن حبكتها قد أفسدها كثرة ما فيها من تناقض ، وتغيير في الحطة ، وتوكيد أهمية حادثة ما في بعض المواضع ثم الاستخفاف بشأنها في البعض الآخر ، وتعارض في أخلاق أشخاصها ، وأن أبطالها يقتلون هم أنفسهم مرتين أو ثلاث مرات قبل نهاية القصة ، وأن موضوعها الأصلي - وهو غضب أخيل ونتائجه - يقطعه ويطنى عليه عشرات القصص والحوادث المأخوذة على ما يظهر من قصائد أخرى أدمجت في الملحمة في أجزاء مختلفة منها ؛ لسنا ننكر شيئاً من هذا ولكن القصة في مناحيها الكبرى قصيدة واحدة ، ولغتها جزلة قوية حية ، والقصيدة في جملتها أعظم ما افترت عنه شفاه بنى الإنسان^(١٥) ، ولم يكن مستطاعاً أن تبدأ هذه الملحمة إلا في شباب اليونان الناضر النشيط ، أو أن تختتم إلا في إبان نضوجهم الفني . وأشخاص الملحمة يكادون أن يكونوا كلهم من المحاربين أو من نساء المحاربين ، وحتى الفلاسفة منهم أمثال نسطور يقاثلون بشجاعة يحسدون عليها . وكل شخصية من هذه الشخصيات كانت موضع تفكير وعطف من مصورها . ولعل أجمل ما في الأدب اليوناني كله هو نزاهته التي تجعلنا نعطف على هكتور تارة وعلى أخيل تارة أخرى . فأخيل في خيمته شخص قد تجرد من صفات البطولة ، غير محب إلى النفوس ، يشكو إلى أمه أن حظاً لا يتفق مع مقامه نصف الإلهي ، وأن أبحمنون قد سرق منه بريسيذ البائسة وهي أعز ما يمتلك ، ثم يترك اليونان يحصدهم الموت زمراً وهو غاضب في سفينته أو خيمته يأكل وينام ، ويرسل بتركولوس ليلقي منيته دون أن يجد منه عوناً ، ثم يملأ الجوع عويلاً ونحيباً لا يليق بالرجال . وحين يذهب إلى المعركة آخر الأمر ، لا يذهب إليها مدفوعاً بوطنيته بل لأن حزنه على فقد صديقه قد سلبه عقله ، وينسيه غضبه جميع الصفات

الإنسانية فينحدر إلى الدرك الأسفل من القسوة الوحشية في معاملة ليكاهون Lycaon وهكتور ؛ فهو في حقيقته ذو عقل ناقص غير ناضج ، غير مستقر ولا متزن ، ولا سلطان له على نفسه ، تنغص عليه حياته نبوءات الموت . انظر إلى ما يقوله لليكاهون بعد أن سقط على الأرض وأخذ يسترحمه : « لا ، يا صديقي ، مت كما مات غيرك ! ماذا يجديك بكائك الذى لا يرجى منه خير ؟ لقد مات پتركولوس وهو خير منك . انظر إلى ألسْتُ وسيما طويل القامة أنجبنى أب كريم ، وكانت أمى التى ولدتنى إلهة ؟ ولكن الموت رغم هذا يحوم حولى وتوشك المنية أن تنشب مغالبها فى . ففى فجر يوم من الأيام أو ظهره أو مسائه تختطفنى من بين الأحياء يد لا أعرفها » (١٦) . ثم يطعن ليكاهون فى عنقه دون أن يهم هذا بمقاومته ، ويقذف بجسمه فى النهر ثم يلتقى خطبة من تلك الخطب الرنانة التى تزدان بها مذابح الإلياذة ، ويضع بها أساس البلاغة الخطابية عند اليونان . وقد ظل نصف بلاد اليونان يعبد أخيل ويتخذة إلهاً (١٧) ، أما نحن فنقبله على أنه طفل ونعفو عن ذنوبه بهذا الوصف ، ومهما يكن ما يقال فيه فإنه من أروع الصور التى أبدعها خيال الشعراء .

وليس الذى يحملنا على أن نواصل قراءة الإلياذة ، حين لا نضطر إلى دراستها أو ترجمتها ، مقصوراً على تلك الخصائص المتباينة التى يخطئها الحصر ، وليس هو أيضاً مقصوراً على تسلسل القصة وصخبها وعجيجها ، بل هو جلال شعرها وتدفقه . ولسنا ننكر أن هوو يكرر أقواله ويشير إليها ، وأن من خطته أن يعيد بعض الصفات وبعض الأبيات كما يفعل المغنون ، فتراه يكرر قوله الحبيب إلى نفسه : « حين بدت بنت الصباح ، الفجر ذات الأصابع الوردية » (١٨) . فإذا كانت هذه عيوباً فإنها تختفى وسط جمال اللغة ووفرة ما تحتويه من الاستعارات والتشبيهات التى تصف جمال الحقول الهادئة فتبعث بذلك فى نفوسنا الطمأنينة والهدوء وسط ما يحيط بنا من عجيج الحرب وصخبها . انظر إلى هذه العبارة التى

تصف تجمع الجيوش اليونانية : « واحتشد اليونان ذوو الشعر الطويل فوق السهل كما تحتشد أسراب الذباب في مزاود الرعاة زمن الربيع حين يملأ اللبن الحديد الدلاء » ، أو إلى العبارة الآتية :

« كما تنشق النار العظيمة طريقها في الأودية العميقة بين الجبال الجرداء ، فتحترق أمامها الأشجار الضخمة السمكية ، ويتمايل الذهب يمنة ويسرة حين تهب عليه الرياح من هذه الناحية أو تلك — هكذا كان ينتقل أخيل وهو غاضب ناثراً من جانب إلى جانب في ميدان القتال ، ويدرك ضحايه أينما كانوا فلا يفلتون منه ، ويخضب الأرض بدمائهم » (٢٠) .

وتختلف الأوديسة عن هذا كله أشد الاختلاف حتى ليظن الإنسان لأول وهلة أن مؤلفها غير مؤلف الإلياذة ؛ وقد قال بهذا بعض علماء الإسكندرية أنفسهم ، ولم يكفهم أفواه المتجادلين إلا أرسناركوس Aristarchus وما له من سلطان قوى بين الناقدين (٢١) . وتتفق الأوديسة مع الإلياذة في بعض العبارات القاسية « أثينة ذات العين الشبيهة بين البومة » « اليونان الطوال الشعر » « قائم كلون النبيذ » « الفجر ذات الأصابع الوردية » — وهي ألفاظ يبدو أنها لم تستعمل إلا بعد جمع الإلياذة أو تأليفها (٢٢) . ففي الملحمة الثانية يتكرر ذكر الحديد على حين أن الأولى تتحدث عن البرنز ، كذلك نسمع فيها عن الكتابة ، وعن الملكية الخاصة للأرض ، وعن العبيد المحررين وتحرير العبيد ، وهذه كلها لا يذكر منها شيء في الإلياذة ، بل إن الآلهة وأعمالهم ليختلفون في إحداها عن الأخرى (٢٣) . ووزن القصيدتين واحد وهو الوزن السداسي الأوتاد المكون كل وتد فيه من ثلاثة مقاطع وهو المتبع في جميع الملاحم اليونانية ؛ ولكن أسلوب الملحمة وروحها ومادتها تختلف كلها عن نظائرها في الإلياذة اختلافا لا يتيسر معه لشاعر واحد أن ينشئ الملحمتين إلا إذا بلغ الذروة في التعقيد ، وكان صاحب السلطان الأعلى على جميع الأمزجة والحالات النفسية المتباينة . وما من شك في أن كاتب القصيدة

الثانية أكثر تضلعا في الأدب والفلسفة ، وأقل عنفا ونزعة حرية من كاتب الأولى ؛ وهو أكثر منه تفكيراً وإدراكاً لذاتيته ، وأملك منه لوقته وأكثر منه حضارة ؛ وقد بلغ من رفته أن ظن بنتلي Bentley أن الأوديسة إنما كتبت لفائدة النساء خاصة (٢٤) .

نرى هل الأوديسة من قول شاعر واحد أو عدة شعراء ؟ ن الجواب عن هذا السؤال أصعب في حالة الأوديسة منه في حالة الإلياذة . إن فيها هي الأخرى شواهد على الإضافة والتلفيق ، ولكن هذه الإضافات كانت من عمل كتاب أعظم حذقا من كتاب الملحمة القديمة ؛ فحبكتها ، وإن كانت كثيرة اللف والدوران ، متناسقة تناسقا عجيبا ، خالية من التناقض ، لا يستحي أن يكتبها كاتب قصصى حديث ، يلمح الإنسان من بدايتها خاتمها ، وكل حادثة من حوادثها تقرب القارئ من هذه الخاتمة ، وهي تربط كتبها الأربعة فتؤلف منها وحدة كاملة . وأكبر الظن أن الملحمة قد بنيت على قصائد كانت معروفة من قبلها شأنها في هذا شأن الإلياذة ، ولكن عملية التوحيد فيها أعم وأقوى منها في الإلياذة . وفي وسعنا أن نحكم بشيء كثير من التردد والإحجام أن الأوديسة أحدث من الإلياذة بقرن من الزمان ، وأن الجزء الأكبر منها من وضع رجل واحد .

أما شخصياتها فأقل قوة وأقل وضوحا من شخصيات الإلياذة ، فبنتلي شبح غير واضح ، ولا تبرز واضحة من خلف نسجها إلا في آخر الملحمة ، حين تطوف بعقلها لحظة من لحظات الشك ، أو لعلها من لحظات الندم ، بعد عودة سيدها . أما هلن بطلة الإلياذة فأشد منها وضوحا ، وهي امرأة فذة منقطعة النظر ؛ فهذه المرأة التي من أجلها أقامت ألف سفينة ولاقى الموت في سبيلها عشرة آلاف من الرجال لا تزال « إلهة بين النساء » ، ناضجة الجمال في سن الكهولة ، أرق أخلاقا وأهدأ طباعا مما كانت من قبل ، ولكنها لم تفقد شيئا من كبريائها وزهوها ، وتتقبل في لطف ورقة كل مظاهر الترحاب والتبجيل التي تحيط بربات التاج ،

وتعدها حقاً لها تنعم بها دون سائر النساء^(٢٥) . وإن تصوير نسكا ليعد مقالة بدیعة تنطق بمقدرة الذكور على فهم الإناث ؛ والحق أننا لم نكن نتوقع أن يرسم يوناني هذه الشخصية الرقيقة الروائية . ولم يصور تلمكس تصويراً قوياً واضحاً ، فهو مصاب بداء التردد كأن به مسامن هملت . أما صورة أوديسيس فهي أكمل صور الشعر اليوناني وأكثرها تعقيداً . وقصارى القول أن الأوديسة رواية بدیعة ساحرة في قالب شعري ، مليئة بالعواطف الرقيقة والمغامرات المفاجئة ، تستمتع بها النفس المسالة التي في سن الكهولة أكثر مما تستمتع بالإلياذة الفخمة التي يراق فيها الكثير من الدماء .

وقد أضحت هاتان القصیدتان — وهما كل ما بقي من سلسلة طويلة من الملاحم — أئمن العناصر في تراث اليونان الأدبي كله . وبفضلهما صارت دراسة « هومر » العنصر الأساسي في نظام التعليم اليوناني ، ومستودع الأساطير اليونانية ، ومنبع ألف من المسرحيات ، وأساس التدريب الخلقى ؛ وأعجب من هذا كله أنهما صارتا الكتاب المقدس الذي يستمد منه اليونان دينهم الصحيح .

وفي ذلك يقول هيرودوت — وأكبر الظن أن في قوله بعض المبالغة — إن هومر وهزiod هما اللذان خلعا على الآلهة الأولمبية صورة الأناسي ، واللذان أدخلوا النظام في مملكة السماء الكهنوتية^(٢٦) . وإنا لنجد في آلهة هومر كثيراً من أسباب العظمة والفخامة ، ونحن نحبا لما نتبين فيها من نقائص ، ولكن العلماء قد تبينوا من زمن طويل في الشعراء الذين صوروها تشككاً ومرحاً لا يلبق وصفه في كتاب يعد بحق كتاب اليونان القرمي المقدس . فذلك الآلهة تتنازع كما يتنازع الأقارب ، وتفسق كما تفسق البراغيث ، وتشارك مع بني الإنسان فيما خيل إلى الإسكندر أنه وصمة البشرية — ونعني بذلك حاجتها إلى الحب وإلى التدم ، ويجوز عليها كل ما يجوز على الآدميين إلا الجوع والموت . وليس فيها

كلها من بضارع أوديسيس في ذكائه ، أو هكتور في بطولته ، أو أندرمكا في رقتها وحنانها ، أو نسطور في مهابته . ولم يكن في وسع إنسان أن يهزل بالآلهة هذا الهزل إلا شاعر في القرن السادس قبل الميلاد ملهم كل الإلمام بتشكك الأيونيين^(٢٧) . ومن مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين اللتين تخصان الآلهة الأولمبية بدور الهازلين ، وتجعلان هذا الدور أهم أدوارها ، إن من مضحكات التاريخ أن هاتين الملحمتين كانتا موضع الإجلال في بلاد اليونان كلها ، وكانتا تعداد دعامة الخلق القويم والعقيدة المحترمة . ولكن هذا التناقض انضح للناس آخر الأمر ، وقضى ما فيهما من هزل على ما توحيان به من عقيدة ، واثارت أخلق الناس بعد تطورها على أخلاق الآلهة وحلت محلها .

الفصل الرابع

الالعباب

إذا كان الدين قد عجز عن توحيد بلاد اليونان ، فإن الألعاب الرياضية الموسمية قد أفلحت في توحيدها . ذلك أن الناس لم يكونوا يذهبون إلى أولمبيا ، ودلفي ، وكورنثة ، ونميا ليعظموا الآلهة — لأن الآلهة يمكن تعظيمها في أى مكان — بقدر ما كانوا يذهبون لمشاهدوا مباريات البطولة بين الرياضيين المختارين ، والاجتماع العام لطوائف اليونان المختلفين . ومن الشواهد الدالة على أثر هذه المراكز في تاريخ اليونان أن الإسكندر — وهو الذى كان في وسعه أن يشاهد بلاد اليونان من خارجها — كان يعد أولمبيا عاصمة العالم اليونانى .

في هذه الأماكن نجد دين اليونان الحقيقى تسيطر عليه قواعد الألعاب الرياضية وتعاليمها ، وهذا الدين هو عبادة الصحة والجمال ، والقوة . وفي ذلك يقول سمنيدس : « إن أحسن ما يستطيع الإنسان أن يتمتع به هو الصحة الجيدة ، ويأتى بعد الصحة جمال الشكل وحسن الطبع ، ثم تلى ذلك الثروة ينالها الإنسان من غير غش أو خداع ، ويأتى في المرتبة الرابعة أن يكون الإنسان في نضرة الشباب بين الأصدقاء والخلان » (٢٧) . وتقول الأوديسة (٢٨) « ليس ثمة مجد يستطيع الإنسان أن يناله طوال حياته أعظم مما يناله بيديه وقدميه » . ولعله كان من أوجب الواجبات على شعب أرسطقراطى يعيش بين جماعات من الرقيق أكثر منه عدداً ، ويطلب إليه المرة بعد المرة أن يرد عن حماه المغيرين من أمم أكثر منه . نقول لعله كان من أوجب الواجبات على هذا الشعب أن يحافظ على قوته الجسمية ، ذلك أن الحرب في الزمن القديم كانت تعتمد على القوة والمهارة ، ولقد كانت القوة والمهارة الغرض الأول من المباريات التى طبقت

شهرتها الآفاق في جميع هيلاس . وإن من الخطأ أن تفكر في الرجل اليوناني العادي على أنه طالب علم مولع بإسكلس أو أفلاطون ؛ ذلك أن هذا اليوناني العادي كان كالبريطاني أو الأمريكي العادي مولعا بالألعاب ، وكان أبطالها المحبون هم آلهته على هذه الأرض .

وكانت الألعاب اليونانية أنواعا مختلفة — منها ألعاب خاصة ، وألعاب محلية ، وألعاب بلدية ، وألعاب يونانية جامعة . وإن الآثار القديمة حتى المحطم منها لتكشف عن ثبوت طويل تمتع من الألعاب الرياضية . ففي متحف أثينة حجر على أحد وجهيه نقش يصور مباراة في المصارعة ، وعلى الوجه الآخر مباراة لعبة الهكي Hockey^(١٩) . أما السباحة ، وركوب الخيل العارية الظهور ، ورمي القذائف واثقاؤها أثناء الركوب ، فكانت كلها من مستلزمات اليوناني الملهذب أكثر منها ألعابا ومباريات . كذلك أصبح الصيد من ضروب الرياضة بعد أن لم يعد من وسائل العيش الضرورية . ولم تكن ألعاب الكرة أقل تنوعا أو انتشارا مما هي في هذه الأيام . وكانت كلمتا شاب ولاعب كرة مترادفتين في اسبارطة . وكانت تبنى في ساحات التمرين حجرات خاصة بالألعاب الكرة يسمونها اسفيرستيريا sphairisteria ، وكان معلموها يسمون اسفيرستاي Sphairistai . ونشاهد على نقش آخر رجالا تترند إليهم الكرة من أرض الحجر أو جدارها ، ثم يردونها هم براحة اليد^(٢٠) ، ولسنا نعرف هل كان اللاعبون يفعلون ذلك بالتناوب كما نفعل نحن بكرة اليد في هذه الأيام . وكان من بين ألعاب الكرة لعبة تشبه لعبة اللاكروس Lacrosse الكندية وهي ضرب من لعبة الهكي تلعب بالمضارب ويصفها بولكس Pollex ، وهو كاتب من كتاب القرن الثاني بعد الميلاد ، بعبارات كأنها من عبارات هذه الأيام فيقول :

« يجتمع بعض الشبان ويقسمون أنفسهم جماعتين متساويتين في العدد ويتركون في أرض منبسطة — أعدوها من قبل وقاسوها — كرة مصنوعة من

الجلد ، تقرب من حجم التفاحة ؛ ثم يهجمون عليها ، كأنها جائرة وضعت بينهم ، من نقط الابتداء المحددة لهم ، وفي يمين كل منهم مضرب rabeon ... ينتهى بانحناء مستو وسطه نسيج من خيوط مأخوذة من أمعاء الحيوان ... مجذولة كالشبكة . وتحاول كلتا الطائفتين أن تدفع الكرة من جزء الساحة المخصص لها إلى طرف الجزء المقابل لها (٣١) .

ويصف هذا المؤلف نفسه لعبة أخرى تحاول فيها فرقة من اللاعبين أن تقذف بالكرة من فوق رؤوس الفرقة المضادة لها أو من بين لاعبيها ، وتستمر في هذا « حتى يرد أحد الطرفين الطرف الآخر إلى ما وراء خط مرماه » . ويصف أثنان في جذاذة ناقصة من القرن الرابع قبل الميلاد أحد مهرة اللاعبين الممتازين فيقول : « ولما أخذ الكرة سره أن يعطيها إلى أحد اللاعبين ، ثم تفادى لاعباً آخر ؛ ثم استولى عليها من لاعب وضربها واستحث لاعباً آخر بأصواته العالية . وها هي ذى خارج الملعب ، ثم رمية طويلة ، ثم تمر به من فوق رأسه ، ورمية قصيرة ... » (٣٢) .

ومن هذه الألعاب الخاصة نشأت ألعاب محلية ، وأخرى في مناسبات معينة كما كان يحدث عقب وفاة بطل من الأبطال مثل بتركلوس أو نجاح مشروع عظيم كتحرف رجال أكسانوفون العشرة الآلاف إلى البحر . ثم نشأت بعدئذ ألعاب البلديات التي يمثل فيها المتبارون أماكن أو طوائف مختلفة في داخل إحدى دول المدن . أما ألعاب الجامعة الأثينية التي كانت تقام كل أربع سنين فهي أقرب ما تكون إلى الألعاب الدولية وإن لم يطبق عليها هذا الوصف كل الانطباق . وقد أنشأها بيسستراتس في عام ٥٦٦ ، وكانت كثرة المشتركين فيها من أنكا ، ولكن غير الأثينيين كان يرحب باشتراكهم فيها . وكانت تشمل ، فضلاً عن الألعاب الرياضية المألوفة ، سباق العربات ، وسباق المشاغل ، وسباق التجديف ، ومباريات موسيقية في الغناء والعزف على القيثارة والتمرار والناي ، والرقص ،

واللقاء أكثر ما يكون من شعر هومر . وكان يمثل كل قسم من أقسام أنكا العشرة أربعة وعشرون رجلاً يختارون من بين أصح السكان أجساماً وأقوام بنية وأجلهم منظرأ ، وكانوا يعطون جائزة للأربعة والعشرين الذين يكون لهم في النظارة أعظم الأثر ، وتسمى جائزة « الرجولة الباهرة » (٢٨) .

وإذ كانت الرياضة ضرورية للحرب ، ولكنها تنعدم إذا لم تعقد لها مباريات ، فقد أنشأت المدن اليونانية الألعاب اليونانية الجامعة لتكون أكبر حافز لليونان أجمعين على إتقان هذه الألعاب . وكانت أولى هذه المباريات الجامعة هي التي تقام بانتظام مرة كل أربع سنين في أولمبيا ؛ وقد أقيمت للمرة الأولى في عام ٧٧٦ م . وهو أول تاريخ محدد في حياة اليونان بأجمعها . وكانت هذه الألعاب في أول أمرها مقصورة على الإيليين Eleans ، وقبل أن يمضي قرن على بدايتها كان يشترك فيها لاعبون من جميع بلاد اليونان ؛ ولم يحل عام ٤٧٦ حتى كان ثبت الظافرين فيها يشمل لاعبين من جميع البقاع الممتدة من سينوب إلى مرسيلية ، وأصبح عيد زيوس على مر الزمن يوماً مقدساً دولياً ، وكان الشهر الذي يقع فيه هذا العيد شهراً حراماً يتهاون فيه المحاربون في جميع بلاد اليونان ، ويفرض فيه الإيليون غرامات على كل دولة يونانية يلحق في أرضها أذى بأي قادم إلى هذه الألعاب . وقد أدى فليب المقدوني هذه الغرامة عن يد وهو صاغر لأن بعض جنوده سرقوا مال أثيني وهو في طريقه إلى أولمبيا .

وفي وسعنا أن نتصور الحجاج واللاعبين يبدءون رحلتهم من المدن النائية قبل بدء المباريات بشهر كامل ، فإذا ما حان الموعد المحدد اجتمعوا كلهم في صعيد واحد ؛ وكانت أيام المباريات سوقاً عامة وعيداً في وقت واحد ، وكانت الخيام تنصب في السهل لتقي الزائرين حر شمس يوليه اللافح ، وإلى جانبها المظلات يستظل بها البائعون ويعرضون تحتها بضاعتهم على اختلاف ألوانها ، من خمر وفاكهة وخيل وتمائيل ؛ وترى اللاعبين على الحبال والمشعوذين يعرضون

اللاعبين على الجماهير . فنه من يقذف بالكرة في الهواء ومنهم من يلعب ألعاباً تشهد بالخفة والمهارة ، ومنهم من يأكل النار أو يبتلع السيف . ذلك أن ضروب التسلية ، كأنواع الخرافات ، قديمة العهد يخلع عليها هذا القدم ثوباً من التقديس والإجلال . وكان أشهر الخطباء أمثال جورجياس ، وأشهر السوغسطائيين أمثال هيباس ، وربما كان أشهر الكتاب أمثال هيرودوت ، كان هؤلاء جميعاً يلقون خطبهم أو يتلون أقوالهم من أروقة هيكل زيوس . وكانت هذه الأيام أعياداً مقدسة للرجال خاصة لأن النساء المتزوجات لم يكن يسمح لهن بالحضور في هذه الساحة ، بل كانت ألعاب خاصة تقوم في عيد هيرا . وقد لخص منتدبر منظر هذه الألعاب في خمس كلمات جامعة « زحام ، وسوق ، ولاعبون ، وتسلية ، ولصوص »^(٣٤) .

ولم يكن يسمح لغير اليونان الأحرار بالاشتراك في مباريات الألعاب الأولمبية ، وكان المتبارون (Athletes المشتقة من Athlos بمعنى مباراة) يختارون بعد اختبارات محلية وبلدية يستبعد بها غير اللاتقيين ، ثم يلربون بعدئذ عشرة شهور كاملة تدريباً صارماً على أيدي مدربين محترفين يسمون پيدترباى paidotribai (ومعناها اللغوى مدلكو الشبان) ورياضيين يدعون gymnastai (أى العراة) .

فإذا جاءوا إلى أولمبيا اختبرهم موظفون مخصوصون وأقسموا أن يراعوا جميع قوانين الألعاب . ولم يكن يحدث في الألعاب غش أو خروج على السنن الصحيحة إلا القليل النادر ، منها ما قيل من أن يوپوليس Euopolis قد رشا الملاكمين حتى ينهزموا له^(٣٥) ؛ ولكن ما كان يفرض على هؤلاء المخادعين من عقاب ، وما كان يلحقهم من مهانة ، كان كبيراً إلى حد يحول بينهم وبين الإقدام على مثل هذا العمل ، فإذا ماتم استعداد اللاعبين أخذوا إلى ميدان الألعاب ، فإذا دخلوه نادى مناد أسماءهم وأسماء المدن التى بعثت بهم . وكان المتبارون جميعاً ، أبا كانت سنهم ومنزلتهم ، يجردون من الثياب إلا من منطقة تحيط بالحقوقين

فى بعض الأحيان^(٣٧) . ولم يبق من هذا الملعب نفسه إلا الألواح الحجرية التى كانت توضع بين أصابع أرجل المتسابقين فى بداية السباق . وكان النظارة البالغ عددهم ٤٥٠٠٠ يحتفظون بأماكنهم فى الملعب طول النهار يقاسون الأمرين من الحشرات والحر والظما ؛ ولم يكن يسمح لهم بلبس قبعاتهم ، وكان الماء الذى يسقون منه رديئاً غير صالح للشرب ، كما كان الذباب والبعوض يملأ جو المكان كما يملأ أمثاله فى هذه الأيام . وكانت القرابين تقرب مراراً وتكراراً إلى زيوس طارد الذباب^(٣٧) .

وكانت أهم المباريات فى هذه الألعاب هى التى يطلقون عليها اسم المباريات الخمس (pentathlon)^(*) . وأراد اليونان أن يكون اللاعبون متمكنين من هذه الألعاب جميعاً ، فكانوا يحتمون على من يتقدم للمباراة فى واحدة منها أن ينازل غيره فيها جميعاً ، ولا يعد اللاعب منتصراً إلا إذا فاز فى ثلاث لعبات من خمس . وكانت أولاهما هى القفز الواسع ، فكان اللاعب يمسك بيديه ثقلين شبيهين بكتل الحديد المستديرة ويقفز بهما من وضع معين ، ويؤكد لنا الكتاب الأقدمون أن بعض القافزين كانوا يقفزون إلى مسافة خمسين قدماً^(٣٨) . ولكننا غير ملزمين بأن نصدق كل ما نقرأ . واللعبة الثانية هى قذف القرص وهو لوحة مستديرة من المعدن أو الحجر تزن نحو اثني عشر رطلا ، ويقال إن أكبر القذفات كانت تصل مسافة مائة قدم^(٣٩) . وكانت اللعبة الثالثة هى قذف الحربة أو الرمح بالاستعانة بشرعة من الجلد متصلة بوسط السهم . وكانت المباراة الرابعة هى الجرى مسافة قصيرة بأقصى سرعة فى الملعب نفسه ، وكانت هذه المسافة تبلغ نحو مائتى ميل فى الغالب . وكانت المباراة الخامسة هى المصارعة ، وهى من المباريات المحبة كثيراً إلى اليونان ، ومنها اشتق لفظ Palaistra نفسه ، وما أكثر ما يروى من القصص عن الأبطال المصارعين .

(*) وتشمل هذه المباريات المصارعة ، وقذف القرص ، وقذف الرمح ، والقفز ، والجري

وكانت الملائكة من الألعاب القديمة ، وتكاد نوقن أنها مأخوذة عن كريت الميثوية وبلاد اليونان الميسينية . وكان المتبارون ينازل بعضهم بعضاً بكرات للكم معلقة بمحاذاة الرأس ومحشوة بينور التين أو الدقيق أو الرمل ، وفي عصر اليونان الزاهر (أى في القرنين الخامس والرابع) كان الملاكون يلبسون « قفازات لينة » من جلد الثيران ، معالجة بالدهن ، وتكاد تصل إلى المرافق ، وكانت الضربات مقصورة على الرأس ولكنهم لم تكن لديهم قواعد تحرم ضرب اللاعب إذا وقع على الأرض . ولم تكن هناك أشواط أو فترات للراحة ، بل كان الملاكان يواصلان اللعب حتى يستسلم أحدهما أو يعجز عن الملائكة . ولم يكونوا يقسمون حسب أوزانهم ، ومن كان في مقدور أى إنسان مهما يكن وزنه أن يشترك في المباريات . ومن ثم كان ثقل الجسم ذا نفع كبير لصاحبه ، وانحطت الملائكة لهذا السبب في بلاد اليونان وتحولت من مباراة في المهارة إلى منازلة بالقوة العضلية .

وازدادت وحشية اللاعبين على مر الزمن فجمعوا المصارعة والملائكة في مباريات جديدة سموها لعبة القوى مجتمعة (pankration) . وكان يسمح في هذه اللعبة بكل شيء عدا العض وفقاً العين ، وحتى الركل في البطن كان مسموحاً به أيضاً^(٣٩) . وقد وصلت إلينا أسماء ثلاثة من أبطال هذه المباراة هزموا من نازلوهم لأنهم كسروا أصابعهم^(٤٠) ، وكال أحدهم لغريمه ضربات وحشية بأصابعه الممدودة وأظافره الطويلة القوية التي اخترق بها جلده وانتزع بها أمعاءه من بطنه^(٤١) . لكن ميلو الكروتوني كان ملاكاً أظرف من هؤلاء وأحب إلى النفوس ، ويروى عنه أنه نمي قوة جسمه بحمل عجل صغير في كل يوم من حياته حتى كبر هذا العجل وأصبح ثوراً كامل النمو . وكان الناس يحبونه لحيله ودهائه ، فقد كان يمسك في يده رمانة ويقبض عليها بقوة لا يستطيع معها أى إنسان أن ينتزعها منه ، ومع ذلك كانت الرمانة تبقى سليمة لا يتألمها أذى ، وكان يقف على قرص من الحديد مدھون بالزيت ويقاوم كل ما يبذل من الجهد ليرحزحه عن مكانه ،

ويربط جبلا حول جبهته ثم يقطع الجبل بوقف نفسه ودفع الدم إلى رأسه . وقضت عليه مواهبه هذه آخر الأمر ؛ « ذلك أنه التقى مصادفة بشجرة ذابلة ، كما يقول هوزنياس » دقت فيها أوتاد لتفصل خشبها بعضه عن بعض ، فخيّل إليه أن يفصل هذا الخشب بيديه ، ولكن الأوتاد انخلعت من الشجرة وانطبق خشبها عليه ، وافترسته الذئاب (٤٢) .

وكانت الألعاب تشمل فضلا عن السباق السريع القصير المدى مسابقات أخرى في العدو ، منها مسابقة طولها أربعون ياردة ، وأخرى طولها أربعة وعشرون شوطاً (*) أو ميلان وثلثا ميل ، ومنها سباق مسلح يحل كل عداء فيه ترساً ، وليس لدينا ما نستدل منه على الأرقام القياسية في هذه المسابقات . وكان الشوط يختلف باختلاف المدن ، ولم يكن لدى اليونان آلات يقيسون بها أجزاء الزمن الصغيرة . وتحدثنا الأفاصيص عن عداء يوناني كان يسبق الأرنب ، وعن آخر سابق جواداً من كرونيّا إلى طيبة (حوالي عشرين ميلاً) وسبقه ، وعن فيديديس Pheidippides الذي جرى من أثينة إلى اسبارطة ١٥٠ ميلاً - في يومين (٤٤) ، ونقل إلى أثينة بشرى النصر في مرثون التي تبعد عنها أربعة وعشرين ميلاً ، ثم مات متأثراً بما عاناه من التعب . ولكن بلاد اليونان لم تكن فيها « مسابقات مرثونية » .

وقد أنشأت أولمبيا في السهل الواقع في أسفل الملعب مضماراً لسباق الخيل خاصة . وكان للنساء والرجال على السواء أن يتقدموا بخيولهم إلى هذا السباق ، وكانت الجائزة في ذلك الوقت تعطى لصاحب الجواد - كما هي الحال في وقتنا هذا - لا لراكبه ، وإن كان الجواد في بعض الأحيان يجازى بأن يقام له تمثال (٤٥) ، وكانت آخر المباريات هي مباراة المركبات ، وكان يجر كل مركبة

(٥) اشوط مقياس يوناني طوله عادة ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدماً إنجليزية ، ولكنه كان يختلف باختلاف المدن . (المتوهم)

جوادان أو أربعة جياد تسير جنباً إلى جنب. وكثيراً ما كان يشترك في المباراة الواحدة عشر مركبات في كل منها أربعة جياد ، وكان على كل مركبة أن تدور حول الأنصاب المقامة في الحلقة ثلاثاً وعشرين دورة في آخر السباق ، ولذلك فلن حوادث خطيرة كانت تحدث وقتئذ ، وكانت هذه الحوادث أهم ما يثير المشاعر في الألعاب . وقد حدث في سباق منها بدأ بأربعين مركبة أن لم تتمه إلا مركبة واحدة . وفي وسعنا أن نتصور احتياج النظارة وجلهم حول من يناصرون ، وأسفهم وهم منعزلون حينما يطوف الظافرون آخر طواف لهم حول الأنصاب .

فلإذا انتهت هذه المباريات المجهدة بعد خمسة أيام كاملة ، نالوا جوائزهم ، ولف كل منهم عصا من الصوف حول رأسه ، ثم وضع المحكمون على هذه العصا إكليلاً من أوراق الزيتون البرى وأغصانه ، ونادى مناد أسماء الظافرين وأسماء مدتهم . وكان هذا الإكليل النبأى هو الجائزة الوحيدة التي تعطى في الألعاب الأولمبية . ولكنه مع ذلك كان الشرف الذى يبذل المتبارون بلاد اليونان أقصى جهودهم ليظفروا به . وقد بلغ من أهمية هذه الألعاب وحرص اليونان عليها أن الغزو الفارسي نفسه لم يحل بينهم وبين إقامتها ، فبينما كانت حفنة من اليونان تقف في وجه خشيار شأى في ترموبيلي كانت آلاف مؤلفة منهم تشهد كمادتها ثيجنيس Theagenese الثاسوسي ، في اليوم الذى دارت فيه المعركة ، يظفر بإكليل ألعاب القوى المجمع . وصاح جندي فارسي في وجه قائده يقول : « ربه ! أى صنف من البشر أولئك الأقوام الذين أتيت بنا لنقاتلهم ؟ - لأنهم رجال لا يقاتل بعضهم بعضاً من أجل المال بل من أجل الشرف ! »^(١٦) . وما من شك في أن هذا الجندي الفارسي أو اليوناني الذى اخترع القصة ، قد جاوز الحد في الثناء على اليونان بقوله هذا ، وليس ذلك لأنه كان من واجهم أن يكونوا في ذلك اليوم في ترموبيلي بدل أن يكونوا في أولمبيا فحسب ، بل لهذا السبب وغيره من الأسباب ، ذلك أن الظافرين كانوا يحصلون على جوائز أخرى كبيرة من طريق غير مباشر

وإن كانت الجائزة المباشرة التي ينالونها في الألعاب نفسها كانت قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع. لقد كانت مدن كثيرة تمنح الظافرين جوائز مالية كبيرة بعد أن يعودوا من الألعاب الأولمبية ، وكان بعضها يعينهم قواداً لحيوشه ، وكانت الجماهير تقدسهم تقديساً يحسد على الفلاسفة ويشكون منه^(١٧). وكان بعض الظافرين أو أنصارهم يستأجرون شعراء مثل سمنيدس أو بندار لينشثوا القصائد في مدحهم وتكريمهم ، وكانت هذه الأشعار تغنيها جماعات من الغلمان في الموكب الذي يخرج لاستقبالهم ؛ وكانت الأموال تدفع للمثاليين ليخلدوا ذكراهم بالتمثيل البرنزية أو الحجرية ، وكانوا في بعض الأحيان يطعمون بلائمن في ردهة المدينة . وفي وسعنا أن نقدر ما يتكلفه هذا الطعام إذا عرفنا - من مصدر مشكوك في دقته - أن ميلو أكل عجلة بنت أربع سنوات ، وأن ثيجنيس أكل ثوراً ، في يوم واحد^(١٨) .

وكان القرن السادس هو العهد الذي بلغت فيه الألعاب الرياضية أعظم روعتها وتغلغل حبها في قلوب الشعب إلى أبعد حد . ففي عام ٥٨٢ أنشأ الحلف الاثنا عشرى الألعاب الفيشية في دلتى تكريماً لأپلو . وفي تلك السنة نفسها أنشئت ألعاب البرزخ في كورنثة تكريماً لپوسيدن ، وبعد ست سنوات من ذلك الوقت أنشئت الألعاب النيمية تكريماً لزيبوس النيمى ، وأضحت هذه المواسم كلها أعياداً يحتفل بها اليونان على بكرة أبيهم . وقد نشأت منها ومن الألعاب الاولمبية دورة (Periodos) ، وكان أعظم ما بطمع فيه اليونانى الرياضى أن ينال أكاليل فيها جميعاً . وقد أضيفت مباريات في الموسيقى والشعر إلى المباريات الجسمية في الألعاب الفيشية ، والحق أن هذه المباريات الموسيقية كانت تقام في دلتى قبل إنشاء الألعاب الرياضية فيها بزمان طويل . وكان موضوع المباريات في بادئ الأمر أنشودة يخلد بها انتصار أپلو على الأفعى الدلفية ، ثم أضيفت إليها في عام ٥٨٢ مباريات في الغناء وفي العزف على القيثارة والنفخ في الناي . وكانت مباريات

موسيقية مثلها تقام في كورنثة ، ونيشيا ، ودبلوس ، وغيرها من المدن ؛ وذلك لأن اليونان كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون بهذه المباريات العامة أن ينموا مقدرة العازفين وذوق الجماهير في وقت واحد . وكانوا يسرون على هذا المبدل نفسه في كل فن من الفنون تقريباً - كصناعة الخزف ، والشعر ، والنحت ، والتصوير ، والغناء الجماعي ، والخطابة ، والتمثيل^(٤١) . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق أصبح للألعاب أكبر الأثر في الفنون ، والآداب ، بل كان لها أيضاً أعمق الأثر في كتابة التاريخ نفسه ؛ وذلك لأن أهم طريقة لحساب السنين في كتب التاريخ المتأخرة كانت هي التأريخ بالفترات الأولمبية ، وكانت كل فترة تميز باسم الظافر في سباق الجري شوطاً واحداً . وكان الكمال الجسمي الذي بلغه الرياضيون البارعون في الألعاب جميعها في القرن السادس قبل الميلاد هو الذي أوحى إلى اليونان بالمثل الأعلى في نحت التماثيل ، وهو المثل الذي بلغ غايته على يدي ميرون Meiron ويليكليتوس . وقد أتاحت ألعاب العراة في مضامير الألعاب وفي أثناء الأعياد للمثال فرصاً لدراسة جسم الإنسان في جميع أشكاله وأوضاعه ، فأضحت الأمة هي نفسها نماذج لفنانها على غير علم منها ، وتعاونت الألعاب الرياضية اليونانية مع الدين اليوناني على إيجاد الفن اليوناني .

الفصل الخامس

الفنون

لقد وصلنا الآن إلى أكمل نتاج الحضارة اليونانية ، ولكننا مع الأسف الشديد لا نجد من بقايا هذا النتاج العظيم إلا التزر اليسير . ذلك أن التدمير الذى عاناه الأدب اليونانى من جراء عدوان الزمان وتحكم ذوى العقول الضيقة الجاهلة ، وتغير الأنماط والأهواء العقلية ، لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى ما وقع على الفن اليونانى من تدمير . ولقد بقى لدينا من عصر الفنون الزاهر قطعة برنزية واحدة هى راكب العربى فى دلفى ، وتمثال واحد من الرخام هو تمثال هرمس من صنع المثال بركستيليز ، أما الهياكل فلم يصل إلينا منها هيكل واحد - ولا هيكل الشبوم نفسه - بالشكل أو باللون الذى كان عليه فى بلاد اليونان القديمة . كذلك لم يكد يبق لدينا شئ من النقوش اليونانية على المنسوجات ، أو الخشب ، أو العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، ذلك أن هذه المواد كانت أضعف أو أئمن من أن تنجو من أيدي الناهبين أو عبث الأيام . لذى كان علينا أن نعيد تصوير هذه الفنون مستعينين على ذلك بما بقى لدينا من آثارها المحطمة القليلة .

وكانت الأسباب التى أدت إلى نشأة الفن اليونانى هى الرغبة فى تصوير الأجسام وتزيينها ، والنزعة البشرية فى الديانة اليونانية ، والروح الرياضية ، والمثُل العليا للرياضيين . ولما ارتقى اليونانى البدائى عن المرحلة التى اعتاد أن يضحى فيها بالآدميين لكى يصحبوا الموتى ويقوموا على خلدتهم ، استبدل بهم التماثيل المنحوتة أو الصور كما فعل غيره من البدائيين . ووضع بعد ذلك صوراً لآبائه فى بيته ، أو وضع فى المعابد صوراً وتماثيل شبيهة به أو بمن يحب ، اعتقاداً منه أن هذه الصور والتماثيل ستتمكن بقوة سحرية من بسط حماية الإله ورعايته على

من مثله . لقد كان الدين المينوى ، والدين الميسينى ، وكانت طقوس اليونان الأرضية نفسها ، عبارات غامضة مبهمه غير شخصية ، وكان فيها أحياناً من الرهبة والسخف ما ينأى بها عن جمال التصوير ؛ ولكن الخصائص البشرية الصريحة التى كان يتصف بها آلهة أولمبس ، وحاجتهم إلى مواطن وهياكل تقيم فيها على سطح الأرض ، كل هذه قد فتحت أمام اليونان آفاقاً واسعة للنحت والعمارة ولعشرات العشرات من الفنون المتصلة بهما . ولستأ نجد ديناً غير هذا الدين - مع جواز استثناء الديانة المسيحية الكاثوليكية - شجع الآداب والفنون ، وأثر فيهما ، كما شجعهما وأثر فيهما الدين اليونانى . ولا نكاد نجد فيما لدينا من آثار اليونان الأقدمين كتاباً ، أو مسرحية ، أو تمثالا ، أو بناء ، أو مزهرية لا يمت إلى الدين بصلة فى موضوعه ، أو غرضه ، أو الإلهام به .

ولكن الإلهام وحده لم يكن ليرفع من شأن الفن اليونانى إلى الدرجة التى ارتفع إليها ، فقد كان هذا يحتاج إلى البراعة الفنية العالية التى تنشأ من الصلات الثقافية ، وإلى تطور الصناعات اليدوية وانتقالها من طور إلى طور . والحق أن الفن لم يكن عند الرجل اليونانى إلا نوعاً من الصناعة اليدوية ، وارتقى الفنان من الصانع الماهر ارتقاء طبيعياً تدريجياً حتى لم يكن اليونان يميزون أحدهما من الآخر تمييزاً دقيقاً . لقد كان الفنانون فى حاجة إلى العلم بجسم الإنسان لأن نموه الصحى السليم هو الذى يكسبه تناسباً وتناسقاً وجمالاً ، وكانوا فى حاجة إلى حب للجمال عاطفى قوى جنسى يهون معه كل صعب إذا ما أدى إلى تخليد لحظة من لحظاته الحية ، وصورها فى صورة تبقى على مر الزمان . وكانت نساء اسبارطة يضعن فى حجرات نومهن صوراً لأبلو ، ونارسس ، وهياسنثس ، أو أى إله آخر وسم حتى يلدن بذلك أطفالاً جمالاً^(٥٠) . وأقام سبسلوس Cypselus مباراة فى الجمال بين النساء من زمن بعيد يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد ، ويقول أثينيوس إن هذه المباراة الدورية استمرت إلى العهد المسيحى^(٥١) . ومن أقوال ثيوفراستوس

Theophrastus في هذا المعنى « إن مباريات تقام » في بعض الأماكن « بين النساء في الخفر ، وحسن التدبير ... كما تقام مباريات في الجمال ، كالمباريات التي تقام ... في تندوس ولسبوس » (٥٢) .

١ - المزهريات

من الأفاصيص الظريفة الشائعة في بلاد اليونان أن أول قدح للشراب قد شكل فوق ثدى هيلن (٥٣) ، فإذا كان هذا صحيحا فإن القالب الذي صنع على هذا الطراز قد ضاع عقب الغزو الدوري ، لأن ما وصل إلينا من الآنية الفخارية من العهود اليونانية القديمة لا يذكرنا قط بهن ؛ وما من شك في أن هذا الغزو قد أثر أسوأ الأثر في تطور هذا الفن ، وأفقر الصناعات ، وشتت المدارس ، وقضى إلى حين على انتقال أصوله ؛ ذلك بأن المزهريات اليونانية تبدأ من بعد هذا الغزو بسيطة بدائية فجأة ؛ كأن كريت لم تسم بصناعة الفخار فتجعلها فناً جميلاً .

ويغلب على الظن أن مزاج الفاتحين الدوريين الذي كانت تغلب عليه الخشونة هو الذي أخرج مما بقي من قواعد الفن المينوي الميسيني ذلك الطراز الهندسي الذي كانت له السيطرة على أقدم الفخار اليوناني بعد العصر الهومري . لقد نحى من هذا الفخار ما كانت تزدهان به الآنية الكريكية من رسوم الأزهار والمناظر الطبيعية ، والنباتات ؛ وكانت الزعرة الصارمة التي أقامت مجد الهياكل الدورية هي التي قضت على صناعة الفخار اليونانية . وليس في الجرار الضخمة التي يمتاز بها هذا العصر ما يمت بصلة إلى الجمال ، فقد كان الغرض من صنعها حفظ الخمر أو الزيت أو الحبوب ، ولم يكن يقصد بها أن تكون متعة للفنان الخبير بصناعة الخزف . ويكاد نقشها كله أن يكون وحدات من مثلثات أو دوائر ، أو سلاسل ، أو خطوط متقاطعة ، ومعينات ، وصلبان ، أو خطوط أفقية متوازية بسيطة تتكرر مرة بعد مرة . وحتى الرسوم الآدمية التي تتخلل هذه الأشكال

كانت رسوماً هندسية ، فجذع التمثال العلوى كان مثلث الشكل ، وفخذه وساقاه كانت مخروطية . وانتشر هذا الطراز الهين من الزينة فى جميع بلاد اليونان ، وكان هو الذى حدد صورة المزهريات الديبلونية *Dipylon* (*) فى أثينة . ولكن الآنية الضخمة (التى كانت تصنع فى العادة لتوضع فيها جثث الموتى) كانت ترسم عليها بين خطوط الأشكال الهندسية صور جانبية لوجوه النائمين ، وعربات ، وحيوانات غاية فى السجاجة . فلما آذن القرن الثامن بالانتهاء رسمت على الفخار اليونانى صور حية أكثر من الصور السابقة ، واستعمل لوانان لأرضية الصور ، واستبدلت الدوائر بالخطوط المستقيمة ، وظهر على الصلصال سعف النخل ، والأزورد ، وإلياد القافزة ، والآساد المصيدة ، وحلت الزخارف الشرقية محل الطراز الهندسى الساذج .

وأعقب ذلك العصر عصر ملء بالتجارب غمرت فيه ميلينس السوق بمزهريات الحمراء ، وساموس بمصنوعاتها المرمرية ، ولسبوس بآنياتها السوداء ، ورودس بآنياتها الحمراء ، وكلزميني *Clezomenae* بآنياتها الرمادية اللون ، وأصلدت فيه نقراطس الخزف الدقيق الملون والزجاج نصف الشفاف . واشتهرت إريثرا *Erythra* برقة مزهرياتها ، وكليس *Chalcis* بريقها وحسن صقلها ، وسكيون *Sicyon* وكورنث بقوارير الرائحة الدقيقة الصنع ، والأباريق ذات الرسوم المتقنة الأنيقة الشبيهة بمزهريات شيجى *Chigi* فى رومة . وقامت بين صناع الخزف فى المدن المختلفة منافسة قوية ، وكانت هذه المدينة أو تلك تجعد مشترين لخزفها فى كل ثغر من ثغور البحر المتوسط ، وفى روسيا ، وإيطاليا ، وبلاد غالة . وخيل إلى مدينة كورنث فى القرن السابع أنها فازت على منافساتها فى هذه الحرب الخزفية ، فقد كانت مصنوعات فى كل مكان وفى يد كل إنسان ، وكان صناع الفخار فيها قد كشفوا طرقاً جديدة للحفر والتلوين ، وابتكروا كثيراً من الأشكال الجديدة ؛

(*) سميت كذلك لأن الحزء الأكبر منها عثر عليه فى باب المدينة المزدهج .

لكن سادة حى الخزافين فى خارج أثينة برزوا الى الأمام حوالى عام ٥٥٠ ق . م وألقوا عن كاهلهم عبء النفوذ الشرقى ، واستولوا بمصنوعاتهم ذات الرسوم السوداء على أسواق البحر الأسود ، وقبرص ، ومصر ، وإتروريا ، وأسبانيا . وأخذ النابغون من صناع الخزف من ذلك الحين يهاجرون الى أثينة إن لم يكونوا قد ولدوا فيها ، ونشأت فيها مدرسة عظيمة وتقاليد ثابتة لأن الأبناء أخذوا يرثون فن الآباء ، وأصبحت صناعة الخزف الجميل إحدى الصناعات الكبرى فى المدينة ، ثم أمست إحدى الصناعات التى تحتكرها أنكا وتقر لها غيرها من الأقاليم بهذا الاحتكار .

وتحمل المزهريات نفسها من حين إلى حين صوراً لحوانيت الخزافين ، ويرى فيها الصانع يعمل مع صبيان أو يراقبهم وهم يقومون بالعمليات المختلفة : يخلطون الألوان والطين ، ويشكلون العجينة ؛ ويلونون الأرضية ، ويحفرون الصور ، ويحرقون الآنية ، ويحسون بالسعادة التى يحس بها من يرون صور الجمال تظهر على أيديهم . ونحن نعرف أكثر من مائة من هؤلاء الخزافين أهل أنكا ، ولكن الدهر قد عدا على آياتهم الفنية فحطمها ولم يبق لنا إلا أسماء مبدعيها . ونحن نقرأ الآن على كأس الشراب قول الصانع مفتخراً بصنعه Nikosthenes me poiesen « صنعنى نكستينز » (١٤٣) وكان أجزسياس Execias أعظم من نكستينز هذا وأجل قلماً . وفى متحف الفاتيكان قارورة فخمة ذات مقبضين من صنعه ، وكان واحداً من طائفة كبيرة من الفنانين يشجعهم أنصار الفن فى عهد بيسستراتس وأبنائه وينعمون بعهد السلم الذى ساد البلاد وقتئذ . ومن أيدي كلتياس Clitias وإرجتموس Erogetimus خرجت مزهرية فرنسوا المذاقة الصيت التى عثر عليها فى إتروريا عام ٥٦٠ فرنسى يحمل هذا الاسم ، وهى الآن ضمن كنوز متحف الآثار بفلورنس — وهى إناء كبير عليه صفوف من الأشكال والمناظر مستمدة من الأساطير اليونانية يعلو بعضها بعضاً (١٤٤) . وكان هذان

الصانعان أشهر صنّاع طراز الرسوم السوداء في أتكّا في القرن السادس . ولا حاجة بنا إلى المبالغة في جودة صنع الإناء ، فهو لا يضارع في فكرته ولا في إخراجها خير الأواني الباقية من عهد أسرة تانج أو سونج الصينيتين ؛ غير أن الفنان الصيني كان له غرض يختلف عن غرض الفنان الشرقي ، فلم يكن همه الأول هو الألوان بل الخطوط ، ولا النقش بل الشكل . ولذلك كانت الرسوم التي على الآنية اليونانية رسوماً صورها العرف ، وثبت طرازها فجعلها ضخمة ضخامة غير عادية في الكتفين دقيقة في الساقين . وإذا كان هذا الطراز قد ظل سائداً طوال عهد اليونان الزاهر فن واجبنا أن نفترض أن الخزاف اليوناني لم يكن يفكر قط في الدقة الواقعية ، فكأنه في فنه هذا يقرض الشعر لا يكتب النثر ، ويخاطب الخيال لا العين ، ولهذا السبب عينه لم يتوسع فيما يستخدمه من المواد أو الألوان . فقد استخدم صلصال السرمكوس Ceramicus الأحمر اللطيف ، وهذا لونه باللون الأصفر ، وصغر الرسوم بعناية ، وملأ ما بين الخطوط باللون الأسود الزجاجي البراق ، فاستحال الطين على يديه آنية موفورة العدد تفتن فيها المنفعة بالجمال ، منها أباريق ماء وقوارير ذات مقبضين ، ودنان خمر وأقداح ، وآنية خلط ، وقنينات عطر . وكان هو الذي فكر في التجارب ، وابتكر الموضوعات ، وابتدع الأعمال الفنية التي أخذها عنه صانعو البرنز ، والمثالون ، والرسامون . وهو الذي قام بالتجارب الأولى في رسم المناظر فنياً كما تبدو بحجمها الطبيعي للعين ، وفي فن المنظور ، وتوزيع الظلال ، وعمل النماذج^(٥٥) . وقد مهد السبيل لنحت التماثيل بأن صنع من الطين المحروق صوراً لما لا يحصى من الموضوعات والأشكال ، وحرر فنه من الرسوم الهندسية الدورية ومن المغالاة الشرقية ، وجعل صور الآدميين مصدر حياته ومحورها الذي تدور عليه .

ومل الخزاف الأثيني قبيل الربع الأخير من القرن السادس الرسوم السوداء على الأرضية الحمراء ، فعكس الوضع وابتدع طراز الرسوم الحمراء الذي

ظلت له السيادة في إقليم البحر المتوسط مائتي عام . وكانت الصور لاتزال جامدة ذات زوايا ، والأجسام مصورة من جانبها ، والعين في مواجهة الناظر تماماً ، ولكنه كان يستمتع في نطاق هذه الحدود بحرية جديدة ومجال أوسع في التفكير والتنفيذ ، وكان يחדش الخطوط الخارجية للصورة خدشاً خفيفاً بسن رفيع ، ويرسم تفاصيلها بعدئذ بالقلم ، ويملاً خلفيتها باللون الأسود ، ثم يضيف إليها لمساتها الصغرى بمادة زجاجية ملونة . وفي هذا المجال أيضاً خلد بعض كبار الفنانين أسماءهم ، من ذلك أن قارورة ذات أذنين قد كتب عليها : « رسم صورها يوثيميدس Euthymides بن پلياس Pallias رسماً لم يستطعه يفرنيوس Euphronius »^(٦٥) . وكان هذا تحدياً ليفرنيوس ودعوة له أن يصنع مثلاً « لكن يفرنيوس هذا ظل يوصف بأنه أعظم الخزافين في عصره . ويظن بعضهم أنه هو صاحب الخابية التي صور فيها هرقل بصارع أنتيوس . وتهزى إلى معاصره سسياس Sosias زهرة من أشهر المزهريات اليونانية صور عليها أخيل يضمم جرحاً في ذراع بتركولوس . وقد أبرز في هذه الصورة جميع دقائقها ، وأفاض عليها الكثير من حبه وعطفه ، ولم تستطع القرون الطوال أن تنال من منظر الألم الصامت وهو يبدو على ملامح الفتى المحارب . ونحن مدينون إلى أولئك الرجال وغيرهم ممن لاتعرف أسماءهم الآن بكثير من الروائع الفنية أمثال الكأس التي نرى في داخلها صورة إلهة الفجر تندب ولدها المتوفى ، وإبريق الماء المحفوظ في متحف الفن بذيورورك والذي رسم عليه جندي يوناني ، قد يكون أخيل بطعن بالحرية امرأة من المحاربات جميلة ذات ثدين . وكان إناء من أمثال هذه الأواني هو الذي وقف أمامه جون كيتس John Keats في يوم من الأيام صامتاً مذهولاً حتى أطلقت خياله « تلك النشوة الجامحة » و « الدفعة الهائلة » فأنطقنا لسانه بقصيدة أعظم شأناً من أية قارورة يونانية .

٢ - النحت

كان من أثر استيطان اليونان غربي آسية وفتح مصر للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٦٠ ق . م أن دخلت أشكال الشرق الأدنى ومصر وأساليهما إلى أبونيا وبلاد اليونان الأوربية . ذلك أن مثاليين كرتيين هما ديوثينوس Dippoenus واسكيلوس Scyllus استدعيا حوالى عام ٥٨٠ إلى سكيون وأرجوس ليقوما فيهما بمهمة فنية . ولما أن غادراهما لم يتركا فيهما تماثيل فحسب بل تركا فيهما تلاميذ أيضاً . ونشأت من ذلك الحين مدرسة للنحت قوية في بلاد الهلوبيوز . وكان لهذا الفن أهداف كثيرة ؛ فكان أولاً يخلد الموتى بالأعمدة البسيطة ، ثم برووس تماثيل قائمة على قواعد ، ثم بتماثيل كاملة أو لوحات جنازية منقوشة . وكانت التماثيل تصنع للفائزين في الألعاب الرياضية ؛ فكانوا أولاً ينحتون نماذج لتماثيل هؤلاء الفائزين ، ثم صاروا ينحتون تماثيل لأشخاص هؤلاء الفائزين . وكان خيال اليونان الحى الخصب من أسباب تشجيع هذا الفن ، فقد جعلهم يصنعون للآلهة تماثيل يخططها الحصر .

وكان الخشب هو المادة التى تصنع منها أكثر التحف حتى القرن السادس قبل الميلاد ، وشاهد ذلك ما نسمعه كثيراً عن صنلوق سبسيلوس طاغية كورنثة ؛ ويقول بوزنياس إنه صنع من خشب الأرز المطعم بالعاج والذهب ، وزين بالنقوش المعقدة المحفورة . ولما زاد الثراء كانت التماثيل الخشبية تغطى كلها أو بعضها بالمواد الثمينة . وبهذه الطريقة صنع فيدياس تماثيله الذهبية والعاجية لأثينة پارثنوس ولزيوس الأولمبي . وظل البرنز ينافس الحجر في صنع التماثيل إلى آخر عصر اليونان الزاهر .

وقد صهر العدد الأكبر من هذه التماثيل البرنزية ولم يبق منها إلا القليل ، ولكن في وسعنا أن نستدل من تماثيل سائق العربات الخاضع الدليل المحفوظ في

متحف دلتى (حوالى ٤٩٠ ق . م) على ما بلغته صناعة التماثيل المحفوفة من الإنفان الذى يقرب من الكمال مذ أدخلها ريكوس Rhoeus وثيودورس الساموسيان فى بلاد اليونان . وقد صبت مجموعة التماثيل الأثينية للطاغيتين (هرمودبوس Harmodius وأرستوجيتون Aristogeiton) ، وهى المجموعة الذائعة الصيت ، من البرنز على يد أنتنور Antenor فى أثينة بمد قليل من طرد هيباس . وكان مثالو أثينة يستخدمون أنواعاً كثيرة من الحجارة اللينة قبل أن يعمد مثالو اليونان إلى تشكيل الحجارة الصلبة المختلفة الأنواع باستخدام المطرقة والأزميل ، فلما أن عرفوا كيف يستخدمون هاتين الأداتين كادوا يأتون على كل ما فى نكسوس وباروس من رخام . وكثيراً ما كانت التماثيل فى العهد القديم (١١٠٠ - ٤٩٠) تطلّى بالألوان ، ولكنهم وجدوا فى آخر سنى ذلك العهد أن ترك الرخام المصقول من غير طلاء اصطناعى أوقع فى النفس وأدنى إلى تمثيل بشرة النساء الرقيقة .

وكان يونان أيونيا أول من عرفوا فوائد جعل الثياب عنصراً من عناصر صناعة النحت . ذلك أن الفنانين فى مصر والشرق الأدنى كانوا يجعلون الأثواب جامدة ملتصقة بالجسم ، ولم تكن تزيد على مئزر حجرى كبير يحنى الجسم الحى ، ولكن المثالين اليونان فى القرن السادس أدخلوا الثنايا فى الأقمشة ، واستخدموا الثياب للكشف عن مصدر الجمال الأول وطرازه وهو الجسم البشرى الصحيح السليم . غير أن أثر المصريين والأسويين فى الفن اليونانى ظل له من القوة ما جعل التماثيل فى كثير من آثار النحت اليونانية العتيقة ثقيلة جامدة خالية من الرشاقة ، وجعل الساقين مشدودتين حتى فى حالة الراحة ، والذراعين مسترخيتين متدلّيتين على الجانبين ، والعينين لوزيتى الشكل مائلتين أحياناً كعيون معظم الشرقيين ، والوجه ذا شكل ثابت لا يتغير فى جميع التماثيل خالياً من الحركة والعاطفة . وكانت التماثيل اليونانية فى ذلك العهد تتبع القاعدة التى جرى عليها المصريون فى صنع تماثيلهم ، وهى أن يصنعوها على الدوام متجهة بوجوها نحو

الناظر إليها ، ومتناسبة الجانبين أدق التناسب ، حتى لو أنك رسمت خطأ عموديا في وسطها لم يزد هذا الخط في منتصف الأنف ، والفم ، والسرة ، وأعضاء التناسل لا يجرد عن ذلك قيد شعرة إلى اليمين واليسار ، ولا يتأثر موضعه بحركة الجسم أو سكونه . ولعل العرف هو سبب هذا الجمود المقبض الممل ، فقد كان قانون الألعاب اليونانية يحرم على الفائز فيها أن يصنع له تمثال أو يرسم له صورة إلا إذا كان قد فاز في جميع المباريات ذات الألعاب الخمس ، ويقولون إن الفائز فيها جميعاً هو وحده الذى يستمتع بانمو الجسماني المتناسق الخلق بأن يكون أنموذجا للجسم البشرى السليم (٥٧) .

وهذا السبب مضافا إليه في أغلب الظن أن العرف الدينى قبل القرن الخامس كان هو المسيطر على تمثيل الآلهة في اليونان ، كما كان مسيطراً عليه مصر ، هو الذى جعل المثال اليونانى يقتصر على عدد قليل من الأوضاع والأنماط ، ويصرف كل جهوده ومواهبه في إتقانها .

وكان أهم ما صرف فيه جهوده وأنفق دراسته نمطان من التصوير هما تصوير الشباب العارى إلا من قليل الذى لا يستحق الذكر من الملابس ، ذى اليدين المقبوضتين والوجه الهادئ الصارم ؛ وتصوير العذارى المصقفة الشعر ذات الوقفة والثياب المتواضعة ، تمسك ثوبها بإحدى يديها ، وتقرب القربان للآلهة باليد الأخرى . وقد ظل المؤرخون إلى عهد قريب يسمون التماثيل الأولى «أبلو» ؛ ولكنها كانت في أغلب الظن تماثيل للرياضيين أو تماثيل جنائزية ، وأشهر هذا النوع هو أبلوتينيه Tenea ، وأكبرها حجماً تمثال أبلو سونيوم Sunium ، وأدناها على التناقص عرش أبلو فى أمكلى Amyclae قرب اسپارطة ، ومن أجملها كلها تمثال أبلو استرانج فورد Strangford المحفوظ فى المتحف البريطانى ، وأجمل منه أبلوشوازل جوفيه Choiseul Gouffier ، وهو صورة رومانية مأخوذة عن التمثال الأصلى الذى صنع فى القرن الخامس (٥٨) . وتماثيل العذارى أوقع فى عين الذكور

على الأقل من تماثيل الرجال : فأجسامهن رشيقة هيفاء ، ووجوههن تعلوها ابتسامة ظريفة أشبه بابتسامة صورة مونا ليز Mona Lisa ، وثيابهن قد بدأت تتحرر من الجمود العرقى . وبعض التماثيل المحفوظة فى متحف أثينة خلقت بأن يعد من روائع الفن فى أى قطر آخر من أقطار العالم^(٥٩) . ومنها تمثال نستطيع أن نسميه عذراء طشيوز^(*) ، وهو يعد آية فنية فى بلاد اليونان نفسها ، وإن ما فى هذه التماثيل من مسة أيونية شهوانية لينى عنها بعض ما بها من جمود مصرى وصرامة دورية كالتى نشاهدها فى تماثيل « أبلو » . وقد ابتدع أركرموس Archermus الطشيوزى طراز آخر من التماثيل ، أو لعله أعاد إلى الوجود طرازاً منسياً منها ، فى تمثال النصر المقام فى ديلوس . ومن هذا الطراز نشأ فيما بعد طراز تماثيل النصر الجميلة التى صنعها پثنيوس Poenios فى أولمبيا ، وتماثيل النصر المجنحة المقامة فى سمثريس Samothrace ، وصور الملائكة المجنحة فى الفن المسيحى^(٦٠) . وقد نحت مثالون مجهولون بالقرب من ميليتس طائفة من تماثيل النساء المكسوة الجالسة لتوضع فى هيكل البرنشىدى Branchidae ، وهى تماثيل قوية ، لكنها فجئة ، مهيبة لكنها ثقيلة ، عميقة لكنها ميتة^(**) .

وقد بلغت صناعة الحفر درجة من القدم يسرت لإحدى القصص الظريفة أن تصف منشأها . وتقول هذه القصة إن فتاة من كورنثة رسمت على جدار الخطوط الخارجية ظل رأس حبيبها الذى يلقبه ضوء مصباح على جدار . ثم جاء أبوها بوتاديس Butades وهو فخرانى فلأ ما بين هذه الخطوط بالصلصال ، وضغطه حتى جمد ، ثم رفعه ، وحرقه ، ويؤكد لنا بلى أن هذه هى الطريقة التى نشأ بها التمس القليل البروز^(٦١) . وأصبح هذا الفن أكثر أهمية من صناعة التماثيل فى

(*) هو التمثال رقم ٦٨٢ فى المتحف الأهل بأثينة .

(**) وهو الآن فى المتحف البريطانى ، وتوجد نماذج منه فى المتحف الفنى بنيويورك .

ولبرنشىدى هم كهنة الهيكل الذين يتوارثون المناصب فيه .

تزيين الهياكل والقبور ، وقد صنع أرسطاطاليس نقشاً جنازياً لأرسطيون في عام ٥٢٠ ق . م وهو تحفة من التحف الثمينة الكثيرة المحفوظة في متحف أثينة . وإذ كانت هذه النقوش البارزة تلون على الدوام تقريباً ، فقد كانت فنون النحت والنقش والتصوير وثيقة الاتصال بعضها ببعض ، وكانت كلها تستخدم في العمارة ، وكان معظم الفنانين مهرة في هذه الفنون جميعها ، وكانت بروز الهياكل وأطنافها ، وما بين هذه الأطناف ، وما وراء القواصر — كانت هذه كلها تطل على عادة بالألوان ، على حين أن البناء الرئيسي كان يترك عادة بلون الحجارة الطبيعي . أما الرسم الملون بوصفه فناً مستقلاً فليس لدينا من آثاره في البلاد اليونانية إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ؛ ولكننا نعرف من بعض أقوال الشعراء أن التصوير على الخشب بالألوان المزوجة في الشمع السائج كان من الفنون التي مارسها اليونان من عهد أنكريون (١٣) . وكان هذا الفن آخر ما ازدهر من الفنون في بلاد اليونان وآخر ما اندثر منها .

وجملة القول أن القرن السادس لم يبلغ فيه أى فن من فنون اليونان ، إذا استثنينا فن العمارة ، ما بلغت الفلسفة اليونانية وما بلغه الشعر اليوناني في هذا القرن نفسه من جرأة في التفكير وكمال التصوير . ولعل مناصرة الفنون كانت بطيئة النشأة بين أرسطراطية كانت لا تزال ريفية فقيرة ، أو بين طبقة رجال الأعمال التي كانت لا تزال ناشئة لم يخلق فيها الثراء حاسة الذوق . ومع هذا فقد كان عهد الطغاة فترة تحفز وتحسين في كل فن من الفنون اليونانية — وبخاصة في عهد بيسستراتس وهيباس في أثينة . وفي أواخر هذا العهد بدأ الحمود القديم الذي كان يلزم فن النحت يزول شيئاً فشيئاً ، وقضى على القاعدة القديمة قاعدة نحت التماثيل مواجهة لناظرها ، وأخذت الساقان تتحركان ، والنراغان يتبعدان عن الجانبين ، واليدان تفتحان ، والوجه ينم عن الإحساس والأخلاق ، والجسم ينثنى ويتخذ أوضاعاً مختلفة تكشف عن دراسات جديدة في التشريح والحركة . وكان هذا

الانقلاب العظيم في فن النحت ، وما بعثه في الحجارة من حياة حاداً خطيراً في تاريخ اليونان ؛ كما كان التحرر من المواجهة في التماثيل من أجل أعمال اليونان الفنية . ومن ذلك الحين نبذ الفن اليوناني تأثير المصريين والشرقيين ، وأصبح فناً يونانياً خالصاً .

٣ - العمارة

استعاد فن البناء على مهل ما خسره بسبب الغزو الدوري ، ورفع اسم الدوريين إلى أكثر مما يستحق . وانتقلت أسس العمارة المسيحية إلى بلاد اليونان خلال العصور المظلمة القديمة الممتدة من عهد أبجمنون إلى تريبندر ، فاحتفظت روائع الفن اليوناني بطراز البناء المستطيل . القائم الزوايا ، وباستخدام العمود في داخل البناء وخارجه ، وبجسم العمود المستدير وتاجه المربع البسيط ، وبالأروقة المعمدة ، والوجهات ذات الحزوز . غير أن العمارة المسيحية كانت عمارة مدنية غير دينية ، منصرفة كلها إلى تشييد القصور والدور ، أما العمارة اليونانية في عصر اليونان الزاهر فتكاد تكون كلها دينية ، فقد استحال القصر الملكي معبداً مدنياً بعد أن اضمحلت الملكية ، وعمل الدين والديمقراطية على توجيه عواطف اليونان إلى تعظيم المدينة في شخص إلهها .

وشيدت أقدم الهياكل اليونانية من الخشب أو اللبن ، وهما أنسب المادتين إلى العصر المظلم الفقير ؛ ولما أن صار الحجر المادة الأصلية في تشييد الهياكل ، بقيت المظاهر المعمارية كما كانت في عهد البناء بالخشب ؛ وظل جسم المعبد الأصلي المستطيل ، والعمد المستديرة ، « والعارضة الرئيسية » المركبة على العمود ، والحزوز الثلاثية في طرف العارضة ، والسقف ذو « الجمelon » بقيت هذه كلها شاهدة على الأصل الخشبي الذي استمدت منه شكلها الأول . بل إن الشكل اللولبي الأيوني كان كما يبدو من صورته رسوماً لنباتات وأزهار على كتلة من الخشب^(١٣) ، وكثر استعمال الحجارة بازدياد ثراء اليونان وكثرة أسفارهم ، وكان الانتقال أسرع

ما يكون بعد أن فتحت مصر أبوابها للتجارة اليونانية حوالى عام ٦٠٠ ق . م ، وكان حجر الجير المادة الشائعة الاستعمال فى أنماط البناء الجديدة قبل القرن السادس ، ثم بدأ استعمال الرخام حوالى عام ٥٨٠ ، وكان يستخدم أول الأمر فى الأجزاء التى يزين بها الهيكل ، ثم استخدم بعدئذ فى تشييد واجهته ، واستخدم آخر الأمر فى بناء الهيكل كله من قاعدته إلى سقفه .

وفى بلاد اليونان نشأت « مراتب » العمارة الدورية ، والأيونية ، ثم الكورنثية فى القرن الرابع قبل الميلاد . وإذ كان داخل الهيكل مخصصاً للإله والكهنة القائمين على خدمته ، وكانت العبادات كلها تؤدى فى خارجه ، فقد استخدمت « المراتب » الثلاث كلها فى تجميل الهيكل من خارجه وجعله ذا روعة ومهابة . وكان ذلك التجميل يبدأ من الأرض نفسها ، وهى عادة مكان مرتفع ، فيبنى الأساس من طبقتين أو ثلاث طبقات من الحجارة كل منها أقل مساحة من التى تحتها ، وفوق الطبقة العليا مباشرة يقوم العمود اللوزى دون أن تكون له قاعدة خاصة — ويزدان بحزوز ضحلة ، محدودة الجوانب ، ثم يتسع العمود اتساعاً ظاهراً فى وسطه ويتكون منه ما يسميه اليونان « امتداداً » له . ثم تقل سعة العمود الدورى بعض الشيء كلما قرب من قمته ، فيكون أشبه بالشجرة ومناقضاً للطراز الميئوى — الميسينى (وجسم العمود الذى لا تنقص سعته — وأسوأ منه الذى يضيق كلما اتجه إلى أسفل — يبدو ثقيلًا فى أعلاه غير جميل فى منظره ، على حين أن القاعدة المتسعة ، تزيد شعور الإنسان باستقرار العمود ، وهو الشعور الذى يجب أن تبعثه فى النفس جميع العناصر . على أن العمود الدورى قد يكون مفرطاً فى الثقل ، مفرطاً فى سمكه بالنسب إلى ارتفاعه ، مفرطاً فى الصلابة والقوة لإغراقاً يدل على البلاءه) ، وفى أعلى العمود الدورى يقوم تاجه البسيط القوى ويتكون من « عتق » أو رباط مستدير ، وبروز دائرى محدب كأنه

وسادة يرتكز عليها التاج ، وفي أعلاه التاج المربع نفسه وقد اتسع ليقوى
العمود على تحمل العارضة .

وبينما كان هذا الطراز من البناء ينمو ويتطور على أبدى الدورين ،
ويتكيف في أغلب الظن بأبهاء العمدة التي في الدبر البحري وبنى حسن
المتقدمة على العصر الدورى ، كان اليونان الأيونيون يبدلون هذا الشكل
الأساسى نفسه بتأثير الطرز الآسيوية ، ونشأ من هذا التطور طراز أيونى
يقوم فيه عمود رفيع على قاعدة له خاصة ، ويبدأ من أسفله كما ينتهى
في أعلاه بطوق ضيق ، وكان في العادة أكثر ارتفاعاً وأصغر قطراً من
جسم العمود الدورى ، وكان ما فيه من نقص في سمكه من أسفل إلى أعلى
قليلاً لا تكاد العين تدركه . أما الخزوز فكانت غائرة ، نصف دائرية
تفصلها بعضها عن بعض أطراف منبسطة ، وكان رأس تاج العمود الأيونى
يتكون من وسادة محدبة ضيقة ، ويعلوها تاج أضيق منها ، وبينهما بروز
تلفيفة لولبية مزدوجة تكاد تخفيهما عن العين كأنها ملف مطبوق نحو
الداخل . وذلك عنصر مأخوذ عن الأشكال الحثية ، والآشورية ، وغيرها
من الأشكال الشرقية^(٦٤) . وهذه الخواص إذا أضيفت إليها النقوش البديعة
المحكمة التي في الأروقة لا يستبين منها الرأى طرازاً في العمارة فحسب
بل يستبين منها كذلك خواص صنف من الناس . فهي تمثل في الحجارة
ما يمتاز به الأيونيون من وضوح ، ودماثة ، وقوة عاطفة ، ورشاقة ،
وولع بالتفاصيل الدقيقة ؛ كما أن الطراز الدورى يعبر عن تحفظ الدورين ،
وكبريائهم ، وضخامتهم وقوتهم ، وبساطتهم الصارمة ؛ ولقد كانت تماثيل
الجماعات اليونانية المتنافسة ، وآدبها ، وموسيقاها ، وأخلاقها ، ووثابها ،
تختلف لتتسجم مع أنماط عمارتها ؛ فالعمارة الدورى رياضة ، والعمارة
والأيونية شعر ، وكتلتها تنشد الخلود في الحجارة ، والأولى «نوردية»
أما الثانية فشرقية ، وهما معاً تكوينان الذكورة والأنوثة في صورة متناسقة
منسجمة في جوهرها .

وتمتاز العمارة اليونانية بأنها قد تطور فيها العمود حتى صار من عناصر الجمال كما صار دعامة يستند إليها البناء ، وكان العمل الأساسى للعمد هو حمل طنف السقف وإراحة جدران المعبد الداخلى من قوة دفع السقف دى « الجمالون » إلى الخارج . وفوق العمد يقوم الرواق أى الطابق العلوى من البناء . وفيه أيضاً ، كما فى الأجزاء الساندة ، كان فن العمارة اليونانى يحرص على إظهار الفوارق بين العناصر اليونانية كما يحرص على إظهار الصلات الواضحة بينها . فقد كانت العارضة - أى الحجر الكبير الذى يصل تيجان الأعمدة بعضها ببعض - فى الطراز الدورى بسيطة أو كانت تحمل فوقها طنفاً بسيطاً ملوناً ، أما فى الطراز الأيونى فكانت تتكون من ثلاث طبقات تبرز كل منها تحت ما فوقها ، وكان فى أعلاها حلقة من الرخام مقسمة فلها بينها نقوش كبيرة مختلفة الأنواع . وإذا كانت الكتل المائلة التى يتكون منها إطار السقف فى الطراز الدورى تنحدر إلى أسفل ، وكان ما يمسكها هو الكتل الأفقية التى عند الطنف ، فإن أطراف الكتل الثلاث مجتمعة كان يتكون منها - فى الخشب أولاً ثم فى الحجر المقلد للخشب بعدئذ - سطح مقسم ثلاثة أقسام ، وقد ترك بين كل قسم والذى يليه فراغ تتكون منه نافذة مفتوحة إذا كان السقف من الخشب أو من قطع القرميد المحروق ، فإذا ما استعملت فيه قطع مسطحة من الرخام فإن هذه « النوافذ » كانت تغطى بالواح من الرخام منقوشة نقشاً قليل البروز ، وفى الطراز الأيونى كانت هناك حلقة أو طنف من النقوش البارزة حول الجدران الخارجية العليا لجسم المعبد ، وكثيراً ما كان النوعان من النقوش - نقوش « النوافذ » ونقوش الطنف - يستخدمان فى البناء الواحد فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كما نشاهد فى بناء البارثنون . وقد وجد المثال فى القواصر - وهى المثلثات المكونة من السقف دى « الجمالون » من الأمام ومن الخلف - أحسن الفرص لإظهار فنه . وكان فى وسعه أن ينقش فيها الصور نقشاً كبير البروز ، وتكبر بحيث يستطيع

أن يراها من يقف في أسفل البناء ؛ وكانت الأركان المتجمعة - أو الطول عند المماربين - وسيلة تختبر بها مهارة الفنان العظيمة . وكان في الاستطاعة أن يجعل السقف نفسه تحفة فنية تجمله قطع القرميد الزاهية الألوان والمتقفات التي تستخدم لتصريف مياه الأمطار ، وتتخذ في الوقت نفسه قواعد للتماثيل العليا ترتفع من زوايا القواصر . وقصارى القول أنه كان في الهيكل اليوناني ، وبين العمدة ، وعلى الجدران ، وفي داخل البناء نفسه ، ما يزيد على الحاجة من التماثيل والنقوش . وكانت للرسام أيضاً يد في زينتها : فقد كان الهيكل يطل كله أو بعضه بما فيه من تماثيل وبروز ونقوش . ولعلنا في هذه الأيام نغالي في الإكبار من شأن اليونان بعد أن عمت الأيام الطلاء عن معابدهم وآلهتهم وخلفت أكاسيد الحديد على الرخام ألواناً طبيعية لا يحصى عديدها تظهر بريق الحجارة تحت سماء اليونان الصافية . ومن حقنا أن نتوقع أن يصبح الفن الحديث نفسه وبالطريقة عينها جميلاً في يوم من الأيام .

وازدهر الطرازان المتنافسان ازدهاراً عظيماً في القرن السادس وبلغا ذروة الكمال في القرن الخامس . وقد قسما بلاد اليونان من الناحية الجغرافية قسمه ضيزى . فكان للفن الأيوني السيادة في بلاد آسية اليونانية وفي بحر إيجه ، وكان للفن الدوري السيادة في أرض اليونان نفسها وفي غربها . وكان أعظم ما أبدعه الفن الأيوني في القرن السادس هو معبد أرتميس في إفسوس ، ومعبد هيرا في ساموس ، وتماثيل البرنشيدي بالقرب من ميليتس . ولكن جميع العائز الأيونية التي أنشئت قبل مرثون قد عدا عليها الزمان فلم يبق منها إلا أنقاضها . وأجل المباني الباقية من القرن السادس معابد بستوم Paestum وصقلية القديمة وكلها من الطراز الدوري . وقد بقي من الهيكل العظيم الذي شيد في دلفي بين عامي ٥٤٨ ، ٥١٢ تصميم ناعده نعرفه من رسوم المهندس اسپنثاروس Spintharus الكورنثي ، ما الهيكل نفسه فقد دمره زلزال وقع في عام ٣٧٣ ، ثم أعيد بناؤه بالنظام

عينه ؛ وكان لا يزال قائماً بهذه الصورة حينما طاف هوزنياس ببلاد اليونان ، وتكاد العمارة الأثينية في هذه الفترة أن تكون كلها دورية الطراز . وبه بدأ هيبستراتس حوالي عام ٥٣٠ معبد زيوس الأوابي الضخم في السهل لقائم عند أسفل الأكروبوليس . وهاجر مئات من الفنانين الأيونيين إلى أتكابعد أن فتح الأرس أبونيا في عام ٥٤٦ ، وأدخلوا في أثينة طراز العمارة الأيونية أو عملوا على إنمائه . وقبل أن ينصرم هذا القرن كان المهندسون الأثينيون يستخدمون الطرازين وكانوا قد وضعوا جميع الأسس الفنية لعصر بركليز .

٤ - الموسيقى والرقص

كان معنى لفظ Mousike عند اليونان أول الأمر هو الولاء لأية إلهة من إلهات الفن Muse ؛ وكان مجمع أفلاطون العلمي يسمى Museion أى متحف Museon ، ومعناه مكان مخصص لربات الفن Muses وأوجه النشاط الثقافي الكثيرة التي تناصرها . وكان متحف الإسكندرية جامعة تجري فيها ضروب النشاط الأدبي والعلمي ولم تكن مكاناً تجمع فيه التحف . وكانت الموسيقى بمعناها الضيق الحديث منتشرة بين اليونان بقلر انتشارها بيننا في هذه الأيام إن لم تكن أكثر انتشاراً . وكان الأحرار جميعاً في أركاديا يواصلون دراسة الموسيقى إلى أن يبلغوا الثلاثين من عمرهم ، وكان كل واحد منهم يعرف استعمال آلة من الآلات ، وكان العجز عن الغناء يجلل العاجز العار^(٦٥) . وقد سمي الشعر الغنائي بهذا الاسم في بلاد اليونان لأنه كان يقرض ليتغنى به على القيثارة اليونانية والصنج والنأى ؛ وكان الشاعر عادة يقول الشعر ويلحنه ويغنى أشعاره ؛ ولهذا كان قرص الشعر الغنائي في بلاد اليونان أصعب كثيراً من قرص الشعر لقراءته قراءة صامتة في عزلة كما يحدث في هذه الأيام . وقلما كان هناك أدب يوناني قبل القرن السادس الميلادي غير متصل بالموسيقى ، فقد كان التعليم والأدب

والدين ، والحرب ، وثيقة الاتصال بالموسيقى ؛ وكان للنغمات الحربية شأن عظيم في التدريب العسكري ، وكان كل ما يحفظ أو جملته يلقن شعراً وقبل أن يحل القرن الثامن قبل الميلاد كانت الموسيقى اليونانية قد أصبحت من الفنون القديمة وأصبح لها مئات الأنواع والأشكال .

أما آلاتها فكانت بسيطة ، وكانت الأسس التي تقوم عليها هي بعينها الأسس التي تقوم عليها في هذه الأيام : القرع ، والنفع ، والأوتار . فأما القرع فلم تكن آلاته واسعة الانتشار . وقد ظل الناي شائع الاستعمال في أثينة حتى سخر القيادس من خدى معلمه المنتفضين وأبى أن يستخدم هذه الآلة السمجة ، وتزعم حركة مقاومتها بين شباب اليونان . (وهذا إلى أن البوثيين ، كما يزعم الأثينيون كانوا أبرع منهم في استخدام الناي ، ولهذا كانوا يعدون هذا الفن من الفنون المزدولة)^(٦٦) . وكان الناي البسيط قصبة من الغاب ، أو الخشب المثقوب ، ذات مبسم منفصل عنها ، ومثقوبة بثقوب للأصابع يراوح عددها بين اثنين وسبعة ، يمكن أن توضع فيها نغمات تعدل درجة الصوت . وكان بعض الموسيقيين يستخدمون الناي المزدوج - ويتكون من ناي « ذكر » أو غليظ النغمة في اليد اليمنى وناي « أنثى » أرفع النغمة في اليسرى ، يرتبط كلاهما بالقلم برابط حول الخدين ، وينفخ فيهما معاً في توافق بسيط . ثم أوصل اليونان الناي بكيس قابل للتمدد فأوجدوا بذلك موسيقى القرب ، وجمعوا عدداً منها وكونوا منه ما يعرف بأنبوبة پان ؛ ثم أطالوا طرف الناي وسدوا ثقوب الأصابع فكان البوق^(٦٧) . ويقول هوزنياس إن موسيقى الناي كانت في العادة مقبضة ، وكانت تستخدم على الدوام في ترانيم الدفن والمرائي ، ولكننا لانظن أن الأولترداى Auletredai أو الفتيات اليونانيات المسامرات النافحات في الناي كن مبعث الكتابة والانتفاض . أما الآلات الوترية فكان العزف عليها مقصوراً على شد الأوتار بالإصبع أو المنقر ، ولم يكن العازف ينحن

في أثناء العزف . وكان ثمة أنواع مختلفة من القيثارات صغيرة وكبيرة ولكنها كانت في جوهرها شيئاً واحداً ، فكانت كلها تتكون من أربعة أوتار أو خمسة مصنوعة من أمعاء الضأن ومشدودة على قنطرة فوق جسم رنان من المعدن أو صدفة سلحفاة . وكانت القيثارة صنجاً (كنجاً) صغيراً يستخدم أثناء غناء الشعر القصصى ، وكانت القيثارة اليونانية الصغيرة تستخدم مع الشعر الغنائي والأغاني بوجه عام .

ويروى اليونان قصصاً عجيبة عن كيفية اختراع الآلهة هرمس ، أبولو ، وأثينا ، لهذه الآلات ، وكيف تمحى أبولو بقيثارته أبواق مارسيا (وهو كاهن الإلهة الفريجية سييل) ونايه وغلبه - بطريقة غير شريفة في ظن مارسيا - بأن أضاف صوته إلى صوت الآلة ، وختم المباراة بأن أمر بسلخ جلد مارسيا حياً ؛ وعلى هذا النحو تمثل الأساطير غلبة القيثارة على الناي . وثمة قصص أطرف من هذه القصة تحدث عن الموسيقيين الأقدمين الذين أوجدوا فن الموسيقى أو عملوا على تقدمه : عن أولمبس تلميذ مارسيا الذي اخترع السلم ذا المسافات القصيرة (*) حوالى عام ٧٣٠ ق . م ، وعن لينوس Linus معلم هرقل الذي اخترع العلامات الموسيقية اليونانية وأوجد بعض الدرجات (٧٠) ، وتحدثنا عن أرفيوس التراقي كاهن ديونيسس ، وعن تلميذه موسيوس Mausaeus الذي قال إن الغناء من أحلى الأشياء للأدميين (٧١) . وتوحي هذه القصص بأن الموسيقى اليونانية استمدت أشكالها في أغلب الظن من ليديا ، وفريجيا (٧٢) ، وتراقية (**).

(*) وهو سلم يحتوى على أربع نغمات هي : سى سى فالاسى سى دوى ، والشرطة التي فوق العلامة تدل على أنها ربع نغمة .

(**) لقد كان لموسيقى هيلاس سلم نغمة أكثر عدداً وأشد تعقيداً من موسيقانا . ذلك أن سلمنا الموسيقى لا يحتوى على أسطر من نصف نغمة ، ويكون اثنا عشر نصفاً من أنصاف النغمات الحلقية السلية عندنا ؛ أما اليونان فقد كان لديهم أربع نغمات ، وكان لهم -

وكانت الموسيقى من مستلزمات الحياة اليونانية لا تكاد تخلو منها ناحية من نواحيها ، فكانت لديهم ابتهالات لديونيسس ، وتهايليل لأپلو ، وترانيم لكل إله من آلهتهم . وكانت لديهم مدائح للأغنياء ، وأغاني نصر لأبطال الرياضة ، وأناشيد تغنى على الطعام والشراب ، ولحب ، والزواج ، والحزن ، والدفن . وكان للرعاة ، والحاصدين ، وعاصري الحُمور ، والغزاليين والنساجين ، هم أيضاً أغانيهم ، وأكبر الظن أن الرجل في السوق أو في النادي ، وأن السيدة في بيتها والمرأة في الطرقات ، كل هؤلاء كانوا يغنون أغاني لم يكن خطها

= خسة وأرهمون سلباً ، في كل منها ثمان عشرة نغمة (٧٣) . وكان يتألف من هذه السلام ثلاث مجموعات : مجموعة السلام المتصلة النغمات وأساسها الأربعة الأصوات : س ، دى ، دو ، سى ، والسلام للقائمة على س دو ، والسلم البارضى ، والسلام ذات المسافات القصيرة وأساسها سى دو دو سى . وقد نشأت السلام الكنسية في المصور الوسطى من السلام اليونانية بتبسيطها ، ومن هذه السلام الكنسية نشأت السلام الموسيقية الحالية .

وقد وجدت في داخل السلم المتصل النغمات في الأربعة الأصوات سبع درجات ، وذلك بتعديل الأوتار لتغير موضع أنصاف النغمات في الحلقة السلمية ، وأهم هذه الدرجات هي للدرجات الدورية : س رى دو سى لاصول فامى ، وهى النغمات الحربية الرصينة وإن كانت من طبقة صفرى ، والبديهة (دوسى لاصول فامى دوى دو) للرقصة المرحلة وإن كانت من طبقة صفرى كذلك ، والفرجية (رى دوسى لاصول فامى رى) وهى من طبقة صفرى وصفاية انفضالية قوية (٧٤) ؛ ومن التعريف المتبع أن يقرأ الإنسان ما دار من الجدال الغنيث حول ما يعزوه اليونان - وخاصة فلاسفتهم - لأنصاف النغمات من أثر نافع أو ضار في الموسيقى والأخلاق والطب . فهم يقولون لنا إن الموسيقى الدورية تبعث في الرجال الشجاعة والمهابة ، وإن اليديه تجعلهم عاطفين ضماذاً ، والفرجية سرىمى التهج معاندين . أما أنطالون فيرى أن معظم الموسيقى تبعث على الترف الخفث والفساد الخلق الطلين ، ويجب أن يخرج جميع الموسيقى الآلية من دولته المثالية (٧٥) . غير أن ثيوغراستوس لا يعدم كلمة طيبة يقولها من جميع أنواع الموسيقى حتى الموسيقى الفرجية ؛ فهو يقول مثلاً إن الأمراض المستعصية تزول آلامها بعزف نغمة فرجية بالقرب من الجزء العليل .

ولم تكن اللامات الموسيقية اليونانية دوائر وذيولا تكتب على مجموعة من السطور ، بل كانت هي الحروف الهجائية اليونانية مقلوبة أو مستعرضة أو مزيدة عليها فقط أو شرط لتجمل منها أرباباً وستين علامة توضع فوق ألفاظ الأغنية . ولقد وصلت إلينا قطع صغيرة من هذه اللامات نعتز بها من الكثير الذي فقدناه منها ؛ وهى تنبئ عن أنغام أقرب إلى الموسيقى الشرقية منها إلى الأوروبية ، تطبقها آذان الخنود ، أو الصينيين ، أو اليابانيين أكثر مما تطبقها آذان الغربيين البليدة التي لم تنمود أرباع النغمات .

من العلم كحفظ أغاني سمنيدس ؛ وما من شك في أن الأغاني الخلية والأغاني الراقية قد جاءت كلتاهما إلينا من أقدم العصور .

وكانت أرقى أنواع الموسيقى في اعتقاد اليونان وفي حياتهم العملية الغناء الجماعي ؛ وقد أكسبوا هذا النوع من الغناء عمق الفلسفة ، وتعقيد التركيب ، وهما الصفتان اللتان أخذتا تجدان لهما مكاناً في السمفونية والمقطوعات الموسيقية ، وكان في كل احتفال — سواء أكان احتفالاً بحصاد ، أم بنصر ، أم بزواج ، أم بيوم مقدس ، مكان لجوقة غنائية ؛ وكانت المدن والجماعات المختلفة تقيم من حين إلى حين مباريات في الغناء الجماعي تعد له العدة في معظم الأحيان قبل موعده بزمان طويل ، فيعين مؤلف لكتابة الألفاظ والموسيقى ، ويطلب إلى رجل مثر أن يتكفل بالنفقات ، ويستأجر المغنون المحترفون ، ويعنى كل العناية بتدريب الجوقة . وكان المغنون كلهم يغنون نغمة واحدة ، كما نشاهد الآن في موسيقى الكنيسة اليونانية ، ولم يكن هناك « صوت منفرد » في الفرقة سوى ما حدث في القرون المتأخرة من ارتفاع صوت المصاحب تحملاً فوق الصوت ، أو انخفاض عنه بهذا القدر ، أو من معارضته . ويبدو أن هذا هو أقرب ما وصل إليه اليونان في التوافق والألحان التوافقية البسيطة (٧٨) .

أما الرقص في أرقى صورته فقد مزج بالغناء الجماعي حتى صاراً فناً واحداً ، كما أن كثيراً من أنواع الموسيقى الحديثة ومصطلحاتها كانت فيما مضى متصلة بالرقص (*) ، ولم يكن الرقص يقل في قدمه وانتشاره عن الموسيقى عند اليونان . ولما عجز لوسيان عن تتبع نشأته على سطح الأرض حاول أن يجدها في حركة النجوم المنتظمة (٨٠) . ولا يكتفى هومر بأن يحدثنا عن المرقص الذي صنعه ديدلوس

(٥) من ذلك أن الكلمة الإنجليزية toot المقابلة للوتد في الشعر مأخوذة في الأصل من الرقص المصاحب للموسيقى (٧٩) ؛ وكان يونان يفهمون من لفظ أركسترا طوراً للرقص على هيئة مسرح في المادة .

Daedalus لأدرياني Adrians ، بل بحدثننا أيضاً عن راقص ماهر بين المحاربين اليونان أمام طروادة يدعى مريونيس Mereiones ، كان يرقص وهو يحارب فكانت الحراب لهذا السبب تعجز عن إصابته^(٨١) . ويصف أفلاطون الرقص (orchesia) بأنه « الرغبة الفطرية في شرح الألفاظ بحركات الجسم كله » - وهو ما تفسره به بعض اللغات الحديثة . وخير من هذا ما وصفه به أرسطاطاليس إذ قال إن الرقص « تقليد الأعمال ، والأخلاق ، والعواطف ، بطريق أوضاع الجسم والحركات الإيقاعية^(٨٢) » . وكان سقراط نفسه يرقص ، وهو يمدح هذا الفن لأنه يهب الصحة لكل جزء من أجزاء الجسم^(٨٣) ، وهو يقصد الرقص اليوناني بطبيعة الحال .

فذلك أن هذا الرقص كان يختلف عن الرقص عندنا ، فهو ، وإن كان في بعض أشكاله يثير الغريزة الجنسية ، قلما كان يجعل الرجال يلتصقون بالنساء ، بل كان رياضة فنية ، لا عنافاً في أثناء المشى ، وكان كالرقص الشرقي تستخدم به الذراعان واليدان ، كما تستخدم الساقان وأقدامان . وكانت أنماطه لا تقل اخلافاً عن أنماط الشعر والغناء ، وقد ذكر الثقاة الأقدمون مائتين من هذه الأنماط ، من بينها رقصات دينية كالتى كان يقوم بها عباد ديونيسس ، ورقصات رياضية كرقصات الاسبارطيين في احتفال الشباب العرايا ، ورقصات حربية كالرقص الپبرى يتعلمه الأطفال فيما يتعلمون من التدريب العسكرى ؛ ومنها المپرشيا Hyporchema الفخمة أى الترنيم أو اللعب الذى يقوم به اثنان من المغنين أحدهما يغنى ثم يرقص وثانيهما يرقص ثم يغنى ؛ ثم يتناوب الاثنان بعد هذا الرقص والغناء ؛ ومنها الرقصات الشعبية التى ترقص عند كل حادثة هامة من حوادث الحياة وكل فصل أو عيد من فصول السنة أو أعيادها . وكانت لديهم مباريات في الرقص ، كما كانت لديهم مباريات في كل شئء سواه ، تشمل في العادة أغاني جماعية . وكانت هذه الفنون كلها - الشعر الغنائى ، والأغاني ، والموسيقى الآلية ،

الرقص - وثيقة الصلة بعضها ببعض عند اليونان الأولين ، وكانت تؤلف في كثير من مظاهرها فناً واحداً ، ثم دخل فيها الفرع والتخصص المهني على توالى الزمن ، وبدأ ذلك في القرن السابع ، فترك الشعراء الجوالون الأغاني واستبدلوا بها التلاوة ، وفضلوا الشعر القصصي عن الموسيقى (٨٦) . وكان أرشيلوقوس Archilochus يغني أشعاره دون أن يستعين بآلات موسيقية (٨٧) ، وبدأ ذلك التدهور الطويل الأمد الذي نزل بالشعر آخر الأمر فجعله أشبه بملك صامت حبس سقط من السماء . ثم تفرع الرقص ذو الغناء الجماعي فكان منه غناء من غير رقص ، ورقص من غير غناء ، لأن الحركات العنيفة تسبب قصر النفس ، ولذلك أثر سيئ في الغناء ، كما يقول لوسيان (٨٨) . وظهر بهذه الطريقة عنها موسيقيون لا يغنون ، نالوا إعجاب مستمعهم بمحافظتهم الدقيقة على أرباع النغبات (٨٩) . وقد غالى بعض مشهورى الموسيقيين وقتئذ ، كما يغالى أمثالهم الآن ، في أجورهم . من ذلك أن أميوس Amoebeus المغنى والعازف على القيثارة كان يتقاضى وزنة (تالنتا) أى نحو ٦٠٠٠ ريال أمريكي عن كل حفلة (٩٠) . وما من شك في أن الموسيقى العادية لم يكن ينال من الأجر إلا ما يسد به رمقه ، وذلك لأن الموسيقى ، كغيره من الفنانين ، ينتمى إلى مهنة كان لها شرف القضاء على أهلها جوعاً في كل جيل من الأجيال .

وأما الذين نالوا أوسع الشهرة فهم أمثال تريندر ، وأريون ، وألكيان ، واستيكورس ، الذين برعوا في جميع أنواع الموسيقى ، والذين مزجوا الغناء الجماعي ، والموسيقى الآلية ، والرقص ، فجعلوا منها فناً واحداً معقداً متوافقاً ، لعله كان أبجل وأجلب للسرور من التمثيلات الغنائية والفرق الموسيقية في هذه الأيام . وكان أريون أشهر أولئك الأساتذة كلهم . ويروى عنه اليونان أنه كان يقوم برحلة من تاراس Taras إلى كورنثة ، فسرق منه الملاحون نقوده ، ثم خيروه بين القتل طعناً أو غرقاً . فما كان منه إلا أن غنى أغنية أخيرة

ثم ألقى بنفسه فى البحر ؛ فحمله دلفين على ظهره (ولعل الذى حملة هو عوده) وأوصله إلى البر . وهو الذى جعل من أناشيد المغنين السكارى ، الذين كانوا يرتجلون الأغاني الخمرية الديونيسية ، أغاني جماعية مدربة غير مخمورة ، تتألف من خمسين صوتا ، تغنى على أحد جانبي المسرح وترد عليها فرقة أخرى على الجانب الآخر . وكان موضوع الأغنية فى العادة ما لاقاه ديونيسس من العذاب والموت ، وكان المغنون يتذكرون فى العادة فى زى جن الحراج القرية الشبه بشكل المعز تكريماً لخدم الإله كما تصورهم القصص المتواترة . ومن هذه الأغاني والخملات نشأت المأسى اليونانية باسمها ومعناها .

٥ - نشأة التمثيل

امتاز القرن السادس بما ازدهر فيه من أسباب العظمة المتعددة التى انتشرت فى كثير من البلاد . وكان تاج مميزات كلها أن وضع فيه أساس التمثيل . لقد كان هذا القرن من فترات الإبداع الخلاقة فى التاريخ . ومبلغ علمنا أن الناس قبله لم ينتقلوا من المسرحية الصامتة التى تعتمد على الإشارة ، أو من الطقوس الدينية ، إلى المسرحية الناطقة الدنيوية .

ويقول أرسطاطاليس إن الملهاة قد « تطورت من أولئك الذين كانوا يقودون موكب عضو التذكير » . ذلك أن جماعة من الناس يحملون عضو تذكير مقدس وينشدون أناشيد لديونيسس أو لغيره من آلهة الزرع ، كان يطلق عليهم فى اللغة اليونانية اسم كوموس أو الطرب . وكان رمز الصلات الجنسية من مستلزمات هذا الموكب لأنه كان ينتهى بزواج رمزى يهدف إلى تشجيع الإنبات بوسائل سحرية^(٩٢) . ومن ثم كان الزواج والتناسل المرتقب هو الخاتمة الطبيعية للملهاة اليونانية القديمة ، كما هو خاتمة معظم الملاحى والروايات القصصية الحديثة . وقد ظلت الملاحى اليونانية إلى آخر أيام منتدر Menander بذينة فاحشة لأن نشأتها

كانت الصلوات الجنسية الصريحة ، ولأنها كانت في بدايتها احتفالا مرححا بقوى التناسل ، فكان القائمون بها يتحللون من كثير من القيود الأخلاقية في المسائل الجنسية ، وكانت قواعد الآداب وقوانينها يقف العمل بها في يوم الاحتفال ، فتباح حرية الكلام بأفحش الألفاظ Parthasia^(٩٣) . وكان كثير من المحتفلين يزيون بزى جنيات الحراج الديونيسية ، ويضعون في ثيابهم ذيل ماعز وعضو تذكير اصطناعي طويل من الجلد الأحمر . ثم أصبح هذا هو اللباس التقليدي على المسارح التي تمثل الملامى ، وكان في عهد أرسطوفان عادة دينية لا يمكن التحلل منها . والحق أن عضو التذكير ظل رمزاً ملازماً للمهرج في الملهاة حتى القرن الخامس في أوروبا الغربية ، وحتى آخر أيام الإمبراطورية البيزنطية في أوروبا الشرقية^(٩٤) . وكان يصحب عضو التذكير في الملهاة القديمة ذلك الرقص الفاحش الخليع المعروف برقص الكرداكس^(٩٥) Kordax .

ومن أغرب الأشياء أن تحوّل مرجح الإنبات الرينى إلى الملهاة التمثيلية قد حدث أولاً في صقلية . ذلك أن رجلاً يدعى سوزريون Susarion من أهل مجارا هبلياً Megara Hyblaea القرية من سرقوسة هو الذى حول موكب الطرب إلى مسرحيات قصيرة مليئة بالمعجاء الفاحش والهو^(٩٦) . ثم انتقل هذا الفن الجديد من صقلية إلى البلوبونيز ومنها إلى أتكنا . وكان الممثلون المتنقلون ، أو الهواة المحليون ، يمثلون الملامى في القرى . ومر قرن كامل قبل أن يعنى ولاية الأمور - على حد قول أرسطاطاليس^(٩٧) - بالملهاة عناية جدية فيبيحوا تمثيلها في الأعياد الرسمية (٤٦٥ ق . م) .

ونشأت المأساة - Tragoidia أو أفضية الماعز - بالطريقة عينها من محاكاة المحتفلين رقصاً وغناء بعيد ديونيسس ، المتشبهين بجنات الغابات ، والمرتدين جلود المعز^(٩٨) . وقد ظلت هذه المحاكاة جزءاً أساسياً من المسرحيات الديونيسية إلى أيام يورپديز ، فكان ينتظر من كل مؤلف لمأساة من ثلاثة فصول أن يراعى

العادة القديمة فيضيف إليها فصلاً رابعاً هو عبارة عن مسرحية قصيرة تعرض فيها جنيات الغاب تكريماً لديونيسس . وفي هذا يقول أرسطاطاليس (٩٩) : « وإذا كانت المأساة قد تطورت عن مسرحية جن الغابات فإنها لم ترتفع من الحبيكات القصيرة ، والعبارات المضحكة ، إلى مكائنها الرفيعة الكاملة إلا في زمن متأخر جداً » . وما من شك في أن عوامل أخرى كان لها شأن في نشأة المأساة ، وأن هذه العوامل قد قويت وظهر أثرها في ذلك الوقت ؛ ولعلها قد استمدت شيئاً من عبادة الموتى واسترضائهم (١٠٠) ، ولكن أهم ما استمدت منه منذ نشأتها هو الحفلات الدينية الرمزية كتمثيل مولد زيوس في كريت أو أرجوس أو ساموس ، وكزواجه الرمزي بهيرا ؛ أو حفلات دمتر وپرسفوني في إليوسيس وغيرها ، وأهم من هذا كله ما كان يحدث في البلوبونيز وأتكا من حزن ومرح لموت ديونيسس وبعثه ، وكان يطلق على هذه المحاكاة اسم *Dromena* — أي أشياء تعمل ، ولفظ *Drama* دراما ذو صلة بهذا الاسم ومعناه — أو ما يجب أن يكون معناه — « العمل » . وقد ظلت فرق الغناء في سكيون حتى أيام الطاغية كليستيز تحيي ذكرى « عذاب أدراستوس *Adrastus* » ملكها القديم . وفي إيكاريا *Icaria* التي شب فيها ثسيبس كان يضحى بعز لديونيسس ، ولعل « أغنية العز » الذي اشتق منها اسم المأساة اليوناني كانت أغنية تغني حين تقطيع هذا الرمز أو هذا التجسيد للإله التمثيل (١٠١) . وقصارى القول أن المسرحية اليونانية كالمسرحية الإنجليزية استمدت أصلها من الطقوس الدينية .

ويرى من هذا أن المسرحية الأثينية ، مأساة كانت أو ملهاة ، كانت تمثل على أنها جزء من حفلات ديونيسس بإشراف الكهنة في دار للتمثيل تسمى باسمه ، وعلى يد ممثلين يسمون « الفنانين الديونيسيين » . وكان يوثق بتمثال ديونيسس إلى مكان التمثيل ، ويوضع أمام المسرح لكي يستمتع بمشاهدة التمثيل ، وقبل البدء به يضحى بجيوان للإله . وكان لدار التمثيل ما للمعبد من قداسة . فإذا

ارتكبت فيها جريمة عوقب مقترفها لأنه ارتكب خطيئة دينية أكثر مما ارتكب جريمة مدنية . وكما أن الملهاة كان لها مقام الشرف على مسرح مدينة ديونيسيا ، كذلك كان للملهاة المكانة الأولى في الاحتفال بعيد لينيا ، ولكن هذا الاحتفال نفسه كان احتفالاً ديونيسياً في صبغته . ولعل موضوع التمثيل كان في بادئ الأمر كالعشاء الرباني عند المسيحيين ، أى عذاب الإله وموته ؛ ثم أذن للشعراء على توالى الأيام أن يستبدلوا بعذاب الإله عذاب بطل من أبطال الأساطير اليونانية . وربما كانت المأساة في صورتها الأولى مراسم سحرية تهدف إلى الوقاية من المآسى التى تمثلها أو إلى تطهير المستمعين من الشرور تطهيراً أكثر مما يفهم من هذا اللفظ عند أرسطاطاليس ؛ وذلك بتمثيل هذه الشرور كأنها قد نشأت وانتهت على المسرح^(١٠٢) ، ولقد كانت هذه النشأة الدينية للمأساة اليونانية من الأسباب التى وضعتها فى مستوى أرقى من مستوى المأساة الإنجليزية فى عصر الملكة إليزابث .

وأوضحت فرقة المغنين والراقصين ، التى جعلها أريون فرقة من المقلدين والمحاكين ، أساس الحركات التمثيلية ، وظلت جزءاً أساسياً من المأساة اليونانية حتى آخر مسرحيات يورپديز . وكان الممثلون الأولون يسمون بالراقصين لأنهم جعلوا مسرحياتهم رقصاً جماعياً قبل كل شيء ؛ وكانوا فى واقع الأمر معلمى رقص^(١٠٣) . ولم يكن هذا التمثيل الرقصى والغنائى الجماعى ليجتاج لأكثر من شيء واحد ليصبح مسرحية بالمعنى الصحيح ، ذلك هو وجود ممثل يقابل هذه الجماعة ، ويقوم أمامها بأعمال ، أو يتحدث إليها بأحاديث . وقد خطرت هذه الفكرة لواحد من معلمى الرقص ومدربى المغنين هو ثيسبيس Thesbis الإيكاريوى - من إيكاريا Icaria وهى بلدة قريبة من مجارا البلوونيز حيث كانت تمثل فى كل عام طفوس دتمر ، وپرسفونى ، وديونيسس زجربوس . وقد انفصل ثيسبيس هذا من فرقة الراقصين والمغنين ، مدفوعاً إلى هذا من غرورك بتأثير

(٢٠٤ - ١ - ٣٠١)

الأنانية التي تحرك العالم وتعمل على تقدمه ، ووضع لنفسه عبارات يقولها بمفرده ، وأوجد فكرة المقابلة والنزاع مع سائر الفرق ، وقدم للتاريخ المسرحية بمعناها الدقيق ، وقام بأدوار مختلفة من هذا القبيل أصابه التوفيق فيها تارة والإخفاق تارة أخرى ؛ ولما أن مثَّلت فرقته في أثينة غضب صولون أشد الغضب على ما أظنه خداعاً للجمهور ، وندد بهذه البدعة الفنية ، وسماها فساداً خلقياً (١٠٤) — وتلك تهمة طالما اتهم بها التمثيل في كل جيل . وكان بيسستراتس أوسع من صولون خيالاً ، وشجع المباريات التمثيلية في عيد ديونيسس ؛ وقد فاز ثيسبس في إحدى هذه المباريات . وتطورت المسرحية في شكلها الجديد تطوراً سريعاً استطاع معه كوريلوس Choerilus بعد جيل واحد أن يمثل مائة وستين مسرحية . ولما أن عاد إسكيلوس ، وعادت أثينة ، ظافرين من معركة سلاميس بعد خمسين سنة من حياة ثيسبس ، كان المسرح قد نهياً لاستقبال العصر المجيد في تاريخ المسرحية اليونانية .

الفصل التاسع

نظرة إلى الماضي

إذا عدنا بتفكيرنا إلى الحضارة المتعددة النواحي التي صورنا بعض قسمها في الصفحات الماضية ، بدأنا ندرك ما كان اليونان يدافعون عنه في مرثون . ذلك أن بحر إيجه ييدوكتول من النخل اليوناني العامل ، المتنازع ، اليقظ ، المبتدع ، يستقر معانداً في كل ثغر ، وينتقل باقتصاده من الحرث والزرع إلى الصناعة ثم إلى التجارة ، ويبتدع كل ذى روعة من الأدب والفلسفة والفن . ومما يثير الدهشة والإعجاب أن تنضج هذه الثقافة الجديدة بهذه السرعة وتنتشر هذا الانتشار الواسع ، وأن تضع في القرن السادس جميع الأسس التي قامت عليها أعمال القرن الخامس المجيدة . ولقد كانت هذه الحضارة من بعض نواحيها أبجل وأرق من حضارة عصر بركليز - فقد كانت أرق منها في شعر الملاحم والشعر الغنائي ، ينعشها ويزينها ما كان للنساء من حرية أوسع ونشاط ذهني أعمق مما كان لهن في عصر بركليز . ولقد كان هذا العصر المتقدم أحسن حكماً من بعض الوجوه من العصر المتأخر الذي كان أكثر منه ديمقراطية ، بل إن أسس الديمقراطية نفسها قد وضعت في ذلك القرن ، ذلك أنه قبل أن ينتهي كان حكم الطغاة قد علم اليونان من النظام ما يكفي لجعل الحرية اليونانية مستطاعة الوجود .

وكان تحقيق الحكم الذاتي حدثاً جديداً في العالم ، لأن الحياة من غير الملوك لم تكن قد جروء عليها مجتمع كبير في العلم قبل ذلك الوقت . ونشأ من هذا المعنى الجليل ، معنى الاستقلال الفردي والجماعي ، حافظ قوى لجميع مغامرات اليونان . وكانت حرمتهم هي التي ألهمتهم ما أبدعوه في الفنون والآداب ،

والعلوم والفلسفة ، من روائع لا يكاد يصدقها العقل . ولسنا ننكر أن جزءاً كبيراً من عامة الشعب، كان يؤمن بالخرافات ، والأوهام ، والمعتقدات الخفية الغامضة ، والأساطير ، ويعشقها كما يؤمن بها الناس ويعشقونها على الدوام . ولكن الحياة اليونانية قد أصبحت على الرغم من هذا حياة دنيوية إلى حد لم يسبق له مثيل في التاريخ ؛ وانفصلت السياسة ، والشرائع ، والآداب ، والبحوث ، واحدة بعد واحدة من السلطة الدينية ، وتحررت من سلطانها ، وبدأت الفلسفة تفسر العالم والإنسان ، جسمه وروحه ، تفسيراً مستنداً إلى أسس طبيعية ؛ ووضع العلم ، الذي لم يكد يكون له من قبل (*) وجود . وقوانينه الأولى الجريئة ، فوضعت قواعد الهندسة الإقليدية ، وأضحى وضوح التفكير وتنظيمه ، وصدقه ، المثل الأعلى الذي تنشده أقلية من الرجال هي التي أخرجت العالم من ظلمات الجهل إلى نور العلم . وبذلت جهود جسمية وروحية جبارة للمحافظة على هذه المثل وما تبعته من آمال ، وإنقاذها من أيدي الاستبداد الأجنبي المميت ، ومن الضياع في دياجير الغموض والتصوف القديم ، فكسبت للحضارة الأوربية ما تستمتع به من ميزة الحرية التي كلفتها الشيء الكثير .

(•) لعل المؤلف قد نسي ما قاله من قبل عن علوم الأمم القديمة كالمصريين والبابليين ، أو لعل في قوله « لم يكد » إشارة إلى هذه العلوم . (انترجم)

الباب العاشر

الكفاح في سبيل الحرية

الفصل الأول

مرثون

يقول هيرودوت : « في أثناء حكم دارا ونخسبارشاي وأرتخشس لآقت بلاد اليونان من الأهوال ما لم تلقه في العشرين جيلا السابقة على هذا العهد^(١) » وكان لابد أن يلقي أهلها جزاء نعائهم وتقدمهم . ذلك أن انتشارهم في كل مكان لابد أن يؤدي عاجلا أو آجلا إلى قيام النزاع بينهم وبين إحدى الدول العظمى . وإذا كان اليونان يتخذون البحر مطية لهم ، فقد أنشأوا فيه طريقاً تجارياً يمتد من شاطئ أسبانيا الشرقى غرباً إلى أقصى ثغور البحر الأسود شرقاً . وأخذ الطريق المائي الأوربي - الذي يخترق بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية - ينافس الطريق الشرقى البرى والبحرى - الذي يخترق الهند وفارس وفينيقية - ويفوقه في الأهمية على مر الأيام ، ونشأ من هذه المنافسة نزاع شديد لم يَحمد أواره قط كان لابد أن يؤدي إلى ما أدى إليه كل نزاع سابق في تاريخ البشر ، ألا وهو الحرب السافرة التي لم تكن معارك لادى Lade ، ومرثون ، وهلاتية ، وهيميرا Hymera ، ومكالي Mycale ، ويوريمدون Eurymedon ، وغرانيقوس وإسوس ، وأرييلا ، وكاني ، وزاما إلا أحداثاً منها صغيرة ، وانتصر الأوروبيون على الشرقيين في هذا الصراع لأسباب عدة ، منها أن النقل البحري أقل نفقة من النقل البرى ،

ومنها أن من القوانين التي تكاد تتحكم في التاريخ أن الشمال الحشن ذا الزعة الحربية ، ينتصر دائماً على الجنوب اللين السهل مبدع الفنون .

في عام ٥١٢ قبل الميلاد عبر دارا الأول ملك الفرس مضيق البسفور وغزا سكوديا ، ثم زحف غرباً وفتح تراقية ومقدونية ، ولم يعد إلى عواصم ملكه إلا بعد أن وسع رقعة إمبراطوريته حتى شملت فارس ، وبلاد الأفغان ، وشمالى الهند ، والتركستان ، وأرض الحريرة ، وشمالى بلاد العرب ، ومصر ، وقبرص ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وشرقى بحر إيجه وتراقية ؛ ومقدونية . وكانت نتيجة هذه الفتوح أن أعظم الإمبراطوريات التي شهدتها العالم حتى ذلك الوقت قد وسعت رقعتها أكثر مما يجب عليها أن توسعها ، حتى ضمت إليها فاتحيها في المستقبل وأيقظتهم من سباتهم ، ولم يبق من الأمم الكبرى في خارج هذا النظام الشامل من نظم الحكم والتجارة إلا أمة واحدة هى أمة اليونان ، التي لم يكد دارا يسمع شيئاً عنها خارج أيونيا قبل عام ٥١٠ ق . م ؛ وقد سأل مرة عن « الأثينيين - من هم ؟ » . وحدث في عام ٥٠٦ أن قامت ثورة في أثينة انتهت بخلع الطاغية هيپاس ؛ ففر إلى المرزبان الفارسى في سرديس وتوسل إليه أن يعينه على استرداد سلطانه ، وعرض عليه إذا استرده أن يتولى حكم أتكا من قبل الفرس .

وكان ذلك لإغراء قوياً زاده قوة تحرش مؤقت . ذلك أن المدن اليونانية التي ظلت خاضعة لسلطان الفرس نحو خمسين عاماً ثارت فجاءة على ولايتها من قبل الفرس ، وطردتهم منها وأعلنت استقلالها . وذهب أرسنجراس الميليئى إلى اسبارطة يستمد منها العون ، ولكنه لم يفلح في بغيته ، فجاء إلى أثينة ، وهى المدينة الأصلية التي نشأ منها كثير من المدن الأيونية ، وما زال يلج عليها حتى أقنعها بأن ترسل عمارة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة لمساعدة الثوار . وكان الأيونيون في هذه الأثناء يعملون بصنف وبغير نظام هما من خصائص اليونان

في كل زمان ومكان ، فكانت كل مدينة نائرة بجيش جيوشها ولكنها تسبقها تحت قيادة مستقلة . وزحف الجيش الميليقي ، ولدى قيادته من الشجاعة أكثر مما لديه من الحكمة ، حتى وصل إلى سرديس ، وأحرق المدينة العظيمة ودكها دكا . ونظم الخائف الأيونى أسطولا متحداً ، ولكن سفن ساموس عقدت صلحاً سرياً منفرداً مع المرزبان الفارسي ، فلما أن التمت العمارة البحرية الفارسية بالعمارة الأيونية عند لادى في عام ٤٩٤ ، ودارت بينهما معركة من أشد المعارك البحرية في التاريخ ، انسحبت سفن ساموس المحسرن دين أن تشارك في القتال ، وحدث حذوها كثير من أفسام الأسطول الأيونى^(٣) . وهُزم الأيونيون هزيمة منكرة ، ولم تقف الحضارة الأيونية بعدئذ لإفاقة كاملة من هذه الكارثة المادية والروحية ، وحاصر الفرس ميليتس ، واستولوا عليها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، حتى صارت منذ ذلك اليوم بلدة قليلة الشأن . وبسطوا سلطانهم مرة أخرى على أيونيا ، وغضب دارا لتدخل أثينة في شئون ملكه ، فصمم على فتح بلاد اليونان ، وألفت أثينة الصغيرة نفسها ، جزاء لها على مساعدتها الكريمة لبنائها من المدن الأيونية ، وجهاً لرجه أمام إمبراطورية أكبر مائة مرة من أتكا .

و عام ٤٩١ خاض أسطول فارسي قوامه ستائة سفينة بقيادة داتيس Datis عباب بحر إيجه من جزيرة ساموس ، ووقف في طريقه ليخضع جزائر سكليديس ، ووصل إلى ساحل عويية يحمل مائتي ألف محارب . واستسلمت عويية بعد مقاومة قصيرة عبر الفرس بعدها الخليج الذي يفصلها عن أتكا ، وعسكر هؤلاء الجنود عند مرثون لأن هيباس قد نصحهم بأن في وسعهم أن يستخدموا في هذا السهل فرسانهم ، وهم من هذه الناحية يفوقون اليونان كثيراً^(٤) .

واضطربت بلاد اليونان أشد الاضطراب لهذه الأنباء ، ذلك أن الجيوش الفارسية لم تكن قد غلبت قط قبل هذا الغزو ، ولم تكن أمة من الأمم قد

استطاعت أن تصد زحف جيوش الإمبراطورية . فهل في مقدور أمة ضعيفة ، مشتتة ، لم تألف من قبل الاتحاد لغرض عام ، أن تقف في وجه تيار الغزو الجارف ؟ وترددت دول اليونان الشمالية في الوقوف في وجه هذه الجيوش الحارقة ، واستعدت اسبارطة استعداداً يشوبه كثير من التردد ، وأجازت للخرافات أن تؤخر التعبئة العامة ؛ أما بلانية الصغيرة فلم تتوان عن العمل السريع وبعثت بقسم كبير من أهلها يستحثون السير إلى مرثون . وحرر ملتيداس العبيد في أثينة وضمهم إلى الجيش مع الأحرار ، وزحف بهم إلى ميدان القتال من فوق الجبال . ولما التقى الأعداء كان عدد الجيشين اليوناني حوالي مائة ألف مقاتل ، أما جيوش الفرس فكانت عدتها في أغلب الظن حوالي مائة ألف (٥) . ولم يكن الفرس تعوزهم الشجاعة ، ولكنهم كانوا يألفون أن يحاربوا فرادى ، ولم يكونوا مدربين على أساليب اليونان في الدفاع والهجوم الجماعين بصفوفهم المتراسة . وجمع اليونان بين النظام والشجاعة . وقد نجوا من الهزيمة الماحقة بالمثل الذي ضربه لهم أرسطيديس Aristides إذ نزل عن القيادة للملتيداس ، وإن كانوا قد ارتكبوا ذلك الخطأ الشنيع الدال على الحق وهو توزيع القيادة العليا بين عشرة قواد يتولاها كل واحد يوماً (٦) . واستطاعت القوة اليونانية الصغيرة بفضل حنكة هذا الجندي القوي الحشن الطباع أن توقع بالحقاقل الفارسية لحرارة هزيمة منكرة . ولم تكن هذه المعركة من معارك التاريخ الفاصلة فحسب ، بل كانت فوق ذلك من أعظم الانتصارات التي لا يصدقها العقل . وإذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال اليونان عنها ، فإن الفرس قد خسروا في مرثون ٤٨٠٠ من رجالهم ، ولم يخسر اليونان إلا ١٩٢ . ووصل الاسبارطيون إلى الميدان بعد انتهاء المعركة ، وندموا على تباطؤهم ، وأثثوا على الفائزين .

الفصل الثاني

أرستيديز وثمستكليز

إن سيرة ملتبادس وأرستيديز بعد معركة مرثون لتوضيح ما في أخلاق اليونان وما في تاريخهم من مزيج عجيب يجمع بين النبل والقسوة ، والمثالية والانحطاط . ولنتحدث أولاً عن ملتبادس فنقول إنه قد غره ثناء بلاد اليونان كلها عليه فطلب إلى الأثينيين أن يعدوا أسطولاً من سبعين سفينة يتولى قيادته هو وحده لا يتازعه في ذلك منازع . ولما أن أعدت السفن سار بها إلى پاروس وطلب إلى أهلها مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) وإلا أفنأهم عن آخرهم . ولكن الأثينيين استدعوه وفرضوا عليه غرامة قدرها خمسون وزنة ، ولما مات بعد استدعائه بقليل أدى الغرامة ابنه سيمون Cimon الذي صار فيما بعد منافس بركليز^(٨) .

وعاش الرجل الذي تحلى للمتيادس عن مكانه في مرثون ونجا من المزالق التي توجد عادة في طريق الظافرين . ذلك أن أرستيديز كان في حياته وأخلاقه إسبارطياً يعيش في أثينة ؛ وقد استحق بحلقة الهادئ الرزين ، وبساطته ، وتواضعه ، وأمانته التي لا تنال منها الأحداث ، استحق بهذه الصفات لقب العادل ، ولما أن تليت على المسرح العبارة الآتية أثناء تمثيل إحدى مسرحيات إيسكلوس :

« فهو لا يتظاهر بالعدالة ولكن العدالة طبيعية فيه ، وهي هدفه في أعماله ، ومن عقله تنفجر ينباع الحكمة والفطنة » .

لما أن تليت هذه العبارة التفت المستمعون كلهم ناحية أرستيديز ، لأنهم رأوا فيه الأنموذج الحي لهذه الصفات^(٩) . ولما أن استولى اليونان على معسكر الفرس في مرثون، ووجدوا في خيامهم ثروة طائلة ، عهدوا إلى أرستيديز المحافظة

عليها ، فلم يأخذ منها شيئاً لنفسه ، ولم يسمح لأحد بأن يغتال منها شيئاً^(١٠) . ولما أن طلب إلى حلفاء أثينة بعد الحرب أن يسهموا في أداء جزية سنوية إلى خزانة الحلف في ديلوس ليستعان بها في الدفاع عن بلاد اليونان عامة ، اختير أرسيتديز ليقدر ما تؤديه كل مدينة ، ولم يعترض أحد على قراراته . لكن إعجاب الناس به كان رغم هذا كله أكثر من حبهم إياه . وكان صديقاً حميماً لكليستينز الذى وسع نطاق الديمقراطية إلى حد بعيد ، ولكنه كان يرى أنها ذهبت إلى أبعد حد مأمون ، وأنه إذا ما زيدت سلطة الجمعية إلى أكثر مما كان لها ، أدى ذلك إلى فساد الإدارة وإلى اضطراب النظام . وكان يندد بالفساد أينما وجدته ، وخلق بذلك لنفسه كثيراً من الأعداء . واتخذ الحزب الديمقراطي الذى يرأسه ثمستكليز نظام نقي عدم المخلصين للحكومة ، وكان قد تقرر حديثاً ، للتخلص من أرسيتديز ، وفى عام ٤٨٢ نقي الرجل الوحيد في تاريخ أثينة كله الذى جمع بين الشهرة والأمانة ، وكان نفيه في أوج مجده . والعالم كله يعرف القصة التى تقول - وقد تكون هى الأخرى خرافة لا ظل لها من الحقيقة - إن أرسيتديز نقش اسمه على اللوحة التى يكتب عليها اسم من يراد نفيه (الأستراكون) حين طلب إليه ذلك رجل أمى لا يعرفه ولكنه لم يعد يطبق سماع لقب العادل بطلق عليه ، فحقده عليه لهذا السبب كما يحقد أوساط الناس عادة على العظماء . ولما أن عرف أرسيتديز أن الجمعية قررت نفيه قال إنه يرجو ألا يأتى اليوم الذى تذكره^(١١) فيه أثينة^(*) .

ولا يسع المؤرخ إلا أن يعترف أن المتصرفين في الشؤون العامة في أثينة كانوا يتصفون بما يتصف به رجال الحكم أحياناً من موت الضمير . لقد كان ثمستكليز

(*) ولعله كان يقول مع الشاعر العرب :

سيذكرني قومي إذا جد جدمي وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

(المترجم)

شعلة من الذكاء والمقدرة لا يقل في ذلك عن ألقبيادس الذى عاش في عصر متأخر عنه . ويقول فيه نوكيديدس^(١٢) وهو المعروف دائماً باعتداله : « إنه خلقت بأن نعجب به إعجاباً خارقاً للعادة منقطع النظر » . وقد أنقذ أثينة كما أنقذها ملتبادس ، ولكنه لم يستطع إنقاذ نفسه ؛ وكان في مقدوره أن يقهر إمبراطورية عظيمة ، ولكنه لم يكن في وسعه أن يقهر ما في نفسه من شهوة السلطان ، « وكان يتلقى بمضض وعدم عناية » ، كما يقول أفلوطرخس ، ما يسدى إليه من النصيح لتقويم المعوج من أخلاقه وسلوكه ، ولا يقبل أن يعلمه أحد شيئاً من الرقة والمجاملة للناس ؛ لكنه حتى بعد أن تقدمت به السن كان يعنى بكل ما يقال له إذا كان يهدف إلى إصلاح عقله ، أو يزيد من قدرته على تصريف شئون الدولة ، وهو واثق من قدرته الطبيعية في هذه الأمور^(١٣) . وكان من سوء حظ أثينة أن تمسكليز وأرستيديز قد أحبا معا فتاة واحدة هي استسلوس الكيوسية Stesilaus of Coes ، وأن ما ولده هذا الحب من حقد كل منهما على الآخر لم يزُل بعد أن زال الجبال الذى أشعل النار في قلبيهما^(١٤) . بيد أن تمسكليز كان هو الذى أعد العدة للنصر في سلاميس وأحرز هذا النصر بما أوتى من همة وفراسة . وكانت موقعة سلاميس أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ اليونان كله . ذلك أنه قد أعد منذ عام ٤٩٣ مشروع لإنشاء مرفأ جديد لأثينة في بيريه ، وشرع في إنشائه بالفعل ، وفي عام ٤٨٢ أقنع الأثينيين بأن يزلوا عن نصيبهم في مال كان سيوزع عليهم من محصول مناجم الفضة في لوريوم Leurium ، وأن يخصصوا المال لإنشاء مائة سفينة حربية من ذوات الثلاثة الصفوف من المجاذيف . ولولم ينشأ الأثينيون هذه السفن لما استطاعوا مقاومة خشيارشاي .

الفصل الثالث

خشيارشای أو أخشويرش (*)

توفي دارا الأول في عام ٤٨٥ وخلفه خشيارشای الأول . وكان الوالد والولد رجلين يمتازان بالمقدرة العالية والثقافة الرفيعة ، ولهذا بخطى من يظن أن الحرب اليونانية الفارسية كانت نزاعاً بين الحضارة والمهملية . وحسبنا دليلاً على هذا تلك الحادثة التي وقعت حين أرسل دارا رسله إلى أثينة واسبارطة قبل أن يغزو بلاد اليونان ، يطلب إليهما أن ترسلا إليه التراب والماء رمزاً لخضوعهما لسلطانه ، فما كان من المدينتين كلتاهما إلا أن قتلتا الرسل . وتوالت نذر الشؤم على اسبارطة فخشيت عاقبة فعلتها . وندمت على خرقها التقاليد الدولية المرعية ، وطلبت إلى أهلها أن يتقدم منهم اثنان يذهبان إلى فارس وأن يقبلا أى عقاب يفرضه عليهما الملك العظيم ليكفرا به عن غدر مواطنيهما . وتطوع اسپرثياس Spertthias ، وبوليس Bulis من أبناء الأسر الغنية القديمة في المدينة ، للقيام بهذه المهمة ، وسارا إلى خيمة خشيارشای وعرضا عليه أن يقتلهما ليكفرا عن مقتل رسله ، ويقول هيردوت إن خشيارشای « أجابهما جواب الشهم الكريم وقال إنه لا يفعل ما فعله اللسدونيون ، حين قتلوا رسله واعتلوا بعملهم هذا على القوانين التي يشترك الناس كلهم في التقيدها . وإذا كان قد لامهم على فعلهم هذا فإنه لا يفعل مثل ما فعلوه ولا يرتكب من الإثم ما ارتكبه » .

وأخذ خشيارشای يستعد لهجومه الثاني على اليونان استعداداً كاملاً بطيئاً . فقصى أربع سنين يحشد الجند ويجمع العتاد والزاد من جميع الولايات الخاضعة لسلطانه ؛ ولما أن بدأ الزحف أخيراً في عام ٤٨١ كان جيشه في أغلب الظن

(*) أو زركسير كما يسميه اليونان .

أكبر جيش في التاريخ كله قبل هذا القرن الذي نعيش فيه . ويقدره هيرودوت تقديراً بعيداً عن الاعتدال فيقول إنه كان مؤلفاً من ٢٠٠٠٠٠ مقاتل ، ومثلهم من المهندسين والأرقاء ، والتجاء ، ورجال التكوين والعاهرات . ويقول — ولعله هو نفسه لم يكن مؤمناً بقوله — إن جيش خشيارشأى كان إذا ورد الماء ليشرب جفت أنهار برمتها^(١٦) . وكان هذا الجيش بطبيعة الحال خليطاً من أمم مختلفة الأجناس والمشارب ، وكان تأليفه على هذا النحو شديد الخطورة عليه . كان فيه فرس ، وميدبون ، وبابليون ، وأفغان ، وهنود ، وبكتريون ، وسيجديون ، وساكيون ، وأشوريون ، وأرمن ، وكلشيون ، وسكوذيون ، وبيونيون ، وميسيون ، وفلجونيون ، وفريجيون ، وتراقيون ، وتساليون ، ولكريون ، وبوتوتيون ، وإبوليون ، وأبونيون ، وليديون ، وكاريون ، وكليكيون ، وقيصريون ، وفينيقيون ، وسوريون ، وعرب ، ومصريون ، وأحباش ، وليديون وأجناس أخرى كثيرة . وكان منهم المشاة ، والفرسان ، وراكبو العربات ، والفيلة ، ومعهم أسطول من سفن النقل والسفن الحربية يبلغ عددها حسب رواية هيرودوت ألفاً ومائتي سفينة وسبع سفن . ولما قبض الفرس في معسكرهم على جواسيس يونان ، وأمر القائد بقتلهم ، نقض خشيارشأى أمره وعما عن الجواسيس ، وأمر أن يحرسوا أثناء مرورهم بين قواته ، ثم أطلق سراحهم معتقداً أنهم إذا نقلوا إلى أثينة واسبارطة مدى استعدادهم ، فإن ما بقي من بلاد اليونان سوف يستسلم له^(١٧)

ووصل هذا الجيش العظيم إلى الملسينت (الدردنيل) في عام ٤٨٠ وكان مهندسوه المصريون والفينيقيون قد أقاموا عليه جسراً يعد من أعظم أعمال القدماء الهندسية ، وأكثرها إثارة للإعجاب ، وإذا جاز لنا مرة أخرى أن نصدق هيرودوت قلنا إن ٦٧٤ سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة من المحاذيف ، أو من ذوات الخمسين مجذافاً ، قد صفت صفين في عرض المضيق ، ووجهت كل سفينة عكس التيار ، وثبتت في مكانها بهلث ثقيل . ثم مد الصناع حبالاً من الكتان

أو نبات البردى فوق كل صف من السفن من أحد الشاطئين إلى الشاطئ الذى يقابله ، وربطوا هذه الحبال من كل سفينة من السفن ، وشدوها إلى روافع على البر . وقطعت أشجار ونشرت ألواحاً وضعت فوق الحبال وبمعكس اتجاهها وربطت بهذه الحبال كما ربط بعضها ببعض . وغطيت الألواح بالحسك ؛ ثم غطى الحسك بالتراب ، ثم عبد هذا كله حتى يكون شبيهاً بالطريق المهد ، وأقيم حاجز على كلا الجانبين يبلغ من الارتفاع حدا يمنع الحيوانات من أن يدخلها الخوف إذا أبصرت البحر^(٨) . ولكن كثيراً من الحيوانات والآدميين كان لا بد من ضربها بالسياط قبل أن تجرؤ على اجتيازه . واحتملها الحمر أحسن احتمال ، ولم تمض إلا سبع ليال وسبعة أيام حتى كان الجيش كله قد مر عليه بسلام . ورأى أحد الأهليين هذا المنظر العجيب فأيقن أن خشيارشأى هو زيوس بعينه ، وسأل كيف يكلف رب الآلهة والبشر نفسه عناء فتح بلاد اليونان الصغيرة ، وهو الذى يستطيع أن يدمر هذه الأمة المتعاطمة بصاعقة واحدة^(٩) .

وزحف الجيش سرا مجتازاً تراقية ثم نزل إلى مقدونية وتساليا بينما كان الأسطول الفارسى يلزم الساحل يتجنب عواطف بحر إيجه بالسير جنوباً مجتازاً قناة حفرها رجال مسخرون ، ثم قطع من برزخ جبل أثوس مسافة يبلغ طولها ميلاً وربع ميل . ومن القصص المتواترة أنه كلما أكل الجيش وجبتين حل الخراب التام بالمدينة التى تطعمه ، وأنفقت ثاسوس أربعائة وزنة من الفضة (أى نحو ثلاثين مليون ريال أمريكى) لإطعام جيش خشيارشأى يوماً واحداً^(١٠) . واستسلمت مدن اليونان الشمالية الممتدة إلى حدود أتكيا إما خوفاً من الغزاة وإما طمعاً فى الرشا الضخمة التى كانوا يوزعونها على الأعداء ، وانضمت جيوشها إلى جحافل خشيارشأى ، ولم تستعد للقتال من مدن الشمال إلا بلاتيا وثسبيا .

الفصل الرابع

سلاميس

كيف نستطيع أن نتصور في هذه الأيام ما استولى على ايونان الجنوب من هول وفزع حينما اقترب منهم هذا السيل الجارف المتبايل الألسنة الذى لا يبقى ولا ينبر ؟ لقد بدا لهم أن مقاومته حق وجنون ، لأن الدول التى ظلت موالية للقضية اليونانية لم يكن فى وسعها أن تحشد معشار قوة خشيارشاى ؛ وعملت أثينة واسبارطة للمرة الأولى معا وتعاونتا معاونة صادقة ، وأرسلتا الوفود مسرعة إلى كل مدينة فى البلوبونيز تتلمس العتاد والرجال ، وأجابتها معظم الدول إلى ما طلبت ؛ ولكن أرجوس رفضت الرجاء ورضيت بما أصابها من مذلة . وجهزت أثينة أسطولا اتجه إلى الشمال للقاء العمارة الفارسية الضخمة ، وأرسلت اسبارطة قوة صغيرة بقيادة الملك ليونداس لتعطل تقدم خشيارشاى عند ترموبلى . والتقى الأسطولان عند أرتميزيوم Artisium بالقرب من ساحل عوبية الشمال . ولما رأى قواد الأسطول اليونانى ضخامة الأسطول الفارسى فكروا بالانسحاب ، ولكن العوبيين خشوا أن ينزل الفرس فى بلادهم ، فأرسلوا إلى ثمستكايز قائد القسم الأثينى رشوة قدرها ثلاثون وزنة (نحو ١٨٠.٠٠٠ ريال أمريكى) على شريطة أن يقنع قواد اليونان بقتال الأعداء . ونجح ثمستكايز فى إقناعهم بعد أن اقتسم المال معهم^(٢١) . ثم هداه ما يمتاز به من دهاء إلى وسيلة أخرى ظن فيها فائدة ، فأرسل بعض البحارة ليتقشوا على الصخور رسائل إلى اليونان المنضمين إلى الأسطول الفارسى يرجونهم فيها أن يفروا من هذا الأسطول ، فإن كبر عليهم هذا فلا أقل من أن يمتنعوا عن قتال أهلهم وبلادهم . وكان يأمل أن يتأثر الأيونيين بهذه الرسائل إذا رأوها ، وألا يجرؤ خشيارشاى إذا قرأها وأدرك معناها على استخدام

الهيلينيين في المعركة . ودار القتال بين الأسطولين المتعادين طوال النهار ، فلما جن الليل وقف القتال قبل أن يعقد لواء النصر لأحد الفريقين ، وارتد اليونان إلى أرتمزيوم والفرس إلى أفيتي Aphetae . وإذا ما ذكرنا اختلاف القوتين في عدد السفن رأينا أن اليونان كانوا على حق حين حسبوا نتيجة المعركة نصرا لهم على أعدائهم . ولما جاءتهم الأنباء بكارثة ترموبيلي أبحر الجزء الباقي من الأسطول اليوناني نحو الجنوب إلى سلاميس ليصد الغزاة عن أثينة .

وكان في هذه الأثناء قد غلب على أمره عند « الأبواب الحارة » رغم ما أبداه من المقاومة الشديدة التي تعد أروع مقاومة في التاريخ كله . ولم ينتصر عليه أعداؤه بفضل شجاعتهم ، بل انتصروا عليه بخيانة اليونان أنفسهم . ذلك أن بعض اليونان من أهل تراكيس Trachis لم يكتفوا بأن يدلوا خشيارشاي على طريق ملتو طويل فوق الجبال ، بل فعلوا ما هو أدهى من ذلك وأمر ، إذ قادوا الجيش الفارسي من هذا الطريق ليهاجوا الاسبارطيين من الخلف . وقتل في المعركة التي نشبت وقتئذ ليوننداس والثلاثمائة الكبار الذين كانوا معه إلا رجلين ؛ ونقول الكبار لأنه لم يختر معه إلا من كان لهم أبناء حتى لا يكون موتهم سببا في انقراض أمة أسرة اسبارطية . أما الرجلان اللذان لم يقتلا فقد سقط أحدهما في معركة بلاتية ، وشق الثاني نفسه اعتقادا منه أن نجاةه تجلله العار (٢٢) . ويؤكد المؤرخون اليونان أن الفرس خسروا في المعركة عشرين ألفا ، وأن خسارة اليونان لم تزيد على ثلثمائة (٢٣) . وكتب على قبر أولئك الأبطال تلك القبرية المذاعة الصيت : « اذهب أيها الغريب ونبيّ اللسدومنيين أنا نحيا هنا إطاعة لشرائعهم (٢٤) » .

ولما عرف الأثينيون أنه لم يبق أمام الفرس ما يصددهم عن أثينة أعلنوا في المدينة أن من واجب كل أثيني أن يعمل على نجاة أسرته بخير وسيلة يراها . فنهض من فرلى لميجينا ، ومنهم من فرلى سلاميس ، ومنهم من خرج إلى تروزين Troezen ،

وانضم بعض الرجال إلى بحارة الأسطول العائد من أرميزيوم . ويصور لنا أفلو طرخس^(٢٥) صورة رائعة مؤثرة للحيوانات المستأنسة في المدينة وهي تسير خلف أصحابها إلى شاطئ البحر ، حتى إذا ما امتلات السفن بالرجال ولم يبق فيها مكان للحيوانات ملأت الجو بأصواتها . وكان من بينها كلب يملكه أكسانثيوس Xanthippus والد بركليز ، قفز إلى البحر وأخذ يسبح إلى جانب السفينة حتى إذا ما وصل إلى سلاميس مات من فرط الإعياء^(٢٦) . وفي وسعنا أن ندرك ما كان يسود تلك الأيام من احتياج وانفعال ، حتى نذكر أن رجلا من الأثينيين وقف في الجمعية الوطنية يشير بالاستسلام ، فإذ كان من مواطنيه إلا أن قتلوه في التور والساعة ، وأن جماعة من النساء ذهبن إلى بيته ورجعن زوجته وأطفاله بالحجارة حتى يهلكوا^(٢٧) . ولما أقبل خشيارشاي على المدينة ألغاهما خاوية على عروشها أو تكاد ، فأعمل فيها السلب والنهب وأشعل فيها النار

وبعد قليل دخل الأسطول الفارسي المؤلف من اثنتي عشرة سفينة خليج سلاميس ، واستعدت للقائه ثلثمائة سفينة يونانية من ذات الصفوف الثلاثة من المحلفين ، وكانت لا تزال ألويتها معقودة لقواد مختلفين ، وكانت كثرة هؤلاء القواد تعارض في المخاطرة بالاشتباك مع الأسطول الفارسي في معركة فاصلة . وأراد ثمستكليز أن يضطر اليونان إلى القتال اضطراراً ، فلجأ إلى حيلة لو أنها انتهت بفوز الفرس لكان جزاؤه الموت لا محالة . ذلك أنه أرسل إلى خشيارشاي عبداً يثق به يقول له إن اليونان يعزمون الفرار في أثناء الليل ، وإن الفرس لا يستطيعون منع هذا الفرار إلا إذا أحاطوا بالأسطول اليوناني ، وعمل خشيارشاي بالنصيحة . ووجد اليونان في صباح اليوم الثاني أن المسالك كلها قد سدت في وجوههم ، فلم يروا بداً من القتال . وجلس خشيارشاي في أبهة وجلال عند سفح جبل إيجلبوس Aegleus على شاطئ أتكا المقابل لخليج سلاميس يرقب سير القتال ، ويدون أسماء من يبدون من رجاله شعاعة بمنازة . وانتهت

(٣١ - ١ ج - مجلد ٢)

الواقعة بفوز اليونان بفضل براعتهم في أساليب الكر والفر ، وفي ركوب البحار ، وبسبب ما أحدثه في صفوفهم من الخلل واضطراب اختلاف اللغات والعقول ، وكثرة ما لديهم من السفن التي عاقبتهم عن سرعة الحركة . ويقول ديودور إن الغزاة خسروا مائتي سفينة مقابل أربعين خسرهما المدافعون ، ولكننا لا نعرف ما يقوله الفرس أنفسهم عن النتيجة . ولم يقتل من اليونان إلا عدد قليل حتى من رجال السفن التي خسروها ؛ فقد كانوا كلهم بارعين في السباحة ، ولذلك خاضوا الماء حتى وصلوا إلى البر حينما غرقت سفائنهم^(٢٨) . وفرت المراكب الباقية من الأسطول الفارسي إلى مضيق الهلسنت (الدردنيل) ، وأرسل الداهية ثمستكليس عبده مرة أخرى إلى خشيارشاي ليقول له إنه قد أقتع اليونان بعدم اقتفاء أثر الأسطول الفارسي . وترك خشيارشاي ثلثمائة ألف من رجاله بقيادة مردنيوس ، وعاد مع بقية الجيش ذليلاً كبير القلب إلى سرديس ، فوصلها بعد أن مات في الطريق جزء كبير من قوته بالأوبئة والزحار .

وفي العام الذي انتصر فيه اليونان في سلاميس ، نشب القتال بين يونان صقلية والقرطاجينيين في هيميرا Himera - وقد يكون ذلك في نفس اليوم الذي دارت فيه رحى القتال في سلاميس (٢٣ سبتمبر سنة ٤٨٠ ق . م) إذا صدقنا ما يقوله اليونان أنفسهم . ولنا نعرف هل كان فينيقيو أفريقية يعملون بالاتفاق مع من كانوا يؤيدون منهم خشيارشاي ومن أملوا سفنه بكثير من الرجال ؛ وربما كان من المصادفات المحضة أن يجد اليونان أنفسهم يهاجمهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب في وقت واحد^(٢٩) . وتقول الرواية المتواترة إن هملكار قائد العمارة القرطاجنية وصل إلى بنورموس Panormus على رأس ثلاثة آلاف سفينة وثلثمائة جندي ، ومنها سارة محاصرة هيميرا ، وهناك قابله جيلون Gelon السرقوسي ومعه خمسة وخمسون ألف مقاتل . ووقف هملكار بعيداً عن مكان المعركة كمادة قواد الفينيقيين ، وأخذ يحرق القرايين للآلهة ورحى الحرب دائرة ،

ولما تبين أنه مهزوم لا محالة ، ألقى بنفسه في النار . وأقيم له قبر في تلك البقعة نفسها ، وفيها قتل حفيده هملكون Himilcon بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ثلاثة آلاف يوناني انتقاماً منهم بلجندة (٣٠) .

وبعد عام واحد (أغسطس سنة ٤٧٩) تم تحرير بلاد اليونان على أثر معركتين إحداهما بحرية والأخرى برية حدثتا في وقت واحد تقريباً . ذلك أن جيش مردنيوس - وكان يعيش مطمئناً من خبرات البلاد - كان قد ضرب خيامه قرب پلانيه في سهول بوثيه . وهناك اشتبكت معه قوة يونانية قوامها ١١٠.٠٠٠ رجل بقيادة پونياس ملك اسپارطة ، بعد أن ظلت أسبوعين في انتظار فآل طيب يبشر بالنصر . ودارت بينهما معركة كانت أعظم المعارك البرية في هذه الحرب . ولم يكن الجنود الأجانب في جيش الفرس متحمسين للقتال ، وما كادوا يرون الفرقة الفارسية التي تلقت الضربة الأولى من ضربات المهاجمين تنزلزل أقدامها ، حتى ولوا الأدبار ، وانتصر اليونان على الفرس انتصاراً مؤزرأ لم يخسروا فيه (حسب أقوال مؤرخيهم) سوى ١٥٩ رجلاً ، بينما كان عدد القتلى من الجيش الفارسي ٢٦٠.٠٠٠ (*) . وفي اليوم نفسه - كما يؤكد اليونان - التقت عمارة بحرية يونانية بقسم من الأسطول الفارسي أمام شاطئ ميكالي وسط الجزائر الأيونية كلها وملتقى مسالكها ، ونشبت بين الأسطولين معركة تحطمت فيها الأسطول الفارسي ، وتحمرت المدن الأيونية من نير الفرس ، واستعاد اليونان سيطرتهم على الملسين والبسفور ، كما استعادوا هذه السيطرة من طروادة قبل ذلك الوقت بسبعائة عام .

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذه الأرقام التي يذكرها هيرودوت إنما أملتأ عليه فورة من فورات الخيال الوطني . وحاول أفلاطرخس أن يكون نزيهاً في إيراده للحوادث فرغخ خسارة اليونان على ١٣٦٠ ، ونزل ديودور الصقل - وهو الرجل انكريم على الدوام فيما يذكر من الأرقام - بخسارة الفرس إلى ١٠٠.٠٠٠ (٣٢) . ولكن أفلاطرخس وديودور لنفسها كانه من اليونان .

لقد كانت الحرب اليونانية الفارسية أهم حوادث الصراع في تاريخ أوروبا ، ولولاها لما قامت لأوروبا قائمة . فهي التي أتاحت للحضارة الأوربية الفرصة التي أمكنتها من أن تثبت قواعد حياتها الاقتصادية لا تبطل كاهلها جزية أو ضرائب أجنبية ، وأن تنمى نظمها السياسية ، محررة من سيطرة ملوك الشرق . وبفضلها شقت بلاد اليونان لنفسها الطريق لأولى التجارب العظيمة في الحرية ، وحفظت العقل اليوناني ثلثائة عام كاملة من تصوف الشرق الموهن ومذاهب الباطنية ، وضمنت للمغامرات اليونانية حرية البحار . ونهض الأسطول الأثيني أو جزؤه الذي بقى بعد معركة سلاميس ففتح جميع مرافئ البحر المتوسط للتجارة اليونانية ، وهذا التوسع التجارى الذى أصبح بهذه الطريقة ميسراً مأموناً ، أمد أثينة بالثروة التي أمكنتها من أن تنفرع لنشاطها الثقافى من عهد بركليس . يضاف إلى هذا أن انتصار هيلاس الصغيرة على جيوش الفرس الحرارة قد بعث العزة في نفس أهلها وسما بروحهم المعنوية ، فأحسوا بأن الداعى يدعوهم للقيام بجلائل الأعمال اعترافاً منهم بالنعمة التي أنعم عليهم بها . وهكذا دخلت اليونان بعد مئات السنين من الاستعداد والتضحية في عصرها الذهبى المجيد .

(انتهى الجزء الأول)

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على توفيقك ونصلي ونسلم على نبيك الكريم وعلى جميع أنبيائك ورسلك . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثاني من مجلدات قصة الحضارة التي يصدرها الكاتب الأمريكي ول ديوارانت . وهذا المجلد الثاني هو المعروف « بحياة اليونان » ، وقد تمت ترجمته بعون الله ، وسيصدر تباعاً في ثلاثة أجزاء . وقد تمت كذلك ترجمة المجلد الثالث الخاص بحضارة الرومان ، والذي سماه المؤلف « قيصم والمسيح » ، وسيصدر إن شاء الله بعد الفراغ من نشر المجلد الثاني . ولقد بدأنا منذ بضعة شهور ترجمة المجلد الرابع من هذه السلسلة العظيمة ، وهو الذي سماه المؤلف « عهمر الإمبراطور » ، والذي يصل بالقصة إلى العصور الوسطى . ونرجو أن نفرغ من هذه الترجمة قبل أن ينشر المؤلف المجلد الخامس الخاص بعصر النهضة ، والذي يقول إنه سيصدر في عام ١٩٥٥ . فإذا ما مد الله في حياتنا ورزقنا صحة الجسم وراحة البال ، بدأنا ترجمة هذا المجلد عقب صدوره ، فلا يبقى بعد هذا لكي تتم القصة إلا المجلد السادس « عهمر العقل » الذي سيصدر بالإنجليزية في عام ١٩٦٠ . فإذا ما ترجمناه هو الآخر فاعتقادنا أننا نكون قد دينا لهذا الوطن العزيز واللغة العربية حقهما علينا ونكون قد آنا لنا وللمؤلف كما يقول عن نفسه أن نستريح .

هذا والفضل كل الفضل فيما صدر من قبل من هذا الكتاب الحليل الشأن وما سيصدر بعد من مجلداته الستة إلى الإدارة الثقافية في جامعة

الدول العربية فبمعونتها وثقتها ترجمنا ما ترجمناه منها ، ثم إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر التي تولت أعمال الطبع والنشر وتحملت نفقاتهما ، ثم إلى القراء في مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على أجزاء المجلد الأول الخمسة إقبالا كان له أكبر الأثر في تشجيعنا على بذل ما يتطلبه هذا العمل الضخم من جهد ، وتحمل ما يسببه من عناء .

ولقد كانت طريقتنا في الترجمة هي بعينها الطريقة التي اتبعناها في كل ما ترجمناه من قبل ، وهي التقيد التام بالأصل المترجم لم نشذ عنه في شيء ، فلم ننقص منه ولم نزد عليه ، اللهم إلا شروحا وتعليقات قليلة في هوامش الصفحات .

أما تعريب الأعلام فقد اتبعنا فيه نطقها الذي ثبته المؤلف في آخر الكتاب ، عدا أسماء قليلة نطق بها العرب على غير ما ينطق بها الأوروبيون ، كأفلاطون وأرسطو ، وسقراط ، وأسماء أخرى ورد ذكرها في كتب العرب الأقدمين ، وإذا كان قد فاتنا شيء منها في هذا الجزء فرجأونا ألا يفوتنا في الجزأين التاليين ، وزيادة في الدقة قد رأينا أن نثبت أسماء الأشخاص والأماكن حين يرد ذكرها أول مرة بالحروف الإنجليزية حتى يسهل النطق بها على الوجه الصحيح ، وإنا لرحب بكل تنبيه لما عساه أن يكون قد خفى علينا من هذه الأسماء ، ونعد بالاستفادة منه في الأجزاء التالية مع خالص الشكر لأصحابه ، ونرجو ألا يطول انتظار القراء لهذه الأجزاء .

فهرس الجزء الأول من المجلد الثانى

الصفحة	الموضوع
ط	مقدمة الترجمة
١	مقدمة المؤلف
	الكتاب الأول - تمهيد فى حضارة بحر إيجة
٧	أهم الحوادث فى الكتاب الأول مرتبة حسب تواريخها
٩	الباب الأول : كريت
٩	الفصل الأول : البحر الأبيض المتوسط
١٣	الفصل الثانى : كشت كريت اثنى
٢٠	الفصل الثالث : حضارة تستمد من بقاياها
٢٠	١ - النساء والرجال
٢٤	٢ - المجتمع
٢٨	٣ - الدين
٣١	٤ - العقافة
٤٢	الفصل الرابع : سقوط كنوس
٤٩	الباب الثانى : قبل أجمنون
٤٩	الفصل الأول : ثليان
٥٥	الفصل الثانى : قصور الملوك
٦١	الفصل الثالث : الحضارة الميسينية
٦٧	الفصل الرابع : طراودة
٧٥	الباب الثالث : عصر الأبطال
٧٥	الفصل الأول : الآخيون
٧٧	الفصل لثانى : خرافات الأبطال
٨٦	الفصل الثالث : الحضارة الهوسرية
٨٦	١ - المال
٩٢	٢ - الأخلاق
٩٧	٣ - الرجال والنساء

الموضوع	الصفحة
٤ - الفنون	١٠٠
٥ - الدولة	١٠٢
الفصل الرابع : حصار طراودة	١٠٥
الفصل الخامس : العودة إلى الوطن	١١٢
الفصل السادس : فتح اندوريين	١١٨

الكتاب الثاني - نهضة بلاد اليونان

أهم الحوادث في الكتاب الثاني مرتبة حسب تواريخها ١٢٥

الباب الرابع : اسبارطة

١٢٩	الفصل الأول : البيئة المحيطة ببلاد اليونان
١٣٥	الفصل الثاني : أرجوس
١٣٩	الفصل الثالث : لكونيا
١٣٩	١ - توسع اسبارطة
١٤٢	٢ - عصر اسبارطة الذهبى
١٤٧	٣ - ليقسورغ
١٤٩	٤ - دستور لسديمونيا
١٥٣	٥ - القانون الاسبارطى
١٦١	٦ - ما لاسبارطة وما عليها
١٦٥	الفصل الرابع : الدول الميسينية
١٦٨	الفصل الخامس : كورفثة
١٧٣	الفصل السادس : مجارا
١٧٩	الفصل السابع : لميجينا ، إيدورس

الباب الخامس : أثينة

١٨٣	الفصل الأول : بروتية هزيود
١٩٣	الفصل الثاني : دلى
١٩٦	الفصل الثالث : الدول الصغرى
٢٠٠	الفصل الرابع : أتكا
٢٠٠	١ - ما حول أثينة
٢٠٣	٢ - أثينة في عهدا الأجركى
٢٠٩	٣ - الثورة الص لونية
٢٢٠	٤ - دكتاتورية بيستراتس
٢٢٦	٥ - قيام الديمقراطية

٢٣٣

الباب السادس : الهجرة الكبرى

٢٣٣	الفصل الأول : أسبابها وسائلها
٢٣٨	الفصل الثاني : السكندرية الأثرية
٢٤٥	الفصل الثالث : الفيض الدور
٤٧	الفصل الرابع : الاثنتا عشرة مدينة الأيونية
٢٤٧	١ - ميليتس والمطن الأول للفلسفة اليونانية
٢٥٨	٢ - بوليبيدس السامسي
٢٦١	٣ - هرقلطس الإفوسسي
٢٦٩	٤ - أنكريون السامسي
٢٧٢	٥ - طشوز ، أزير ، فسياس
٢٧٦	الفصل الخامس : سافو السامية
٢٨٤	الفصل السادس : الإمبراطورية اشغالية

٢٨٩

الباب السابع : اليونان في الغرب

٢٨٩	الفصل الأول : السيارين
٢٩٣	الفصل الثاني : فيثاغورس الكرتوني
٣٠٢	الفصل الثالث : زيفانيز الإيلاتي
٣٠٥	الفصل الرابع : من إيطاليا إلى أسبانيا
٣٠٨	الفصل الخامس : صقلية
٣١٥	الفصل السادس : اليونان في أفريقية

٣١٧

الباب الثامن : آلهة اليونان

٣١٧	الفصل الأول : أصل الشرك
٣٢١	الفصل الثاني : سجل الآلهة
٣٢١	١ - الآلهة الصغرى
٣٢٧	٢ - الآلهة الأولمبية
٣٤١	الفصل الثالث : أسرار خافية
٣٤٨	الفصل الرابع : العبادات
٣٥٤	الفصل الخامس : الخرافات
٣٥٨	الفصل السادس : المتنشئون والمتنبئون
٣٦١	الفصل السابع : الأعماد
٣٦٥	الفصل الثامن : الدين والأخلاق

الموضوع	الصفحة
الباب التاسع : الضافة المشتركة لبلاد اليونان في عهد الميكر	٣٦٨
الفصل الأول : فردية الدولة	٣٦٨
الفصل الثاني : الكتابة والقرعة	٣٧١
الفصل الثالث : الأدب	٣٧٧
الفصل الرابع : الألعاب	٣٨٥
الفصل الخامس : الفنون	٣٩٦
١ - المزهريات	٣٩٨
٢ - البيت	٤٠٣
٣ - اعمارة	٤٠٨
٤ - الموسيقى والرقص	٤١٣
٥ - نشأة الفتح	٤٢٠
الفصل السادس : نظرة إلى الماضي	٤٢٥
الباب العاشر : الكفاح في سبيل الحرية	٤٢٧
الفصل الأول : مرثون	٤٢٧
الفصل الثاني : أستيديز وتمتلكيز	٤٢٧
الفصل الثالث : خشيادشاي وأخشويرش	٤٣٤
الفصل الرابع : سلاميس	٤٣٧

فهرس الاشكال والصور

شكل ١	هيجيا إلهة الصحة	في أول الكتاب
٢ »	الساقي	أمام صفحة ٣٢
٣ »	الإلهة الأفعى	٣٢ » »
٤ »	مظلم على جدا وعرش مينس	٤٠ » »
٥ »	كأس من فافيه	٨٨ » »
٦ »	قناع أجمنون	٨٨ » »
٧ »	سارب	١٠٠ » »
٨ »	ملهى أيدروس	١٧٨ » »
٩ »	ملهى بوسيدن في بيسم	١٨٤ » »
١٠ »	مزهريه عليها نقش يمثل أثينا وهرقل	٢٢٠ » »
١١ »	مزهريه بو ثلند	٢٢٢ » »
١٢ »	مزهريه فرانسا	٢٢٢ » »
١٣ »	عذراء	٢٤٨ » »
١٤ »	أبل	٢٤٨ » »
١٥ »	بركلز	٢٨٤ » »
١٦ »	أبيتور	٢٨٤ » »
١٧ »	أرفيوس ، ويورديز ، وهرمس	٣٤٠ » »
١٨ »	مولد أفرديتي	٣٥٢ » »
١٩ »	عرش لديفيز (القاعدة اليمنى)	٣٦٠ » »
٢٠ »	عرش لديفيز (القاعدة اليسرى)	٣٦٠ » »
٢١ »	الدياد منس	٣٨٠ » »
٢٢ »	أيلو قاتل الحظايا	٣٨٠ » »
٢٣ »	قاذف لانس	٤٠٠ » »